

مكتبة الأسرة
الأعمال الفكرية

الطبعة الرابعة
٢٠٠٤



د. حسين مؤنس

معالم تاريخ المغرب والأندلس



معالم تاريخ المغرب والأندلس

تأليف
د. حسين مؤنس

تقديم للطبعة الجديدة

عندما كتبت هذا الكتاب كان هدفي الأساسي خدمة الطالب الجامعي العربي ، لأن تاريخ المغرب والأندلس مقرر على طلبة كليات الآداب في كل بلادنا العربية والإسلامية ، وعندما كتبته وقفت في تاريخ المغرب عند نهاية الدولة الموحدية ، ولكني كتبت تاريخ الأندلس كله موجزاً طبعاً ، وقمت بعد ذلك بكتابة تاريخ المغرب الإسلامي كاملاً كله في ثلاثة مجلدات ، نشرت في السعودية سنة ١٩٨٨ ، ولهذا لم يعد الأمر يستدعي أن أكمل تاريخ المغرب في هذه الطبعة ، لأن تاريخ المغرب الكبير يسد هذا الفراغ ، ثم إن الطالب العربي لا يحتاج في دراسته إلى أكثر مما في هذا الكتاب ، وأنا أرى أنه كتاب طيب ومفيد ، وقد أقاد الكتاب كثيراً منذ نشره ، وكان ينبغي أن أعيد طبعه من زمن طويل ، فظلت أنتظر الناشر حتى جاء الأخ الكريم عصام رشاد وتفضل بالقيام بهذه الطبعة الجديدة ، وأنا أشكره على ذلك وأرجو له التوفيق .

وسلام على القارئ وأحسن التمنيات له

د . حسين مؤنس

١٩٩٢/١١/١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد :

هذا الكتاب مقدمة في تاريخ المغرب والأندلس - والمغرب ، وهو يشمل الشمال الإفريقي كله غربي مصر - وتدخل فيه الصحراء الإفريقية الكبرى ، والأندلس وهو شبه جزيرة أيبيريا ، أى ما يعرف اليوم بأسبانيا والبرتغال ، وهما معاً يمثلان ربع عالم الإسلام .

ولا زال المغرب الإسلامى قوياً مباركاً متقدماً إلى يومنا هذا ، عمره - بما في ذلك فترة الفتح - قرابة الأربعة عشر قرناً هجرياً ، وأما الأندلس فقد بدىء في فتحه سنة ٩٢ للهجرة / ٧١١ ميلادية ، وكان خروجه من عالم الإسلام سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، أى أنه عمُر فوق الثمانية قرون هجرية .

ومن هنا كانت صعوبة دراستهما معاً في مادة واحدة من مواد الدراسة الجامعية لأن عدد الدروس المخصصة له على النظام العادى يبلغ ٤٤ درساً ، وعلى نظام المقررات ٣٦ درساً ، وخلال هذه الساعات المحدودات تصعب الإحاطة بتاريخ القطرين معاً ، خاصة وأن دراسة التاريخ اليوم تُعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والفكرى والاقتصادى في المكان الأول .

فمهما بذل الموكَّل بتدريس هذه المادة من جهد فما هو ببالغ شيئاً يذكر ، وغاية ما يتمكن من إعطائه هو التعريف بالبدايات أو بتواريخ بعض الدول والرجال .

وهذا هو الذى حدانى إلى وضع هذا الكتاب .

فإننى رأيت أن كلا المعلم والمتعلم في حاجة إلى كتاب أساسى يكون بين يديه مغطياً تاريخ القطرين في إجمال رشيد ، يمر بالمعالم الرئيسية والمراحل

المتباينة ، ولا يترك شيئاً مما تهم دراسته في الناحيتين السياسية والحضارية دون دراسة متأنية .

فأما بالنسبة للأستاذ فهذا الكتاب بداية .

وأما بالنسبة للمتعليم أو القارئ العادي فهو الغاية والنهاية .

ومن هنا ينطبق عليه المعنى الذى قصد إليه ابن رشد عندما سمي مختصره في الفقه المالكي « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

وهذه هي الفكرة وراء تسمية « كتاب الأساس » التى أطلقناها على هذا الكتاب ، وما قد يستجد بعده في مواد أخرى ، إذا قبل الناس الفكرة وشاءوا توسيع مداها .

ذلك أن الكتاب ، سواء أكان عاماً أم جامعياً أم دراسياً ، يعتبر اليوم مشكلة من مشاكل الثقافة العريضة المعاصرة ، وفيما يتصل بالكتاب العلمى أى الكتاب الذى يؤلف في مادة معينة نلاحظ اضطراباً واسع المدى فهناك كتب كثيرة جداً تخلو من المنهج والطريقة والمادة السليمة المستقصية ، وإنما هو كلام مرسل ومقسم إلى فصول متوالية ، دون تفريق بين مهم وغير مهم ، ودون عناية بذكر مراجع رجع إليها المؤلف حقاً ، وفي معظم الحالات يخلو الكتاب من كشف اعلام ونادراً ما يكون هذا الكشف دقيقاً .

وكتاب الأساس Test Book محاولة لإصلاح ذلك كله .

فهو كتاب يغطى مادته ، ويشرح فصولها شرحاً منطقياً مترابطاً معتمداً على الأصول وأوثق المراجع ، وهو يبدأ بمدخل وصفى في الأصول ، فيعرف بأهمها والرئيسى منها ، ويدل القارئ على تكوينها حتى يتنبه إلى مزاياها وعيوبها ويحسن الاستفادة منها .

ثم تلى ذلك الفصول مقدرة من ناحية الطول والمحتوى تقديراً محكماً سليماً قائماً على معرفة تامة بالمادة في مجموعها .

وإذا كان الكتاب كتاب تاريخ مثل حالتنا هذه ، كان الاتجاه الرئيسى موجهاً

إلى التعرف على مراحل التطور الحضارى ومغازى التجارب السياسية ، وكل معلومة فى الكتاب مستخلصة من قراءات طويلة وصادرة عن فهم ومعاناة للمادة سنـوات طـوال ، ثم ينتهى الكتاب بثبت واف بالأصول والمراجع ، ثم كشف دقيق لأسماء الأعلام ومصطلحات الحضارة بالإضافة إلى فهرس مواد الكتاب .

وقد قسمنا كتابنا هذا قسمين ، جعلنا الأول منهما للمغرب ، وقد قدرنا أن نقف به عند نهاية الدولة الموحدية ، لأن ما وراء ذلك من تاريخ دول بنى مرين ومن عاصرهم من الزناتيين والحفصيين ثم العصر التركى ، كل ذلك أدخل فى التاريخ الحديث ، ثم إن عرضه على شرط الإيجاز الشامل لا يتيسر .

وأما الأندلس فهو تجربة تاريخية حضارية إسلامية كاملة لها بداية ونهاية ، والأندلس الإسلامى هو الوحيد من دول الإسلام الذى نملك له شهادة ميلاد وشهادة وفاة ، ولهذا فقد رأينا أن نستوفى تاريخه كله على سبيل الاختصار ، خاصة وأن القارئ العادى مشوق دائماً إلى معرفة ما جرى للأندلس وكيف ضاع ، ومن غريب المصادفات أن الأندلس أنشأ مجموعة من أجمل روائع الفن الإسلامى فى فترة الضياع .

وكان الذين كتب لهم الحظ السئ أن ينتهى أمر الأندلس على أيديهم وجدوا أن خير ما يكفرون به عن أخطائهم هو هذا الأثر الجميل - الحمراء - فبنوه وتركوه كأنه إمضاء وقعه صانع ماهر فى نهاية عمل فنى عظيم صنعه يده .

وكما قدمنا للمغرب بمقدمة جغرافية تضع مسرح الحوادث أمام المطالع ليعرف كيف يتتبع الحوادث ، ثم مقدمة بيبولوجرافية مفصلة فكذلك فعلنا مع الأندلس ، فله مدخله الجغرافى ومقدمته البيبلوغرافية .

والمراجع العامة آخر الكتاب تشمل المغرب والأندلس جميعاً ، لأن مراجعهما على الجملة واحدة .

وبعد ، فهذا هو كتاب الأساس فى مادة المغرب والأندلس . إنه نقطة بداية ودليل لتوجيه التدريس بالنسبة لمن يتولى مهمة التدريس ، وهو القدر المعقول

فأمامه ثبت المراجع يفتح أمامه الباب ليمضى إلى حيث يريد من العلم بالمغرب والأندلس .

وهو بالنسبة للقارئ العادى مرجع يستطيع الاعتماد على مادته إذا اجتاحته الرغبة فى الاطلاع إلى معرفة شىء عن المغرب والأندلس من مرجع يمكنه الاعتماد عليه .

والطالب الجامعى مرجو أن يقرأ هذا الكتاب كله ، فإن الإحاطة بالموضوع فى جملته تعين على إدراك تفاصيله .

ويسترشد الطالب بعد ذلك بما يوجهه إليه أستاذه من الفصول ، فهو شيخه ورائده ولا تستقيم الدراسة بغير شيخ أو أستاذ بتعبيرنا الحديث .

وقد زودت الكتاب بثلاث خرائط : واحدة للمغرب ، والثانية للأندلس ، والثالثة لصقلية .

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أوجه الشكر الخالص إلى أخى الدكتور رؤوف سلامه موسى صاحب دار المستقبل للنشر لتبني فكرة كتاب الأساس وتفضله برعايته .

وأشكر الاخ الاستاذ مصطفى الشهابى على تجشمه مشاق مراجعة الأصل وتصحيح تجارب الطبع وعمل كشاف الكتاب .

والله سبحانه أسأل التوفيق فى البداية والنهاية ، إنه على كل فضل مستعان .

د . حسين مؤنس

الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

صفر ١٤٠٠ هـ / يناير ١٩٨٠

القسم
الأول

المغرب

من قبيل الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الموحدين

مدخل بيبلوغرافى أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامى

الموارد :

هى المادة التاريخية التى يعتمد عليها المؤرخ فى التعرف على تاريخ أى عصر أو إقليم أو شخص أو حادث تاريخى يريد الكتابة فيه .

وتنقسم هذه الموارد عادة إلى ثلاثة أقسام : أصول ، ومصادر ، ومراجع .

١- **فأما الأصول :** فهى الموارد الأولية التى يعتمد عليها أساسا فى بحثه . ويراد بها الكتابات والوثائق التى ترجع إلى عصر الموضوع أو إلى أقرب الأزمان إليه ، وهى إما مكتوبة مثل المذكرات وتراجم المعاصرين وكتابات أهل العصر ، والوثائق الرسمية والخطابات الشخصية والخرائط وصحافة العصر والنقوش على المباني ، سواء أكانت كتابات أو رسوماً أو أشكالاً ذات مغزى تاريخى ، وكذلك قطع العملة وما عليها من كتابة ، أو غير مكتوبة مثل الكهوف والآثار والمباني والمنشآت والتماثيل والقبور وما إليها سواء كانت مكتوبة أم تحمل كتابات ونقوشاً أو صامته ، قيمتها التاريخية فى عمارتها وأشكالها وصنعتها والمادة الخام التى صنعت منها ، ويتصل بذلك الكهوف ، ما يعثر عليه فيها من مخلقات وما يوجد على جدرانها من نقوش .

٢- **وأما المصادر :** فهى الكتابات التى اعتمدت على الأصول وكتبت فى العصور الماضية ، كالمؤلفات التاريخية القديمة وكتب الحوليات وكتب التراجم وكتب المختارات التاريخية والأدبية ، وكتب الجغرافية القديمة والحسبة والكتب المؤلفة عن العملة وأدلتها والمسكوكات ذات القيمة التاريخية التى تسمى - Me - Medals وdailles وأدلتها وأدلة المتاحف وما جرى مجرى ذلك كله .

٣- وأما المراجع : فيراد بها المؤلفات الحديثة ، أى التى ألفت فى العصر الحديث عن الأحداث الماضية من أبحاث ودراسات منشورة وغير منشورة ورسائل وكتب جامعية وتراجم ومقالات وأبحاث نشرت فى مجالات علمية ، سواء أكانت بالعربية أو بأية لغة أخرى ، وتدخل فى هذه الإحصائيات والمطبوعات الحكومية الرسمية ومنشورات الهيئات العامة والأعمال الأدبية التى تتناول العصر موضوع البحث أو تشير إليه سواء أكانت منشورة أم مخطوطة . ونقتصر فى هذه المقدمة على موارد تاريخ المغرب أى الشمال الإفريقى فيما عدا مصر ، أما موارد تاريخ الأندلس فسنخصص لها مدخلاً خاصاً بها .

والموارد التى بين أيدينا كثيرة عن المغرب الإسلامى ، أى بلاد برقة وطرابلس وأفريقية والمغربين الأوسط والأقصى والأندلس وصقلية والحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط وما فيهما من جزر ، وكذلك أفريقية المدارية والاستوائية الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وبعضها مؤلفات متأخرة كتبت فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين أو بعدهما) ، ولكنها حفظت لنا قطعاً كبيرة من مؤلفات قديمة لم نعثر عليها بعد ، وهنا تكمن أهمية تلك الكتب التى كتبت فى العصور المتأخرة ، ثم إن مؤلفيها من أمثال المقرئ وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون من أهل الثقة والتحقيق والأمانة ، ومن هنا فإن تأخر زمان هذه الكتب لا يمنع من القول أن الكثير منها موضع ثقة كبيرة ، أى أننا نستطيع أن نطمئن إلى أن مؤلفيها اعتمدوا على أصول وروايات قديمة كما قلنا ، كما أنها تضم الكثير من أصول التاريخ المغربى والأندلسى التى تعتبر إلى الآن فى حكم المفقودة . ولكن أولئك الجماعين المتأخرين زمنناً احتفظوا لنا بأجزاء كبيرة منها ، بل إن بعض هذه الكتب المتأخرة احتفظت لنا بنصوص كاملة لكتب أساسية لم نعثر على أصولها . وجدير بالذكر أن جانباً كبيراً من أصول التاريخ المغربى والأندلسى لا زال مخطوطاً ينتظر التحقيق والنشر العلميين .

الأصول :

وترجع أصول تاريخ المغرب التى بين أيدينا إلى أربع روايات :

(أ) رواية أندلسية : ترجع إلى أحمد بن محمد الرازي عميد مؤرخي الأندلس المتوفى (٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) وأكملها من بعده ابنه عيسى بن أحمد الرازي (٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) . وتضم الكتب التي بين أيدينا فقرات طويلة أو قصيرة من تاريخ الرازي الذي فقد الجانب الأكبر منه ولم نعث إلا على قطعة واحدة طويلة من هذا التاريخ مترجمة إلى اللغة البرتغالية نشرها العالم البرتغالي لويس ليندلي ثنتر Luis Lindley Cintra ضمن تاريخ إسبانيا العام الذي كتب سنة ١٣٤٤م باللغة البرتغالية ، وترجمها إلى الإسبانية رجل برتغالي بالاشتراك مع مترجم أندلسي برتغالي يسمى الأستاذ أو المعلم محمد Maese Mohammed وقد نشر تلك الترجمة الإسبانية الركيكة بسكوال دي جايجانجوس Pascual de Gayangos بعد أن بذل جهداً شاقاً في تصحيحها ، ولكنها بقيت بعد ذلك قلقة الأسلوب عسيرة على الفهم بسبب تعذر حل رموزها ، ولكنها أصبحت اليوم مفهومة بعد أن نشر أصلها البرتغالي نشرأ صحيحاً كما قلنا ، وقد ترجمها إلى الفرنسية من البرتغالية ليفي بروغنسال ونشرها مع تعليقات ضافية في « مجلة الأندلس » ، وهذه القطعة تتناول المقدمة الجغرافية التي كتبها الرازي في وصف الأندلس ، وهي مقدمة جيدة حاقلة بالمادة العلمية ، وهي بالإضافة إلى ما تضمنه من معلومات عن الأندلس تعطينا فكرة واضحة عن التقسيم الإداري الأندلسي .

ونجد قطعاً من تاريخ الرازي في كتاب « المقتبس في تاريخ الأندلس » لأبي مروان حيان بن خلف أعظم مؤرخي الأندلس بعد الرازي وابن ، وقد توفي سنة (٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م) ونجد قطعاً أخرى فيما رواه النويري في الجزء الثاني والعشرين من مخطوطة كتاب « نهاية الأرب » المحفوظة في دار الكتب المصرية ، وابن الأثير في كتابيه « الكامل في التاريخ » و « أسد الغابة » وذلك فيما رواه من أخبار فتح المغرب والأندلس ورجال ذلك الفتح من الصحابة ، ونجد بعض تفاصيل الرواية الأندلسية كذلك فيما رواه أبو عمرو يوسف بن عبد البر النمري في ترجمة عمرو بن العاص وعقبة بن نافع في كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » ونجد كذلك قطعاً كبيرة من تاريخ أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى بن أحمد في كتاب « نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب » لأبي العباس

أحمد المقرئ وهو مؤلف مغربي أصله من تلمسان ثم هاجر إلى الشرق ، وهناك أخذ يتحدث ويؤلف عن الأندلس ، وهو مؤلف جماع صنف كتابه هذا على أساس الجمع والاقتراس من المؤلفات السابقة ، ومن فضائله أنه ينسب مروياته إلى أصحابها في معظم الأحيان مما يدعو إلى الثقة فيما يورد ، ثم ألف بعد ذلك كتاباً شبيهاً بنفح الطيب هو كتاب « أزهار الرياض في أخبار عياض » على نفس الطريقة والاسلوب ، والكتابان يضمنان كثيراً من المادة القيمة في تاريخ المغرب .

(ب) **رواية مغربية** : ترجع إلى محمد بن يوسف الوراق ، وهو قيرواني النشأة هاجر إلى قرطبة واستقر فيها وخدم الخليفة الحكم المستنصر وألف له كتاباً في تاريخ الأندلس وتوفي سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) ، ولم نعثر بعد على هذا الكتاب ، ولكننا نجد قطعاً منه عند أبي عبيد البكري فيما كتب في جغرافية أفريقيا والأندلس ، وعند ابن عذاري المراكشي صاحب كتاب « البيان المغرب » وعند ابن الخطيب في كتابه : « أعلام الأعلام » وعند ابن خلدون في تاريخه ، وفي بعض المراجع الأخرى . وترجع هذه الرواية المغربية كذلك إلى إبراهيم الرقيق المتوفى بعد سنة (٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م) وهو أديب وشاعر قيرواني ظهر في أيام الفاطميين وبنى زيري بن مناد الصنهاجيين الذين خلفوهم ، وكان إلى جانب شاعريته ومعرفته الواسعة بالأدب مؤرخاً صدوقاً يوفق فيما يكتب . وقد عثرنا على قطعة من تاريخه تتناول جزءاً من تاريخ فتح المغرب والأندلس وتمتد إلى أوائل العصر الأغلبى قام بتحقيقها الأستاذ المنجي الكعبي ونشرها في تونس سنة ١٩٦٨ م . ويشك الدكتور محمد الطالبي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة تونس في أصالة هذه القطعة ، ولكننا رغم ذلك نستطيع الاستفادة من مادتها الأصلية .

ونجد قطعاً من تاريخ الرقيق القيرواني عند ابن عذاري وابن الأثير والنويري وابن خلدون .

وهناك رواية مغربية ثانية سنتحدث عنها في كلامنا على كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي .

(جـ) **رواية مصرية** : أثبتتها عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) في كتابه المسمى « فتوح مصر والمغرب والأندلس » الذي

يعتبر من أوثق ما لدينا من الأصول عن تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الولاة. وكانت مصر هي المركز الذي صدر منه الفاتحون إلى المغرب والأندلس، وإليها عاد من عاد منهم ليحدثوا بأخبار ما رأوه، فأصبحت مصر لهذا مصدراً رئيسياً لأخبار الجناح الغربي لمملكة الإسلام، وكان ابن عبد الحكم محدثاً فقيهاً وعالمًا واسع الاطلاع صدوقاً فيما يقول. وقد عني بتدوين ما اتصل به من أخبار فتح مصر والمغرب والأندلس وتاريخها إلى نهاية عصر الولاة، وقد اعتمد ابن عبد الحكم على رواية موثوق فيهم، واجتهد في تحقيق ما وصل إليه من الأخبار على طريقة أهل الحديث، ولا غرابة في ذلك فقد كان هو محدثاً كبيراً وإلى حين قريب كانت روايته هي الرواية الوحيدة الكاملة لأخبار فتوح مصر وأفريقية والمغرب والأندلس.

(د) الرواية الرابعة: وتسمى بالرواية المشرقية وإن كانت في أصلها مصرية مغربية، وقد وجدناها في قسم من كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب إلى ابن قتيبة الدينوري، وقد اجتمع رأي نقاد التاريخ من زمن طويل على أنها ليست جزءاً من صلب الكتاب وإنما هي تفصيل عن فتح المغرب والأندلس وأعمال موسى بن نصير خاصة، بعضها أسطوري الطابع أضيفت إلى الكتاب وقد أثبت راينهاردت دوزي Reinhardt Peter-Ann Dozy وبسكوال دي جايانجوس Pascual De Gayangos ولافونتي الكانتارا Lafunte Aleantara أنها قصص شعبية أدرجها بعض المدونين في كتاباتهم على أنها تاريخ، ثم جاء د. محمود علي مكي فأثبت أن هذا التدوين يرجع إلى رجل من أحفاد موسى بن نصير يسمى معاركاً النصيري، استقر في مصر، واندرج في زمرة أهل العلم فيها، وقال إنه يغلب أن معاركاً كتب كتاباً عن جده وأعماله في أفريقية، ثم أضيفت فصول من هذا الكتاب إلى «كتاب الإمامة والسياسة» فحسبت قطعة منه.

ويدخل في جملة ما نسميه الرواية المشرقية نص أورده محمد بن عبد الوهاب الغساني، الذي أرسله سلطان المغرب إلى ملك إسبانيا سنة ١٥٢٦ م ليفتدي أسرى المغرب في إسبانيا في وصف رحلته المسماة «رحلة الوزير في افتكاك الأسير». وقد جرى هذا السفير في وصف رحلته على طريقة لجأ إليها الكثيرون من

الرحالة ، وهي تضمين الوصف لمحات من التاريخ تناسب السياق ، فأورد نصاً كاملاً عن افتتاح الأندلس اقتبسه عن مؤلف لم يذكر اسمه ، ولكن أسلوبه قريب الشبه من أسلوب القطعة الواردة في كتاب « الإمامة والسياسة » وقد نشرها جيانجوس مترجمة إلى الإنجليزية في كتابه المسمى History of the Mohammedan Dynasties in Spain .

وهذا الكتاب ترجمة إنجليزية للجزء من كتاب « نفح الطيب » لأبي العباس أحمد المقرئ . وقد أضاف جيانجوس إلى الترجمة تعليقات ضافية ذات قيمة علمية ، ومنها ترجمة للرواية التي أوردها محمد بن عبد الوهاب الغساني في كتابه ثم عني بها خوليان ريبيرا Julian Ribera وترجمها إلى الإسبانية وجعل الأصل والترجمة ذيلاً على كتاب « افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطية الذي سنتحدث عنه عند كلامنا عن بيلوغرافية الأندلس . وفي سنة ١٩٤٠ م نشر ألفريد البستاني في مدينة العرايش في المغرب النص الكامل « لرحلة الوزير لافتنك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب الغساني ، وفيه ترد القطعة التي نحن بصددتها الآن .

ویدخل ضمن هذه الرواية الرابعة ما كتبه عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة (٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) في كتاب له مشهور عن تاريخ الأندلس ، وعبد الملك بن حبيب كان عالماً من أعظم ما أنجبت الأندلس من شيوخ الفقه المالكي ، وكان له إلى جانب ذلك ميل إلى التاريخ فاحتقب أثناء دراسته في مصر أخباراً كثيرة قصصية الطابع دونها فيما بعد وتداولها الناس على أنها كتاب في أخبار الأندلس ، وقد عثرنا على قطع من هذا الكتاب أوردها أبو العباس أحمد المقرئ في كتاب « نفح الطيب » ، ووردت أطراف أخرى منه في مصادر كثيرة ، وقد بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة نشرها الدكتور محمود علي مكي في مقاله الأنف الذكر عن « مصر وتاريخ التاريخ في المغرب والأندلس » الذي نشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

كتاب « البيان المغرب في تاريخ ملوك أفريقية والمغرب » وأصوله :

قبل الحرب العالمية الأولى ظهر مخطوط جديد لكتاب « البيان المغرب » ، لأبن

عذارى المراكشى ، وهذا المؤرخ لا زال مجهولاً لنا رغم عظيم ديننا له واشتهار كتابه هذا وقيمته العظيمة ، فكل ما نعرفه عنه هو اسمه على هذه الصورة المنقوصة : ابن عذارى المراكشى ولا صحة لما يذكره البعض من أن اسمه أبو العباس أحمد ، فإننا لم نجد إلى الآن ما يؤيد ذلك ، وقد عاش في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وقد ألف هذا الرجل تاريخاً عاماً للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين ، عثرنا على نصه كله تقريباً ، ونشر الكتاب بتحقيق عدد من جلة العلماء هم : راينهارت دوزى ، جورج كولان ، أمبروزيو أويتى ومحمد بن تاويت التطوانى ، وكان أول من نبه على أهمية كتاب ابن عذارى هو المستشرق الهولندى راينهارت بيتر آن دوزى ، فنشر في منتصف القرن الماضى الجزء الأول ويتناول تاريخ المغرب إلى نهاية الفاطميين في المغرب ، والجزء الثانى ويتناول تاريخ الأندلس إلى نهاية أيام المنصور محمد بن أبى عامر .

وقد وضع دوزى بهذا العمل أساساً مكيناً لتاريخ المغرب الإسلامى ، ومن ذلك الحين أصبح من أهم ما نعتمد عليه في التاريخ للمغرب والأندلس ، وقد كان أهم ما اعتمد عليه دوزى في كتاب « تاريخ مسلمى إسبانيا » الذى سنذكره فيما بعد ، وكتاب دوزى هو أول تاريخ علمى يكتب للأندلس في العصور الحديثة .

والميزة الرئيسية لـ « البيان المغرب » أن صاحبه ألفه من قطع جمعها من الأصول التى ذكرناها ، وربط بينها ربطاً زمنياً وأوردها كما هى دون تعليق كثير ، ولكنه قام بعمله في صدق وأمانة ولهذا فنحن ندرج كتابه بين الأصول .

وقد أعاد نشر أربعة أجزاء من تاريخ ابن عذارى الدكتور إحسان عباس في بيروت ، وهذه الأجزاء هى الأول والثانى والثالث وقطعة عن تاريخ المرابطين سماها بالجزء الرابع ، ولكنه لم يعد لجمع الجزء الكبير الخاص بتاريخ الموحدين ، ولا زلنا نعتمد في ذلك على تحقيق أمبروزيو أويتى ومحمد بن تاويت التطوانى .

وعندما ظهر هذان الجزآن في تلك الصورة الكاملة تبين أن ابن عذارى اعتمد على رواية مغربية أصيلة أخرى تختلف عن الرواية الأولى التى سبق أن ذكرناها ،

وتنسب هذه الرواية إلى رجل من معاصري ابن عذارى أى من أهل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى يذكره ابن عذارى باسم الشيخ الصالح . ثم نشر ليفى بروفنسال سنة ١٩٥٣ ، نصاً عظيم القيمة عن فتح العرب لأفريقية وجده ضمن الأوراق التى تؤلف مجموعاً من نصوص شتى متعلقة بتاريخ المغرب كان يملكها هذا المستشرق . ومن تلك النصوص الصفحات العظيمة القيمة التى نشرها نفس المستشرق باسم « مفاخر البربر » فى الرباط سنة ١٩٣٤ وهى قطعة حافلة بالفوائد عن تاريخ البربر المستعربة من أهل المغرب وما لهم من أمجاد ومفاخر . ومن ظهر منهم من عظماء رجال أمة العروبة والإسلام .

وقد كشفت لنا هذه الرواية الجديدة عن فتح العرب للمغرب عن حقيقة الشيخ الصالح الذى ذكرته رواية ابن عذارى الذى ذكرناه ، فاسمحه الكامل أبو على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم نزيل نفيس من قبيلة إيلانه أو هيلانه ، من أعظم قبائل المصامدة الذين أقاموا دولة الموحدين .

وقد تبين من دراسة ذلك النص الخاص بفتح العرب للمغرب أن مؤلفه أبى على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم يورد رواية مغربية أصيلة مأخوذة عن ماثورات شعبية كان أهل جبال الأطلس يتداولونها من قديم الزمان عن الفتح العربى ورجاله وخاصة عقبة بن نافع ، وهو أبعد الفاتحين العرب صيتاً وأعظمهم أثراً فى نفوس جماهير أهل المغرب . وقد درسنا هذه الرواية دراسة شاملة فتبيننا أنها من أكمل وأصح ما لدينا عن فتح المغرب ، وأنها تقدم لنا معلومات فى غاية الدقة والأصالة والأهمية ، ولا تستطرد مع الأساطير وأحاديث الخرافة . كما نجد فى رواية عبد الملك بن حبيب مثلاً . وهى تقدم لنا قصة الفتح منذ البداية إلى نهاية ولاية موسى بن نصير .

وقد حفزننا هذا على أن نعيد قراءة نص ابن عذارى ، وخاصة ما رواه عن الشيخ الصالح أبى على صالح بن أبى صالح بن عبد الحليم بعناية أكثر ، فتبيننا بالفعل أننا أمام رواية مغربية أصيلة تمتاز بالبساطة والصدق والأصالة والشمول ، فهى تقص قصة الفتح الكاملة وترويها بروح إسلامى خالص وبالإضافة إلى ذلك فهى واقعية متوازنة وهى تربط الحوادث بعضها ببعض ربطاً

معقولاً متسلسلاً وتجتهد بين الحين والحين في ربط حوادث المغرب بما كان يجري في مركز الدولة في دمشق . أي أن صاحبها كان عالماً مطلعاً عرف كيف يضع القصة الشعبية في إطار علمي سليم دون أن يفقدها قيمتها . وقد تأكدت لنا أصالة هذه القطعة عندما وجدنا أنها أخذت عن الأصل الذي اعتمده أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري فيما كتبه عن عقبة بن نافع في كتابه « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » .

ولا يعيب هذه القطعة إلا أنها تقف عند نهاية الفتح ، ولكن ربما كانت بقيتها قد اندرجت في نص كتاب « روض القرطاس في تاريخ المغرب وملوك قاس » المنسوب إلى ابن أبي زرع ، الذي يقال أيضاً إن مؤلفه يسمى ابن عبد الحليم . وهذا يسمح لنا بالقول بأن كتاب « روض القرطاس » هو اختصار لتاريخ طويل للمغرب كتبه الشيخ الصالح أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم تزيل نفيس الذي ذكرناه .

هذا عن أصول تاريخ المغرب أي الروايات الأولى التي اعتمد عليها أولئك الذين كتبوا في تاريخ المغرب من القدماء مؤلفات نعتبرها مصادر جديرة بالثقة في ذلك التاريخ .

أما المراجع ما بين عربية وغير عربية فقد أوردنا شيئاً بأهمها في نهاية هذا الكتاب ، لأن موارد تاريخ المغرب والأندلس واحدة تقريباً .



الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي

يشتمل الغرب الإسلامي على البلاد التي دخلها الإسلام وبقي فيها أولم يبق في الجناح الغربي لعالم الإسلام ، وهذه البلاد تنقسم إلى خمس مناطق رئيسية :

١ - المغرب : ويشتمل على بلاد الشمال الأفريقي المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي .

٢ - الحوضان الأوسط والغربي للبحر المتوسط : ويدخل في ذلك كل جزائر البحر المتوسط الواقعة في هذين الحوضين مثل : صقلية وقوصرة وقرسقة والأراضي الأوروبية القريبة منها مثل : جنوب إيطاليا وما قرب منها من الجزائر مثل : مالطة وسردينيا .

٣ - الأندلس : ويراد به الأراضي التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية وتتبعها الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار .

٤ - الصحراء الأفريقية : التي تقع جنوبى المغرب والتي تعد أحياناً جزءاً من المغرب ولكنها في الحقبة الأخيرة قسمت سياسياً إلى جمهوريات مختلفة وظهرت بها بلاد إسلامية لها شأنها مثل : تشاد والنيجر وفولتا وما إليها وكلها تدخل ضمن ما تسميه بالغرب الإسلامي .

٥ - غرب أفريقية الإسلامية : ويدخل في نطاق الغرب الإسلامي البلاد الإسلامية في أفريقية الغربية المدارية والاستوائية ، وتسمى أيضاً بلاد السودان الغربى وهى بلاد لها تاريخ سياسى وحضارى طويل في ظلال الإسلام .

كل هذه النواحي كان ينبغى أن تدرس إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ الجناح الغربى للعالم الإسلامى ، ولكننا نقتصر في حدود ما يسمح به حيز هذا الكتاب على المغرب والأندلس وجزيرة صقلية مع إشارات يسيرة بين الحين والحين إلى تاريخ المسلمين في البحر المتوسط .

ولا بد على هذا من التفريق بين مصطلحي الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي وقد كان القدماء يطلقون لفظ المغرب على ذلك كله ، ولكننا الآن نقصر اسم المغرب على بلاد المغرب المعروفة ، ونطلق اسم الغرب الإسلامي على ما ذكرنا ، وهو مصطلح جديد ابتكره أهل الغرب من الفرنسيين خاصة فقالوا :
L'Occident Musulman .

بلاد المغرب

يطلق مصطلح المغرب كما قلنا على كل البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي . ويختلف المؤرخون العرب في وضع مصر بين شرق العالم الإسلامي وغربه ، فبعضهم يضعها في بلاد الشرق ، وهناك عدد قليل منهم يعتبر مصر من بلاد المغرب ، وهناك خلاف حول حدود مصر الغربية ففي عصور التاريخ الإسلامي خلال العصور الوسطى كان إقليم برقة ، وهو المعروف اليوم باسم بنغازي داخلاً في حدود مصر ، وكذلك كان الحال في العصور القديمة وخاصة في العصر البيزنطي الذي سبق العصر الإسلامي ، وفي أحيان كثيرة نجد أن إقليم برقة يختفى ذكره أحقاباً متطاولة بعد الفتح الإسلامي لأن أحداً لم يؤرخ له في حين أن تاريخ إقليم طرابلس معروف في جملته لأنه دخل ضمن إقليم أفريقية الذي سنتحدث عنه .

ولكن بلاد المغرب كلها تعتبر من ناحية الطبيعة الجغرافية والمناخ إقليماً واحداً له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميز بعضها عن بعض ، وقبل الفتح الإسلامي أي في عصور الإغريق والرومان والبيزنطيين كان المغرب بالمفهوم الذي ذكرناه يعتبر وحدة سياسية واحدة ، وينقسم إلى ولايات . وقبل الفتح الإسلامي بقليل ، أي في أواخر العصر البيزنطي . كان المغرب مقتصرًا في الواقع على ما يعرف اليوم بتونس . وكان يسمى في التقسيم الإداري للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية Provincia Africa أما ما يلي تونس غرباً فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية البيزنطية ، وإن كان

بعض المؤرخين الغربيين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلي على الأقل من بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية . وهذا الشريط الساحلي يمتد من الحدود الغربية لإقليم تونس الحالي إلى المحيط الأطلسي ، وهو يتسع أحياناً ويضيق أحياناً أخرى ، ولكنه في كل حالة ينحصر بين البحر المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً . وهو الذي يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية .

وبلاد المغرب إقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمراني كبير ، وهي تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً ، هي جبال الأطلس ، وهي سلسلة جبال تمتد من جنوبي المملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل (ساحل الأطلسي) شمالاً بشرق ، وإن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر المتوسط جنوبي منطقة الريف ثم تتجه شرقاً لتتلاشى غرب تونس . هذه الجبال تقسم المغرب إلى منطقتين مستعرضتين واضحتين ، تختلف كل منهما عن الأخرى كل الاختلاف . وهذه الجبال تتسع في المغرب الأقصى ويزيد عرضها في جنوبه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الأطلس ، الأولى غربية وتسمى الأطلس العليا والأخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء ، وتحصران بينهما سهل السوس الخصيب كما قلنا ، وهذه الجبال تضم هضاباً عالية ، وهي كلها جبال وهضاب وافرة المياه ولهذا فهي خضراء ومسكونة ، ويسمى ابن خلدون جبال درن وهي تعتبر مركز الحياة ومصدر العنصر البشري القوي الذي كان طول العصور الوسطى مورد القوة البشرية الحقيقية في تاريخ المغرب الأقصى .

أما في الشمال فإن جبال الأطلس تسير محاذية لساحل البحر المتوسط وبينها وبين الشاطئ شريط ساحلي سهل يضيق أحياناً ويتسع أحياناً أخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال الأطلس ، ويعتبران معاً منطقة واحدة .

ومناخ هذه المنطقة الشمالية مناخ البحر المتوسط ، وهي تسمى بشريطها - السهل الساحلي والسفوح الشمالية لجبال الأطلس - بمنطقة التلؤل ، ويسمى ابن خلدون مناخها بمزاج التلؤل ، أي مناخ البحر المتوسط ، أما المنطقة الثانية

الجنوبية التي تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس وتطابق الجريد ثم نطاق العروق ، أي الرمال السائلة فيسميها ابن خلدون ببلاد الصحراء ويسمى مناخها بمزاج الصحراء ، وهي منطقة أقل ثروة وسكاناً من المنطقة الشمالية .

وببلاد المغرب في مجموعها بلاد غنية إلى حد ما ، فيها موارد وافرة للثروة والحياة ، ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طويلين لتؤتي ثمارها ، لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء ، ولهذا فمن الممكن استغلالها استغلالاً جيداً ، ومواردها تمكن من قيام دول كبرى وحضارات زاهرة فيها ، وسنلاحظ أنه في العصور التي هدأت فيها الأحوال قامت في المغرب دول عظيمة وقوية لها تاريخ مجيد ودور كبير في تاريخ العالم الإسلامي جملة .

وفي العصور الإسلامية تعود المؤرخون أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التي سنذكرها من الشرق إلى الغرب .

إقليم برقة ثم إقليم طرابلس ومن هذين الإقليمين مضافاً إليهما إقليم فزان ، تتكون الجمهورية الليبية حالياً .

وقد كان هذان الإقليمان منفصل أحدهما عن الآخر سياسياً خلال العصور الإسلامية ، فكانت برقة إما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية . أما طرابلس فكانت تدخل في نطاق ما كان يعرف باسم بلاد أفريقية ، وليس في ذلك ما يمس وحدة القطر الليبي وأصالته التاريخية ، فإن الكثير من أوطان العرب الراهنة تتألف من أجزاء كان لكل منها تاريخ أو اتجاه مستقل في الماضي ، أي قبل تحقيق وحدة ذلك الوطن في العصر الحديث .

وتلى ذلك غرباً بلاد أفريقية ، وكانت في العصور الوسطى تشمل إقليم طرابلس من تاورغا قرب صرت على ساحل البحر المتوسط إلى صيرة ثم إقليم أفريقية وهو يقابل تونس الحالية ثم تمتد أفريقية فتشمل الجزء الشرقي من الجمهورية الجزائرية حالياً حتى نهر صغير يسمى شلف وهو يجري هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوبى مدينة الجزائر ، ثم يسير غرباً بحذاء الساحل ويصب في البحر المتوسط قرب وهران ، وهذا الجزء الشرقي من بلاد الجزائر الحالية كان يسمى إقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية .

بعد ذلك هناك المغرب الأوسط ويمتد من مجرى نهر شلف حتى مجرى نهر
يجرى حالياً في شرق المملكة المغربية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ،
يسمى نهر مولوية . والمغرب الأوسط يشمل اليوم معظم الجمهورية الجزائرية
وهو إقليم هضاب وجبال وسهول ساحلية والأراضي الزراعية فيه كثيرة لأن
الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشة كما يقول العرب ثم إنه قطر معتدل
المناخ لارتفاعه ، كثير الغابات والمراعي ، وإلى هذا يرجع ما يتصف به أهله من
صحة وعافية واحتمال للمصاعب وحب للحرية .

وينقسم هذا المغرب الأوسط تاريخياً إلى قسمين : شرقي ويسمى إقليم
تاهرت ويتميز بالجبال والغابات ، وغربي يسمى إقليم تلمسان ويتميز بالمراعي
والسهول . ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقه العمرانية ذات الشخصية التاريخية
المتميزة مثل إقليم القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية وسهل المتيجة جنوبي
مدينة الجزائر وإقليم السيق السهل الساحلي جنوبي وهران وأقاليم البابور
والبيبان والجرجرة والونشريس وكلها أقاليم جبلية وعرة ، وإقليم الحضنة وهو
إقليم جريد أي غابات نخيل يتوسطه شط الجريد وإقليم الهقار أو الهجار في
الجنوب وهو إقليم صحراوي .

أما إقليم تلمسان فيتميز بجباله وسهوله ومراعيه الواسعة ، وقد كانت
تلمسان دائماً مركزاً حضارياً وقاعدة علمية ، وقد قامت تلمسان العربية على
أصل حصن روماني قديم يسمى بوماريا .

ويلى ذلك غرباً المغرب الأقصى الذي يعرف اليوم بالمملكة المغربية ، ويشمل
جبال الأطلس المتهيلة التي تحدثنا عنها ، ويضم كذلك سلسلة من السهول
الساحلية بين الجبال وساحل المحيط الأطلسي ، وقد ذكرناها وتشق هذه
السهول أنهار أو وديان تنحدر من جبال الأطلس غرباً إلى المحيط وهي من
الشمال إلى الجنوب وادي لوكس ويصب عند مدينة العرائش ووادي سبو بفروعه
الكثيرة وقواعده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادي أبو الرقراق أو يورجرج
وهو نهر مزدوج يصب في البحر بمصب واحد ، وعلى ضفته الشرقية عند المصب
مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح ، وهما مدينتان توأم ، ثم وادي

أم الربيع ، وقرب مصبه تقع مدينة أزموور ثم وادي تانسيفت وتقع على أحد قروعه مدينة مراكش ، ثم وادي السوس الذي يجري في إقليم السوس القنى ، وهو إقليم ذو هيئة مثلثة ينحصر بين فرعى جبال الأطلس والمحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنه تارودانت وأغادير ثم وادي درعه في أقصى الجنوب . وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب .

وبلاد المغرب في مجموعها بلاد مشرقية زاهرة ذات جمال فريد يتجلى في أجمل صورة في مناطق الجبال التى تتغطى بالثلوج في الشتاء ، ومن هنا فقد قيل إن بلاد المغرب هي سويسرا العرب .

سكان المغرب :

سكان المغرب يعرفون من أقدم العصور بالبربر ، ولفظ بربر لا علاقة له هنا بلون البشرة ، وإنما هو لفظ إغريقى كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية ، فقد كانوا يسمونهم بارباروى . أما العرب فعلى عادتهم يحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً لكل لفظ أو علم جغرافى ، فيقولون إن البربر من أولاد مهاجر عربى من حمير يسمى بر بن قيس ، ويقال إن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس فسمها بربرية وسمى الناس الذين يتكلمون بها بالبربر ، أما الحقيقة فهي أن البربر شعب أفريقى سكن هذه البلاد من أقدم العصور . واليونان هم الذين سموه بالبربر ، وعندهم أخذ اللاتين ثم العرب هذه التسمية ، أما البربر أنفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية ، بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم .

وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضارى :

١ - البربر البدو ، ويسمون بالبر .

٢ - البربر الحضر ويسمون بالبرانس .

فأما البربر الحضر أى البرانس فأصلهم من سكان البحر المتوسط وهم يسكنون بصفة عامة الشريط الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس وهم

يشبهون في ملامحهم سكان الأندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر
بينهم شقرة الشعور وبياض اللون وزرقة العيون وخاصة بين أهالي الجبال .

هذا الفرع الكبير من البربر هو أصل البربر وهم الأقوام الذين سكنوا هذه
البلاد منذ أقدم العصور ، أما قريق البربر الآخر ، وهم البر فهم جدد نسبياً
أقبلوا من الجنوب وفي الغالب من الجنوب الغربي من قلب القارة الأفريقية عن
طريق وادي النيل وقد نزلوا أولاً إقليم برقة ثم انتشروا غرباً وهم جنس أفريقي
أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين ، ومن اختلاطهما نشأ الجنس البربري
الذي استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح من أمم العروبة ، وهو يجمع في
تكوينه خصائص الأصول الثلاثة التي تكون منها .

عاش البربر في بلادهم هذه قروناً متطاولة قبل الفتح الإسلامي ولهم تاريخ
وحروب مع الإغريق والرومان خاصة ، ودارت حروب طويلة بين بعض
جماعاتهم والرومان ، وظهر من بينهم أبطال قوميون مثل جويا وماسينيسا
الذي يسميه العرب ماكسن ، ولكن كل علاقة الرومان وبعدهم الروم
أو البيزنطيون كانت مع بربر الساحل والسفوح الشمالية للأطلس ، ونادراً ما
توغل الرومان إلى دواخل البلاد ، فيما عدا إقليم أفريقية (تونس) وهو سهل
فسيح كما نعلم ، يرويه نهر كبير نسبياً هو نهر مجردة فهنا أوغل الرومان ثم
الروم في الداخل كما سنذكر .

وأول من دخل في بلاد المغرب وَجَرُّوْا على اقتحام جبال الأطلس وما يليها
جنوباً هم العرب ، ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما
دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون قبائل قريبة الشبه من
قبائلهم العربية في تنظيمها وأحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلي . وإن
كانت تختلف عنها في المستوى الحضاري ، كان البربر عندما لقيهم العرب
يعيشون قبائل بدوية على الفطرة وإن كانت متماسكة ولها نظام اجتماعي قويم ،
وهذه القبائل البربرية كما قلنا تنقسم إلى قبائل بترية بدوية أو نصف بدوية ،
وقبائل برنسية حضرية أو نصف حضرية ، وأكبر قبائل البدو وأشهرها زناتة ،

ولهذا غلب عليها هذا الاسم العام رغم تفرعها إلى أجيال وبطون كثيرة ، أما البرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحدة لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه وبطونه وتاريخه . وأشهر جماعاتهم كتامة في شمال شرقي المغرب الأوسط ، وعلى أكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية ، ثم صنهاجة المغرب الأوسط الذين سيشاركون في إقامة الدولة الفاطمية ، وسيقيمون أولى الدول المغربية الإسلامية المستعربة وهما دولتا بنى زيري بن مناد ، ثم صنهاجة الصحراء الذين سيقومون دولة المرابطين ، ثم مصمودة أهل المغرب الأقصى وهم شعب مغربي جليل أقام دولة الموحدين ودولاً أخرى عظيمة الشأن ولهم فروع كبيرة أخرى سنتحدث عنها في مواضعها في هذا التاريخ .

وقد تعلم نسبة البربر من العرب علم النسب ونظموا قبائلهم في شجرات أنساب شبيهة بشجرات الأنساب العربية . ونحن لا نثق كثيراً في شجرات الأنساب هذه كما هو موقفنا من شجرات الأنساب العربية ، ولكننا ندرسها ونفيد منها في فهم تاريخ المغرب وتصاريح أحواله .



المغرب قبيل الفتح الإسلامي

معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الإسلامي تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التي تقابل ما يعرف اليوم بتونس ، وشيء قليل عن بقية سواحل المغرب إلى المحيط الأطلسي .

فيما يتصل ببرقة نجد أنها كانت قبيل الفتح الإسلامي داخلية في زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية ، وهو الذي قام به الإمبراطور مورسيوس (موريق) ، وقد ضمت فيه برقة إلى مصر . وكان اسم برقة قبل الفتح الإسلامي سيريناياكا نسبة إلى مدينة يونانية أنشأها اليونان تسمى سيريني ويكتبها العرب قيرين وأحياناً قوريناء ، وهي بلدة قريبة من مدينة برقة الحالية .

ويسمى إقليم برقة أحياناً أنطابلس وهو تحريف للفظ يوناني هو بنتابوليس Penta-polis أى المدائن الخمس ، وهي مدن صغيرة أنشأها الإغريق في هذا الإقليم ومنها قيرين التي ذكرناها .

ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الإقليم البعيد عنها إلى الغرب لم تكن واضحة في ذلك العصر ، وهو النصف الأول من القرن الميلادي السابع ، فلا ندري إن كان بها عامل للروم أو ممثل لإدارة مصر البيزنطية . وعندما وصل العرب إلى هذه النواحي وجدوا السلطة بيد قبيلتين بربريتين زناتيتين هما لواتة وهوارة ، وهما من قبائل البربر البثر وسيكون لهما شأن كبير في العصور الإسلامية . ويذهب بعض مؤرخي المغرب ومنهم ابن خلدون إلى أن هوارة من البرانس أي البربر الحضرة المستقرين ، وهذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً ، لأن تصرف هوارة كان دائماً مع الزناتيين .

فإذا انتقلنا غرباً إلى إقليم طرابلس ، وأصل هذا اللفظ إغريقي أيضاً معناه المدن الثلاث (ترى بوليس) وجدنا أن الإقليم لم يكن واضح التبعية ، فقد كان في الأصل تابعاً للرومان ثم للروم ، وبعد ذلك لا نعرف إلى أي ناحية سياسية كان

يقبع حينذاك ، وعندما يصل العرب إلى هذه النواحي سيلقون فيه قبيلة بربرية كبيرة هي نفوسة وكان مركزها منطقة جبلية إلى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة . وفي تلك الأيام ، أي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، كانت تلك الجبال جبلاً خضراء عامرة بالقرى والمراعى والناس ، وكانت قبيلة نفوسة لهذا من أقوى وأهم قبائل طرابلس ، وعندما يصل العرب إلى هناك سيكون تعاملهم مع هذه القبيلة . أما فيما يتعلق بإقليم أفريقية فإننا نجده تابعاً للدولة البيزنطية ، فهناك حكم بيزنطي واضح يقوم به عامل الروم يلقب بالطريق Patricius ومعه قوة عسكرية ، والبلاد مقسمة إلى ولايتين كبيرتين : شمالية أي إلى الشمال من موقع القيروان الحالية تقريباً وتمتد إلى البحر ، وتسمى تلك الولاية زويجتانيا ، وهناك كانت العاصمة قرطاجنة ذات التاريخ الطويل . وهناك أيضاً كانت الجالية الرومية متركزة في مدن الساحل من أمثال قرطاجنة وسوسة والمستير والحمامات . ومع تلك الجالية الرومية التي كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من شواطئ أوروبا الجنوبية ، كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة ومفردها أفريقي ، ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والأجناس التي حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب . وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشيء ، فهم حضرة مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة في النادر . وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط ، وكانت المسيحية منتشرة بينهم . وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية والإغريقية . هؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم ، وسيتعامل العرب مع هؤلاء ، وسيكسبونهم إلى الإسلام ، ويختلطون بهم وبالبربر . ومن هذا كله سيتكون سكان أفريقية الإسلامية الذين سنتحدث عنهم .

أما الولاية الجنوبية فتسمى بيزاسينا ، وتقع جنوبي خط مدينة القيروان الحالية ، وهي ولاية مراعي ومزارع ، وفي جنوبها تقع بلاد الجريد أي بلاد النخيل ، وهي واحات وافرّة المياه معظم سكانها من البربر ، ولكن كانت للروم هناك حصون متناثرة ، ومن هنا سمي بعض نواحيها باسم قصطيلية من اللفظ اللاتيني Castella (ومعناه الحصون) . ومدنه الرئيسية قابس على

البحر ، وهي باب أفريقية من الشرق ، وقفصة وتوزر ونفطة وهي عواصم بلاد الجريد التي يتوسطها شط الجريد . وجنوبي بلاد الجريد ، تقع بلاد الساحل ، والمراد بها هنا ساحل الصحراء ، لأن العرب كانوا يرون أن الصحراء هي بحر الرمال ، وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ، ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق في الجغرافية العربية إلا على واحات مصر لأن اللفظ مصرى قديم : واح ومعناه الماء .

جرجوريوس أو جرجير :

قبيل الفتح العربى كان يحكم أفريقية بطريق يسمى جرجوريوس الذى يسميه العرب جرجير ، وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاول الاستقلال عنهم ، ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كان العرب قد أتموا فتح مصر فعلاً . ولم يكن يخطر على باله أن قوة من الجيوش العربية الإسلامية كان يمكن أن تأتى من ناحية الشرق ، ولهذا كان ظنه أنه سيتشبه دولة لنفسه في هذه الناحية ، ولهذا ولكي يحتوى من الروم انسحب إلى الداخل تاركاً العاصمة قرطاجنة وتحصن في بلدة داخلية كان لها حصن منيع تسمى سبيطلة إلى جنوبى القيروان الحالية .

وفي سبيطلة اطمأن ذلك الرجل ، ولكن اطمئنائه لم يدم ، لأنه فوجئ بطلائع العرب تدخل إقليم برقة . أما بقية المغرب فلا نعرف عنها إلا القليل في ذلك الحين وهذا القليل يتعلق بالسواحل حيث كانت مراكز الجاليات الرومية أو اللاتينية وستحدث عنها في مناسباتها .

من الناحية الحضارية كانت أفريقية مركز عمران رومى أى بيزنطى ، وكانت إقليماً عامراً أى فيه مدن كثيرة وأرض مزروعة وموان على الساحل والبلاد عامرة بالحركة . وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقة والجاليات الرومية طبعاً ، أما البربر فلم تدخل المسيحية بينهم بصورة واضحة ، فكانوا على الوثنية ، ولا توجد علاقات ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر . ولهذا سنجد أن العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون تعاملهم مع الروم أولاً ، فلما تغلبوا على مقاومتهم وخلصوا البلاد منهم دخلوا في علاقات مع البربر .

الفتح العربى

فتح برقة وطرابلس :

أتم العرب فتح مصر بمعاهدة الاسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط ، وهناك نجد عمرو بن العاص ذلك الفاتح العظيم ينهض للاستيلاء على برقة في أواخر سنة ٢٢ هـ / أوائل ٦٤٢ م . فسار بنفسه إليها ، ووقع بينه وبين اللواتيين والهوريين قتال قصير ، ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقاً على أن يؤدوا له مبلغاً قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة بصفة جزية ثم عاد إلى مصر . ونفهم من هذا أن برقة كما قلنا كانت جزءاً من أرض أو ولاية مصر فكان فتحها استكمالاً لفتح مصر ، وأن هذه الجزية أو الاتاوة كانت جزءاً من خراج مصر العام .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمراً يقود حملة سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فيفتح إقليم طرابلس ويستولى على قاعدته التي تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضاً ، وكان كل اهتمامه موجهاً إلى التفاهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك ، ثم عاد إلى مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م وكانت هذه هي آخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص ، لأنه عزل بعد ذلك عن ولاية مصر ، نعم إنه عاد مرة أخرى إلى ولاية مصر سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م عقب قيام خلافة معاوية بن أبى سفيان ولكن سنة (عمره) في ولايته الثانية كانت قد علت فلم يقدّم بفتوح ، وعلى أى حال فإن ما قام به هذا الرجل من فتوح في تاريخ الإسلام يضعه في الصف الأول من بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذى فتح فلسطين ومصر ، وهذا الجزء من المغرب ، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحت جيوشها إلى ذلك الحين ، وفي التاريخ الإسلامى لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال هذا التاريخ .

موقعة سببيلة وفتح أفريقية :

كانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات ، وتمت على يد

والى مصر بعد عمرو بن العاص ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى عثمان ابن عفان على مصر بعد عزله عمراً ، والفكرة عن هذا الرجل في كتب التاريخ الإسلامى سيئة بسبب ما كان منه في شبابه الباكر من تصرف غير سليم مع الرسول ﷺ ، وتصرفه هذا يرجع إلى صغر سنه في ذلك الحين . وبعد فتح مكة سعى له أخوه في الرضاع عثمان بن عفان فعفا عنه الرسول ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك ، وعندما أتت له الفرصة في خلافة أخيه عثمان أثبت أنه من خيرة رجال الأجيال الأولى من المسلمين ، وإن كان معاصروه من العرب لم يغفروا له ما كان منه في شبابه الباكر .

سارع عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد استقراره في الفسطاط باستئذان عثمان في المسير لمواصلة فتح المغرب . وبعد تردد أذن له عثمان في ذلك ، فسار بقوة عسكرية من نحو عشرين ألف رجل معظمهم من الفرسان في اتجاه أفريقية . وفي هذا الجيش اشترك نفر كبير من أبناء الصحابة ، والكثيرون منهم يسمون عبد الله ، ولهذا يسمى ذلك الجيش جيش العبدالة . ومن أشهر من سار فيه عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ، وكان في الجيش أيضاً عبد الملك بن مروان ، وكانوا جميعاً شباباً في السن الباكرة ، وكان آباؤهم يشركونهم في الفتوح ، لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثانى من أمة الإسلام ، ففي ميادين القتال كانوا يقتبسون ثقافة العصر وهي الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول وهي القرآن والسنة .

كان ذلك سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ففيها وصلت طلائع الجيش العربى إلى أفريقية . وفوجئ بها جرجير فاستعد للقاء ، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن كثيرين من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الحيين . ونستنتج من هذا أن الكثيرين من أولئك البربر دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت المبكر ، ومن المعروف أن البربر ، مثلهم في ذلك مثل الفرس وأهل الشام ، كانوا من أوائل الشعوب إسلاماً .

ويقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة ألف أو ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وهذا بعيد نظراً للظروف التي ذكرناها ، ولكن لا شك في أن الجيش الرومي كان أضعاف الجيش العربي ، وإن كان معظم العرب فرساناً ، وهذه حقيقة لها أهميتها .

كان اللقاء عند سببلة ، وعلى عاداتهم انتصر العرب على عدوهم ، وقتل جرجير وأسر وقتل الكثير من رجاله ، وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجد أن عبد الله بن سعد يتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر .

وربما كان هذا الرقم خطأ إذ أنه قليل جداً وغير واضح كذلك ، لأننا لم نسمع قبل ذلك أن أخذ العرب أتاة من قوم ثم انصرفوا عنهم ، إنما كانت عاداتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون في دخول الإسلام من أهل البلاد المفتوحة . على أي حال أخذ عبد الله بن سعد هذه الجزية وعاد إلى مصر في أوائل ٢٩ هـ / ٦٤٩ م ولا تغفل هذه العودة السريعة إلا بما نعرف من أن خلافاً حاداً نشب بين عبد الله بن سعد بن أبي سرح وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير ، الذي تزعم الروايات أنه البطل الحقيقي لمعركة سببلة وهو أمر غير صحيح كما رأينا ، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعاً إلى مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأي عمل سياسي أو عسكري أو ينشئ أو يثبت شيئاً من السلطان للعرب على هذه الناحية .

ولكننا نلاحظ على أي حال أن هذه الهزيمة التي أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد ما ، فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك ، لأن ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جداً إذ ذاك نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل ، ونتيجة حاجة الدولة البيزنطية إلى رجال أقوىاء في قلب الدولة ليعيدوا النظام ويثبتوا في وجه الزحف العربي الذي كان يحتاج بلادهم في كل ناحية .

ولم يقم العرب بشيء في أفريقية حتى أيام معاوية بن أبي سفيان ، ولكننا نلاحظ أن نوعاً من الحلف قام بين البربر والعرب ، فمن ناحية اطمأن البربر إلى أن

لهم في العرب حليفاً قوياً يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء في العودة إلى البلاد ، وعلى أي حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو العربي فائدة كبيرة ، فقد استقلوا عن الروم ، ولم يعودوا يؤدون إليهم جزية ، وكانوا يشعرون أن الروم إذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون ، وكل ذلك في صالحهم .

حملة معاوية بن حديج السكوني والقضاء على آمال

الروم في استعادة أفريقية سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م :

شغل العرب عن أفريقية والفتوح عامة بسبب فتنة عثمان ، ثم الحرب الأهلية بين علي ومعاوية . ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، التي تسمى عام الجماعة ، ولو أراد الروم أن يستعيدوا أفريقية خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة ، فقد أرسل الروم بطريقاً جديداً يسمى جناديوس حاول أن يفرض سلطاناً رومياً على أفريقية فعجز عن ذلك ، ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك إلى العرب وذهب إلى الفسطاط أو إلى دمشق فيما يقال ، واستحث معاوية على إتمام فتح أفريقية ، وتلك في الغالب أسطورة . وانهم لدينا أن معاوية أرسل سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م جيشاً يقوده واحد من كبار العثمانيين وهو معاوية بن حديج السكوني . فلما وصل إلى أفريقية وجد أن الروم قد نزلوا البلاد في ميناء سوسة يقودهم قائد يسمى نقفور ، فلما سمع الروم بمجيء العرب أسرعوا إلى سفنهم ، واستولى ابن حديج على بعض المراكز الرومية القوية ، ولكن العرب هذه المرة أيضاً لم يتركوا عاملاً بل انسحبوا إلى مصر . وتعتبر حملة معاوية بن حديج غزوة من الغزوات التمهيدية التي قام بها العرب في المغرب قبل أن يتخذوا قراراً نهائياً بفتح هذه البلاد فتحاً دائماً ثابتاً .

فقد تنبّهت الخلافة الأموية بعد هذه المقدمات إلى أهمية أفريقية وضرورة مواصلة الفتوح فيها ، إذ أنها كانت ميداناً مفتوحاً لا يعترض تقدم العرب فيه مانع كبير . ثم إن كثيراً من البربر كانوا قد أسلموا في ذلك الحين . ولا يستبعد أن يكون الكثيرون من العرب قد تخلفوا في أفريقية لتعليم البربر قواعد الإسلام ، وسنرى مصداقاً لذلك في كلامنا عن عقبة بن نافع الفهري .

وإذا كان معاوية بن حديج قد عاد إلى الفسطاط بعد حملته على أفريقية فلم يكن السبب في ذلك أنه أحس أنه انتهى من واجبه في تلك الجبهة الغربية ، ولكن معناه أن هذا الرجل - وكان واليا على مصر - لم يكن يستطيع الابتعاد عن مركز ولايته زمنا طويلاً ، فهو يغزو ويعود إلى قاعدته في الفسطاط . ولو استمر الحال على ذلك لما تم فتح المغرب أبداً ، لأن الضربات السريعة لا تعتبر فتوحاً ، ولا تنشأ عنها فتوح .

ولكى يبدأ الفتح الجدى المستمر لأفريقية كان لابد لها من وال خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها ، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامى فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام ، وهذا هو ما سيفعله عقبة بن نافع .

ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية

٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

كان في الجيش الأول الذى قاده عمرو بن العاص في فتح برقة وطرابلس قائد يسمى نافع بن عبد القيس الفهرى ، وكان زوج أخت عمرو بن العاص ، فعهد إليه عمرو بعد أن فتح طرابلس في أن يسير بقوة من الجند نحو الجنوب للاستيلاء على إقليم فزان الواقع جنوبى طرابلس على بعد ٨٠٠ كم في الصحراء ففعل ، وكان معه في هذه الحملة ابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس ، وكان صبياً في العاشرة ، وترك العرب في فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن عبد القيس وابنه عقبة ، وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند في هذه التواحي يتنقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويلة من مراكز الصحراء ، وفي هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال ، وتحول إلى شخصية عربية أفريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ، ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر في نفس الوقت ، ولهذا فبعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بخمس سنوات أى سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م نجد معاوية بن أبى سفيان يولى قيادة الفتوح في المغرب عقبة بن نافع ويرسل له قوة عسكرية للقيام بذلك العمل ، وهنا يبدأ الفتح الحقيقى لأفريقية والمغرب ، لأن عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقية وشؤونها في ذلك الوقت لطول خبرته بشؤونها ، وعندما قام بحملته الأولى على

أفريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغي عمله لفتحه فتحاً ثابتاً .

وسنلاحظ أثر ذلك في أعمال عقبة ، فهو أول فاتح عربي يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله لتحويل أعمال الفتوح في أفريقيا من غزوات تروح وتعود بفنائم فحسب إلى فتوح منظمة ترمى إلى إنشاء ولاية أفريقية ومد حدود الإسلام غرباً وإدخال البربر في الإسلام .

حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس

القيروان ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م :

سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري كان بين جنود أفريقية الأول ، وقد اشترك وهو صبي في محاولات فتح أفريقية الأولى مع أبيه ثم أصبح قائداً شاباً من قادة الجيوش الإسلامية العاملة في الفتوحات في الجناح الغربي ، وذكرنا أنه تحول مع الزمن إلى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح ، وعندما وصله الأمر بولاية أفريقية وكان في نواحي زويلة قرب فزان ، نهض إلى أفريقية من هناك عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط ، وهناك لقي القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية ابن أبي سفيان للعمل تحت إمرته فوصل غدامس ، ومن هناك دخل أفريقية واتجه رأساً إلى قرب موقع سبيطة ، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين في أفريقية فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطة التي وقعت عندها المعركة المشهورة ، وبدأ في اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين .

وكانت القاعدة في إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التي تسمى الأمصار هي البدء ببناء المسجد الجامع ، وفي مواجهة المسجد كانوا ينشئون دار الإمارة (أي مركز ومقر الحاكم) وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع ، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسي بالعاصمة ويسمى بالسماط أو المحجة ، وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة يسمى هذا الشارع بالسماط الأعظم ، وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المينيين خلاء واسعاً مستديراً ، ثم بعد ذلك كانوا ينشئون

الدور حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار . وسميت هذه المدينة القيروان ، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح . ويقال إن موضع القيروان كان غابة وشعاري^(١) ، فقام عقبة وأصحابه بتمهيد الأرض وقطع تلك الأشجار ، وتحكى أسطورة أن عقبة بن نافع قام بكرامات أثناء إنشاء تلك المدينة فامر الوحوش والهوام التي كانت في الشعاري بأن تخرج منها لأن المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ ، فخرجت الوحوش والهوام من تلقاء نفسها ، وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهو مدينة القيروان مدينة جلييلة ومباركة ، وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير أن يصبح من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله ، فقد تحولت القيروان بسرعة إلى قاعدة سياسية ودينية وفكرية للإسلام في أفريقية ، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب في ذلك العصر ، وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهي سلاحهم الأكبر في عمليات الفتوح ، فكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز التي ينشئونها وسط أقاليم مراعى لتسرح فيها الخيول والجمال في غير أوقات الحروب ليستجم الظهر كما كانوا يقولون ، ولابد أن نذكر أنه كانت في أفريقية في ذلك الحين عاصمة أخرى وهي قرطاجنة وكانت ميناء ، وهي عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسية والعسكرية ، ولكن قرطاجنة وبقية مدن السواحل من أمثال قابس وسوسة ظلت عامرة بالروم والأفارقة وغيرهم من سكان الشريط الساحلي .

المهم لدينا أننا لا نلاحظ أى وجود فعلي للروم أثناء عملية إنشاء القيروان التي دامت خمس سنوات من ٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م . وبعد فراغ عقبة من إنشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح ، إذ أنه اطمأن إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التي يفتحها وتصدر منها الغزوات ، ومعنى ذلك أن عقبة بعمله هذا قد جعل أفريقية ولاية إسلامية جديدة ، لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ، ولا يجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية ، وبالفعل

(١) الشعاري : هو المكان به الشجر الكثيف الملتف .

كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل ، أما الآن فلا بد لهم أن يثبتوا في هذه الناحية ، وإن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية .

ومن هذا يتبين لنا أهمية العمل الذي قام به عقبة بن نافع الذي يعتبر بحق من أعظم فاتحي المغرب وواحد من أكبر بناء الدولة الإسلامية . ولا يقارن عقبة في هذا المجال إلا بـ « قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي تولى مهمة مماثلة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام . وإليه يرجع الفضل في التغلب على مقاومة الترك الوثنيين وفتح بلادهم للإسلام والوصول به إلى كاشغر في إقليم سنكيانج في غرب الصين الحالية . وكان عقبة وقتيبة متعاصرين : واحد منهما وصل بحدود دولة الإسلام إلى أقصاها غرباً والثاني وصل بها إلى أقصاها شرقاً .

ولاية أبي المهاجر دينار :

وكنا نتوقع أنه بعد أن قام عقبة بهذا العمل المجيد أن تكافئه الدولة بأن تتركه في ولايته ليتم ما بدأه ، إلا أنه بدلاً من ذلك يلقى أمراً بالعزل من ولاية أفريقية سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . وكان الذي عزله معاوية بن أبي سفيان بناء على طلب وإلى مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري وكان من كبار العثمانيين وأنصار البيت الأموي الذين أعانوا معاوية على الوصول إلى الخلافة ، فكافأه معاوية بولاية مصر ، وعندما رأى مسلمة أن أفريقية أصبحت ولاية وميداناً جديداً واسعاً للفتوحات طمحت نفسه إلى أن يحوزها ، فسعى في عزل عقبة وتولية رجل من أتباع مسلمة ابن مخلد يسمى دينار أبا المهاجر ، ويظن أنه كان ممن أسلم من أهل مصر ، ولم يكتف مسلمة بعزل عقبة بل نجد أن ديناراً أبا المهاجر يسعى معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منها تسمى تكروان رغبة منه في التقليل من أهمية العاصمة الجديدة ، لأن مسلمة كان يرى أن الغرب الإسلامي كله تبع له ، ومن ثم فلا تكون له إلا قاعدة واحدة هي القسطنطينية ، وذهب عقبة إلى دمشق وشكا إلى الخليفة فطيم خاطره ولكنه لم يردده إلى ولايته .

وأما دينار أبو المهاجر فقد تبين أنه من خيرة الولاة رغم تصرفه مع عقبة .

وواضح أنه غير مستول عن ذلك وإنما المستول هو مسلمة بن مخلد ، وإن كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عن سوء صنيع دينار أبي المهاجر معه .

انتهج أبو المهاجر سياسة جديدة في الفتح ، فقد كان عقبة رجلاً متشدداً بعيداً عن السياسة وفهم تصاريقها ، أما أبو المهاجر دينار فنجدته في أعماله العسكرية يتجه إلى كسب مودة أهل البلاد من البربر ، وهو لم ينتهج نهجاً معيناً أو محدداً في أعماله العسكرية ، لأنه كان رجلاً نشيطاً يرسل الغزوات في كل وجه ، وقد وصلت غزواته إلى مسافة بعيدة في الغرب حتى وصل إلى تلمسان وهي أكبر قواعد القسم الشرقي من المغرب الأوسط ، أي تلك المنطقة الواقعة حالياً إلى الشرق من نهر المولوية الذي قلنا : إن الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى يمر شرقيه بقليل ، وفي هذه الناحية - تلمسان - كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس في ذلك العصر وهي أوربة ، وهي قبيلة برنسية أي من قبائل الحضرة وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله يتزعمها زعيم بريري يسمى كسيلة بن لَمَزَم ، وقد دخل هذا الرجل الإسلام ومعه قبيلته الكبيرة على يد أبي المهاجر دينار ، ودخول أوربة وزعيمها كسيلة في الإسلام يعد حدثاً هاماً لا بد من ملاحظته . حقيقة كان الإسلام ينتشر في المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين ، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التقاني في سبيل الإسلام ، فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة ، ولكن إسلام أوربة يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ إسلام المغرب ، فهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة في الإسلام ، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البتر أي البدو من قبائل لواتة وهوارة ونفوسية وغيرها ، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه دينار أبي المهاجر إلى القيروان .

ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية وحملته الكبرى

على المغرب ٦٢ - ٦٤ هـ / ٦٨١ - ٦٨٣ م :

استمرت ولاية دينار أبي المهاجر سبع سنوات ، ولم تنته إلا بوفاة معاوية ابن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ، وبوفاة معاوية فقد مسلمة بن مخلد

نصيره فلم تعد له تلك المكانة التي كانت له أيام معاوية ، وانتهز عقبة هذه الفرصة وتحدث إلى يزيد بن معاوية في إعادته إلى أفريقية ، فأجابته إلى مطلبه ، وأسرع عقبة إلى المغرب ومعه قوة تقدر بحوالي ٤٠٠٠ فارس وقد صمم هذه المرة على أن يشرع في الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد .

وعندما وصل عقبة إلى أفريقية قبض على دينار أبي المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطائه الجسيمة ، لأن كسيلة كان رجلاً مسلماً وليس ذنبه أنه كان صاحباً لأبي المهاجر ، ومن ثم فلم يكن عقبة على حق في سوء معاملته . على أي حال نجد عقبة رغم ما اتصف به من إيثار وإيمان وشجاعة ويعد عن شئون هذه الدنيا لم يعرف كيف يغفر لأبي المهاجر ما صنعه به ، ورغم ما تميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وإدخاله في الإسلام ، نجده قصير النظر في شئون السياسة ومعاملة الناس ، فأخذ كسيلة معه - مصفداً بالحديد كما يقال - وأساء معاملته رغم أن ديناراً أبا المهاجر كان ينصحه بإحسان معاملة ذلك الرجل ، تأسيساً بما كان يفعله الرسول ﷺ في استئلاف حديثي العهد بالإسلام فقد كان إيمانهم قريباً أو قريب عهد ولا بد من تحبيبهم في الإيمان وهم المؤلفة قلوبهم ، ولكن عقبة في حماسه الشديد للفتح وتقانيه فيه لم يلتفت إلى النصيح وسار في جموعه نحو المغرب الأوسط .

وبدلاً من أن يتخذ في سيره الطريق الأسهل ، فيسير على الشريط الساحلي نجده يخترق الجبال ويغزو البربر في عقر دارهم فيدخل جبال الأوراس وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس وهي جبال عالية وعرة كثيرة المضائق والأخاديد في هذه الناحية ، وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربوا إلى داخل البلاد واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معاً على المسلمين ، ولكن عقبة لم يكثر لهم ، ومضى يقتحم جبال الأوراس موغلاً في بلاد هي الغاية في وعورة الأرض وصعوبة المسالك .

دخل عقبة جبال الأوراس وبدأ بمحاصرة حصن يسمى باغاية وكان فيه عدد من الروم إلى جانب البربر ، وعندما وجد عقبة صعوبة في الاستيلاء على باغاية تركها واندفع ناحية الغرب ، فعبر نهر شلف ، وهو يحارب القبائل في طريقه

ويفض جموعها ويلقى الرعب في قلوب أهلها ، وفي نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أفرادها للإسلام بفضل ماكان يبدو عليه من التقوى والتفانى في سبيل الإسلام ، واستمر في طريقه غير عابئ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل إلى قرب طنجة ، أى أن ذلك الرجل قطع في شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر ، وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط .

هنا يلقي عقبة عند طنجة شخصية غريبة تسمى يليان — والقراءة مشكوك فيها — ولا نعرف عن ذلك الرجل أى شئ يعول عليه ، فهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للسلطان الرومى — البيزنطى في ذلك الطرف الأقصى من البحر المتوسط — وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة أيبيريا في ذلك الحين وهذا أقرب الأحوال إلى القبول ، وهناك رأى ثالث يقول إنه بربرى تزعم قبيلة غمارة الكبيرة التى ستدخل في الإسلام وسيكون لها في تاريخ المغرب شأن كبير . وربما كان اسم يليان تسمية عامة تطلق عند العرب على حاكم إقليم طنجة أياً كان . فبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ ، وفي ولاية موسى بن نصير في أثناء أعمال فتح الأندلس سنلقى يليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى وطارق ، وكذلك سيكون له دور في فتح الأندلس . على أى حال نجد أن عقبة يتفاهم مع ذلك الرجل ويقول له يليان : لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن إلا البربر فعليك الآن أن تتحذر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين .

ولم يكذبه عقبة ، فاتجه إلى الجنوب ، وبغفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال الأطلس التى تسمى هنا جبال درن وفي طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغباً أو رهباً ليعلنوا إسلامهم . وعندما يصل ذلك الرجل إلى قلب بلاد المصامدة في جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجه غرباً ، وينحدر نحو المحيط إلى جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس ، وهناك وعند قرية صغيرة على

البحر تسمى « أيغيران يطوف » نرى المشهد التاريخي الشهير وهو مشهد عقبة يدخل بحصانه في مياه المحيط الأطلسي ويشهد الله على أنه وصل برباية الإسلام إلى آخر المعمورة ، وأنه لو وجد طريقاً لساير إلى البلاد التي وصل إليها - في زعم القصاصين - ذو القرنين عند مغرب الشمس .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التي لا تصدق نجده يعود أدراجه مخترقاً بلاد البربر مرة أخرى ، وعندما يصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذي تقع على أحد نهيراته مدينة مراكش الحالية ، وعند بليدة تسمى نفيس ينشئ مسجداً وهو الذي عرف فيما بعد باسم مسجد « أغمات أوريكّة » ولا زال ذلك المسجد باقياً إلى اليوم ويقال إن منبره يرجع إلى تلك الأيام . وعندما وصل عقبة إلى وادي أبي الرقراق الذي تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطاً أي معسكراً للمرابطين ، أي الذين يربطون على ثغور ديار الإسلام ليحرسوها ويؤدوا الأعداء عنها حسبة لله سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا الرباط برباط شاكر ، وهو أحد قواده ، وهناك ترك عقبة شاكراً هذا ليعلم الناس مبادئ الإسلام ، ثم يواصل مسيرته عائداً إلى القيروان ، فنجد أن الكثيرين من جنوده يستأذنونهم في الإسراع إلى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى في عدد قليل من رجاله .

وبينما كان عقبة منصرفاً إلى مغامرته العسكرية الدينية الكبيرة تلك كان خصومه يكيدون له ، وكان معه في الجيش كما قلنا دينار أبو المهاجر وصاحبه كسيلة بن لمزم الأوربي فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد إلى قومه ، وجمعهم وتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة ، وعندما وصل الجيش الإسلامي الصغير إلى سهل تهوده جنوبى واحة بسكرة الحالية إلى جنوب مدينة الجزائر وجد عقبة نفسه محاصراً بجماعات غفيرة من البربر والروم ، وقد تجمعوا وتعاونوا بفضل كسيلة للانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة ، وهناك قرب نهر صغير يسمى وادي الأبيض وجد عقبة أنه لا مفر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم ، وذلك دليل على توطين النفس على القتال إلى الموت وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكي يموت في سبيل الإسلام ، وخاضت هذه

الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة ، فقتلوا عن آخرهم ، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م . وهى نهاية جديرة بحياة رجل مثل عقبة بن نافع ، وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها فى واقع الامر كانت بعيدة الأثر فى إسلام أفريقية والمغرب ، فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البسالة فى ذلك الاستشهاد أوقع أثراً فى نفوس البربر ، وهم قوم ذوو بأس وإعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات فى الإسلام ، وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الإسلام الأكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى .

زهير بن قيس والقضاء على كسيلة :

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمور أفريقية إثر مقتل عقبة بن نافع واحتلال كسيلة للقيروان إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك . لقد توفى يزيد بن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى ، ثم انتهى الأمر إلى مروان بن الحكم ، وثار عليه عبد الله بن الزبير وبعد انتصار مروان على أنصار عبد الله بن الزبير بقليل ، توفى مروان وخلفه ابنه عبد الملك وشغل باستعادة العراق من الزبيريين ، وهذأت الأحوال شيئاً فشيئاً ابتداء من ٦٨ هـ / ٦٨٧ م ، وثبتت أركان خلافة عبد الملك واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية ، وكان زهير بن قيس الذى خلف عقبة منتظراً فى برقة أن تأتية الإمدادات لكى ينهض إلى أفريقية من جديد .

وأرسل عبد الملك إلى زهير جيشاً قوياً ، وبعث إليه بالأموال من مصر ، فنهض سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م متجهاً إلى أفريقية ، وعندما دخلها عسكر فى ناحية تسمى قمودة ، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية ، وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلّة أعدادهم . وكان كسيلة قد جمع قوى ضخمة من البربر والروم وسار بهم لحرب زهير . وفكر زهير فى الانسحاب ، ولكن قيادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على المسير للقاء كسيلة . وفعلاً تم اللقاء بين الجانبين ، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب فى أفريقية إلى ذلك الحين ، فقد فنى فيها الألوف من الجانبين ، وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك

العصر منتصرين ، وقتل كسيلة ونفر كبير من كبار الروم والبربر ، وطارد المسلمون قلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة .

بعد ذلك عاد زهير إلى القيروان ليرتب أمورها ويصلح من أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له من ذلك ما أراد نجده يعلن أنه عائد إلى الشرق ولا ندرى ما السبب في ذلك القرار ، لأن زهيراً كان يستطيع - بل كان لابد له - أن يقيم في أفريقية والياً عربياً لها . ولكن يبدو أنه لم يكن مستريحاً للمقام في تلك البلاد ولم تكن الدولة الإسلامية قد حددت بعد سياستها فيما يتعلق بأفريقية .

ولابد أن نذكر أن بلاد أفريقية في ذلك العصر كانت بلاداً بعيدة جداً عن نظر العرب ، خاصة وهي ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى ، لهذا أزمع زهير العودة وشرع فيها فعلاً ، وعندما خرج زهير سمع أن الروم عادوا إلى طرابلس وأنزلوا قوة فيها . وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعاً صغيرة منسحباً إلى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى في سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله ، ورأى الروم يعودون إلى مراكزهم ومعهم أسرى المسلمين وما نهبوه من الأموال . وأراد زهير أن ينتظر حتى يتكامل الجيش ليهاجم الروم ، ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيَّروه بالجبن عن اللقاء فما كان منه إلا أن انقض بمن معه على الروم ، وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه ، وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في فتوح أفريقية . وانسحب الباقون من رجال زهير إلى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة إلى أفريقية .

حملة حسان بن النعمان الغساني والقضاء على آخر مظاهر

المقاومة الفعلية للفتح العربي ، وثبوت أقدام المسلمين نهائياً في أفريقية ٧١ - ٨٥ هـ / ٦٩٠ - ٧٠٤ م :

بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية تجدد عزمه على مواصلة الفتوح في ذلك الجناح الغربي لدولة الإسلام ، ونلاحظ أنه في عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين في

الفتوح في الشرق وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي والعاملين في المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة وولى عهده وواليه على مصر، كان كل من الجانبين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من البلاد، وهو تنافس محمود يرجع الفضل إليه فيما وفقت إليه دولة الإسلام في عصر عبد الملك وابنه الوليد، وقد كانت نتيجة هذا التنافس فتح بلاد زادت من ناحية الأهمية والاتساع على كل ما فتحه المسلمون في العصر الراشدي بعد فتوح إيران، فقد وصل المسلمون إلى غربي الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدي الفاتحين الكبار مثل قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم.

أما في الجناح الغربي، وهو موضوع حديثنا الآن فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام بعد عقبة بن نافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين، وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الذي سيتولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر في أفريقية.

كان حسان من كبار رجال عبد الملك، وكان رجلاً شريفاً ينتسب إلى آل غسان ولهذا كان لقبه الغساني، ومع علو سنه إلا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنته من القيام بهذه المهمة التي وكلتها إليه الخلافة، فسار فيمن معه نحو كسيلة والتقى الجانبان في معركة حاسمة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وانتهزم كسيلة وقتل، وبعد التخلص من كسيلة بدأ حسان في تنظيم أمور أفريقية ووجه همه إلى الروم وكانت حاميتهم لا تزال قوية في قرطاجنة فوجد حسان أنه لا بد من الاستيلاء على ذلك البلد وتم له ذلك فعلاً، ثم هدم منشآت الميناء حتى لا تعود إليه أساطيل الروم وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان، وبعد أن استراح فترة قصيرة كان يحسب أن كل مقاومة فعلية قد انتهت وأن أوان التنظيم قد حان ولكنه فوجيء بما لم يكن في حساب أحد.

الكاهنة:

ذلك أن زعيمة بربرية ظهرت في الميدان تتحدى العرب يسميها العرب الكاهنة ولا نعرف نحن اسمها على وجه الدقة فإن بعض المؤرخين يسمونها داهيا بنت

وامهيا ، ولكن هذه تسمية مأخوذة من القصص الشعبي ولا شك . ظهرت هذه المرأة في جبال الأوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البتر الزناتية تسمى قبيلة جراوة وتحدث العرب وأعلنت أنها لن تستريح حتى تخرجهم نهائياً من بلاد أفريقية ، ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب كسروا شوكة البرانس بالقضاء على كسيلة ، قدرت أن دورها قد جاء فصرات أن تبادر العرب قبل أن يبادروها .

يصور المؤرخون العرب هذه المرأة في صورة هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، فالكاهنة هذه ساحرة شديدة السمرة في حوالى الخمسين من عمرها وهي امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الإتيان بأعمال السحر والكهانة والتنيق بما سيحدث . وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ، ولكنه بما عرف عته من البسالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن أن تسبب للعرب متاعب كبيرة ، لأنها كانت متحصنة في جبال الأوراس ، وهي الطرف الشرقي لجبال الأطلس بجمهورية الجزائر في إقليم قسطنطينية وما يليها شمالاً وجنوباً ، وكان من الممكن لهذا أن تسبب متاعب جديدة للعرب ، ولهذا نجد حساناً يتجه نحوها والتقى معها في معركة حامية ينهزم فيها حسان ويضطر إلى الارتداد إلى برقة ، لأن تلك المرأة طاردته حتى أخرجته من أفريقية وطرابلس ، وهناك في برقة تحصن حسان وبنى بيوتاً تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة يطلب المدد .

أما الكاهنة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت إلى مواطنها . وظنت أن العرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المغنم ، فقررت تخريب الطريق الذى يسلكه العرب حتى لا يبقى لهم مطعم في أفريقية فأمرت رجالها بقطع الأشجار وتهديم القرى وإحراق الزروع فكان لعملها هذا أسوأ الأثر على حركتها ، لأن أصحاب الأشجار والزروع والقدرى كانوا من البربر الحضر أى البرانس فنفروا منها نفوراً شديداً وأرسلوا إلى حسان يستغيثون به . وكانت الكاهنة قد أسرّت نفراً من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى خالد بن يزيد فتبنته واتخذته مشيراً لها .

وعندما وصلت إلى حسان الإمدادات سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م نهض للقاء

الكاهنة ولإنقاذ المسلمين في أفريقية ، وكذلك لإغاثة البربر الذين استنجدوا به فزادت الكاهنة في عمليات التخريب حتى جعلت البلاد التي تعرف بتونس الآن خراباً ويسمى المؤرخون ذلك بخراب أفريقية الأول ، وسيكون هناك خراب ثانٍ لأفريقية على يد العرب الهلالية في القرن الخامس الهجري كما يقولون ، ويذهب المؤرخون الفرنسيون إلى القول بأن ذلك التخريب الأول لم يتم على أيدي الكاهنة وإنما قام به العرب أنفسهم ونسبوه إلى الكاهنة معتمدين في ذلك على بعض آراء خاطئة لابن خلدون يقول فيها : « إن العرب إذا دخلوا قطراً عامراً خربوه » ومن أقواله أيضاً : « إذا عربت خربت » ، وذلك في إطار تفكيره عن الصراع بين البدو والحضر وقوله هذا داخل فيما يسمى بدورة العمران .

هذه كلها آراء غير سليمة في جملتها ، وخاصة فيما يتصل بكلامه عن موقف العرب من الحضارة وزعمه أنهم لا يتغلبون إلا على البساط (جمع بسيط) وذلك كله ينبغي أن يكون اليوم موضع دراسة جادة منا نحن العرب^(١) . المهم لدينا أن الكاهنة أنزلت خراباً واسعاً بأفريقية .

ويذكر المؤرخون العرب وخاصة عبد الرحمن بن عبد الحكم « أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من برقة إلى طنجة فخربت ذلك كله الكاهنة » ، هذه أيضاً مبالغة وعدم فهم من ابن عبد الحكم - فأولاً : لم تكن أفريقية بهذا العمران عند الفتح العربي . وثانياً : ليس من المعقول أن تخرب امرأة واحدة ذلك العمران كله ، ونستطيع اليوم تفسير هذه الظاهرة أن نقول : إن الكاهنة بالفعل قامت ببعض أعمال التخريب للأسباب التي ذكرناها ، واستمر التخريب بعد ذلك لسوء الحكم وسياسات الولاة وما سنرى من الصراع السياسي الشديد بين العرب فيما بين بعضهم وبعض من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى .

ثم كان اللقاء الحاسم بين حسان والكاهنة وسط جبال الأوراس وكان خالد بن يزيد يرأسل حساناً ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحسَّتْ هي بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت أنها

(١) أي لا بد لنا من إعادة النظر في آراء ابن خلدون هذه .

مقتولة ، فنادت خالد بن يزيد وطلبت إليه أن يستأنس لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك ، أما هي فصمدت وقالت إنها لا بد أن تحارب حتى الموت لأن الملوك لا يستسلمون ، وفي سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، أي بعد عودة حسان إلى أفريقية بنحو عام ، دارت المعركة الحاسمة في موضع من جبال الأوراس لا نعرفه على وجه التحديد ، ولكن المؤرخين يقولون إن المعركة كانت عند نهر نيسني ولا نعرف نهراً في أفريقية أو المغرب بهذا الاسم . على أي حال قضى العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر في ذلك الجناح الغربي من الدولة الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن مقتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر ، لأنه بقيت أمامنا فصول طويلة من الصراع في المغرب ثم في الأندلس حتى تستقر سيادة العرب والإسلام على كل الجناح الغربي لدولة الإسلام كما سنرى .

وعاد حسان بعد ذلك النصر إلى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم في أفريقية فاستولى على بلدة قرطاجنة وخربها تماماً وفرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر ولم يبق لهم بعد ذلك في المغرب إلا بقايا قليلة اندرجت في السكان ، ولا نسمع بعد ذلك عن حركة ذات شأن لهم .

تنظيم الإدارة الإسلامية في المغرب وبداية التحول الفعلي لأهل البلاد إلى الإسلام :

هكذا أتم حسان بن النعمان فتح أفريقية والمغرب الأوسط ، ورأى أن عليه قبل أن يسترسل في الأعمال العسكرية أن ينظم هذه البلاد الواسعة التي دانت للإسلام بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من الصراع الدموي ، فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م وهنا نحن مع حسان بن النعمان عام ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

وبعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو تتسع معه لجموع العرب والمسلمين التي سكنتها ، نظر حسان في موضوع التنظيم الإداري والمالي ،

وهنا واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين في الغرب إلى الآن . ذلك أن الذين فتحوا مصر مثلاً دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى ما يمكن أن نسميه مديريات أو محافظات ، وكانت تسمى في ذلك الحين بالكور جمع كورة ، فما كان عليهم إلا أن يدخلوا ما تمس إليه الحاجة من التعديلات على هذا النظام وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر ، هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو مصر وغيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة ، أما في المغرب فقد وجد العرب أنفسهم في بلاد لم يسبق تنظيمها لا إدارياً ولا مالياً ، كذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيمًا من أي نوع ، لأن أساس أي تنظيم من هذا النوع هي الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به العادة قبل الفتح العربي في تسيير أمور الناس والدولة ، أما في أفريقية وطرابلس والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم إلا على الساحل ، أما العرب فقد أوغلوا في البلاد وفتحوا مواطن البربر في دواخل البلاد وهم قبائل ، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب ، لأن القبائل بطبيعتها لا يمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضي المزروعة . هنا نجد أن حسناً يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون في تنظيم الجزيرة العربية ، فهذه أيضاً بلاد كانت قبائل ، وإذا كانت الوحدة الإدارية والمالية في بلاد الحضر هي الكور أو المديريات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز ، فإن الوحدة في بلاد البدو والقبائل هي القبيلة ونطاقها ومجالها الحيوى ، لأن القبائل كما سبق أن ذكرنا تعيش في صحاريها ولكل منها مجالها ، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواضع الكلال التي توجد في المجال ، والقبيلة تتحرك طوال العام في مجالاتها حسب نظام معروف في الحياة البدوية ، وهي ليست حياة فرضى وبدائية مطلقة وإنما هي حياة منظمة وفق النظام المعروف في كل مناطق البدو في الدنيا ، ومن الخطأ أن تتصور أن هناك قبيلة كانت تنتقل في شبه الجزيرة باستمرار وبدون توقف ، لأن ذلك منطقياً غير ممكن ، واجتماعياً مستحيل . ولم نسمع قط أن قبيلة عربية خرجت من حضرموت واستمرت في التنقل حتى الشام ، وإنما كانت هناك لكل قبيلة منطقتها الخاصة بها المعترف بها من جاراتها ، وعيون الماء في هذه المنطقة ملك للقبيلة وهي تنتقل في مجالها هذا بقطعاتها وخيامها وكلما اكملت

القطعان الحشائش في موقع انتقلت القبيلة إلى غيره في مجالها . وكانت العادة أن يكون لكل قبيلة في مجالها مشتي ومصيف فالشتي في القيعان والوديان حيث يتجمع ماء المطر وتنبث الحشائش ، والصيف في أعالي التلال والجبال وسطوحها حيث الجو مقبول محتمل في الصيف والحشائش التي نبتت على أمطار الشتاء جافة تصلح للرعى .

لهذا نجد أن الفاتح العربي للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسي القديم الذي كان لا يشمل إلا جزءاً صغيراً من الساحل ، فأقر تنظيمه على ما جرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل نقل العاصمة من قرطاجنة إلى القيروان .

وبعد ذلك قسم العرب الدواخل على أساس منازل القبائل ، أي اعتبار مجال كل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والاتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاة والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات وظائفهم .

وبطبيعة الحال في بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للسواحل تقريباً ، وقد ذكرناها فيما سبق ، كان لابد من اتخاذ بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة في هذه النطاقات أساساً من أساس التنظيم ، أي اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضي ، وعلى هذا فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب إدارياً كما يلي :

١ - فيما يتصل بإقليم برقة وهو الذي قلنا إنه يعرف في القديم باسم سيرينايا (يسمى حالياً باسم إقليم بنغازي) هذا الجزء اعتبر تابعا لمصر من الناحية الإدارية والمالية . ولكننا لا نلاحظ أثراً لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر الولاة ، بمعنى أن برقة أصبحت إقليماً في الظل ، يختفى في معظم الأحيان ولا يظهر إلا في مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداء من الغزوة الهلالية ، وما كان لبعض بطون الهلاليين وحلفائهم من شأن فيها ، وفيما عدا ذلك فإننا لا نسمع ببرقة إلا قليلاً ، ومع ذلك فمن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها ، والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجي وإن لم يكن

لدينا تاريخ لها في تلك العصور الأولى ، وكانت تمتد من ساحل البحر إلى زويلة في الداخل الشرقية لإقليم فزان ، وكانت قاعدته السياسية مدينة برقة ، ولكن كتب الرحالين تحدثنا عن انتظام الحياة القبلية في الإقليم وازدهار مدنه التي كانت في نفس الوقت محطات قوافل تمتد في حدود عمل صرت إلى السلوم ، وهي المدخل إلى مصر . هنا عاشت دائماً قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادها من مهاجرة العرب ، وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة غرباً .

٢ - وبلى ذلك غرباً إقليم طرابلس ويشمل المساحة الممتدة من بلدة صرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذي يسمى طرابلس وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية ويسمى كل منها عملاً والجمع أعمال وهي :

(أ) عمل صرت . (ب) عمل طرابلس .

(ج) عمل صبرة . (د) جبل نفوسة .

وقد سبق أن ذكرنا أن جبل نفوسة كان في ذلك العصر جبلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعي ، وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهي أكبر القبائل البربرية في ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير في تاريخ المغرب الإسلامي وخاصة في تاريخ دولة بنى رستم الخارجية الإياضية ، لأن النفوسيين دخلوا ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل .

٣ - إقليم فزان : وهو في الداخل على بعد نحو ٨٠٠ كم من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوي آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار ، وهو إقليم واحات يصل المغرب بأفريقية الإدارية عند إقليم تشاد الحالي .

وكانت فزان دائماً إقليمًا عامراً بالواحات والمدن والقرى والمياه وسيهتم به العرب اهتماماً خاصاً وسينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد في العصور الإسلامية .

٤ - إقليم أفريقية - وعاصمته القيروان - : ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً

حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسطنطينة الحالية .

ولكن مصطلح أفريقية يطلق في التقسيم الإداري العربي على ثلاثة أقسام :

أولها عمل طرابلس الذى ذكرناه بحدوده ، ثم عمل أفريقية الذى يقابل بلاد تونس الحالية ، ويلى ذلك شرقاً عمل الزاب أو إقليم الزاب ، وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية ، وحده الغربى مجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب في البحر المتوسط قرب وهران الحالية . والمجرى الأعلى لنهر شلف الذى يسير من الجنوب إلى الشمال هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم أفريقية بأقسامه الثلاثة (طرابلس وأفريقية والزاب) والمغرب الأوسط .

٥ - المغرب الأوسط : ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولوية ، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب في البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية . وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرقى هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوريرت ، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرقى بحرى نهر المولوية .

٦ - ما يلى ذلك إلى الغرب وحتى المحيط أطلق عليه اسم المغرب الأقصى ، واعتبر حسان القبائل في هذا الإقليم وحدات إدارية ، أى أنه قدر الأموال عليها على أساس القبائل النازلة فيها ، فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه ، وكان يدفع في الغالب عيناً ، وجرت العادة في ذلك العصر على أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوة العسكرية العربية العاملة في المغرب ، ويعتبر تقديم أولئك المقاتلين جزءاً من المال المقرر على القبيلة ، ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية على نحو لا نجد له مثلاً فيما فتحه العرب من البلاد إلى ذلك الحين إلا في إيران وبلاد الترك ، والنتيجة أن الجيش العربى أو الجيش الإسلامى العامل في المغرب تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية . ومن البديهي أن البربرى الذى يدخل في الجيش الإسلامى يعتنق الإسلام ، ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل في إسلام أهل

المغرب ، ونقطة البداية الواضحة هنا هي القوة التي انضمت إلى حسان ، مع ولدي الكاهنة ، وعددها اثنا عشر ألف رجل ، تولى قيادتهم أبنا الكاهنة ، وقد سميت الجماعة البربرية التي انضمت إلى جيوش المسلمين بالرهائن ، ولم يكونوا في الحقيقة رهائن ، وإنما هم ضمان لطاعة بقية أهلهم في موطنهم .

بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح أفريقية ، فقرر إزالة مدينة قرطاجنة تماماً حتى يتلاشى أمر الروم في أفريقية والمغرب ، وبالفعل خرب حسان ما بقى من قرطاجنة ذات التاريخ القديم الباهر ، فلم يعد لها بعد ذلك الأثر يذكر ، غير أن الفرنسيين عندما احتلوا إقليم تونس أحيوها من جديد في صورة ضاحية لمدينة تونس ، عرفت باسمها الفرنسي وهو قرطاج ، وقد أصبحت جزءاً من مدينة تونس .

ورأى حسان أن المغرب أو أفريقية لا تستغنى عن ميناء كبير ، لأن أفريقية إقليم بحري ، وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أنها في جملتها عبارة عن شبه جزيرة داخل البحر ، وسواحلها الشرقية والشمالية مليئة بالموانئ الطبيعية الصغيرة والكبيرة ، ولهذا كان لا بد لحسان من أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل قرطاجنة .

إنشاء ميناء تونس :

اختار حسان لإنشاء الميناء الإسلامي الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجنة ، ونظراً إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوي تقريباً ، أي إنهم كانوا يشترطون في المدينة التي ينشئونها أن تكون وسط إقليم مزراع لحاجة الخيل والجمال ، فإن حساناً وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربي عندما أراد إنشاء الميناء الجديد . كانت هذه أول مرة ينشئ فيها العرب ميناء ، وجمعاً بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه في نفس الوقت اختار حسان موضع سبخة تقع على الساحل ، والسبخة هي منطقة رملية ، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة .

وكانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة في الداخل ، فرأى

حسان أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه ، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض ، وشق في رمال السبخة قناة واسعة عميقة تخترقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة ، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر ، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التي تشققها القناة ، وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة أي مصنع بناء السفن ومساكن العمال والبحريين ، حول السبخة ، واستعان في إنشاء دار الصناعة بعدد من أقباط مصر أرسلهم إليه وإلى مصر وسميت الميناء الجديدة « تونس » لأنه كانت توجد قرب موضعها قرية قديمة تسمى تينس . وكانت السبخة تقع على جزء من خليج واسع يسمى خليج راديس وقد عمر البناء بسرعة وتحول إلى مدينة من أعمار مدن أفريقية وميناء من أكبر موانئ الإسلام في البحر المتوسط .

بإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم ومينائهم ، دخل تاريخ أفريقية الإسلامية في دور جديد ، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان الغساني من أكابر بناء الدولة الإسلامية . فهذا التنظيم الإداري والمالي ، الذي وضعه لأفريقية ، حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يليها غرباً ، ثم إن ميناء تونس فتح أبواب أفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم في البحر المتوسط .

وبينما كان العمل في إنشاء تونس يسير في طريقه ، كان حسان يواصل عمله في هذوء ، فأعاد تنظيم القيروان وأصلح مسجدها ووسعه ، ثم فوجيء بقرار عزله وقد تم إنشاء تونس عام ٨٤ هـ / ٧٠٣ م .

جاء قرار العزل بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة ، وبعد سنة واحدة من إنشاء تونس ، ولم يكن عزله عن قلة كفاية ، وإنما كان السبب أن وإلى مصر وهو عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولي عهده ، عندما رأى ازدهار أفريقية وتحولها إلى قطر غنى فيه إمكانات واسعة للفتوح والمكاسب والمغانم طمع فيها لنفسه ، وكان عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي - يدارئ أخاه ، لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، لذلك فعندما

عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتوقف الخليفة في الأمر ، وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه ، وعاد إلى مصر ، وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه فرفض ذلك . وعرض عليه عبد الملك أن يرده إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلبى لبني أمية عملاً بعد ذلك ، وعلى أي حال فقد كان حسان إذ ذاك شيخاً عالى السن ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يدخل في مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بني أمية ، وهكذا عاد إلى قومه في الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الذي قام به كما رأينا ، وبصفة عامة نلاحظ أن الدولة العربية في ذلك العصر كانت شديدة الإهمال والتهاون في شأن عظماء الرجال الذين ساهموا بأنصبة كبيرة في إقامة دولة الإسلام .

ولاية موسى بن نصير :

وكان الرجل الذي اختاره عبد العزيز بن مروان لولاية أفريقية شخصية فريدة في بابها من كل ناحية وهو موسى بن نصير .

وموسى هو أحد أولاد نصير الذي كان من أسرى بلدة صغيرة في بادية الشام شرقي العراق تسمى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فأسلم على يديه وأصبح من رجاله ، ونشأ ابنه موسى في جو عربي إسلامي فنجدته يستعرب ويأخذ كل أخلاق العرب حتى حسبه المؤرخون في جملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم ، وهو نفسه نسب نفسه إلى الانتصار ، إلا أن أصله غير العربي يتلشى أمام شخصيته العربية التي ظهر بها في التاريخ ، فإننا نجد أنفسنا أمام شاب عربي يتدخل في السياسة والحرب ويعمل في خدمة بني أمية ويشترك في السياسة والإدارة فنسمع عنه أنه تولى رئاسة حرس معاوية بن أبي سفيان ثم نجده بعد ذلك في خدمة عبد الملك بن مروان ، فيرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذي ولوه البصرة . وكان بشر شاباً صغيراً تولى البصرة على رغم احتجاج الحجاج ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمة بأنه يمد يده إلى الأموال . وفي يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان وإلى مصر فأدى عنه جزءاً كبيراً من ذلك المال واصطنعه ثم ولاه أفريقية .

وقد أنكر عبد الملك هذا الاختيار ولكن عبد العزيز أكد لأخيه أن مرشحه يفوق حسناً ومن سبقه في النشاط والقدرة المالية ، ومن ناحية أخرى نجد أن موسى تعهد لعبد الملك بغنائم وفتوح تفوق كل من سبقه ، وهذا الوعد من ناحيته كان ضرراً عليه في النهاية ، لأنه اضطره إلى أن يقوم بنشاط واسع في الناحية العسكرية في أفريقية دون أن تكون هناك ضرورة ، فإن الناس في المغرب كانوا مستعدين كسافة للدخول في الإسلام دون حرب ، ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على الغنائم .

لهذا فإن أعمال موسى بن نصير العسكرية في جملتها كانت كثيرة جداً في أفريقية ، ولكن الهدف الأساسي منها كان تقوية مركزه الشخصي في الدولة بالعمل المتوالي وإرسال مقادير ضخمة من الأموال والأسلاب والمغانم ، ومن بعض النواحي نجد أن ذلك المسلك أضر بموسى في النهاية ، ويزيد من مسئولية موسى أنه كان له أولاد كثيرون كلهم طامعون مثل أبيهم ، فكثر الضربات التي وجهوها إلى القبائل دون حاجة ، ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك في أضرار كثيرة للدولة الإسلامية في عصر الولاة ، فقد رأى البربر أن العرب قوم قساة أصحاب مطامع مالية ومادية ، وما كانوا في الحقيقة كذلك ولكن تلك كانت عاقبة سلوك موسى .

وسترى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التي ستقوم قرب نهاية العصر الأموي في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان .

أعمال موسى بن نصير في أفريقية والمغرب :

٨٥ - ٩٥ هـ / ٧٠٤ - ٧١٤ م :

بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن في منطقة حصينة إلى الغرب من مدينة تونس الحالية ، تسمى بجبل زغوان ، وهناك أنزل مذبحة بالناس ، وأسر ألوفاً من الرؤوس كما تقول النصوص . ولا نعرف إن كان المراد هنا أسرى من البشر أو أن الإشارة إلى مواش نهبت . على

أى حال أرسل موسى بن نصير غنائم وافرة إلى عبد العزيز بن مروان فاستعظمها ولم يصدق كتاب موسى عندما ورد إليه ، وهذه الضربة العنيفة أقنعت عبد الملك بأن هذا الوالى الجديد كفه وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان .

تشجع موسى بذلك فأخذ يرسل أولاده في قطع من الجند تنزل بالناس ضربات كهذه تعود بالغنائم الوفيرة . وكل هذا نفّر الناس من المسلمين وإن كان قد عاد على موسى ومولاه بأموال كثيرة ، وقد أضر موسى بنفسه ضرراً بليغاً بذلك لأنه ما دام قد بدأ تلك البداية فكان لابد له من أن يستمر فيها ، وذلك أمر عسير ، ثم سار موسى في اتجاه الغرب ووصل إلى بلدة صغيرة تسمى سجوما على مقربة من تطوان الحالية ، وكانت هذه البلد هي مفتاح الطريق ، وبعد الاستيلاء على سجوما ونهبها ، انفتح الطريق إلى طنجة وسبّغت فدخل المسلمون هاتين الميئتين اللتين تعتبران مفتاحي البحر المتوسط ، وهذه هي المرة الثانية التي يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلسي .

هنا التقى المسلمون مرة أخرى بيليان . وكما قلنا سابقاً فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أيا كان .

على أى حال تفاهم المسلمون مع بيليان فهادنهم أو خالفهم ، وعاونهم بأمداد عسكرية قليلة . هنا في بلاد المغرب أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين :

الأولى : في المغرب الأوسط وتبتدئ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط قاعدتها تلمسان ، وأقيم عليها وال ، ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر .

والثانية : تمتد من نهر المولوية إلى ساحل المحيط الأطلسي وتمتد جنوباً على وادى أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى أو ولاية طنجة ، وقاعدتها طنجة ، ويقيم فيها وال ومعه قوة عسكرية عربية بربرية .

وعلى هذا تكون ولايات المغرب العربي قد أصبحت كما يلي :

١ - **برقة :** وكانت تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية .

٢ - أفريقية : وتشمل طرابلس - وتبدأ عند قرية صغيرة إلى الغرب من صرت تسمى تاورغا وتنتهى عند قابس ، ثم أفريقية وتشمل ما يقابل بلاد تونس الحالية تقريباً ، وإقليم الزاب وهو شرقي الجمهورية الجزائرية الحالية إلى مجرى نهر شلف ، وهذه الأقسام الثلاثة تسمى معاً أفريقية .

٣ - المغرب الأوسط : ويمتد من مجرى شلف إلى مجرى المولوية .

٤ - المغرب الأقصى : ويشمل مايل ذلك من البلاد المغربية إلى ساحل الأطلسي غرباً وإلى وادي أم الربيع جنوباً .

وأقام موسى على طنجة ابنه مروان ، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى وادى أم الربيع ، ووصلت بسلطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب ، وهنا أنشئت ولاية جديدة تسمى سجلماسة . وسجلماسة هي الواحة الكبرى التى تتكون منها مجموعة من السواحات يطلق عليها في مجموعها اسم تافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى . وبعدها مباشرة - أى بعد سجلماسة - تبدأ الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال ، وهناك كانت تقوم مدينة تسمى أودغشت وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء . وكانت الصحراء الكبرى في هذه الناحية الساحلية مأهولة إذ ذاك بقبائل هي خليط من البربر وسكان أفريقية المدارية ، وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية . وهنا في ذلك الإقليم الصحراوي ستنشأ حركة المرابطين في القرن الهجرى الخامس ، ومعنى ذلك أن قوة الدفع الإسلامى وصلت إلى ذلك البعد السحيق في ذلك التاريخ المبكر .

وهنا أى في منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الرابعة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولوية . وقد ولى موسى على هذه الولاية الجديدة مولاه طارق بن زياد الورقجومي ، وتلك هي المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير في تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس .

وعلى هذا يكون لدينا في المغرب الإسلامي الولايات التالية :

١ - برقة .

٢ - أفريقية : وتشمل أعمال طرابلس وأفريقية ثم إقليم الزاب وتصل إلى نهر شلف وعاصمتها القيروان .

٣ - ولاية المغرب الأوسط : بين نهر شلف ونهر المولوية وعاصمتها تلمسان .

٤ - ولاية المغرب الأقصى : وعاصمتها طنجة .

٥ - ولاية السوس أو سجلماسة : وعاصمتها سجلماسة .

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن وضع الأساس الإداري للمغرب الإسلامي وتنظيمه ، ففي عاصمة كل ولاية من هذه أقيمت قاعدة عربية إسلامية على رأسها وال ، واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل الناحية قواعد الإسلام ، وفي نفس الوقت أخذت العربية في الانتشار بين الناس ، وذلك لأنه على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التي قام بها موسى بن نصير وأولاده وقواده ، إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا في دولته مكاناً واسعاً للعمل ، وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه الواسع ، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء في الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقي لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه ، الذي استلزم كما سنرى وقتاً طويلاً ، ولا بد من الإشارة إلى جاذبية الإسلام وقوة أسره التي تمكنت من إدخال هؤلاء الناس في نطاق العروبة والإسلام .

في ذلك الحين كانت سن موسى تقارب السبعين من العمر ، ولكنه كان قوياً نشيطاً قاعاد بناء ميناء تونس ، واهتم بدار صناعتها (وهي الميناء ومكان بناء السفن) وهي ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، وهي لفظة إيطالية محرفة من المصطلح العربي دار الصناعة (ترسانة) ، ومن هذا الميناء الكبير بدأ المسلمون غاراتهم الأولى على صقلية وجزيرة سردينية ، كانت غارات سريعة تعود على من يقومون بها بمغانم وفيرة ، ولكنها تبدأ نشاط المسلمين الواسع في الحوض

الغربي للبحر المتوسط الذي كان يتحول إلى بحيرة إسلامية شيئاً فشيئاً وخاصة بعد فتح الأندلس الذي سنتحدث عنه بعد قليل ثم فتح صقلية الذي بدأ في أوائل القرن الهجري الثالث .

وبعد قليل نسمع أن مروان بن موسى بن نصير سئم المقام في طنجة فنقله أبوه وولى مكانه طارق بن زياد ، فاستقر هناك على رأس حامية إسلامية غالبيتها من البربر ، وهكذا نرى كيف نجح الإسلام في تأمين جناحه الغربي بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل حين قصير . وطارق بن زياد يمثل لنا الجيل الثالث من البربر المسلمين المستعربة ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله وبقية الأسماء في نسبه بربرية ، ويقال مثل ذلك عن قائد آخر يعمل مع موسى وطارق يسمى طريف بن زرعة بن أبي مدرك . وبعد ذلك وابتداء من سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م فتح طارق وموسى الأندلس على النحو الذي سنفصله في القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب .

وبينما كان موسى يتم فتح شبه جزيرة « أيبيريا » وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد ، وبلغ الأمر إلى الخليفة الوليد فاستدعاهما معا . وعاد موسى ، ذلك الشيخ الفريد في بابه من أقصى جليقية (جاليسيا) وهي الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا إلى الشرق . ومن الغريب أنه في عودته كان يظهر للناس في هيئة سيد عربي عظيم ، وكلما نزل يلدأ ضرب قسطاطه (خيمته) خارجة واستقبل الناس استقبال سيد عظيم . وكذا فعل في أشبيلية وتلمسان والقيروان والقسطاط ، ثم وصل إلى غزة ومعه طارق ، وهناك جاءه رسول من قبل ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه التريث قبل السير إلى دمشق ، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً مرض الموت ، وكان خليفته وولي عهده أخوه سليمان يريد أن يتسلم الهدايا والمغانم الواقعة التي كان موسى يحملها معه ، ولكن موسى ، ذلك المغامر الشيخ قامر بحظه السعيد مرة أخيرة وأسرع المسير إلى دمشق وكانت المنية قد سبقته إلى الوليد بن عبد الملك وخانه الحظ هذه المرة ، وعندما وصل إلى دمشق وجد أن الخليفة هو سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) فاستقبله شراً استقبال ، وأخذ منه كل ما وجد معه وأغرمه مالا

وفيراً ، فمضى ذلك الرجل ، الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربين الأوسط والأقصى ثم كل شبه جزيرة آيبيريا ، يسأل القبائل لى يحصل على الفدية ، وكان فى حوالى السابعة والسبعين من عمره وكان رجلاً بديناً ، يقام فى الشمس دون رحمة أو هودة حتى أدى ما يسره الله له ، ثم سامحه سليمان بالبقاء واتخذته نديماً ، ولكن موسى كان قد كره الدنيا والناس ولم يسعد مع سليمان ، وبعد ذلك لم نعد نسمع عنه ، ومات فى ظلال النسيان ، أما طارق العظيم فقد اختفى هو الآخر من الوجود فى صمت ، ولكنه بقى فى التاريخ ، مثله فى ذلك مثل غيره من منشئى دولة الإسلام الذين قضى عليهم سليمان بن عبد الملك من أمثال قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم الثقفى ، هؤلاء الذين وصلوا بريايات الإسلام إلى داخل غرب الصين وإلى بلاد السند وهى شمال غربى الهند فيما يعرف ببلاد الباكستان ، كل هؤلاء قضى عليهم خليفة حقود ، ضئيل الهيئة زرى الشكل ، وهو سليمان بن عبد الملك .

وفى نهاية ولاية موسى بن نصير تنتهى فترة الفتح فى تاريخ المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تصل إلى فوق السبعين سنة ، فنحن الآن فى سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م وفتح المغرب بدأ سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م ولهذا فإننا نعتبر فتح المغرب عصرأ قائما بذاته من عصور تاريخ المغرب ، فى حين أن فتح مصر استغرق سنتين ، وفتح الشام استغرق حوالى أربع سنوات ، وفتح العراق وإيران لم يستغرق أكثر من ثمانى أو تسع سنوات ، تنتهى بمعركة نهاوند التى تسمى بفتح الفتوح .



عصر الولاة

يطلق مصطلح عصر الولاة في التاريخ الإسلامي ، على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامي للبلد ، وقيام أول دولة مستقلة فيه ، أيا كانت صورة هذا الاستقلال . فحتى في الحالات التي يكون ذلك الاستقلال فيها اسمياً أي داخلاً في إطار التبعية العامة لدولة الخلافة ، فإن هذا الوضع الجديد يستتبع تغيرات أخرى في نظام البلاد الداخلي وعلاقته بالخلافة ، بل إنه في الحالات التي عاد البلد فيها إلى التبعية للخلافة ، فإن هذه التبعية لا تكون تامة قط كما كانت قبلاً ، وفي العادة إذا تغيرت الأوضاع السياسية في بلد فلن تعود إلى ما كانت عليه قبلاً قط .

ففيما يتعلق بمصر مثلاً ، ينتهي عصر الولاة بقيام الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . ومع أن ابن طولون لم يستقل استقلالاً تاماً ، فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تامة الخضوع للدولة كما كانت قبلاً ، حتى عندما زالت دولة بني طولون وعاد الحكم العباسي المباشر على يد القائد العباسي محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م .

وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهي عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة لأقطاره المختلفة . فقد انتهى عصر الولاة في المغرب الأوسط بقيام الدولة السرسيمية الخارجية الإياضية سنة ١٦٤ هـ / ٧٨١ م . وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وفي أفريقية بقيام دولة بني الأغلب سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

ولقد طال فتح العرب للمغرب كما رأينا ، وفي أثناء مراحل هذا الفتح دخلت على البلاد تغيرات بعيدة المدى ، فأسلم الكثيرون من أهلها وانضموا إلى جيوش الإسلام وأصبحت لهم بذلك كل حقوق العرب المجاهدين في سبيل الإسلام ، وانتقلت إلى المغرب جماعات من العرب واستقرت في سواحيها واختلطت بأهلها وصاهرتها وبدأ يظهر جيل بربري مسلم مستعرب ، تطلع إلى أن يكون له نصيب

في إدارة بلاده . ثم إن العرب أنشأوا لأفريقية قاعدة إسلامية تحولت بعد قليل إلى مركز إشعاع إسلامي .

وقامت في مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية ، وبدأ الجو الثقافي العام في البلاد يتغير بتأثير الإسلام والعربية . ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً مغربياً إسلامياً ، ذا تنظيم مدني واجتماعي جديد ، كان نقطة بداية لتغير عام في أوضاع المدن في أفريقية والمغرب كله . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب إلا المدن الإغريقية التي تلاشى طابعها الإغريقي وخربت وتحولت إلى قرى ، والقواعد العسكرية الرومانية التي كانت تنشأ إلى جوارها مدن رومانية صغيرة ثم القصور ، وهي القرى البربرية التي تتكدس فيها المباني ويحيط بها السور . فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وأهلها ، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الإسلام .

كل هذه كانت تطورات تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح ، لأن المغرب الذي عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذي عرفه موسى ابن نصير . ولم يتسع المجال أثناء دراسة الفتوح لدراسة هذه التطورات ، ولهذا فلا بد من الإلمام بها ونحن ندرس المغرب في عصر الولاة .

ولا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التي عاصرتها ، فهذه كانت عملية واحدة لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشاركة بين كل البلاد التي فتحها المسلمون ، ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أيضاً طبيعة الفتوح الإسلامية ، فهي لم تكن مجرد غزوات ولا غارات ، وإنما كانت فتوحاً بالمعنى اللفظي لهذا المصطلح ، أي فتح أبواب البلاد للإسلام وإدخال أهلها في الإسلام وتحويلها إلى بلاد إسلامية ، عقيدة وحضارة وعربية إذا تيسر .

وقد كانت هذه الفتوح بطبيعتها من أكبر أسباب متاعب العرب ، لأن الشعب من الشعوب إذا دخل في دولة الإسلام وأصبح شعباً مسلماً أو في ذمة الإسلام ، طالب الدولة بما يفرضه الإسلام نفسه من العدالة وحكم الشرع الإسلامي . ففي

حالة دخول ناس من هذه الشعوب في الإسلام نجد أنهم يصبحون مواطنين في دولة الإسلام . لهم كل حقوق العرب وعليهم كل واجباتهم ، وبطبيعة الحال لم يكن العرب مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، لا لأنهم كانوا طامعين أو مسلمين غير صالحين ، بل لأن هذه هي طبيعة البشر ، فالعربي الذي فتح مصر مثلاً لم يكن مستعداً بعد تمام الفتح للتنازل عن شخصيته كفاتح ، وسيد له ، كما كان يتصور ، حق السيادة على الشعب الذي فتحه ولم يكن كذلك مستعداً لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقوقهم ومساواتهم بنفسه ، فهذه دولته والدين الإسلامي هو الذي حمّله وقاتل في سبيله ، ثم إنه عربي يتكلم لغة القرآن وقومه قوم الرسول ﷺ ، فكيف نطالبه بالتنازل سريعاً عن امتيازاته ؟ ولهذا قلنا إن المشكلة الكبرى التي واجهت العرب في عصر الفتوح هي الإسلام نفسه ، ومن الغريب أننا نلاحظ في أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويهتمون العرب بالانحراف عن سبيله ، ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنص القرآن ، لا لأن العرب كانوا لا يذكرون نصوص القرآن ، بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم ، كان يحتاج إلى وقت لكي يهضموه ويتمثلوه ويطبقوه . فهم أولاً وقبل كل شيء بشر ، وقد كانوا في حاجة إلى وقت لكي تدخل قلوبهم بشاشة الإسلام ورحمته وإنسانيته ، وكان الكثيرون جداً من أولئك العرب الفاتحين قد أسلموا على عجل ، لم تتح لهم فرصة التفكير والتأمل حتى يصبح كيانهم إسلامياً أو مسلماً حقاً ، ولهذا فقد انحرفوا عن جادة الإسلام ، لا عن كفر أو سوء نية بل عن سوء فهم وقلة علم ، فظلت الجاهلية قائمة في نفوسهم زمناً طويلاً .

وعندما ننظر إلى المشاكل التي واجهت المسلمين في مهاجرهم الجديدة ، وننظر إلى الخلفية التي تكون فيها رجال ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد ابن أبيه أو عبيد الله بن زياد ومن إليهم من كبار ولاة الدولة الأموية ، نجد أن نوع التكوين الذي حصلوا عليه ليس فيه ما يعين على مواجهة مشاكل الحكم . فمثلاً إذا كان هناك وال على العراق مثل الحجاج الذي يوصف بأنه ظالم وجبار فنلاحظ أن ذلك الرجل موظف عام ، أي أنه يتصرف في الحكم بحسب ما يصدر إليه من تعليمات الخليفة ، أو كما نقول اليوم الحكومة المركزية ، وهذه الحكومة المركزية

تطالبه بمبالغ معينة من الأموال ، وهي تطالبه أيضاً بمحاربة الخوارج من ناحية وبمواصلة الفتوح من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ كيف أن ذلك الرجل كان أمام مسؤوليات لا يستطيع النهوض بها كلها على السوية المثالي ، فإن الجبايات التي تحصل له لا يمكنه إنقاص مقاديرها ، ثم إنه لابد أن يدفع منها رواتب لجنده ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يرسل فائضاً من المال للدولة المركزية ، في حين أن من يحكمهم في العراق لا يستطيعون أداء الأموال المطلوبة منهم ، أو كانوا يرون الإسلام وهو دين العدالة لن يتشدد رجاله معهم في شئون الجبايات ، ومن ثم فقد كانوا يرون ألا يجبي منهم مال الجزية ، ثم لأن مطالب الحياة كانت ترتفع ، لأن تكاليف حياة الناس تزداد كلما ارتفع مستواهم العام ، ولهذا فقد كانوا يطالبون بالتخفيف إلى أقصى حد ، في حين أن مطالب الدولة المالية كثيرة ومتزايدة حتى لا تستطيع التخفيف ، فكيف يوفق الرجل بين هذه المتناقضات كلها ؟ .

وفي المغرب نلاحظ أننا أمام شعب يختلف عن كل ما واجهه المسلمون (العرب) في غيره من البلاد التي فتحوها ، فهنا شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعي والذهني ، فهنا قبائل ورجال وشيوخ قبائل كما هو الحال في جزيرة العرب .

والتفاهم هنا بين الحاكم والمحكوم يختلف في طبيعته عن التفاهم مثلاً بين الحاكم والمحكوم في مصر . حيث العلاقة هي علاقة حاكم بفلاحين ، أي أصحاب أرض تخرج غلة معينة محددة إلى حد ما ، أما في المغرب فقد كان ولا بد أن يتغير معنى الرئاسة ، ولا بد أن تختلف علاقة الحكم بالمحكوم في نوعها فهنا علاقة زمالة في السلاح كما نقول ، ولا يستطيع العربي أن يخاطب البربري الذي أسلم وحارب في صفوف المسلمين كما يخاطب مزارعاً يقدم له غلة أرض ، ومن هنا فقد كان لابد من أن توضع سياسة خاصة بالمغرب ، ولكن من الذي يضع هذه السياسة ؟ هنا لا نجد مجالس أو لجاناً للدراسة ، وإنما نجد أمامنا حكاماً مطلوب منهم أن يجدوا حلولاً ، وطولاً ناجحة لمشاكل عسيرة على الحل أو على الأقل يتطلب حلها وقتاً ، ولكن حاجات الناس لا تنتظر ، وخصوصاً إذا كانت

حاجات معيشة . فنحن لا نستطيع أن نقول للبربر وهم شعب كبير : انتظروا حتى تدرس الدولة مطالبكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصراع في مركز الدولة على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع في الأقاليم . فالمنهزمون في الصراع على السياسة يفرون إلى الأقاليم حيث يكونون بعيدين عن متناول الدولة ثم إن البلاد المفتوحة فيها مجالات واسعة للعيش ، ومن تلك الجماعات المنهزمة مثلاً الأنصار في المدينة ، فهؤلاء بدأت هجرتهم الجماعية إلى الولايات المفتوحة عقب انهزامهم في مناقشة المنافسة على الخلافة في سقيفة بني ساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرقيق الأعلى . ثم توالى عليهم بعد ذلك الضربات من قبل خلفاء بني أمية ، وخاصة ما أصاب المدينة أيام عبد الملك بن مروان ، فنتج من ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة ، كذلك العلويون ثم الخوارج ، هؤلاء جميعاً كانوا عندما يستقرون في ولايات مفتوحة ، يستقرون أعداء للدولة المركزية . ويجتهدون في إثارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها . وكان أكثر العاملين في ذلك هم الخوارج لأنهم موتورون من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم ، هؤلاء كانوا لا يكفون عن تحريض الناس على الحكومة الأموية وإطلاعهم على أحكام القرآن كما يفسرونها هم . وتفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مظالمهم ، وفي حالة ما إذا كان الخارجي يتحدث إلى مقاتلين يتحول الغضب وعدم الرضا إلى تمرد عسكري ، وهذا هو الوضع الذي نجد أنفسنا في مواجهته بعد تمام فتح المغرب والأندلس .

الفتنة المغربية الكبرى :

عندما تم فتح المغرب والأندلس كانت المشاكل قد توالى وتكاثرت ، فإن الدولة الأموية في سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م ، كانت تعاني تغييراً حاسماً في أوضاعها في الداخل ، وفي علاقتها برعاياها في مركز الدولة والأقاليم ، فإن عمر بن عبد العزيز الذي حكم نيفاً وسنتين من سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م إلى سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م ، غير الوضع المالي في الدولة تغييراً تاماً ، عندما أنزل أو خفف مقادير الجبايات وألغى الأموال التي كان الموالي يشكون منها ، والنتيجة أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة

الوضع الجديد ، ولكن الخلفاء الذين تولوا كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق ، وبطبيعة الحال عندما يعجز الحاكم عن حل المشاكل بالمنطق أو بالعمل الإداري الخالص ، يلجأ إلى القوة والقوة تزيد المشاكل سوءاً ونادراً ما تحل مشكلة ، وفيما يتعلق بالمغرب نجد أنه بعد تمام الفتح وبداية عصر الولاة يختار الخليفة سليمان بن عبد الملك رجلاً عربياً من مدرسة الحجاج ، يسمى يزيد بن أبي مسلم ، فأراد هذا أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج مع أهل العراق ، ناسياً أنه في المغرب يتعامل مع مقاتلين مسلمين ورفقاء سلاح ، فكانت النتيجة أن قتلوه ، وواجهت الدولة طلائع ثورة في إقليم من أقاليمها الكبرى ، فلبت إلى معالجتها باللين ، فوافقت على التنازل عن الطلب بأخذ ثار الوالي المقتول ، وترك أهل أفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً ثم اختارت والياً على درجة كبيرة من الحكمة فاستقرت الأمور بعض الشيء ولكننا نواجه في المغرب مشكلة غريبة نعرفها في نواح أخرى من نواحي الدولة ، ولكنها هنا في المغرب والأندلس تأخذ شكلاً خطيراً ، لأن هذه المشكلة كانت تستعصى على الحل المقبول أمام الظروف الخاصة للمغرب والأندلس ، تلك هي مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليمنيين أو قيس وكنب (القيسية والكلبية) .

هذه المشكلة ، مشكلة القيسية والكلبية لم يعرفها العرب قبل الإسلام ، ولكنها نشأت عن طبيعة الظروف التي سادت أيام بني أمية ، فإن بني أمية أقاموا دولتهم على العرب ، وكان كل رجالهم ومقاتليهم من العرب ، وهؤلاء العرب هم عرب الشام ومن انضم إليهم . وعرب الشام كانوا ينقسمون إلى مجموعات قبلية بعضها قيسية وبعضها كلبية ، فكان بنو أمية لكي يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحاربون القيسية على اليمنية مرة ، ويحاربون اليمنية على القيسية مرة أخرى ، فأثاروا بذلك مشكلة عويصة جداً لأنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق الدولة الواسع ، ففي العصر الجاهلي كانت العصبية عدوات قبائل ، أي أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال ، ولكن بعد الإسلام لم تعد القبائل مجرد قبائل ، بل أصبحت أحلافاً واسعة من القبائل ، ثم إن موضوع النزاع في العصر الجاهلي كان صغيراً

يمكن تلافيه ، ولكن بعد الإسلام أصبح موضوع النزاع ضخماً جداً ، وهو السيادة على الأقاليم أو على الدولة كلها ، وبهذه النسبة تزداد حدة الصراع ويصبح عسيراً على الإرضاء ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك مشاكل العرب البلديين (عرب الأمصار) والعرب الشاميين (أى عرب الأقاليم) وعرب الدولة (أى جندها الرسمي العربي) .

ولا ننسى هنا أثر الخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة ، وفي النهاية ينبغي ألا ننسى أن هذه المشاكل عندما ثارت ، كان العصر الذهبي للدولة الأموية قد ولى ، وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة ، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين ، هشام بن عبد الملك وقد بذل ما يستطيع لإصلاح الناحية المالية ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد الأوان فلم يستطع أن يعمل شيئاً .

تلك هى الخلفيات التى ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنى العباس .
وفي المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفاً ، وأهم هذه العوامل هم الخوارج ،

فالخوارج الذين انهزموا في قلب الدولة ، وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة من الأزدي (يمنية) اضطروا إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة في عمان واليمن والمغرب .

هؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى ، فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة ، دولة غاصبية هى وكل من أيدها ، فالمزارع أو التاجر الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة ، وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، الذين أعلنوا الحرب على الدولة الإسلامية وجماعة المسلمين جملة ، ودعوة هؤلاء تلقى قبولا من ناس مثل البربر .

وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا يعيشون خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية .

ولكن هذه الدعوة المتطرفة لا يمكن أن تلقى قبولا من جبهة واسعة . لأنها دعوة لكل إنسان للخروج بالسلاح في وجه النظام القائم ، لهذا انحصر مداها ، وظهرت فرقة أخرى هي الصفرية لقيت قبولا أكثر ، لأن أصحابها كانوا يقولون إن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام وإنما هم متساهلون في أحكام الإسلام وحسابهم على الله ، فهم كفار نعمة لا كفار إيمان ، في حين أن رجال الدولة كفار إيمان ، فالخوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم ، فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

هذا المذهب لقي قبولا أكثر ، ولكن مذهباً خارجياً آخر وهو مذهب الإباضية (لعبد الله بن إياض) لقي قبولا أكثر لأنه لا يدعو إلى القيام على الدولة وإنما يدعو الناس الذين يؤمنون بأراء أصحابه ، إلى إقامة نظام سياسى لهم في النواحي التي لا تستطيع الدولة الوصول إليها ، وهم يأذنون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى .

هذا المذهب (الإباضى) لقي قبولا بين الناس ، وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا ، والإباضية قرييون جداً في فهمهم للشرعية من أهل السنة ، ولهذا يحسبون عادة ضمن أهل السنة ، وسنرى بعد قليل أنه على أساس المذهب الخارجى الإباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب هي دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرستمية في المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم الجمهورية الجزائرية .

تفاصيل الفتنة المغربية الكبرى :

ندخل الآن إلى بعض تفاصيل الثورة أو الفتنة الكبرى التي اجتاحت المغرب في نهاية العصر الأموى ، وخاصة في أيام هشام بن عبد الملك . وفي هذه البلاد نجد كل هذه العوامل التي ذكرناها عاملة نشيطة . فبعد مقتل يزيد بن أبى مسلم بفترة قصيرة ، أقامت الدولة على المغرب وكذلك على الأندلس ولادة من أهل الحكمة

والمعرفة بتدبير الأمور ، ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير جداً على رجل واحد ، أيا كان أن يتلافها . ففي أيام هشام بن عبد الملك أقيم على المغرب وال ينتسب إلى اليمينية يسمى عبيد الله بن الحبحاب . هذا الرجل ولى سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م على كل غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر إلى جبال الألب المعروفة خطأ بالبرانس بين إسبانيا وفرنسا ، وهذه مسئولية في غاية الضخامة ، فمهما كانت خبرة ذلك الرجل ، فهو لن يستطيع معالجة الموقف ، خاصة إذا ذكرنا أن وراءه في دمشق خلافة ضعيفة ، ولهذا نجد أنه في أثناء ولاية ابن الحبحاب تحول الغضب العام على الحكم العربي إلى إرادة ، والإرادة تحولت إلى ثورة ، لأنه وجد من يقود الناس .

بدأت الثورة في إقليم الريف الذي يسمى بإقليم طنجة ، سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، وانتشرت في قبائل بربرية كثيرة ضخمة ، كانها الشعوب مثل برغواطة وغمارة ، وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير وبطبيعة الحال لفظ (الفقير) هنا ينبغي أن يفسر على أنه لقب أطلقه هو على نفسه ، لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذي لا يطمع في شيء من متاع الدنيا ، وهو فقير إلى الله سبحانه وتعالى . ولكن المؤرخين وهم يمثلون في العادة وجهة نظر الدولة يحرفون اللقب إلى ميسرة الحقيق ويتهمونه بالخروج عن الإسلام وأنه ابتكر قرآناً وكفر بالله ، إلى آخر هذه الدعاوى التي ينبغي أن نأخذها بكل حذر ، لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن مثل ذلك الرجل الذي تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة ، وأصبح إماماً ، كان عليه أن يحل على أساس ديني مشاكل لم يكن له علم بطبيعتها أو بالحلول الممكنة لها ، فكان لا بد أن يبتكر قدر المستطاع حتى لا يفقد الزعامة ، ومن بين مبتكراته من الممكن أن تكون آراء خارجة على الإسلام .

وعلى أي حال نلاحظ أن ذلك الرجل جمع جموعه وسار للقاء العرب ، لا على أنهم عرب وإنما على أنهم حكام ظالمون ، ففي صفوف ميسرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الأموية يريدون تغيير النظام ، ومعظم أولئك العرب من الخوارج ، وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم ، لا على العرب ، فهي ليست

فتنة بربرية ضد عرب ، وإنما هي ثورة داخلية في داخل الدولة الإسلامية ومقاصدها وأهدافها إسلامية ، وليس من الضروري أن تكون مظهراً لثورة إقليمية بربرية . ولم يجد عبيد الله بن الحبحاب جنداً كافياً ليرسله لمواجهة الثائرين ، فجمع من استطاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل يسمى خالد بن حبيب للاقاة الثوار .

وكان هؤلاء قد تقدموا حتى بلغوا مجرى نهر شلف بزعمامة ميسرة الفقير ، وتردد ميسرة في اللقاء فقتله أتباعه ، لأنهم كانوا يرون التردد عاراً مثلهم في ذلك مثل بقية الخوارج ، ولوا على أنفسهم رجلاً يسمى خالد بن يزيد الزناتى ، فراجع إلى طنجة وعلى مقربة منها التقى بالجيش العربى في معركة حامية تسمى معركة الأشراف بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العرب ، وقد انهزم فيها العرب .

عقب هذا تمرد عرب القيروان على عبيد الله بن الحبحاب فاستدعاه الخليفة هشام ، وأرسل إلى أفريقية جيشاً عدته ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، عليهم قائد من غلاة القيسيين الشاميين ، يسمى كلثوم بن عياض القشيري ومعه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، وسارت معهم جموع من قوات العرب البلديين الأفريقيين يقودهم حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، وكان النزاع بين الشاميين والبلديين شديداً ، مما أضعف القوة العربية . لهذا لا غرابة في أن يهزم هذا الجيش الضخم ويقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبى عبيدة ويفر بلج بن بشر مع آلاف من الشاميين إلى سبتة ، حيث يعتصمون بأسوارها بضعة شهور ، حتى يأذن لهم والى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري ، في العبور إليه لكي يعاونوه في القضاء على ثورة قام بها البربر على العرب ، وكانت ثورة الأندلس هذه امتداداً لثورة بربر المغرب ، لأن بربر الأندلس كذلك كانوا ساخطين على الحكم الأموى وعلى من معهم من العرب في الأندلس ، لأن عرب الأندلس إذ ذاك كانوا أشد تعصباً للعروبة من عرب المغرب ، وكانت الخصومة بين الشاميين منهم والبلديين أعنف وأعمق ، وسنتحدث عن امتداد هذه الثورة البربرية في المغرب إلى الأندلس في مكانها من تاريخ الأندلس .

وبعد ذلك بقليل تمكن الخليفة هشام من أن يرسل جيشاً ضخماً من
الفرسان ، يقوده شامي متعصب يسمى حنظلة بن صفوان الكلبي ، ووصل هذا
الجيش إلى القيروان ووجدها مهددة باستيلاء الخوارج عليها . كان أولئك
الخوارج قد اختلف أمرهم وانقسموا قسمين : واحد يقوده عكاشة بن أيوب
الفزاري والثاني يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري ، وتجمع عرب القيروان
ومن فيها من العلماء والصلحاء وخرجوا للقاء الخوارج ، مدافعين عن مذهب
السنة وقاعدته أفريقية ، وفرق حنظلة السلاح عليهم وخرجوا معه ، فلقوا قوات
الخوارج يقودها عبد الواحد بن يزيد الهواري في موضع يسمى « الأصنام » على
بعد ٤٠ كم ، غربي القيروان وهزموه هزيمة منكرة بعد قتال عنيف . ثم ساروا
نحو القوة الخارجية الأخرى ، التي يقودها عكاشة بن أيوب الفزاري (من فزارة)
وهزموه في أوائل سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م ، وقد أنقذت هاتان المعركتان مصير
السنة في أفريقية والمغرب ، فثبتت أقدامها في أفريقية بعد ذلك . وتمكنت فيما بعد
من إعادة سلطاتها على المغرب كله ، وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط
وانحازت المبادئ الخارجية من إباحية وصفرية مع أصحابها إلى مناطق
صغيرة محدودة في جبال الريف أو في المغرب الأوسط أو في جبال نفوسة في إقليم
طرابلس وجزيرة جربة .

وهكذا انتهى ذلك الصراع الدموي بانتصار السنة في ولاية أفريقية ، وهي
تتكون ، كما قلنا مراراً ، من إقليم طرابلس الحالي وتونس وجزء من الجمهورية
الجزائرية يعادل محافظة قسطنطينة ، ولكن ما يهمنا ملاحظته هو أن مراكز
العمران الرئيسية في أفريقية وكانت تضم طرابلس (عدا جبل نفوسة) وأفريقية
والزاب ثم السهل الشمالي للمغرب الأقصى في حوض نهر « سبو » ، ثبتت على
مذهب السنة ، ولكنها أصبحت جميعاً تحت سلطان العرب البلديين . لأن العصر
الذهبي لبنى أمية وجند الشام انتهى بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول
من خلفاء بني أمية ١٢٥هـ / ٧٤٢م . ولم يبق من عمر الدولة كلها إلا سبع
سنوات كلها فتن وتفكك ومصاعب .

في هذا الظرف خلا المغرب الإسلامي للعرب البلديين والبربر ، وقد تقاسموه
فيما بينهم ، فأما البلديون فقد سيطروا على أفريقية ، وأما البربر فقد سيطروا
على ما عدا ذلك ، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج الزناتية ، أما البرانس أهل
الاستقرار وهم معظم السكان في المغرب ، فلم يمتد إليهم لهب الفتنة ، بنفس المدى

الذي امتد به في الزناتية ، وسيدخل أولئك البرانس مسرح الحوادث بعد ذلك شيئاً فشيئاً منشئين دول المغرب الكبرى : الأدارسة فالفاطميين ودولة بنى زيري ثم دولة المرابطين ، أما الموحدون الذين سيكونون بعد المرابطين فقد أنشأ دولتهم المصامدة ، وهم بربر جبال الأطلس الكبرى وهو برانس حضر أيضاً ، وقد سبق أن قلنا إنهم لا ينتمون إلى صنهاجة وزناتة إنما هم من البرانس .

المحاولة الأولى للعرب البلديين للسيادة على أفريقية إمارة عبد الرحمن بن حبيب وآله :

انتصرت الحكومة المركزية على يد حنظلة بن صفوان الكلبي في أفريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ، ولكنها لم تصل إلى هذا النصر إلا بمعاونة العرب البلديين فإن هؤلاء برغم التحاسد الكبير بينهم وبين الشاميين ، أي الجند الرسمي للدولة العربية ، قاموا بنصيب كبير من القتال في سبيل استخلاص أفريقية من التأثيرين على الخلافة ، ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذي ذكرناه .

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها في النصف الأول من القرن الهجري الثاني أي النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، كانت العناصر المتناقسة على السلطان في أفريقية والمغرب الأوسط والأقصى كما يلي :

١ - **العرب البلديون :** وهم العرب المحليون وكانوا يعيشون جماعات متماسكة في المدن وحولها بصورة خاصة ، وكانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية في الغالب ممن أسلموا واستعربوا فأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حساب وكانت مراكزهم القيروان وتونس والمسيلة وطبنة (في إقليم الزاب) .

٢ - **العرب الشاميون :** وهم رجال الحكومة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب ، في العاصمة القيروان وفي معسكرات الجند المنتشرة في نواحي إقليم أفريقية وخاصة تونس وطرابلس وإقليم الزاب ، وكانت أقوى عناصرهم في القيروان وتونس .

٣ - البربر : وكانت قواتهم تتكون من مجموعات قبلية بثرية في الغالب ، يتزعمها عرب دخلوا في البربر وأصبحوا منهم ، أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء وألقاباً عربية ، ومن العسير أن نتبين حقيقة أمرهم ، وقد أنشأوا إمارات أو وحدات سياسية في المغرب الأوسط والأقصى ، ويمثلهم لنا في ذلك العصر رجل يسمى أبو قرّة اليفرنى الزناتى ، وهذا الرجل أقام لنفسه دولة خارجية في إقليم تلمسان ونادى بأنه إمام بل اتخذ لقب الخلافة وصار يدعى بأمير المؤمنين ٤٠ سنة ، ومثل هذا الرجل كثيرون من الزعماء المحليين الذين انتشروا كما قلنا في المغرب الأوسط والأقصى . وجدير بالذكر أن المذهب الخارجى لهؤلاء الناس لا يبدو في صورة واضحة ، فلسنا واثقين مما يقال من إباضيتهم أو صفريتهم ، والمهم لدينا أن خارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية . ودليلنا على ذلك ولع رجالها بالوصول إلى السلطان السياسى في هذه البلاد الواسعة ، لأن الدول الخارجية الواضحة الشخصية والمذاهب التى ستظهر فيما بعد ، وسنتحدث عنها حديثاً مفصلاً ، تظهر مذاهبها الخارجية بغاية الدقة .

ولكن الذين انتصروا في حقيقة الأمر في هذا الدور من الصراع على السلطان السياسى في المغرب ، كانوا العرب البلديين ، لأن الشاميين كانوا يعتمدون أساساً على الدولة ، وكانت دولة بنى أمية إذ ذاك في أواخر سنوات حياتها ، ولهذا فإننا نلاحظ أن الشاميين سيجمعون في جماعات صغيرة في معسكراتهم . وعندما تقوم الدولة العباسية سينتقلون إلى ولائها في الظاهر على الأقل .

وكان يمثل العرب البلديين عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع ، فقد كان يمثل بيتاً عربياً عريقاً طالعت اقامته في البلاد حتى صار من أهلها ، وجدير بالذكر أن نفراً من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم ، خلفوا وراءهم في المغرب بيوتاً عديدة الأفراد كثيرة الأتباع ، كان لها دور كبير في تاريخ المغرب فيما بعد . وأشهر هذه البيوت بيت عقبة بن نافع ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وإخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار ، وهذه البيوت سيتجه كل منها اتجاهها خاصاً به : بيت عقبة بن نافع سيتجهون إلى السياسة ، أما بيت

أبى المهاجر دينار فسيّجّهون إلى العلم ، أما أبناء موسى بن نصير فكان اهتمامهم بشئون المال والتجارة .

كان عبد الرحمن بن حبيب زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على سمعة جده عقبة بن نافع ولكنه كان على خلاف جده ، إذ أنه كان ذا طموح سياسى وكان رجلاً أنانياً وصولياً اتجه إلى الاستقلال بالبلاد ، ومن أسف أنه لم يكن يتمتع بملكات سياسية أو أخلاقية ، تمكن له من الثبات وتنظيم أمور دولة يمكن أن يكتب لها العمر ، فقد كانت الفرصة مواتية أمامه فسلطان الدولة تلاشى والناس في حاجة إلى قائد يخلصهم من الفوضى ، وكان عبد الرحمن بن حبيب يستطيع فعلاً أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن في الأندلس ، ولكنه هجم على الإمارة دون استعداد ودون تفكير سياسى ودون سند أخلاقى ، ولم يحاول أن يكتسب الشرعية عن طريق الدخول في طاعة الدولة الجديدة وهى الدولة العباسية ، وكذلك لم يحاول الاتحاد مع العناصر العربية الموجودة في البلاد ، بل لم يفكر في الاستعانة بالبربر ، ثم إنه كان بطبعه رجلاً قليل التدبير ، سريعاً إلى الحركة مما أضعف مركزه من أول الأمر ، وبعد أن أعلن نفسه أميراً على القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، بعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور فبحث هذا يطالبه بالمال ، وقد أخطأ أبو جعفر في ذلك فلم يكن هناك في أفريقية مال في ذلك الحين ، فالبلد في فوضى والجباية معطلة ، ولم يكن من عبد الرحمن ابن حبيب إلا أن أرسل إلى أبى جعفر يسبه ويخرج عن طاعته ، ومن الواضح أن الخروج على طاعة الدولة الإسلامية العامة في ذلك الوقت لم يكن بأمر ذى بال من الناحية الفعلية ، ولكنه كان هاماً من الناحية القانونية ، لأن هيبة الدولة الإسلامية العامة وهى العباسية إذ ذاك ، كانت لا تزال قائمة في النفوس ، ولم تكن جماهير المسلمين تقبل هذه الفكرة ، ولو أنه حصل على تأييد ولو إسمى من الخلافة القائمة لتعزز مركزه . ولكنه عندما انفصل عن الدولة لم يستند إلى أى سند شرعى (نلاحظ أن عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولته في قرطبة ، ظل يخطب للعباسيين رغم ما نعرف من عدائهم لبيته ، ولكنه استمر على الولاء الاسمى لهم حتى ثبت سلطانه واكتسب الشرعية ثم انفصل عن الدولة) .

أما عبد الرحمن بن حبيب فخرج على الدولة من أول الأمر ، وحاول أن يخضع أهل البلاد بالقوة ونحن نعرف أن قوته لم تكن شيئاً يذكر ، وقد اعتمد أساساً على أخيه إلياس وكان قائداً عسكرياً قادراً ، ومن المؤكد أن إلياس كان أصلح من أخيه عبد الرحمن ، وهذا هو الذي جعل عبد الرحمن يخاف منه ، لأن إلياس كان يجمع حوله طائفة من الفرسان والمقاتلين ، وكان قد كسب ولاءهم واستطاع أن يقودهم قيادة حسنة .

وكانت الصعوبة الكبرى التي واجهها عبد الرحمن بن حبيب ، هي مشكلة الخوارج ، الذين كانت قواتهم قد تجمعت في جبل نفوسة في طرابلس ، وكان يتولى رياستهم زعيم خارجي ممن تلقوا تعاليم الخارجية الإباضية في البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (نسبة إلى قبيلة من غرب اليمن تسمى المعافر) . هذا الرجل كان عالماً حقاً في المذهب الإباضي وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن ابن رستم .

نعود إلى تتبع أخبار عبد الرحمن بن حبيب لنقول : إن هذا الرجل كان يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه ولافرريقية ، لو أنه كان على شيء من الرزانة والحكمة والكفاية في الأعمال الإدارية التي تصدى لها ، لكنه تجلى عن رجل غير ثابت ، سريع إلى الحركة ، غير واضح السياسة ، فنفر منه الناس سواء العرب أو البربر وتصدى له نفر من أتداده من العرب ، ووقعت الحروب بينهم . وكان يتولى قيادة جيش أخيه إلياس القائد الكبير ، وكان ولي عهده ، وهنا نرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع يغدر بأخيه إلياس فيعزله عن ولاية العهد ، ويقيم ابنه حبيباً مكانه فغضب إلياس ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بمقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه إلياس .

وهنا نجد أن حبيب بن عبد الرحمن يسير مع جماعات من البربر لحرب عمه ويقتله ويتولى مكانه ، ولم تدم ولايته طويلاً إذ تغلب عليه عمه عبد الوارث ، ففر حبيب إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربة تسمى « ورفجومة » وهي قبيلة طارق ابن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل ، وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية ، واقتحم القيروان وقضى على بني حبيب وأقام حكماً خارجياً صفرياً في البلد . ولكي يؤكد احتقاره للمذهب السنة دخل

رجالهم بخيلهم المسجد الجامع وربطوا خيلهم فيه . بذلك نجد أن أفريقية التي كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة في فتحها وإقرار أمورها ، انتهت بعد العناء إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية .

هذا الموقف دفع الخوارج الإباضية المسيطرين على جبل نفوسة وناحية طرابلس ، إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها ، بزعمهم أن الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . وتم لهم ذلك وانتقلت أفريقية من سلطان الصفرية إلى الإباضية . كل هذه الحوادث أقرعت أبا جعفر المنصور وكان قد اتجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة ، فأمر واليه على مصر وهو محمد بن الأشعث بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج منها وتم له ذلك ، وعادت أفريقية إلى مذهب السنة . وفي الصراع بين الخوارج ورجال السنة وهم رجال الدولة العباسية ، قتل أبو الخطاب زعيم الخوارج الإباضية ، ففر الباقيون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، خارج الحدود العباسية لدولة بني العباس ، وانحاز نفر منهم إلى جبل نفوسة وسنسمع عنهم بعد قليل .

محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية المهالبة

لم يكتف أبو جعفر المنصور بذلك ، لأن الخوارج لا زالوا على قوتهم ، فسارع بإعداد جيش جديد أرسله إلى أفريقية بقيادة محمد بن الأشعث ، فاستقر في القيروان واجتهد في إقرار الأمن في أفريقية وبذل بالفعل جهودا كبيرة في ذلك السبيل ، وعندما انتهت ولايته في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، عهد هذا في ولاية أفريقية إلى زعيم من زعماء العرب البلديين في مصر ، وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ، وكان فارساً شهماً ، في المسير إلى المغرب ، فسار إلى أفريقية مع أهله ومن بينهم ابنه إبراهيم . ودخل أفريقية وجعل ينظم أمورها ، ولكن الخوارج عادوا مرة أخرى يهاجمون أفريقية بزعماء رجل جديد يسمى أبا حاتم وتمكن أبو حاتم من قتل الأغلب بن سالم بن عقال ، فنجى ابنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة في إقليم الزاب وهنا استقر وأخذ يمهّد الأمر لنفسه .

أصبحت أفريقية مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية ، فهي بلد بعيد عن مركز الخلافة ، تعيش فيه جماعات متحاربة متعادلة ، بعضهم من أهل السنة وبعضهم من الخوارج يشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب وبعضهم بربر . وكان لا بد من إيجاد حل تستقر به أحوال ذلك البلد ، فانتهى رأى أبي جعفر إلى أن يولى هذه الناحية واحداً من كبار رجاله ذوي الكفاية ، ويطلق يده في الأمور حتى يستطيع أن يخلص بأفريقية من الفوضى والقلق . ووقع الاختيار على رجل من بني المهلب بن أبي صفرة ، ذلك القائد الإداري الكبير الذي عاش وعمل في العصر الأموي . وكان المهالبة من الأزد ، وهم من عمان ، ولذلك يعرفون بأزد عمان . وهذا الرجل هو أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبي . ووصل ذلك الرجل إلى أفريقية سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ، وبدأ بذلك عصر قصير مدته خمسة وعشرون سنة من الاستقرار النسبي في أفريقية هو عصر المهالبة ، لأن هذا الرجل

لم يذهب وحده ، بل أخذ معه نفرأ من أهل بيته من آل المهلب ، وقوة عسكرية كبيرة . وكان المهالبة في جملتهم أهل استقرار وخبرة بشئون الإدارة ، وسنرى أن عصرهم القصير سيكون عصراً حاسماً بالنسبة لتاريخ أفريقية كولاية إسلامية ومركز من مراكز السنة والجماعة ، وكذلك بصفتها مركزاً من مراكز العروبة . وكان على أبي حفص عمر المهلبى أن يواجه الخوارج الإباضية ، الذين كان يتزعمهم أبو حاتم وتمكن أبو حفص عمر من الانتصار عليه أول الأمر ، ولكنه انهزم وقتل سنة ١٥٤هـ / ٧٧١ م — وحل محله واحد من كبار المهالبة ، بل من كبار العرب في عصر أبي جعفر المنصور ، وهو يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم أبي حفص . وكان يزيد يتولى أمر مصر فأمره أبو جعفر بالمسير إلى أفريقية فانتقل إليها واستقر فيها سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ م وبدأ في تاريخ أفريقية عصراً من الاستقرار والازدهار وهو عصر المهالبة .

كان يزيد بن حاتم سيداً عربياً يتميز بكل ما يميز به سادة العرب في تلك العصور من رئاسة وشهامة وكرم ، وكان الشعراء يمدحونه ، إذ أنه كان بعيد الصوت في دولة بنى العباس . وتمكن هذا الرجل من إقرار الأمور مستعيناً بقومه من الأزد ، ولم يكن يطمئن كثيراً إلى الجند الخراسانى ، الذى كان في ذلك الحين عماد القوة العباسية . ولابد أن نلاحظ أن ما نسميه بالجند الخراسانى لم يكن كله ولا جله من الموالى ، بل إن لقب خراسانى كان يطلق في المقام الأول على عرب خراسان ، أى العرب الذين ولدوا في خراسان ونسبوا إليها . والجند الخراسانى الذى سار مع أبى مسلم الخراسانى للقضاء على بنى أمية ، كان في غالبية جنداً عربياً ، لأن الحركة العباسية لم تكن ثورة فرس على العرب كما يقال ، وإنما كانت ثورة عرب على عرب ، هدفها تغيير الأوضاع داخل نطاق الدولة الإسلامية العربية وكلامنا هذا عن طبيعة الجند الخراسانى الذى اعتمدت عليه الدولة العباسية ، يجعلنا نفهم كيف أن الدولة العباسية على ضخامة جيوشها وسعة ثروتها وعظم جاهها ، لم تكن دولة فاتحة ولم تشتهر بالقوة العسكرية ، ولهذا لم يفتح بنو العباس شيئاً زيادة على ما فتح بنو أمية ، وكان قصارى جهدهم المحافظة على الموجود .

ولكن على الرغم من سوء المادة العسكرية التي اعتمد عليها يزيد بن حاتم ، فإنه استطاع بكفائته الشخصية ، أن يقر الأمور في أفريقية ، ويقيم حكماً عادلاً زاهراً مدة خمسة عشر عاماً من الهدوء ، أي من سنة ١٥٥ — ١٧١ هـ / ٧٧٢ — ٧٨٧ م .

جهود يزيد بن حاتم في أفريقية :

حكم يزيد بن حاتم أفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات القليلة من أصعب فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً على أفريقية وفائدة لها ، فقد كان الرجل ذكياً نشيطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة ، وكذلك كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغار ، وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة والجماعة .

دخول المذهب المالكي إلى المغرب وتحول أفريقية إلى حصن السنة والجماعة في المغرب :

والمذهب المالكي هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الفقه الإسلامي ، وهو أولها ظهوراً ، فقد توفي مالك بن أنس منشاء هذا المذهب ، ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وهو إمام دار الهجرة ، لأنه عاش ودرس في مدينة الرسول ﷺ ، وقد بدأ حياته محدثاً أي جامعاً للحديث حافظاً له ، ولذلك يلقب بأمير المؤمنين في الحديث . ومن الحديث انتقل مالك إلى التشريع أي إلى استخراج الأحكام من الأصول ، والأصول عند مالك هي : القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة ، أي أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن إذا وجد فيه نصاً صريحاً ، فإذا لم يوجد استعان بالحديث الشريف ، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيد في هذه القضية ، قاس الأمور على نظائرها واستعان في ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة ، مما أقره رسول الله ﷺ ومن اتبعه من الصحابة . ومن ذلك كله استخرج مالك رأيه ومذهبه ، ولهذا يسمى المذهب المالكي بمذهب الرأي ، وهو عندهم رأي مالك ، ويمتاز المذهب بالوضوح والحسم والمنطقية ، فهو لا يترك الإنسان محيراً بين آراء شتى ، كما تجد في المذهب الحنفي الذي أنشأه أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ويمتاز المذهب المالكي بنصه نصاً واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدتها

المسلمين ، والمحافضة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ، ولهذا السبب لقي هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الناس . وارتفع شأن مالك وأصبح نموذجاً لرجل العلم في تاريخ الإسلام ، خاصة وقد كان الرجل عزوفاً عن المناصب ، صارقاً جهده كله إلى العلم ، وأعانه على ذلك أنه كان ميسور الحال على الهمة ، لا يتدنى إلى طلب وظائف أو يسعى إلى قربى من سلطان ، وكان رجلاً حسن السمعة عظيم الهيبة ، يلبس أحسن الثياب ، ويجلس لطلابه في هيئة جليلة ، ويسود مجلسه وقار وهيبة تزيد على هيبة السلاطين ، وكان يعمل ذلك بقوله «إنما أرفع جاه العلم» . ومن هنا أعلی مالك مرتبة العلماء وبهر الشبان ، فأقبلوا عليه يدرسون مذهبه وأسلوبه في الحياة ، أو ما يسمى بشمائل مالك ، ومن هنا أصبح مالك بن أنس شخصية حضارية لا مجرد عالم متقن للعلم .

ولهذا تجد أن دخول المالكية في المغرب والأندلس ، لا يعتبر مجرد دخول مذهب فقهي ، وإنما هو دخول أسلوب حضاري ، فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم وأهله إلى مستوى اجتماعي بل سياسي ، جعل العلم رمزا من رموز القوة والسلطان . وإذا كان تاريخ المسلمين قد انحرف في العصر العباسي الثاني ، حتى أصبح السلطان في يد الأجانب عن البلد في كل مكان تقريبا ، وأصبحت القوة العسكرية قوة أجنبية مرتزقة في معظم بلاد المسلمين ، وحرم أهل البلاد في كل بلاد الإسلام من حقوقهم الشرعي في تولي أمور بلادهم ، فقد اتجهت همه الناس إلى بلوغ القوة والجاه عن طريق العلم والدراسة ، وضرب لهم مالك المثل في ذلك ، بما ذكرناه من خصاله وأسلوبه في الحياة والعمل ، وبلغ بذلك مكانة اجتماعية كبرى وقوة سياسية كان بنو العباس يحسبون لها كل حساب ، فاجتهد الطامحون من شباب أهل العلم في محاكاة مالك بالسيرة والطريق والتأسي به في أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم . وبلغ الكثيرون منهم بذلك مراكز عالية ومناصب ذات خطر في بعض البلاد ، وأصبح رجال العلم أي الشيوخ ، هم رؤساء الناس في كل جماعة إسلامية أخذ شيوخها بمذهب مالك ، وهذه الظاهرة الحضارية السياسية مرجعها إلى ذلك العمل الجليل الذي قام به مالك بن أنس وتلاميذه .

دخل مذهب مالك بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه ، ممن تفقهوا بعلمه

واقتنوا أسلوبه في التدريس وفي الحياة ، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً
كالْمذهب المالكي ، يجمع الناس على رأي واحد في القضية الواحدة ، دون أن يفرق
أذهان الناس حول قضايا الفقه ، كما كان الخوارج يفعلون ، ومن ناحية أخرى
فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء ، فيعطيه مالهم ويأخذ حقه منهم ،
فعندما أقبل هارون الرشيد إلى المدينة ، طلب أن يأتيه مالك فاعتذر مالك وعندهما
لقى الخليفة وهو هارون الرشيد ، قال له : « لا أحب أن يرانى الناس ساعياً إلى
السلطان حاملاً حديث ابن عمك رسول الله ﷺ » ، فاعجب رده الخليفة وزاد من
قدر مالك في نظره .

وعندما تحدث معه وجد فيه رجلاً مكتمل الشخصية واسع العقل والعلم
حسن التصرف ، جميل السمات ، فزاد في كرامته في حين أن أبا جعفر المنصور
أهانته واعتدى عليه عقاباً له على قوله الحق .

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم
في المساجد ، ومنهم نفر من أجل مؤسسى الفقه الإسلامى ، كالإمام الأوزاعى ،
الذى انتشر مذهبه في الشام كله ووصل إلى الأندلس . ولكن مالكا كان استاذاً
بمعنى الكلمة — نظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه ، واتخذ في داره مجلساً
للتدريس وأقام لتلاميذه عريقاً ومقرئاً ، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع
الطلاب وحفظ النظام أثناء الدرس .

وكان مالك لا يجلس للإقراء إلا في أحسن ثيابه ، وكان حريصاً على النظافة
وكان يطلب إلى تلاميذه الصمت التام أثناء إلقاء الدرس ، فإذا شاء طالب أن يسأل
شيئاً فيكون ذلك في آخر الدرس . ومع ذلك فقد كان مالك إذا أتت من تلميذ
استعداداً حسناً ، خصه بدرس له وحده ، كما فعل مع المغربي القيروانى الجليل
ابن راشد . ولم يكن مالك يتكسب بالعلم ، فما أخذ يوماً من طالب درهما ولا هو
كان يقبل الهدية ، وكان عند إلقاء درسه فياضاً مسترسلاً ، ينتقل من نقطة إلى
نقطة بنظام وهدوء ، وكل هذا فتن تلاميذه به وجعلهم يدرسون شخصه وأسلوبه
في الحياة والعمل ، كما كانوا يدرسون علمه . وبالفعل كان هناك طلاب يفرغون
من سماع الحديث والفقه على مالك ، ثم يمضون بعد ذلك يدرسون ما يسمى عند

مؤرخي المذهب ، بشمائل مالك ، وأهمها إلى جانب العلم الغزير ، احترام النفس والترفع عن الصغائر وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام . وكان مالك يقول إنه بذلك يرفع جاه العلم ، ولا عجب والحالة هذه أن يطلق الناس عليه لقب « أمير المؤمنين في الحديث » ، ولا غرابة كذلك في أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالكا في بلده . رجلاً غزير العلم ، منصرفاً إلى الدرس ، مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه . هذه الناحية تهمنا بصفة خاصة ، لأن أولئك الفقهاء الذين التزموا هذا المسلك ووفقوا فيه ، أصبحوا رؤساء الناس في بلادهم . حقا كان هناك أمراء وحكام وأصحاب سلطان سياسي ، إما مستقلين ببلادهم أو تابعين لدولة الخلافة في بغداد ، ولكن الناس اختصوا الفقهاء بتقنتهم واعتبروهم قاداتهم وأصحاب الرأي فيهم ، في كل مكان انتشر فيه المذهب المالكي ، في المغرب والأندلس خاصة .

أدخل مذهب مالك في المغرب نفر من أجلاء الشيوخ من أمثال عبد الله بن فروخ الفارسي وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد وأسد بن القرات ، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً ، وقد اكتسبوا الكثير من خصال مالك وتمكنوا من مذهبه ، وسمع بعضهم كذلك على أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، فقيه العراق وصاحب المذهب الحنفي المعروف . ولكن قلوبهم ظلت معلقة بمالك دون غيره ، وتمكنوا بفضل إخلاصهم وعلمهم وزهدهم ، من أن يجعلوا المذهب المالكي هو المذهب المقرر المعترف به رسمياً في أفريقية ثم في بقية المغرب بعد ذلك . وعلى أيديهم بدأت المالكية في المغرب تاريخها الطويل ، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهي بل كانت عنصراً حضارياً له أثره في كل نواحي الحياة في المغرب الإسلامي ، ويكفي أن نشير هنا إلى ما ذكرناه من أن الفقهاء المالكيين أصبحوا رؤساء الناس وقاداتهم ، في حين توالى أخطاء رجال السياسة وشيوخ القبائل ، ما بين صنهاجين وزناتيين ، مما أياس الناس منهم ومن الحكومات القائمة جملة . وقد عرف أولئك الفقهاء كيف يحافظون على أمة الإسلام في أفريقية ملتفة حول مذهب السنة والجماعة ، وقد رأينا كيف تمكن حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤ - ١٢٧ هـ / ٧٤٢ - ٧٤٥ م) من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج ، ما بين صقورية وإباضية والاحتفاظ بها جزيرة سنية ، تعصم بها السنة والجماعة ، وكان هذا

في حقيقة الأمر إنقاذاً للإسلام في المغرب كله ، ولذلك يعتبر حنظلة بن صفوان الكلبى هذا ، من بناء تاريخ المغرب الإسلامي .

نعم إن الأخطار لم تتلاش ، وعاد الخوارج يحاولون انتزاع أفريقية نتيجة لسوء سياسة عبد الرحمن بن حبيب الفهري وآله ، ولكن أهل أفريقية نجحوا في التمسك بوحدة قطرهم المذهبية والفكرية ، فثبتت أفريقية بفضلهم لمحاولات الزعيم الخارجي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، الذي دخل القيروان مع أتباعه من الخوارج الإباضية ، قادمين من طرابلس ، بحجة إنقاذها من الخوارج الصفرية ، وانتهى الأمر بانتصار محمد بن مقاتل العكي العباسي ، وبانتصاره هذا مكن للسنة والجماعة ، وقتل أبي الخطاب في صفر ١٤٤ هـ / مايو ٧٦١ م ، وانتصار حنظلة بن صفوان ثم محمد بن الأشعث ، الذي عبد الطريق أمام العباسيين ليرسلوا إلى أفريقية عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب في صفر ١٥٦ هـ / يناير ٧٧٣ م ، وهو أول المهالبة ومنهم يزيد بن حاتم الذي نتحدث عنه الآن ، والمهالبة هم الذين ثبتوا مذهب السنة والجماعة في أفريقية ، وعلى أيديهم تلاشى كل خطر خارجي على أفريقية . واتجه الخوارج إلى المغرب الأوسط خارج سلطان الدولة العباسية حيث أنشأوا إمارة الخوارج الإباضية ، على يد عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وتلك هي الدولة الرستمية الخارجية الإباضية التي اتخذت من تاهرت قاعدة لها ابتداء من سنة ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وستتحدث عنها في حينها .

وهكذا أصبحت القيروان بفضل أولئك الفقهاء ، وما بذله يزيد بن حاتم من جهود مركزاً للعلم الإسلامي ، لا يقل عن البصرة والكوفة والفسطاط ، وهي حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضاري في المغرب .

المهم لدينا أن نجاح يزيد بن حاتم جعل الدولة العباسية تترك أمر أفريقية في أيدي أهل بيته ، الذين عرفوا بالإخلاص للدولة ، فتوالى المهالبة على حكم أفريقية وأهمهم بعد يزيد بن حاتم أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عنه كفاية وقدرة ، وقد حكم ثلاث سنوات انتهت سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

وكان آخر المهالبة وهو الفضل بن روح بن حاتم الذي تولى سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ، ولم يحكم إلا سنة ونصفاً تقريباً فإن جند أفريقية والمغرب لم يرضوا عن استبداده ، هو وآله ، بكل الوظائف والولايات الكبرى في البلاد ، وثاروا عليه بقيادة عبد الله بن عبدويه بن الجارود قائد جند تونس . وتمكن هذا القائد ونفر آخر من القواد من عزله ثم قتله سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م وتقاسموا الإدارات والنواحي فيما بينهم .

ومكذا انتهت رئاسة المهالبة في أفريقية بعد حوالي ربع قرن من أواخر أيام أبي جعفر المنصور العباسي ، إلى أوائل أيام هارون الرشيد . وفترة المهالبة على قصرها تعتبر من أهم فترات تاريخ المغرب الإسلامي - ففي أثنائها استقر الأمر للمذهب السني بصورة نهائية في أفريقية ، وسادت المالكية وانتهى أمر الاجيال الأولى من العرب البلديين ، بعد أن فشلوا في السيطرة على البلاد ، وحلموا كما رأينا فيما رويناه من أخبار محاولة عبد الرحمن بن حبيب ، بالاستقلال بأفريقية ، فأوقعوا البلاد في الفوضى والاضطراب . وبعد ذلك اندرج معظم العرب البلديين في أفريقية في غمار الناس ، وأصبحوا من جملة أهل المغرب ، وسيكون لاندراجهم هذا أثر بعيد في تعريب البربر ونشر الإسلام السني بينهم .

وهؤلاء العرب الذين أصبحوا مغاربة هم الذين يسمون « عرب القفج » وستظل جماعة منهم تطلب الحكم ، ولكن غالبيتهم العظمى انصرفت عن السياسة ودخلت في الناس وكان لهم أثر بعيد في تعريب المغرب .

نهاية عصر الولاة وبداية عصر الدول المحلية في أفريقيا والمغرب

بعد نهاية المهالبة عاشت أفريقية سنوات من الفوضى ، إذ اشتد تناقض زعماء العرب في البلاد في الوصول إلى السلطان في القيروان أو في الانفراد بالسلطة السياسية في نواحيهم ، وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية أفريقية ، وتضم - كما قلنا - ولايات طرابلس وأفريقية (تونس) والزاب ، وهو الجزء الشرقي من جمهورية الجزائر الحالية (ويقابل اليوم محافظة قسطنطينة) وبذلت الدولة العباسية - كما رأينا - جهوداً ضخمة للمحافظة على هذه الولاية تابعة لها داخل إطار السنة والجماعة ، وقد رأينا ما بذلته من جهود في ذلك السبيل ، وقد توجت هذه الجهود بانتصار حنظلة بن صفوان في موقعة القرن والأصنام بجهود المهالبة ، التي ثبتت - كما رأينا - قواعد النظام والسنة والجماعة في أفريقية ، وجعلت منها جزيرة أمان واستقرار نسبي وسط المغرب ، الذي اجتاحتها الفتن وحركات الخوارج من كل ناحية .

ولكن الدولة العباسية لم تستطع رغم جهودها أن تمد سلطانها إلى أبعد من إقليم الزاب غرباً ، وقد قرر الجغرافي اليعقوبي ، الذي زار أفريقية في عصر الأغالبة ، أن تنتهي سلطة العباسيين غرباً ، كانت مدينة أرية الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف ، ومعنى ذلك أن ما يلي نهر شلف غرباً ، كان خارجاً عن سلطان الدولة العباسية ، وكان منطقة فراغ سياسي حقيقي .

هنا ، في ذلك الفراغ السياسي الذي امتد من مجرى شلف إلى ساحل المحيط ، قامت أول الأمر وبعد الفتنة المغربية الكبرى ، إمارات محلية كثيرة ، معظمها خارجي زعمائها عرب معادون لدولة الخلافة أو بربر مستعربة . وأشهر هذه الدول وأطولها عمراً إمارة أبي قرّة المغيلي الخارجي الصفري ، الذي نادى بنفسه إماماً وخطوب بأمر المؤمنين مدة أربعين سنة في إقليم تلمسان .

ومن أشهر هذه الإمارات المحلية كانت إمارة نكور التي أنشأها حوالي سنة ٩٦هـ / ٧١٤ م زعيم عربي يسمى صالح بن منصور الحميري ، في قطعة من ساحل المغرب الأقصى ، تمتد من مليلة إلى الحسيمة ، وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون . ولكن هذه الدولة كانت سنية ، وقد شدت أزر نفسها بالدخول في ولاء بني أمية الأندلسيين (قامت دولتهم سنة ١٢٨هـ / ٧٥٦ م) وكانوا سنية متشددين ، وقد بذلوا جهوداً كبيرة في نصرته السنة في المغرب الأقصى . وقد عمرت دولة نكور طويلاً ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف في أثناء الصراع الطويل بين الأمويين الأندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى . ولم تنته إلا على أيدي المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي) .

أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب :

ونعود إلى أفريقية وهي موضع دراستنا الآن فنقول إن الإدارة العباسية أقامت عليها أيام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد في بابيه ، هو هرثمة ابن أعين ، وكان من أكبر رجال الحزب العربي في بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً في الحروب والولايات ، فكان اختيار هارون الرشيد إياه لولاية أفريقية اختياراً موفقاً ، لأن المشكلة الرئيسية التي كانت تقلق بال الدولة من ناحية أفريقية في ذلك العصر ، كانت مشكلة عرب أفريقية الذين كانوا يتجمعون في المعسكرات في سوسة وتونس وبجاية والقيروان وطبنة وغيرها من مدن ولاية أفريقية وتنافسهم وحربهم بعضهم مع بعض ، ومعاداتهم لكل وال ترسله الدولة . وقد رأينا ما صنعه عبد الله بن عبدويه بن الجارود مع الفضل بن روح ابن حاتم . أقبل هرثمة بن أعين إلى أفريقية وهو عربي صريح ، وفي نيته أن يضع حداً لفتنة الأعراب كما كان الناس يسمونهم في ولاية أفريقية .

حكم هرثمة بن أعين أفريقية سنتين (١٨٠ - ١٨١هـ / ٧٩٦ - ٧٩٧ م) هابه أثناءها رؤساء العرب وركنوا إلى الهدوء . وأتيحت له بذلك الفرصة ليعمل على تجديد ما تخرب من المدن والموانئ والمنشآت وليعيد ثقة الناس في الدولة .

وقد اهتم هرثمة بن أعين بالإنشاءات ، فجدد إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان ونظم الأسواق في القيروان واهتم ببناء قصور العباد .

والقصور جمع قصر ، ويراد به في أفريقية شيء يشبه الدير عند النصارى ، أى بناء كبير ينشأ على ساحل البحر وربما على حدود الصحراء لكى يقيم فيه أولئك الزهاد الرباط على حدود دار الاسلام وثغوره والاشتراك في محاربة أى عدو يهاجم بلاد الإسلام ، لهذا كان العباد والزهاد من أهل القصور يسمون أيضاً مرابطين ومثاغرين يقضون أعمارهم في العيادة وحماية أرض الإسلام .

وكان أولئك العباد والزهاد يعيشون في قصورهم ورباطاتهم حياة مشتركة : يأكلون معا ويصلون معا ، ولكل منهم خلوة صغيرة يتعبد فيها وحده ويقرأ القرآن ساعات معينة من الليل والنهار ، وكان القصر يضم مسجداً للصلاة .

وفي العادة يبني القصر على هيئة حصن عالى الأسوار . ويكون من طابقين : الطابق الأول عام ، فيه المسجد وقاعات الدروس وقراءة القرآن والطعام ، ويخصص الدور الثانى للخلوات . فبعد صلاة العشاء الآخرة يأوى كل عابد إلى خلوته ليتعبد ويصلى ، ويقوم ما شاء الله له أن يقوم من الليل ، ثم ينام ليصحو مع الفجر ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، فيقوم نفر منهم في أبراج الحراسة بالتناوب بالليل والنهار ، وللقصر أو الرباط شيخ من أهله هو رئيسه ومنظمه والمسئول عنه ، ويكون في العادة من أجلاء الشيوخ ، الذين يرفعهم الناس إلى مراتب الأولياء فيكتسبون بذلك جاهاً وهيبه في القلوب ، تمكن لهم من إدارة مثل هذه المنشآت التى كانت تضم في بعض الأحيان مئات من العباد والزهاد . وكان يحيط بالقصر في العادة أرض تعتبر ملكه ، ويقوم الزهاد بزراعتها للتقوت بمحصولها ، لأن المفروض أنهم يعيشون من عمل أيديهم ولا يأكلون إلا مالاً حلالاً .

وقد أبدع أهل المغرب خاصة ، في إنشاء هذا الطراز من القصور ، وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الأغالبة بالرباطات ، فأنفقوا عليها بسخاء . وقد بقيت لنا بعض هذه القصور إلى اليوم ، مثل قصر المنستير على الساحل الشرقى لتونس ، وهو بناء جميل ، رممته

الحكومة التونسية وأصبح من روائع العمارة الإسلامية في المغرب ، وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب في سوسة ورباط تونس ورباط بونة التي تسمى اليوم عناية إلى جانب رباط المنستير .

وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور ، أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة . وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء في صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة . ومن هنا فقد كانوا في الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة ، خاصة وقد امتازوا بصدق وإخلاص وإيمان عميق بالمذهب السني ، وكانت ثقة الناس فيهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملاً إيجابياً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة في أفريقية .

وبعد سنتين من الحكم ، رأى هرثمة بن أعين أنه قد قام بمهمته في أفريقية وأقر الأمن في البلاد ، ولكن الحقيقة أنه قد تعب وتاقت نفسه للعودة إلى بغداد .

أصل الأغلبية : إبراهيم بن الأغلب :

وكان من بين كبار عرب أفريقية رجل يسمى الأغلب بن سالم بن عقال التميمي . كان أصله من عرب مصر ، وكان من كبار رجال الجيش ، وعندما أرسلت الخلافة الوالي محمد بن مقاتل العكي إلى أفريقية كلفت الأغلب بن سالم ابن عقال بالمسير معه في نفر من جند مصر ، فدخل أفريقية واستقر والياً على الزاب ، وكان هنا تميميون كثيرون ، ثم قتل الأغلب بن سالم بن عقال في حرب الخوارج ، فأقام هرثمة ابنه إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، وكان إبراهيم شاباً نشيطاً ذكياً مثقفاً ، كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم في مصر ، ودرس على الليث بن سعد ، ولكنه عندما دخل أفريقية اتجه إلى السياسة وجمع التميميين حوله ، وصار من أكبر الشخصيات العربية في المغرب ، وأنس فيه هرثمة بن أعين كفاية وإخلاصاً فقرّبه وأعلى مكانته .

وعندما أراد هرثمة أن يعود إلى بغداد ، اقترح على هارون الرشيد أن يقيم إبراهيم بن الأغلب عاملاً على أفريقية ، فاشترط إبراهيم على دولة الخلافة أن

تقييمه على أفريقية بصورة دائمة ، فهو شديد الإخلاص والولاء للبيت العباسي ، ثم إنه رأس التميميين وهم أكثر عرب أفريقية ، وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب . وقد اقترح إبراهيم بن الأغلب على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار ، ويستغنى عن مائة ألف دينار ، كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية . وتعهد بأن يتصرف كعامل عباسي تابع لدولة الخلافة ، وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته لكي يستطيع مواجهة نفر من زعماء العرب المشاغبيين من أمثال الحسن بن حرب الكندي ، وكان زعيم جند العرب في تونس . فاجابته الخلافة لما طلب ووافقت كذلك على أن تكون الولاية في بنى الأغلب ماداموا على الطاعة والولاء . ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخلافة الحق في تعيين قاضى القيروان ، وأن يكون للخطيقة الحق في عزل الوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم بدله أغلبياً آخر . وتم الاتفاق على ذلك كله . وتولى إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وبدأت بذلك تجربة سياسية جديدة في تاريخ أفريقية : تجربة حكم أفريقية بواسطة أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .



دولة الأغالبة فى أفريقية (١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩ م)

كان قيام دولة الأغالبة فى أفريقية ، التى كانت تتكون من طرابلس وأفريقية وجزء من المغرب الأوسط هو إقليم الزاب ، تجربة جديدة فى نظم الحكم الإسلامية فلمرة الأولى تعهد الخلافة إلى رجل من المغرب فى الانفراد بولاية من ولاياتها ، ليحكمها حكماً شبه مستقل فى نظير مبلغ قليل من المال ، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية . وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وفقاً على أهل بيت ذلك الرجل ، يتوارثونها فيما بينهم ، ماداموا على الولاء الكامل للبيت العباسى ، والشرط الوحيد الذى اشترطته الخلافة العباسية هو البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها ، وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية ، التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الأعلى لنهر شلف ، الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

نقول هذا وإن كنا لا نملك نصاً ، ولا تعلم شيئاً مؤكداً عن الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكلامنا هنا قائم على ما ورد فى مراجعنا عن هذا الاتفاق وهو قليل . ذلك أن تاريخنا الإسلامى يخلو من الوثائق الرسمية فى معظم عصور تاريخه ، وكل ما تقوله المراجع هو ما ذكرناه من أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عاملاً شبه مستقر على المغرب على الشروط التى ذكرناها . ويبدو أن هارثة بن أعين كان له دور فى ذلك ، وقد أعجب بإبراهيم بن الأغلب ووثق فيه وفى إخلاصه لبيت بنى العباس ، وكان إبراهيم بن الأغلب من أهل الولاء لبيت الخلافة ، وكذلك كان أبوه الأغلب بن سالم بن عقال وهو من تميم ، القبيلة العربية الكبيرة . وكان كما قلنا من كبار جند مصر وندب الخليفة مع محمد بن مقاتل العكى الذى أرسله إلى أفريقية ليحارب الخوارج .

وقد قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى الصراع بين رجال الدولة العباسية

والخوارج ، وكان ابنه إبراهيم مقيماً في إقليم الزاب مع قومه من تميم ، فلما قتل أبوه أصبح هو والياً على الزاب ، وكان شاباً نشيطاً ذكياً أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وفصاحته ، ويبدو أن هرثمة هو الذي توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب ، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة في شأن أفريقية ، وتمكنت بعد جهود مضنية من المحافظة عليها في إطار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها ، وكان إبراهيم بن الأغلب شاباً طموحاً يرى نفسه أهلاً للولاية ، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئون أفريقية مع بقائه على الولاء للبيت العباسي . واتفق طموحه مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية في يد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها ، وهي جد ثقيلة كما رأينا ، على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد .

حكم إبراهيم بن الأغلب :

حكم إبراهيم بن الأغلب من ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١٢ م ، وقد حكم أفريقية في ظروف عسيرة ، فلم يكن له من سند عسكري إلا قوة يسيرة من التميميين والجند الخراسانيين ، وكان خصومه كثيرين من العرب البلديين ، الذين لم يوافق أحد منهم على الإقرار له بتلك الرياسة ، وأعلنوا عليه حرباً عنيفة طويلة ، ظلت مستمرة طووال العصر الأغلبي الذي دام أكثر من مائة سنة ، إذ ينتهي حكم بني الأغلب سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على يد الفاطميين . ومن أكبر أولئك الخصوم الحسن بن حرب الكندي وعمران بن مجالد الربيعي . وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على نفر كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ، ولكنه لم يقض على روح التمرد والعصيان عليه وعلى آل بيته ، التي انتشرت في رؤساء جند أفريقية العربي ومن انضم إليهم من العرب الذين تحولوا إلى عرب بلديين ، وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية . وكان الاتفاق بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضي بأن يؤدي إبراهيم ٤٠٠,٠٠٠ أربعين ألف دينار في السنة ، ويستغنى عن ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر معونة لوالى أفريقية ، فكان كل خراج أفريقية الذي كان يعود إلى الدولة العباسية ٦٤٠,٠٠٠ مائة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ زهيد جداً ، ولكن إبراهيم بن

الأغلب اجتهد في استخراج مال كثير من أفريقية ، حتى بلغ إirاده فيما يقال نحو المليونين من الدنانير في السنة ، وهذا المال كان عماد قوة إبراهيم بن الأغلب . وهذا الفارق الجسيم بين ما كان الولاة يرسلونه إلى الخلافة من خراج أفريقية ، وما كان يتحصل منها فعلاً ، يعطينا فكرة عن « أمانة » الولاة في تلك العصور أو قلة أمانتهم بتعبير أصح .

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب من أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها ، إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على الجند الخراساني ، وكان التميميون قليلين ، رغم أنه وفدت منهم الوف كثيرة إلى أفريقية أيام الأغلبية . ولكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوى عسكرية قبلية لا تقل عن قواته ، فكان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به بالمال . وقد تكونت تلك القوة العسكرية من عنصرين :

(أ) البربر المستعربة : الذين عملوا جنداً مرتزقة في الجيش الأغلبى .

(ب) ثم الصقالبة : وهم جند من أصل أوربي كانوا يشترون صفاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوربا ويربون تربية عربية إسلامية ، ويتخذون بعد ذلك جنداً وخداماً للدولة في القصور والوظائف . وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود . ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة ، خلال السنوات الأولى من حكمه في أفريقية .

إنشاء القصر القديم :

في نفس الوقت عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولأهل بيته على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين ، الذين كانوا يعيشون في الغالب منفصلين عن رعاياهم ، معتمدين على جندهم المرتزق ، وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربي من القيروان ، أنشأ فيه مدينة صغيرة ، هي في الواقع حصن لبית الحكم ، وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم ، وعندما تمت ، انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده ، وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم في البلاد . وعندما تم ذلك لإبراهيم أمن على نفسه

ومصيره ، وسار في حكمه على طريقة الحكام في تلك العصور ، أى أنه أصبح معتمدا على جنده المأجور ، ولم تعد له بالبلاد صلة حقيقية إلا الضرائب التى كان رجال الدولة يجيئونها من أهل البلاد .

وكان القصر القديم مدينة كاملة ، فيه قصور الأمير وآل بيته ومساكن حواشيه وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال ، هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل المعاش . وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة التى كانت تقدم لأهلها حاجتهم من الماء . وأحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس .

أما الجند العربى المعادى لإبراهيم بن الأغلب فقد تركز في معسكرات في المدن الكبرى وخاصة في تونس ، التى تحولت إلى مركز المعارضة السياسية للبيت الحاكم . وطوال العصر الأغلبى نلاحظ أن الحرب كانت مستمرة بين الأغلبية والجند العربى ، وخاصة في أيام زيادة الله بن الأغلب الذى ارتكب معهم فظائع رهيبة . وعندما انكسرت شوكة العرب كانت قوة البيت الأغلبى أيضاً قد وهنت وقربت نهايته ، وهذا مثال مما حدث كثيراً في تاريخنا العربى من إهلاك العرب بعضهم لبعض . ومن ظواهر تاريخنا الإسلامى أن العرب لم ينهزموا أمام غير العرب إلا في النادر ، ولكن الذى أهلك العربى في كل مكان هو عربى آخر .

ساد البلاد بصورة عامة خلال العصر الأغلبى أمن ورخاء ، وعمرت المدن وأمنت السابلة ورخيت الأحوال وبدأت شخصية أفريقية في الظهور . وكثر أهل العلم ، وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

وقد حكم أفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً ، حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت في بعض الأحيان إلى أقل من العام ، فلم تتسع الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر ، ثم إن أصحاب المذاهب التى تذكر متهم كانوا اثنين : إبراهيم ابن الأغلب الذى تحدثنا عنه ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء البيت ، وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ، ثم ابنه إبراهيم بن أحمد بن أبى عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى . وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً ، إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ، ولكن عصره كان مضطرباً ، اختلت الأحوال أثناء اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته .

وينقسم تاريخ العصر الأغلبى فى جملته إلى ثلاث فترات : فترة التأسيس من ١٨٤ - ٢٢٣ هـ / ٨٠٠ - ٨٣٨ م ، وتشمل إمارات إبراهيم بن الأغلب وابنيه أبى العباس وزيادة الله عصر الازدهار والاستقرار النسبى من ٢٢٦ - ٢٨٩ هـ / ٨٤٠ - ٩٠٢ م ، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م إلى نهاية حكم أبى عبد الله محمد (الثانى) ثامن أمراء البيت الأغلبى ، الملقب بأبى الغرائيق لولعه بصيدها ، وذلك فى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م . وقد تضمنت هذه الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث الملكات ، ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة .

ويرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو والحصول على المغنم ، تاركين أمراء بنى الأغلب فى سلام ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد ، معلناً بداية التدهور ، ثم تلى ذلك فترة التدهور وتستمر من ٢٨٩ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٩ م . ولكن فترة الاستقرار الحقيقية التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد على ثلاثين سنة على الأكثر ، ولكن هذه الأسرة ، على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها ، فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية وظهور شخصيتها بما تميزت به من خصائص ، لأن شعب أفريقية الإسلامية الذى أوجزنا الحديث عن جهاده فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء فى نطاق الأمة الإسلامية العامة ، كان فى حاجة إلى فترة استقرار طويلة بعض الشيء ، كى تثبت القواعد الاجتماعية والحضارية التى تمكن من تكوينها والحفاظ عليها خلال اضطرابات عصر الولاة وما وقع فيها من الانقلابات وتغير الأحوال ، وقد أتاح له بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار ، وأقاموا فى بلاده حكومة محلية ذات طابع أفريقى ، ثم إن بنى الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت ، فكان العصر فى جملته ، رغم كثرة حروبه واضطراباته ، خيراً على أفريقية ، وخطوة واسعة إلى الأمام فى بقاء المغرب الإسلامى .

وقد تكلمنا عن إبراهيم بن الأغلب ، وسنتكلم الآن عن اثنين من أمراء البيت

الأغلبى هما زيادة الله بن الأغلب وإبراهيم بن أحمد ، إذ لا يتسع المجال للتحدث عن بقية أمراء هذا البيت .

زيادة الله بن الأغلب ٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٦ - ٨٣٨ م :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب خلفه ابنه أبو العباس ، ولم تدم له الإمارة طويلاً فجاء بعده أخوه زيادة الله ، وزيادة الله كان أميراً قادراً ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذى استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة . وتكلف ذلك الجند المال الطائل ، يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا على الحاجة وثقلت نفقاتهم وبدأوا يشغبون على الدولة . فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند ، لا عمل لهم في الحقيقة ورواتبهم في زيادة ونوعهم في تدهور فكان لابد له من أن يفكر في مخرج من تلك الأزمة ، بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود . وتلك هي المقدمة الأولى لفتح صقلية على أيامه .

فتح صقلية ابتداء من سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م :

ذكرنا مقدمات ذلك الفتح وقلنا إن الجند تكاثروا عند زيادة الله إلى درجة كان لابد له معها من أن يجد لهم مخرجاً . والحقيقة أن فتح صقلية تأخر ، فهذه جزيرة كبيرة على أبواب أفريقيا ، وقريبة من سواحل بلاد الإسلام . وإنه لمن الغريب أن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان . ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية سارت في الكثير جداً من الأحيان دون خطة مرسومة ، لأنه كان ينبغي أن يجرى بعد تمام فتح أفريقيا دور صقلية خاصة وأن بينها وبين شواطئ أفريقيا جزراً تعتبر معابر إلى سواحلها مثل بنتلاريا (جزائر قوصرة عند العرب) وتتبع إيطاليا ، وكذلك جزر مالطة ، وكلها دخلت في حوزة الإسلام مع فتح صقلية . وكان تفكير زيادة الله في فتح صقلية قديماً يرجع إلى بداية ولايته ، فقد تكاثرت جنده وأصبحوا يسببون له المتاعب ، ثم إنه ورث عن أبيه ملكاً مستقراً وثروة طائلة ، فتأقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامى ، وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة تشجع على التدخل فيها ، ومازال يفكر في الأمر ويعد له حتى إذا كانت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، رأى زيادة الله ونصحاؤه الشروع في تنفيذ غزو جزيرة صقلية .

وكانت صقلية في ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية ، يحكمها بطريق ، أى قائد عسكري يسمى بيلاتوس ، ويعرّبه العرب « بلاطة » ، يعتمد على قوة عسكرية قليلة . وكان يرهق السكان بمطالبه المالية ، فكانوا في حالة تذمر عليه وضيق بالحكم البيزنطي كله . أى أن الجزيرة في الحقيقة كانت منطقة فراغ سياسى .

ولو أن العرب كانوا في ذلك الحين على قوتهم المعهودة فيهم ، لما استلزم فتح صقلية أكثر من عامين أو ثلاثة ، كما حدث بالنسبة للشام ومصر . ولكن نوع الجند العربى كان قد تغير ، ولذلك فإن جزيرة صغيرة نسبياً كهذه ، استلزم فتحها نحو السبعين سنة ، ومع ذلك فلم يتم سلطان المسلمين عليها بصورة كاملة إلا في أواخر أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وهو تاسع أمراء ذلك البيت الأغلبى وستحدث عنه .

والسبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائداً رومياً يسمى يوفيمىوس Euphemius (قيمي) ثار على الحكم البيزنطي واستقل بشرق الجزيرة وتحصن في سرقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله ، فاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجند . وقد دعا زيادة الله بن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ، وتجمعوا في ميناء تونس وميناء سوسة واختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيهاً هو أسد بن القرات وذلك أمر مستغرب ، لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ، ولكن يبدو أن زيادة الله لم يكن واثقاً من قواده فتدب هذا الشيخ أسد بن القرات . وكان أسد فقيهاً جليلاً ولد سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م في العراق ثم قدم به أبوه - وكان من رجال الحرب - مع القائد محمد بن الأشعث واستقر في القيروان وهناك نشأ أسد واتخذ طريق العلم فدرس على شـيـوخ بلده ، ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فدرس في العراق على أصحاب أبى حنيفة النعمان ، ثم على أصحاب مالك في المدينة ، ودرس الموطأ لمالك ، ثم درس على محمد بن القاسم في مصر ، وعاد إلى القيروان فقيها حسن التكوين ، فدون ما سمعه من الموطأ في كتاب سماه « الأسدية » انتشر بين الناس ، وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره في أفريقية . وتولى قضاء القيروان .

وعندما أعلن زيادة الله عن حملة صقلية ، تقدم أسد يطلب التطوع والجهاد جندياً عادياً ، فعرض عليه زيادة الله قيادة الحملة فوافق .

على أي حال كان أسد في السبعين من عمره عندما جاءت هذه القيادة ، فخرج بالكتلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل في ميناء « مازر » على الساحل الجنوبي لصقلية ، وفي نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت في ميناء في أقصى الساحل الجنوبي إلى الشرق يسمى رجوسة ، وذلك لنجدة القائد البيزنطي ، الذي خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا . ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا في موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة .

كان ينبغي على أسد بن الفرات ، بعد أن تمكن من موقع مازر Mazra أن يسير رأساً إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولي عليها ، وبذلك يقضي على رأس المقاومة للفتح الإسلامي للبلاد ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى أجريننت Agregenta واستولى عليها . ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى على قصر يانة^(١) ، ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (فيمي) وحاصر سرقوسة ، وفي أثناء الحصار نزل وباء أصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين ، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة فمات في البوء . وكانت قد أصابته في القتال جراحات كثيرة ، وكانت وفاته في ربيع الثاني ٢١٢ / يوليو ٨٢٨ . والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت واضطرب أمر القوات الفاتحة وخرج الحاكم البيزنطي بيلانوس وهاجم قصر يانة ، فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطروهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا في حصن قريب منها يسمى مناو ، وأصبح مركزهم حرجاً .

وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح وذلك بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذي لم يتبع الخطة المثل التي جرى عليها

(١) Castrogiovanni وتسمى الآن Enna وهي في وسط الجزيرة وفي الطريق من مازر إلى سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة Siracusa .

المسلمون إلى ذلك الحين في فتوحهم ، وهي الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة . وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح . ومن القواعد المعروفة في العسكرية أن كل حملة لا تصل في الدفعة الأولى إلى غايتها ، تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك .

تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بقرغوش :

بذلك تخرج مركز المسلمين خاصة وأن خيرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة ، هلك معظمهم في وباء سرقوسة ، ولم يبق في الجيش إلا الجند الخراساني ومتطوعة البربر ، ولم يجد المسلمون في تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها ، فظلوا متحصنين في بلدة مناو في انتظار المدد الذي طلبوه من زيادة الله بن الأغلب ، وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين في صقلية حرجاً .

في هذه الظروف نفاجأ بدخول نفر من الأندلسيين جزيرة صقلية ، يقودهم قائد كبير يسمى أصبغ بن وكيل المعروف باسم قرغوش ، ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة ، أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة بين الإسلام والنصرانية في الجزيرة فأسرعوا لعون إخوانهم . على أي حال نجد أن أصبغ أسرع وهاجم الصقليين والروم المحاصرين لمناو ، وفك حصار المسلمين ، وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامية . واتجه المسلمون ، رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغلبة ، إلى قصر يانة وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبغ نحو بلرم وحاصرها واستولى عليها ، وهنا للمرة الثانية نجد أن الوباء ينزل الجزيرة ويصيب معسكر المسلمين ، وبعد أن تمكن أصبغ بن وكيل من دخول بلرم يصيبه الوباء ويموت شهيداً بعد ذلك بأيام ، وبذلك أتاحت الفرصة أمام البيزنطيين ليستعيدوا قصر يانة ويخرج مركز المسلمين مرة ثانية ، ولكن زيادة الله بن الأغلب تمكن من إرسال قائد جديد .

هذا القائد هو أبو فهر الأغلبى ، وقد قاد المسلمين بنجاح ودخل بلرم وطرد بقية القوة البيزنطية في الجزيرة ثم توفي ، وتولى بعده أخوه أبو غالب فأتى

الاستيلاء على العاصمة ، وفي تلك الأثناء مات زيادة الله من الأغلب ، ووصل الخبر إلى صقلية فكدت الحملة تفشل مرة ثالثة . ولكن أيا غلب تمكن من السيطرة على الموقف ، واستقر الأمر للمسلمين في النصف الغربي من الجزيرة ، وبقي عليهم أن يفتحوا شمالها ونصفها الشرقي . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، وفقد حماس المسلمين فلم يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة إلا في أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى كما سنرى .

وبينما تعاقب القادة والولاة على الجزيرة تمكن المسلمون من التقدم في الشمال والشرق ببطء شديد ، وكانت جماعات المسلمين تهاجر إلى الجزيرة وتستقر فيما فتحه المسلمون فيها ، فنشأت في كل مدن الوسط والغرب جاليات إسلامية كبيرة ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الصقليين وبعض من بقي في الجزيرة من الروم ، أى أن عملية دخول صقلية في دعوة الإسلام سارت في طريقها رغم كل شيء .

وكانت العاصمة الرسمية لصقلية الإسلامية مدينة بلرم ، نظراً لجودة مينائها وحصانة أسوارها . ولكن مركز النشاط والعمل كان في مدن الشرق والوسط وخاصة مازر وجرجنت وقصريانة في وسط شبه الجزيرة . وقد انتشر المسلمون في نواحيها وعمروها ، وعمروا كذلك معظم مدنها مثل مازر وجرجنت ورجوسة وسرقوسة وبعض مدن الساحل الغربي مثل بتشيننة وقطانية وميقش وطبرمين ومسينا التي تسمى جبل النار نسبة إلى بركان أتنا الذي يقع إلى جوارها .

وعلى الرغم من أن الأمر في صقلية لم يستقر للمسلمين تماماً إلا خلال فترة قصيرة ، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئاً فشيئاً إلى بلد إسلامي تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ، الذين دخلوها . ولكن الصقليين دخل الكثيرون منهم في الإسلام واستغربوا وأنشأوا حضارة إسلامية في صقلية ، وما زالت آثارهم فيها باقية إلى اليوم ، في هيئة قصور وبقايا مساجد وحصون ولكن الأثر الأكبر لصقلية الإسلامية هو العمل الحضارى . فقد تحولت بلرم كما قلنا إلى مركز علم عربى . وفيها عاش وعمل - بعد سقوط صقلية في يد

النورمان — الجغرافي المشهور « الشريف الإدريسي » الذي كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليايس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر ، وكل الخرائط التي ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها ، ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الأفاق » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقال الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران . وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » في العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة . وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها . وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٣ يونيو ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى في أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطيرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء ، ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسناته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالية جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الانزان والعدل إلى الاضطراب العقل والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا ، وهو في الطريق إلى تابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآنى من الآية التى تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة ، وهى مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

النورمان — الجغرافي المشهور « الشريف الإدريسي » الذي كان أول من صنع كرة أرضية . وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من الفضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر . وكل الخرائط التي ندرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها ، ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقال الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » في العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٣ / ٢٣ يونيو ٨٣٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا يأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى في أفريقية ، وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية . كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء . ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسنته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبة جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبى إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزاة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بأديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله ، وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذى بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى جنوبى القيروان مدينة رقادة ، وهى مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

النورمان — الجغرافي المشهور « الشريف الإدريسي » الذي كان أول من صنع كرة أرضية ، وقد ذكر في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » أنه صنعها من القضة ، ويقال : إنه رسم اليابس عليها بالذهب . ثم رسم خريطة للأرض كبيرة مسطحة ، أي أنه حوّل أبعاد الأرض على الكرة إلى أبعاد مسطحة كما فعل الجغرافي الإنجليزي مركاتور في القرن التاسع عشر . وكل الخرائط التي تدرس عليها الآن مرسومة بطريقة مركاتور التي كان الإدريسي أول من تنبه إليها وطبقها . ثم وصف الإدريسي كرة الأرض وخريطتها التي رسمها في كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، وهو وصف شامل للأرض وما عليها ، وقد أرفق الإدريسي بكتابه سبعين خريطة لأجزاء الأرض تعتبر أول أطلس جغرافي مفصل للكرة الأرضية .

وفي أثناء حكم أبي العباس محمد بن أبي عقال الأغلب سنة ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤١ - ٨٥٦ م ، فتح المسلمون جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م واستقروا فيها ، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية .

وفي أيام إبراهيم بن أحمد الأغلب الذي سنتحدث عنه ، فتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقي للجزيرة .

وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها ، خاصة أيام زيادة الله ، نتيجة لاهتمامه الشديد بال عمران ، وقد عمرت المزارع ورخيت أحوال الزراع ، وزاد الخراج حتى بلغ فيما يقول الجغرافي اليعقوبي « ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين » في العام (٢٦ مليون درهم) . وقد جدد زيادة الله مسجد عقبة في القيروان وجعله على الهيئة الجميلة التي هو عليها اليوم ، وأنشأ سوراً حصيناً لميناء سوسة ، وأنشأ رباط سوسة أي قصر العباد والزهاد فيها ، وتوفي في ٢٤ رجب ٢٢٢ / ٢٢ يونيو ٨٢٨ .

تمكن زيادة الله من إتمام عمل أبيه إبراهيم بن الأغلب ، وكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه . استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة طيبة ، وتمكن من تثبيت سلطان البيت الأغلبى في أفريقية . وكان أميراً عاقلاً حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم . ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته في مشاكل وأزمات

وأخطاء كثيرة . وقد تمكن من التغلب على معظمهم ولكن بقيت منهم جماعات قوية خطرة في تونس وبلرم وطبنة والمسيلة وغيرها من بلاد أفريقية ، كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله في النهاية . وكان زيادة الله مشجعاً للعلم والعلماء ، ولا يؤخذ عليه إلا العنف في معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم ، مما شاب حكمه وملاه بالحروب . وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته : إنه لا يخشى لقاء الله سبحانه وتعالى في يوم الميعاد وفي صحيفته أربعة أشياء : بناء مسجد القيروان ، وبناء قصر المنتستير ، وبناء قنطرة أم الربيع على نهر مجرده ، وتعيين ابن محرز القضاء . والغريب في الأمر أنه لم يذكر في حسناته التي سيدخل بها الجنة فتح صقلية ، فكأنه لم يشعر في قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغلبة جميعاً .

إبراهيم بن أحمد الأغلبى ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٠٢ م :

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكماً وكان رجلاً غريب الأطوار ، مر في حكمه بفترات ثلاث اختلفت فيها شخصيته اختلافاً كبيراً من الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلي والنفسى ، ثم إلى التصوف والانصراف إلى العبادة والجهاد ، وانتهت حياته مجاهداً في سبيل الله وهو محاصر مدينة كسنته ، في شبه جزيرة كلابريا في جنوبي إيطاليا ، وهو في الطريق إلى نابلى ثم روما وكان هذا قصده .

كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات رزانة وعقل وحكم صالح ، فرضى عنه الناس وأحبوه ، خاصة أنه قد صرف جهداً كبيراً في المنشآت الدينية ، وأهمها المساجد وقصور العباد . وقد عرفنا أن هذه القصور كانت أشبه بآديرة تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضاً بالمرابطين . ولذلك تسمى القصور أيضاً بالأربطة والمفرد رباط واللفظ قرآنى من الآية التي تأمر المسلمين بإعداد القوة ورباط الخيل لجهاد أعداء الله . وقد أكثر إبراهيم بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة في كل مدن السواحل في أفريقية وصقلية حماية للمسلمين ، وأوقف عليها الأموال . وهو الذي أكمل تجديد جامع الزيتونة في تونس الذي بدأه أبوه إبراهيم بن أحمد الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبني جنوبي القيروان مدينة رقادة ، وهي مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج

الماء ، ومن هذه الصحاريح واحد سمي البحر ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ، وإليه ينسب الماجل العظيم كما يسمى ، والجمع مواجل ، والماجل هو حوض ماء يبني بالحجر ليتجمع فيه ماء المطر ، وما زلنا نرى في خارج القيروان إلى يومنا هذا مواجل الأغالية . وهي من أجمل آثار البلاد ، وقد اكتملت في أيام إبراهيم بن أحمد سلسلة المحارس على الشواطئ ، وكانوا ينشئون في كل محرس برجاً للنار لإرسال الإشارات ، فكان الخير يصل إلى أقصى البلاد من بحاية على الساحل الشمالي لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس في أقل من ليلة . أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان ، فكانوا يوقدون في النواطير أخشاباً رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يُرى من بُعد .

بعد ذلك نجد أن هذا الرجل يصاب بمرض عصبى تختل معه أعماله ونظراته إلى الأمور ، والمؤرخون يقولون إن « دماغه جفت » وهو تعبير غير مفهوم ، والمهم أن ذلك الرجل امتنع عليه النوم وزادت مخاوفه ، فأقبل يقتل الناس لأقل ريبة ، وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس وقرروا خلعه ، وبعثوا إلى الخليفة يشكون من أعماله ويطلبون عزله ، ولكنه تنبه لنفسه شيئاً فشيئاً قرب نهاية حكمه . ويبدو أن الذى نبهه هو الخطر الفاطمى ، ففي ذلك الحين كان أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين قد ثبت أقدامه في منازل قبيلة كتامة التونسية ، وبدأ يغير على بلاد الأغالية فخاف إبراهيم بن أحمد وعاد إلى رشده ، وأصلح من أمر نفسه واجتهد في لم شعث إمارته .

ولكن الخليفة العباسى أرسل إليه أمراً بالنسزول عن الحكم وتولية ابنه أبى العباس عبد الله مكانه .

حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالية :

قلنا : إن بنى الاغلب كانوا تجربة جديدة في حكم ولايات الدولة العباسية ، وإن كانت استمرارا لتجربة آل أبى حفص عمر بن قبيصة المهلبى ، وإلى حد ما تعتبر التجربة ناجحة ، فخلال القرن من الزمان تقريباً الذى دامته دولة الاغالية ، تقدمت البلاد تقدماً كبيراً محسوساً ، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس طابع المدن الإسلامية التقليدية ، فازدانت بالمساجد والمنشآت

العامّة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار الناس وما إلى ذلك .

وإذا كان العصر الأغلبى قد بدأ سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب البلديين ، فقد انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنية ، فلا نجد الخوارج إلا في أقصى الطرف الغربى لبلاد الأغالبة بل في إقليم تاهرت في المغرب الأوسط ، ولم يكن داخلياً في دولتهم ، وكذلك كانت هناك جماعات إباضية صغيرة في بعض نواحي طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ، ولكنها لم تعد تشكل متاعب أو مصاعب للحكام .

وقبل الأغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لأفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما في ذلك القيروان ، والمدينة الوحيدة التي كان لها طابع مدينة هناك كانت تونس التي احتلت بسرعة مكان قرطاجنة فقد كانت فيها مبان ودار صناعة وأسواق . وكان أهلها من الجند العرب يشعرون بامتيازهم دائماً ويرفضون الخضوع للقيروان .

وقد كان لبعض المهالبة اهتمام بالأبنية والمنشآت . وكان ليزيد بن حاتم دور كبير في تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها ، وكذلك اهتم هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ، ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين ، وهما مسجد عقبة ومسجد الزيتونة ، وإعطاءهما صورتها الباقية إلى اليوم . وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع بناءً بدائياً ، ثم جده حسان بن النعمان وأكملته حنظلة بن صفوان ، ولكن الذي أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية ، كان زيادة الله بن الأغلب ، فقد أنفق في ذلك مالا جزئياً طوال سنوات كثيرة ، وكان يقول : « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة أم الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتولييتي أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقية » . وإلى زيادة الله أيضاً تنسب أعمال ضخمة في جامع

تونس الذي كان عبيد الله بن الحبحاب أول من بناه سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ولكن ذلك المسجد لم يكتمل إلا على يد إبراهيم بن أحمد سادس أمراء البيت الأغلب ، فهو الذي أعطاه صورته البديعة التي يبدو بها اليوم وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، وهذا الرجل هو الذي أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان ، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

وكان الذي بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في أفريقية . أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط وهو من أجمل قصور العبادة والرباط في أفريقية ، فكان من إنشاء زيادة الله بن الأغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها ، ويذكر لهم التاريخ دارين عظيمين للصناعة : إحداهما في تونس والأخرى في سوسة ، وقد كتب كل من الدارين صفحات مجيدة في تاريخ النشاط البحري الإسلامي في البحر المتوسط .

ومن نماذج المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات ، وهي شبيهة بالقصور التي ذكرناها ، ولكنها كانت تخصص للمجاهدين والمرابطين ، ما بين أفراد يدفعهم التقى إلى التطوع للجهاد ، وحاميات رسمية ، ولكن الغالب أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند فكانت تبني لهم المعسكرات .

ويحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقي لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط سوسة ، وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب . وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر ، وطول ضلع سوره ٤٠ متراً تقريباً ، ويدخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات ، مرفوعة على عمد ، وفوقها سقف يتكون من ثلاثة أقبية ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض ، وهي تستعمل للنوم والأكل ، يليها صحن الرباط ، وهو مساحة واسعة مسورة

تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهى تفتح أو تطل على صحن الرباط وفى ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط .

وشبيهه برباط سوسة رباط المنستير وهو أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم هذا الرباط حتى صار أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة ، والرباط طابقان يخصص الثانى للحراسة والعبادة ، وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

وفيما يتعلق بالعمارة المدنية أشرنا إلى مدينة القصر القديم التى بناها إبراهيم ابن الأغلب على نحو ٦ كيلو مترات جنوبى القيروان ، لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ، وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة . ولم يبق من آثار هذه المدينة شئ ، وكانت قد سميت بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً لها عن القصر الجديد ، وهو مدينة رقادة التى بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م وقد ذكرناها .

وكانت لبنى الأغلب عناية ببناء صهاريج المياه وجبابها ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلا يكون إلا فى باطن الأرض ، والجب مخزن واسع للمياه يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متراً وعمقها نحو العشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المطلق بالبلاط الذى لا تؤثر فيه المياه ، وقد بطن بالرخام ، ويرفع سقف هذه الغرفة أو القبو على أعمدة وبوائك ، فإذا اكتمل جعلوا له سلالم تؤدى من سطح الأرض إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة أو القبو السفلى عند الماء ، ويجعلون للجب مداخل وممرات يدخل منها ماء المطر والهواء ، ثم يهيلون التراب فوق الجب فيما عدا المداخل وفتحات السلالم ، وتصل المياه إلى الجب عن طريق قنوات تسوق له ماء المطر ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار ، ويخرجون الماء من الجب بالدلاء جمع دلو ، أو يهبطون بأنفسهم بالسلالم .

وأكثر الأغلبية كذلك من بناء المواجل وهى أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ، ويتجمع فيها ماء المطر ، وهى دائمة مكشوفة وقد يقام فى وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة ، ومواجل القيروان وتونس وسوسة تعتبر من

الآثار الجميلة التي تستحق المشاهدة . ويطلق المؤرخون الحديث عن القصور والمنشآت التي بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في مدينته المسماة « رقادة » ويقولون : إن قصراً منها كان يسمى بغداد وآخر يسمى المختار . وفي هذه المدينة الملوكية أنشأ زيادة الله بن أبى العباس عبد الله ، وهو المعروف بزيادة الله الثالث ، وهو آخر الأغالبة ، بركة أو ماجلاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة . وأجرى إليه الماء بالسواقي ، وسُمى هذا الماجل الفسيح بالبحر . وأنشأ على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه « العروس » وأنفق في إنشائه ٢٢٢,٠٠٠ دينار ، وما كاد القصر يتم وينتقل إليه ، حتى رحل عنه هارباً إلى مصر ، فقد كان أبو عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ، قد استولى على معظم بلاد الأغالبة ، وعندما استولى على الأربس على بعد أميال قليلة من القيروان ، ترك هذا الأمير بلاده وملكه ومضى ، ولم يكن يستحق الإمارة على أى حال ، فقد تولى العرش بمؤامرة دبرها ضد أبيه وقتله ليُريث ملكه .

الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة :

لا بد أن نلاحظ أن ما تحدثنا به المراجع من الثورات والحروب الداخلية التي امتلأ بها تاريخ الأغالبة ، لم تكن تمس الحياة العامة للبلاد إلا في حالات قليلة ، فبينما كان رجال السياسة والحرب يتطاحنون ، كانت جماعات سكان المدن وأهل المزارع ماضية في طريقها ، دون أن تعطى اهتماماً كبيراً للمنازعات والمنافسات ، بين أهل الحكم أو أهل الحرب ، إلا في حالة ما إذا دار القتال في المدن أو في المزارع ، ونستطيع أن نقول : إن حياة الناس في المدن والأرياف سارت في طريقها ، متأثرة طبعاً بظروف القلق وعدم الاستقرار التي سادت طوال العصور الوسطى ، ولكنها سارت بصورة ما ، فأخذت حياة الناس في ذلك المجتمع الأفريقى طريقها وصورها التي ثبتت عليها بتوالى الأجيال .

ومن خلال تفاصيل كثيرة ، وردت إلينا في تراجم العُباد والزهاد والفقهاء وأهل الفكر وتراجم الشعراء وأهل الأدب ، ثم حوليات التاريخ نرى كيف انتظم المجتمع الأفريقى في القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وغيرها ، على نحو يشبه

ما نعرف في المجتمعات الإسلامية في تلك العصور ، وتحمل في نفس الوقت الطابع المميز للبيئة الأفريقية .

هنا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيرواني محلي ، عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجارة ونفر من المياسير وأهل الصناعة ، ونرى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ، ومركزاً تجارياً هاماً للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب ، وقامت فيها حلقات الدرس في المساجد ، يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفي هذه الحلقات يقوم شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون وعيسى بن مسكين ويحيى بن سلام وأبي عثمان سعيد بن الحداد وأمثالهم ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً .

وهؤلاء الشيوخ كانوا في نفس الوقت رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بنى الأغلب رغم حياتهم الطويلة في أفريقيا ، لم يصلوا أبداً إلى الاندراج في حياة البلاد ، وظلوا منعزلين في عواصمهم الملوكية مثل القصر القديم والقصر الجديد المسمى أيضاً « رقادة » ، يحيط بهم جندهم وعبدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالحياة العامة إلا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وهؤلاء بدورهم ما كانوا ليتصلوا بالحكام إلا في حالة الضرورة القصوى ، لأنهم بصفة عامة كانوا يرون أن أهل الحكم ظالمون في جملتهم وأموالهم حرام ، ولا ينبغي للرجل التقى أن يصيب من هذا المال . ولهذا كثر اعتذار الفقهاء عن تولي القضاء ، وفي أكثر من حالة نجد رجال الشرطة يقودون الفقيه إلى المسجد ويرغمونه على القيام بالقضاء .

وهذا تبرز شخصية سحنون واسمه الكامل أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخي ، فقد كان رجلاً لبقاً ذكياً ينتسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس في جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وكان ذا مكانة عالية عند الحكام ، وقد عاصر الأغلبية الأربعة الأولى وتوفي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٨ م وعرف كيف يسوس أولئك الحكام الذين كانت فيهم الكثير من فعال الجبايرة ، وتعرض

للأذى على يد زيادة الله الأول الذي اشتدت محنة خلق القرآن في أيامه. وأصدرت الدولة العباسية أوامرها بإمتحان القضاة ، وكان سحنون ومعظم الظاهريين من فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن ، ومن حسن الحظ أن المحنة توقفت قبل أن ينال سحنون العذاب ، وألغت الدولة العباسية القول بخلق القرآن أيام المعتصم ، وتصدى أهل السنة المتمسكون للانتقام من المعتزلة ، وقد تولى سحنون - الذي ولى القضاء بعد المحنة - الانتقام من عبد الله بن أبي الجواد القاضي الأسبق الذي امتحن القضاة وأذى بعضهم ، فجلده حتى مات . وقد ندم سحنون على ذلك ندماً شديداً وظل يتنصل من موت ابن أبي الجواد إلى آخر أيامه .

وإلى سحنون ينسب أحسن تدوين عُرفَ للسمع عن مالك بن أنس وهو المعروف « بالمدونة » ، وهى كتاب فقه على المذهب المالكي ، يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً في نفس الوقت . وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى .

وكان طلاب العلم كثيرين ، والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الضياع ، وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد ، ومع أننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده في المجتمع المصرى في ذلك العصر ، إلا أن الرخاء كان سائداً والخير وافراً ، لئلا نسمع عن مجاعات أو فقر شديد إلا في النادر ، وذلك يرجع إلى وفرة الأرض الزراعية في أفريقية وقلة السكان .

وكان الناس يزرعون كثيراً من الزيتون والقمح والفلول والشعير ، وكانت المزارع متسعة وآمنة ، ونسمع كثيراً عن المحاصيل وأسعارها في القيروان وتونس . وقد اشتهرت أفريقية في ذلك العصر ، وكل عصر ، بالزيتون والفواكه ، وتخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رحيّة ، ولدينا كذلك ما يدل على أن مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة في مدن أفريقية كلها ، وأن أفريقية كانت تسير رغم كل شيء في طريق تقدم فكري ومادى محسوس ، فكان هناك أطباء ذوو مكانة كبيرة ومستشفيات تسمى « بالدمنات » ، وكان الناس يتبرعون لها بالمال الكثير وكذلك كانت عناية الدولة بها كبيرة .

وتدل الإنشاءات الكثيرة التي ذكرناها على أن الهندسة والعمارة كانتا في مستوى رفيع ، وفي نهاية العصر الأغلبى ، وخلال حكم إبراهيم بن أحمد بالذات أصبحت القيروان من عواصم الفكر والحضارة في العالم الإسلامى .

ولا نعلم شيئاً عن الأحوال الاجتماعية في الناحيتين الأخرين اللتين تكونت منهما دولة بنى الأغلب وهما طرابلس وبلاد الزاب ، فالأخبار قليلة أثناء ذلك العصر عنها ، ولكن صورتها ستتضح فيما بعد ، أى خلال القرن الخامس وما بعده بفضل كتابات رجالة كثيرين أولهم اليعقوبى ثم ابن حوقل النصيبى .

والخلاصة أن العصر الأغلبى على قصره يمثل فترة انتقال حاسمة في تاريخ أفريقية ، فقد انتقلت أفريقية من قطر مضطرب غير واضح المعالم ولا محدد التكوين البشرى والفكرى ، إلى بلد واضح المعالم والسمات ، له مدنة الزاهرة ومداينه العامرة تزينها المنشآت الكثيرة ، وله ريفه الفسيح الذى ينتج غلات وفيرة ، وسكانه الأفريقيون الذين نتجوا عن اختلاط العرب والبربر ، وممن كان يفد باستمرار من الخراسانيين والاندلسيين ، وظهروا من أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شعباً إسلامياً عربياً مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الإسلامى في عصره الذهبى .

دولة الرستميين في تاهرت :

الطريف في تاريخ المغرب الإسلامى أنه يقدم لنا سلسلة من التجارب في ميدان الحكم والتنظيم ، لا نجدها في غير المغرب من بلاد الإسلام . وقد رأينا كيف أن كلاً من دولة المهالبة وبنى عبد الرحمن بن حبيب والأغالبة كانت تجربة سياسية تختلف كل منها عن الأخرى أكبر اختلاف ، كذلك سنرى أن تجربة الرستميين في تاهرت ، لم تكن شيئاً جديداً فعلاً في تاريخ المغرب فقط ، بل في تاريخ الإسلام العام ، فللمرة الأولى نجد أنفسنا أمام تجربة إقامة إمامة إباضية خارجية ، فقد كان الخوارج ينادون دائماً بالدولة المثالية ، وكانوا يسمونها إمامة لا خلافة ، لأن الخلافة في نظرهم غير شرعية ، لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يخلفه أحد يقوم مقامه ، وإنما تحتاج الأمة من بين الصالحين من أفرادها ، إماماً يقودها في طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية . وكانوا ينتقدون

غيرهم من المسلمين لأنهم ينشئون دولةً تخالف - من حيث التكوين والروح - ما يقضى به الإسلام . ثم جاءت فرصتهم عندما أتيحت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على المبادئ الإباضية . وسنرى كيف سار في بناء هذه الدولة وبأى نتيجة خرج .

تنسب الخارجية الإباضية إلى عبد الله بن إياض التميمي ، وكان ينادى بمذهب الإباضية الذي يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة .

لم يستطع عبد الله بن إياض أن يحقق حلمه في إنشاء دولة أو إمامة على المذهب الإباضي في المشرق ، ولكن أحد تلاميذه ، وهو سلمة بن سعيد ، ذهب إلى المغرب وتبين أن هناك إمكانية لإنشاء نظام إباضي فيه ، لأن سلطان الدولة العباسية ومن يمثلونها في المغرب لم يكن يتعدى غرباً مجرى نهر شلف ، وقيماً يبل ذلك إلى المحيط ، كانت بلاداً لا يحكمها في الحقيقة حاكم ، وإنما استبد بأجزاء منها حكام من رؤساء البربر المستعربة أو العرب البلديين ، الذين وصلوا إلى هناك واستقروا واندرجوا في أهل البلاد ، ومعنى ذلك أنه كان هناك في الجناح الغربي لدولة الإسلام فراغ سياسي يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من المتحمسين لإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بني العباس ، كذلك لم يكن لخلفاء بني العباس أو ولاتهم سلطان على جبل نفوسة ، وهو منطقة جبلية واسعة جنوبي طرابلس ، وكان جبل نفوسة جبلاً واسعاً حصيناً وعراً المسالك كثير الزروع ، تشبثت به جماعات من الخوارج الإباضية ، وقد أشرنا إلى ما كان من صراع بينهم وبين المهالبة أولاً ثم الأغالية ، وذكرنا كذلك كيف أن زعيمهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري تمكن ، في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م ، من إنقاذ القيروان من الخوارج الصفرية الذين استولوا عليها وعاثوا فيها فساداً ، عندما دخلتها قبيلة ورفجومة الصفرية فنهض أبو الخطاب وتمكن من طرد الصفرية من القيروان وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم عاملاً ، ثم عاد إلى بلاده في جبل نفوسة .

ولكن الدولة العباسية أرسلت فيما بعد قوة عسكرية ، يقودها محمد بن الأشعث ، استطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية قرب تاورغا قريباً من صرت ،

سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م واستطاعت أن تخرجهم من القيروان وتقتل أبا الخطاب .
فَقَرَّ عبد الرحمن بن رستم ومن معه غرباً ، وعبروا نهر شلف ووصلوا إلى منطقة
جبلية تقع إلى الجنوب من الجزائر الحالية ، وهناك ثبتوا عند بلدة حصينة وسط
الجبال ، تسمى تاهرت ، ووجدوا أنه لا يوجد هناك حكام أو نظام حكومي يقف
عقبة في سبيلهم ، إنما كانت هناك القبائل البربرية تعيش عيشتها الحرة البسيطة
التي عاشتها من آلاف السنين رغم إسلامها ، وكانت هذه القبائل حسنة الإسلام ،
ولكنها كانت في حاجة إلى من يوحد بينها ويقيم بمعابقتها نظاماً سياسياً مستقلاً
عن طاعة الدول الكبرى ، فرأى عبد الرحمن بن رستم أن ينشئ هناك الإمامة
الخارجية الإباضية التي طالما حلم بها ، وعمل رجاله على نشر المذهب الإباضي في
هذه النواحي ، فتكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة ، وبالفعل ،
أخذ عبد الرحمن بن رستم ينشئ دولته على المبادئ الإباضية .

وعبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي كما تقول المراجع . فقد كان أبوه
بهرام من موالى عثمان بن عفان ، ونشأ هو نشأة عربية إسلامية ، فدرس في
البصرة ، وهناك أخذ المبادئ الإباضية وانضم إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن
السمح المعافري ، وانتهى به الأمر إلى المغرب حيث أصبح الذراع الأيمن لأبي
الخطاب . وبعد موت هذا أصبح هو الإمام المعترف به للإباضيين في المغرب .

كان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختياراً سليماً ، لأن هذه
البلدة كانت تقع وسط الجبال ، فلا يمكن الوصول إليها من ناحية الغرب
أو الشرق بسهولة ، فكانت حصينة من هاتين الناحيتين وأمنة من أي غزو من
هذه النواحي ، ثم إن المدخل إليها من الجنوب كان سهلاً ، أي أن الطريق بينها
وبين الصحراء كان مفتوحاً يُمكن أهلها من الاتصال بالإباضية في جبل نفوسة ،
والاعتزاز بالقبائل الصحراوية الكثيرة التي كانت تتخذ هذه الجبال مصيفاً
ونواحي الصحراء مشتى لها . ومن المعروف أن القبائل البادية تقضى الشتاء في
الوديان ، حيث الجو دافئ والأعشاب والمياه متوافرة ، فإذا جاء الصيف سعدت
بقطعانها إلى الأعالي هرباً من الحر الشديد ، والتماساً لأراض يكون فيها ماء
وعشب . ولم يقتصر الأمر في ذلك على قبائل البربر ، بل إن قبائل العرب أيضاً
كانت لها مصايفها ومشاتيها في حدود مجالاتها .

ولكن تاهرت كانت صغيرة وكان عبد الرحمن في حاجة إلى حصن كبير ، فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفصلاً من الأرض وأفر المياه ، وأخذ ينشئ مدينة جديدة هي تاهرت الجديدة ، وبناها على ضفة نهر عزير المياه ، وحصنها بأسوار ، وأنشأ فيها مسجداً جامعاً ، وأقام إمامة إباضية ، أي جماعة إسلامية تحكم بناء على مبادئ الإباضية من الأخوة والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والتقى ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

كان الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل التي دخلت مفهوم هذا المذهب ، ويقول الشماخي وهو مؤرخ الإباضية في المغرب : إن الناخبين راعوا أربعة أسس اختاروا على أساسها إمامهم وهي :

١ - الفضل : ويراد به العدالة ، وهي عند الإباضية جماع صفات الكمال الأخلاقي ، من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس .

٢ - العلم : إذ أن العلم الكامل بالإسلام وعلومه ، شرط أساسي من شروط الإمامة عند الإباضية ، ويعرفونه بأنه العلم الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا وسعادتها في الآخرة .

٣ - الوصية : ويراد بها إيصال الإمام القائم بمن خلفه ، ولا تكون هذه الوصية فرضاً ملزماً للاتباع ، وإنما هي توجيه ، وقد قلدوا في ذلك ما فعله أبو بكر قبل موته عندما أوصى لعمر رضي الله عنهما ، وكان الإباضية أميل لاتباع ما فعل عمر من اختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة ، وبالفعل كان إمام الإباضيين يختار ستة من كبار أصحابه يسمون أهل الشورى . وكان عليه أن يستشيرهم في كل ما أهم الإمامة من الشئون ، فإذا مات كان على هؤلاء الستة أن يجتمعوا ويختاروا من بينهم الإمام الجديد .

٤ - ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده : بحيث لا يعتمد على تلك العصبية في فرض سلطانه على الناس ، وكان انتخاب الإمام على هذه الأسس لابد أن يتم على أساس الشورى ، أي حرية الرأي والاختيار . فإذا توفي الإمام أو شغل منصبه لسبب من الأسباب اجتمع شيوخ الجماعة الإباضية ورشحوا نفرأ منهم . ويستحسن أن يكونوا ستة ثم يجتمع الستة ويختارون واحداً منهم إماماً ،

والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الأمير السابق ، ولا هي ملزمة باختيار من أوصى به الإمام السابق .

هكذا قامت تجربة سياسية جديدة في تاريخ المغرب والإسلام ، وهي تجربة إقامة دولة على نظام يمكن أن نسميه جمهورياً ، نعم ، لقد حاول الإباضية قبل ذلك إقامة إمامة في عُمان ، ولكن الأمر هناك لم يَجُرْ على تلك الدقة المذهبية التي جرى عليها عبد الرحمن بن رستم وأصحابه . وبالفعل انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً على هذه الأسس ، وسار في الناس بالعدل ، واهتم كثيراً بشئون الدين كما ينبغي أن يكون ، لأن عبد الرحمن بن رستم كان رجلاً صادق التقى والورع واسع العلم . وقام بحماية جماعته وإشاعة العدالة فيها ، فتوافد الناس على تاهرت من كل ناحية ، فكبرت وعظم أمرها ، ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين إليها ، وكان لكل جالية حى من أحياء البلد ، فهناك الكوفيون والبصريون والمصريون والقرويون أى القيروانيون والأندلسيون وما إلى ذلك ، وكلهم كانوا يعيشون في أمان ويعملون بنشاط في ظل عبد الرحمن ، الذى كان فى الحق إماماً وقائداً صالحاً يتميز بسعة العلم والحلم وعمق الإيمان . فنجحت تجربته . ولكن عمره فى الإمامة لم يطل ، إذ توفى بعد ثمانى سنوات من الحكم سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤م وكان قد أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عيّنهم بأسمائهم ، وأضاف إليهم ابنه عبد الوهاب . وبعد مناقشات طويلة بين أفراد تلك الهيئة ، انحصر الاختيار بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسي ، ثم انسحب مسعود وبقي عبد الوهاب قنولى الإمامة .

هكذا وبصورة طبيعية إلى حد كبير ، غلب مبدأ الوراثة على مبدأ الاختيار والشورى ، وربما كان عبد الوهاب أصلح الباقين ، ولكن كونه ابناً للإمام السابق هو الذى رجح كفته . ويقال كذلك أنهم هددوا مسعوداً الأندلسي ليرغموه على الانسحاب . ومعنى ذلك أنه على الرغم من تحمس الإباضيين لمبدئهم وإنكارهم على غيرهم الأخذ بمبدأ الوراثة فى ولاية أمور المسلمين ، رغم ذلك أخذوا بمبدأ الوراثة ، وفى الواقع كانت تلك طبيعة العصر وأخلاق أهله ، لأن اختيار الإمام على مبدأ الشورى أى الانتخاب كان يتطلب نضجاً سياسياً بعيداً عن روح العصر ،

ومن ناحية أخرى كان مبدأ الوراثة متأسلاً ، من أحقاب متطاولة ، في نفوس الناس واتباعه أيسر عليهم .

وكان من الطبيعي أن ينشق فريق على الإمام الجديد ، منكراً عليه الوصول إلى الإمامة عن طريق الوراثة ، فنشأت فرقة تسمى « النكارية » أي المنكرين لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وفرقة تسمى « الوهبية » أي أنصار عبد الوهاب ، وقام الصراع التقليدي على الحكم ووقعت الحرب ، وانتهت بمقتل قائد النكارية على يد أفلح بن عبد الوهاب . وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء المثاليين على مسألة وراثة الحكم . ولم ينته أمر النكارية تماماً بهزيمتها ، بل بقيت منهم جماعات متفرقة في القبائل ، ومن بين هؤلاء سيظهر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الثائر الإباضي النكاري على خلافة الفاطميين في المغرب .

وسارت الأمور في دولة الإباضية في تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من إباضية جبل نفوسة ، سيراً وسطاً بين الالتزام بمبادئ المذهب والانحراف عنه ، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم ، وأصيب جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة ، الذين أقاموا على أنفسهم إماماً من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية ، وطبق إباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضاً ، وقد لقي منهم أفلح بن عبد الرحمن بن رستم عنثاً شديداً ، ولكن جماعتهم في تاهرت وجبل نفوسة استمرت تغالiban المتاعب والازمات دهرأ طويلاً ، وانفصلت منهما جماعات إباضية أخرى ، مراكزها في جزيرة جربة وغدامس وواركلا . وفي كل موضع من هذه قامت إمامة إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها ، وتحولت مع الزمن إلى وحدات اجتماعية واقتصادية ذات علاقات خاصة بين أفراد بعضها وبعض ، وما زالت بقايا الإباضية إلى يومنا هذا في إقليم الزاب جنوبي الجزائر .

وكان آخر الأئمة هو أبو اليقظان محمد بن أفلح الذي تولى سنة ٢٢٨ هـ / ٨٥٢ م وحكم ٤٠ سنة انتهت سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ، ولكن الدولة تناقصت قوتها في أيامه ، ومعنى ذلك أن التجربة الإباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الأعلى للحكم الذي كانت تتصوره ،

وإن كان ينبغي أن نقول : إن حكمهم في إقليم تاهرت ، كان حكماً عادلاً نسبياً وأن أحوال الناس في جماعتهم ، كانت أسعد بكثير من أحوالهم في ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم .

وقد دامت دولتهم قرناً ونصفاً على وجه التقريب ، وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك ، لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل . وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التي اجتثت كل دول المغرب القائمة في عصرها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م . وكان الذي قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعي ، الذي مر في طريق عودته من سجلماسة بتاهرت ، وخربها وقضى على آخر بني رستم ، وجعل المغرب الأوسط ولاية فاطمية تابعة لأفريقية .

وكان للإباضية دور كبير في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط وبلاط الصحراء ، فقد ضمت جماعة الإباضية كثيراً من التجار الذين وجدوا الأمن في ظل الأئمة . ولهذا تحولت تاهرت إلى مركز تجاري نشيط خلال القرن الهجري الثالث / التاسع الميلادي ، فكانت قوافل التجار تدخل من تاهرت ، وتتجه جنوباً حتى تصل إلى واحة الأغواط في جنوب الجزائر الحالية . ومن ثم يتجه بعضها شرقاً إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ، ويتجه بعضها الآخر إلى « واركلا » أو « ورجلا » وكانت مركزاً تجارياً كبيراً على أبواب الصحراء الكبرى . ومن هذا نفهم كيف تحولت واركلا إلى مركز كبير من مراكز الإباضية ، ومن هناك كانت القوافل تتجه إلى إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة ، وهي واحة كبيرة جنوبى منابع نهر المولوية . وفي واحة تافيلالت التي كانت بداية الطريق التجاري الكبير الذي يعبر الصحراء إلى أفريقية الإدارية قامت جماعة خارجية أخرى . في هذه الواحات - واحات تافيلالت - قامت دولة أو إمارة خارجية صغرى متشددة ، أقامها قبيل من البربر المستعربة وأهل السودان ، يعرفون ببني اليسع بن مدرار . وعلى الرغم من أن خوارج سجلماسة كانوا صغرية ، أى خوارج متشددين ، إلا أنهم كانوا يتعاملون في حرية مع تجار الإباضيين ، الذين كانوا يفدون عليهم من تاهرت . ومن المعروف أن جماعات التجار متسامحة في موضوع المبادئ

المذهبية لأن الذي يهمهم هي متاجرهم ، ولهذا فقد قام تعاون وثيق بين إيباضية تاهرت وإيباضية تافيلالت حتى لقد تصاهر بنو رستم وبنو مدرار . أما العلاقات التجارية فكانت وثيقة جداً بين الجماعتين وغيرهم من جماعات الخوارج في الصحراء . ومن هنا فإننا نجد أنه كان للخوارج في أفريقية الشمالية أثر كبير في انتشار الإسلام لأن التاجر السوداني ، الذي كان يريد أن يدخل في معاملات تجارية مع الإيباضية ، كان يجد أن الأفضل له أن يدخل الإسلام على مذهب زملائه التجار . ولهذا قلنا : إن جماعات الخوارج تحولت في المغرب الإسلامي إلى تحالفات تجار واتفاقيات مصالح وروابط اجتماعية ، شأنها في ذلك شأن جماعات الصوفية .

ومن الملاحظ أن جماعات المنضمين إلى مذاهب صغيرة قليلة الأتباع ، تتحول إلى جماعات مصالح تجارية ومالية ، وتصبح هذه الجماعات أقليات ووحدات اقتصادية مقفلة على أصحابها ، فهم يتاجر بعضهم مع بعض ويأتمن بعضهم بعضاً ، لأن رئيسهم وهو الإمام ، يحرص على أن تقوم العلاقات بين أفراد جماعته على أساس الأمانة والصدق في المعاملة . ولا غرابة إذن أن نجد أن قوافل التجار الصادرة من مراكز الإيباضية ، التي أشرنا إليها ، أنشأت في الصحراء الأفريقية كلها شبكة من المراكز التجارية النشيطة ، ومعظمها خارجية إيباضية في الغالب . وفي كل واحة من واحات الصحراء كان الإيباضية يقيمون زاوية ، والزاوية كانت مسجداً في أساسها ولكنها كانت تستعمل مركزاً لتتلاقى التجار ، وتستخدم كذلك خانات أو فنادق للمسافرين هناك ، وفي صحن الزاوية كان التجار يقضون الليل ويقومون بمعاملاتهم التجارية . وكان لكل زاوية شيخ هو في نفس الوقت رئيس الجماعة الإيباضية والمكلف بتنفيذ أحكام الشريعة ، وفي العادة كانت تنشئ الجماعة زوايا أخرى في قرى أو واحات جديدة ، وهكذا شيئاً فشيئاً نشأت شبكة الزوايا الخارجية ، التي كان لها أكبر الأثر في نشر الإسلام في الصحراء الأفريقية المدارية ، أي بلاد تشاد والنيجر ومالي وفولتا ، وكذلك في السودان النيلي في مناطق كردفان ووادي شم في منطقة بحيرة تشاد نفسها ، التي قامت فيها دول إسلامية أهمها البورنو والكانم .

تلك كانت الخدمة الحضارية الكبرى التي قامت بها الجماعات الإيباضية ،

التي نشأت أساساً في جبل نفوسة وتاهرت والأغواط وواركلا وسجلماسة ، ثم شملت كل نواحي الصحراء . وعندما غزا العرب الهلالية أفريقية والمغرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، زال المذهب الإباضي وحلّت محله السنة ، فأصبحت مراكز التجارة والزوايا إسلامية سنية ، ولم تبق من الإباضية إلا آثار قليلة في نواحي « مصاب » أو « مزاب » في جنوبي الجزائر الحالية ، حيث ما زالت تقوم جماعات إباضية متميزة بطابعها الديني ، وكذلك في واحات واركلا والأغواط ثم في جبل نفوسة ، جنوبي طرابلس الحالية وفي جزيرة جربة في تونس ، حيث نجد إلى يومنا هذا جماعات إباضية زاهرة .

الأدارة

من الأخطاء الشائعة القول بأن دولة الأدارة دولة شيعية ، لأن مؤسسيها وأمراءها كانوا من آل البيت . والحقيقة أن الأدارة رغم علويتهم لم يكونوا شيعيين ، بل لم يكن أحد من رجال دولة الأدارة أو أتباعهم شيعياً ، فقد كانوا سنيين ، لا يعرفون الآراء الشيعية التي شاعت على أيام الفاطميين ، ولم يعرفوا في بلادهم غير الفقه السني المالكي . ومن البديهي أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة لأحد ، أما الشيعة فهم أنصارهم . والوصف الصحيح لهذه الدولة هو أنها كانت دولة علوية هاشمية ، وهي أول تجربة نجح فيها أهل البيت في إقامة دولة لأنفسهم ، وهي من هذه الناحية تهمنا كتجربة سياسية في سلسلة تجارب الحكم في تاريخ المغرب ، وسلسلة تجارب أيضاً في تاريخ الإسلام العام ، وهو حافل بهذه التجارب من كل نوع .

ودولة الأدارة من الدول الطويلة العمر . فقد قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، ولكنها لم تنته تماماً إلا في أواخر القرن الرابع الهجري (١٠١٠ م) . وقد عمرت فوق القرنين ونصف ، أي ضعف ما عمرته دولتا الأغالبة والرسامين ، وثبتت لمحنة الفاطمية وجيوشها ، وخاضت طوال تاريخها حرب بقاء أو موت مع الدولة الأموية الأندلسية حيناً وإلى جانبها حيناً آخر ، ولكنها مع ذلك العمر الطويل والحيوية المتجددة ، كانت دائماً من صفات الدول سواء في سعة مملكتها أو قوة أنمتها ، ولكنها كانت من أهمها من الناحية الحضارية ، فقد كان لها في تاريخ المغرب أثر حاسم في صياغة مذهب السنة من ناحية ، وتعريب البلاد من ناحية أخرى . وقد مرت بفترات احتضار طويلة وانتعشت مرات كثيرة .

وكما قامت دولة الخوارج الإباضية في تاهرت نتيجة للطموح السياسي لرجال الإباضية ، ورغبة قبائل المغرب الأوسط في إقامة كيان سياسي لها ، فكذلك قامت دولة الأدارة على أساسين :

الأول : طموح العلويين إلى إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية .

والثاني: رغبة قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسي خاص لهم .

وهذان هما العاملان الرئيسيان في قيام هذه الدولة ، ولكننا في كل ما يتصل بالمغرب ودوله ، ينبغي أن نبحث عن العوامل المحلية المتعلقة بالتركيب القبلي للشعب البربري . وكذلك المتعلقة بطبيعة الأقاليم التي نريد التأريخ لها في المغرب .

وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى ينقسم من حيث المناطق ذات الوحدة الجغرافية ، التي يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ، إلى ثلاثة أقاليم : إقليم الساحل الشمالي المعروف تاريخياً بإقليم طنجة ، ويشمل الشريط الساحلي الشمالي ، ثم منطقة الريف الجبلية ، وهي ليست فرعاً من جبال الأطلس ، وإنما هي فرع من الجبال الأيبيرية ، ويتبعها السهل الواقع جنوبي جبال الريف ويعرف بإقليم الهبط أو إقليم أزغان . والمنطقة الثانية حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالي من ساحل المغرب الأقصى المطل على المحيط الأطلسي ، وهو سهل قسح يمتد جنوباً حتى يصل إلى حوض وادي بورجرج أو أبو الرقرق ، ويشمل جزءاً كبيراً من السفوح الغربية لجبال الأطلس . هنا نجد المهد الحقيقي لتاريخ المغرب العربي الإسلامي وتلك هي المنطقة الثانية . والمنطقة الثالثة هي المنطقة التي تقع جنوب نهر سبو وتشمل حوض نهري وادي أم الربيع ووادي تانسيفت وهذه المنطقة أوسع وأغنى من المنطقة الشمالية ولأن الجبال تنسحب هنا كثيراً إلى الداخل تاركة سهلاً ساحلياً فسيحاً يسمى ساحله بريف تامسنا شمالاً وريف دكالة جنوباً . وتنقسم إلى الأطلس العليا والأطلس الداخلية أي الانقي أطلس ، وهنا نجد المجال الذي ستتفصح فيه القبائل البربرية الصنهاجية الكبرى ، التي أنشأت دولة المرابطين ، والمصمودية التي أقامت دولة الموحدين بعد ذلك . ويدخل في هذه المنطقة الثالثة إقليم السوس الذي يقع على الساحل بين فرعي جبال الأطلس .

ويحد المغرب الأقصى وادي نهر مولوية الذي يصب في البحر المتوسط ، وإلى الشرق منه قليلاً نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الأوسط .

وتقوم جبال الأطلس حاجزاً بين المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن هناك ممر

واسع بين الجزء الشمالى من جبال الأطلس وجزئها الجنوبى ، وهذا الممر يعرف بممر تازا ، وهو من المواضع الحاسمة بالنسبة لتاريخ القطرين ، ومن سيطر على ممر تازا سيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الأقصى .

وقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الأقصى أولاً فى الشمال ، فى منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ، ويحاول أن ينشر سلطانه عليها ، ولكن قبائل برغواطية وغمارية . التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ، ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الإسلام ، عرفت برندقة برغواطية ، وكانت هذه الأخيرة ومن تبعها ، تهدد كل القبائل المغربية الأخرى ، مما حدا بهذه كلها إلى البحث عن زعيم يجمع شتاتها ، ويعينها على تكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطية ومذاهبها ، وتساعد هذه القبائل على إنشاء كيان سياسى لها يؤمن مصالحها ، ويُمكن لها من الوصول إلى الرياسة .

كانت الظروف إذن ممهدة لزعامة سياسية فى شمال المغرب الأقصى ، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطية أولاً ، ثم تمكن لها الأخرى من إنشاء دولة وكيان سياسى ، أى دخول ميدان التاريخ بحسب تعبيرنا اليوم .

هذا الزعيم أرادت المقادير أن يكون إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو أحد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة موضع يسمى باسم « فخ » ، أوقع العباسيون فيه بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن علي ، كانوا يدعون لأنفسهم ويطمحون إلى أن يقيموا لأنفسهم دولة ، وكانت المأساة فى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م فى خلافة الهادى العباسى .

وقد قرَّ الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد ، وكان من الذين فروا يحيى بن عبد الله الذى هرب إلى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ، ولكن أسعدهم حظاً ، كان أخاه إدريس بن عبد الله ، هذا الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب ، ثم لحق به أخوه سليمان الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه إدريس كياناً سياسياً فى نواحي تلمسان .

ولا ندري إن كان إدريس يعلم شيئاً عن المغرب عندما فر إليه ، لكن مولاه راشداً الذي فر معه إلى المغرب كان يقال إنه بربري الأصل . ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول ، فإنه حتى لو صدق ، لا يمكن أن يكون عاملاً رئيسياً في قيام دولة ، ولكنه على أي حال وَجَّه إدريس نحو المغرب ، وقد يكون راشد يعرف اللسان البربري الذي يتكلم به الناس في هذه النواحي من المغرب الأقصى ، ولكن الأهم من ذلك هو أن راشداً كان رجلاً ذكياً حسن التصرف بعيد النظر ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية دون شك .

تقص النصوص علينا حكاية روائية عن هروب راشد وإدريس إلى المغرب الأقصى ، نجتزئ منها بالقول بأن راشداً وإدريس خرجا إلى المغرب في زى التجار مع القوافل ، فكان راشد هو السيد وإدريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره وذلك ليخفى شخصيته . وبعد رحلة سنتين أي خلال سنة ١٧١ هـ / ٧٨٨ م ، ظهر الاثنان في طنجة ، وأخذ راشد يدعو لأمير علوي يحمل راية الإسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وكانت دعوة راشد لرجل من أهل البيت كافية لتكسب الانصار ، ولكن يبدو أن التوفيق لم يكن كبيراً في طنجة ، وكانت عاصمة المغرب في ذلك الحين ، وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقي يكمن في وسط قبائل أوربة ، وكان مركز الجناح الغربي لهذه القبائل في مدينة وليلي عند قاعدة جبل يسمى « زرهون » ، وتقع في منتصف المسافة بين فاس ومكناس الحاليين .

وكانت وليلي مركزاً تجارياً ممتازاً وسوقاً عظيمة للقبائل ، وعرفت في أيام الرومان باسم Cululis ، وهي من هذه الناحية أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، وأما أوربة فكانت تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادي سبو ، وقد عرفنا هذه القبيلة أيام كسيلة ، وأينا صراعها مع عقبة بن نافع ثم زهير بن قيس . وتدخل في هذه القبائل مجموعة غمارة وهي أيضاً قبائل برتسية تمتد في حوض سبو وإقليم الهبط ، الذي يسمى لهذا أحياناً هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الأطلسي .

نزل إدريس مدينة وليلي في ربيع الأول ١٧٢ هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ

يدعو لنفسه ، ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصاراً ، فإن شيوخ أوربة كانوا مستعدين لتأييد زعيم يقودهم في ثورة للخروج من سلطان برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهي دولة بنى رستم في تاهرت ، وكانت قرابته من الرسول ﷺ كافية لاجتذاب القلوب إليه ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك خبر مأساة « فح » وما وقع للعلويين فيها من القتل والتشريد ، وهم سلالة النبي الأكرم . لهذا التقف الناس حول إدريس في حماس ، وقام إلى جانبه راشد ، يدبر له الأمر ويجمع له القلوب ، وبعد قليل أصبح إدريس أمير ويلي وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربة ، وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل الساكنة في هذه النواحي وكانت نائمة على برغواطة ، وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعاً قليلاً ضحماً مفككاً يحمل عبء برغواطة واستبدادها ، ومع غمارة انضمت إلى إدريس قطع من زاوارة وسدراتة ونفزة ومكناسة .

وبقوات هؤلاء استطاع إدريس أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ، وسار بقواته متنقلاً في هذه النواحي يخضع القبائل أو يتلقى طاعتها ، حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع وهي رقعة فسيحة غنية ، ومهد لدولة يحسب لها حساب .

هنا تنبه هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم من الخطر من هذه الدولة ، وكان أكثر ما أخافه أن أميرها علوي من أهل البيت ، ولأهل البيت مكان عظيم من حب الناس ، وخاصة بعد الذي جرى لهم على أيدي الأمويين أولاً ، ثم العباسيين بعد ذلك ، وربما كانت هناك مبالغة كبيرة في تصوير مخاوف الرشيد ، ولكن قيام إمارة علوية في أي مكان من بلاد الإسلام ، أمر لا يمكن أن يستريح له العباسيون .

وتذهب الحكايات إلى أن الرشيد تدارس أمر إدريس مع جعفر البرمكي ، فتبيننا استحالة إرسال عساكر إلى المغرب ، للقضاء على إمارة إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولم يجدا أمامهما إلا الاحتيال في اغتياله بالسسم ، فوقع اختيارهما على رجل جرىء يسمى سليمان بن جرير

ويدعى بالشماخ فحمل السم ومضى إلى المغرب ودخل في خدمة إدريس وكسب ثقته ، ثم تحيل قُدس له السم في هيئة طيب دخل في خيشومه كما تقول القصة الشعبية التي نقلها المؤرخون على أنها تاريخ . وانتهى إلى دماغه فغشى عليه وسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه ، ثم توفي في ربيع الأول ١٧٥ هـ / يوليو ٧٩١ م . والحكاية لا يمكن قبولها ، ولكنها تصوير لاستنكار الناس موت هذا الرجل بعد ثلاث سنوات من قيام دولته ، فإن موت الرجال في عنفوان قوتهم يروع النفوس ، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول .

وهنا تبدو لنا مهارة راشد الذي كان المدير الحقيقي لهذه الدولة ومحور العمل فيها . ومن حسن حظ راشد أن إدريس لما توفي ترك إحدى جواريه ، وتسمى « كنزة » حاملاً فاتفق راشد مع رؤساء القبائل على أن ينتظروا حتى تلد « كنزة » ، فإذا ولدت غلاماً كان أميرهم . وتسير القصة فيكون المولود ولداً ، فيسمونه إدريس على اسم أبيه ويأبونه وهو بعد في المهد . ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا شيوخ القبائل . وكان عزيزاً عليهم أن يضيع السلطان الذي وصلوا إليه باسم أمير من أمراء البيت النبوي . ولهذا انتظروا حتى بلغ الغلام عشر سنوات فبأبونه مرة أخرى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م . واهتم راشد بتربيته وتكوينه وإعداده للإمارة .

ثم مات راشد عقب ذلك ، فقليل إن إبراهيم بن الأغلب تحيل في سمه ، وهكذا بقى الغلام إدريس دون راع حقيقى ، فقام بهذه المهمة شيخ من شيوخ البربر يسمى أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى ، فجدد البيعة لإدريس سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م . واستمر ولاء القبائل له ، وفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م — وكانت سن إدريس ١٧ سنة — يختفى أبو خالد من الميدان بتهمة التواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب ، المهم لديـسنا أن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن أو إدريس الثانى ، بدأ يحكم مستقلاً بنفسه ابتداء من سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

عقب ذلك مباشرة نجد كثيرين من مهاجرة العرب ، يفدون على إدريس من القيروان خاصة ، ويدخلون في خدمته . ويتجه نظره إلى الخروج من ولىلى ، ربما

لأنه كان يريد التحلل من سلطان قبيلة أوربة ، فدله الناس على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سبو بين جبلين ، يسمى وادى فاس فأنشأ فيه بلدة صغيرة ، سميت « عدوة ربض القرويين » ، ثم وفدت جماعة من مهاجرة قرطبة وأنشأوا قرية مجاورة ، عرفت باسم عدوة الأندلسيين ، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى إدريس لنفسه داراً في عدوة القرويين وشرع في إنشاء مسجد فاس الجامع ، وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م ، ودخلت دولة الأدارسة في الدور الحاسم من تاريخها .

وابتداء من ١٩٧ هـ / ٨١٢ - ٨١٣ م بدأ إدريس سلسلة حملات ، ثبتت سلطان الدولة ، من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ونشط لحرب الخوارج في جبال الأطلس ، ودارت حرب طويلة بينه وبين البرغواطيين . وفي هذا الدور من تاريخ الأدارسة حمل العبد رجال قبيلتي أوربة وغمارة بشكل خاص ، كما حملت كتامة عبء الدولة الفاطمية في أول قيامها .

ومات إدريس الثاني في ربيع الأول سنة ٢٠٢ / سبتمبر ٨١٨ ، بعد أن ثبت دعائم الدولة ، بعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسيه من بني الأغلب خاصة .

بعد وفاة إدريس الثاني نجد ابنه وخليفته محمد بن إدريس يتصرف تصرفاً غريباً وغير معقول ، فيقوم ، بناء على نصيحة جدته كنزة ، بتقسيم الدولة بين أخواته الكثيرين ، وكان المعقول أن يقيمهم عمالاً أو ممثلين للدولة ، ولكنه أعطاهم نواحي الدولة إقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها ، فكان هذا سبباً في ضعف الدولة وهي بعد لم يكتمل عمرها . ومع أن محمد بن إدريس احتفظ لنفسه بالرياسة واعتبر إخوته أتباعاً له ، إلا أن بعض الإخوة اتجه إلى الاستقلال بناحيته تأسيساً أن قوة الدولة الإدريسية تكمن في ترابط رؤسائها من أفراد البيت الإدريسي العلوي ، الذي كان يتمتع في قلوب الناس بمكانة جليلة .

وكان التقسيم كما يلي :

القاسم : سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكلتاهاما جنوبي تطوان ،

وكانت تطوان في إقطاعه كذلك .

عمر : بلاد الهبط أو هبط غمارة .

داوود : بلاد هواره وتسول وتازا وما بينهما ، بما في ذلك مواطن قبائل
مكناسة وغيثة .

عبد الله : أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ،
في أقصى جنوب المغرب الأقصى .

يحيى : أصيلا والعراش وبلاد زواغة .

عيسى : مشالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة .

أحمد : مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد قازاز .

حمزة : وليلي وأعمالها .

ابن عمه سليمان : تلمسان .

واكتفى هو بفاس حاضرتة وأقام فيها ، ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلاً
من أولئك الإخوة الكثيرين ، بلداً أو أكثر وإقليماً تسكنه قبيلة أو قبائل . وكان له
الحق في الاستيلاء على معظم المال الذي يجمع من الناحية .

وكان من الطبيعي أن يتقلب بعض الإخوة عليه ، وأن يتحاربوا فيما بينهم ،
وقد استعان محمد بأخيه عمر على التأثيرين من إخوته وأعطاه أعمالهم ، فاستعت
ولاية عمر حتى بلغت عند موته نصف الدولة الشمالي والغربي كله ، ثم خلفه
عليها ابنه علي بن عمر بن إدريس .

وعندما مات محمد بن إدريس الثاني سنة ٢٢١ هـ / ٨٢٦ م ، ترك دولة
مُفَرَّقة مُقسَّمة وضعيفة .

وقد خلفه ابنه علي الأول بن محمد ويسميه ابن خلدون « حيدرة » ، وحيدرة
لقب كان يطلق على علي بن أبي طالب ومعناه الأسد ، وكان غلاماً في التاسعة ،
فحكم تحت وصاية أقاربه ورجال الدولة حتى توفي سنة ٢٢٤ هـ / ٨٤٨ م ،
وعهد بالامر إلى أخيه يحيى الأول بن محمد .

في عهد يحيى هذا بلغت فاس أوجها أيام الإدارة ، فقامت فيها المنشآت

الكثيرة وامتدت على سفوح الجبال ، وأنشئ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري ، وجامع فاس من مساجد الإسلام المشهورة ، وقد أصبح مركزاً للعلم والدراسة من أول نشأته ، وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ، مثله في ذلك مثل الجامع الأزهر . ولكن جامعة القرويين أقدم من جامعة الأزهر . وهي عميدة الجامعات الإسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

وبعد يحيى الأول حكم ابنه يحيى الثاني وكان شاباً طائشاً غير أهل للحكم ، فثار عليه الناس وطرده فاختفى ومات في مخبئه ، واختاروا ابن عمه على الثاني ابن عمر بن إدريس الثاني ، الذي كان يحكم جزءاً من الدولة أعطاه إياه أخوه محمد بن إدريس كما قدمنا ، فانتقل الملك إلى فرع عمر بن إدريس ، ولكن على الثاني هذا ثار عليه أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر إلى قبيلة أوربة ، وتولى بعده يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني ، الذي صرف وقته في قتال الخوارج الصفرية من ٢٩٢ - ٣١٠ هـ / ٩٠٤ - ٩٢٢ م حتى قتله الربيع بن سليمان فانتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس ، ويقول ابن خلدون عنه : إنه كان أوسع أمراء الأدارسة سلطاناً وأثبتهم ملكاً ، وفي ذلك مبالغة دون شك .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م وفي إمارة يحيى هذا أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين على رأسه مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله المهدي الفاطمي وهدفه إزالة دولة الأدارسة ، وانتصر مصالة ، ثم ولّى على المغرب الأقصى شيخاً من شيوخ البربر وهو موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة ، وجعله عاملاً على تسول وبلاد تازا ولكنه لم يُقِّم أميراً على فاس ، وكان من الطبيعي أن يطمع موسى بن أبي العافية في أن يحل هو محل الأدارسة في دولتهم ، وبالفعل تم له ذلك سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م فقام بالقضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر في بعض نواحي المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة في جبال الريف تسمى حجر النسر .

إلى هنا ينتهي الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، لأن الباقين منهم سيستجمعون أمرهم في قلعة حجر النسر ، وتكون لهم نهضة ودولة جديدة على

يد زعيم جديد من أحفادهم الذين اختلطوا بالبربر اختلاطاً شديداً وأصبحوا من أهل البلاد ، وهو الحسن بن قنون أو جنون أو كنون ومعناه « الجميل » .

وهنا نقف بتاريخ الإدارة ، لأن الدور الثانى من تاريخ الإدارة وهو دور بنى قنون شديد التعقيد ، وهو شديد الصلة بالصراع بين القاطمين والامويين الأندلسيين على مصير المغرب الأقصى .

وفى سلسلة التجارب السياسية التى مر بها تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى - وقد ذكرنا أهمها إلى الآن - تعتبر الدولة الإدريسية الخطوة الأولى فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم ، فللمرة الأولى منذ الفتح تقوم هنا دولة إسلامية ظاهرة العروبة ، فقد كان أمراء الدولة والكثير من رجال دولتهم عرباً ، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتاف البربر المستعربين ، وخاصة قبائل أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولواتة ، فكانت الغلبة فى هذه الدولة لأولئك البربر ، مما أسرع تعريبهم ، وعجل بقيام المغرب العربى .

وقد نجحت الدولة الإدريسية فى القضاء على الجانب الأكبر من انحراقات برغواطة ومن لف لفها من القبائل ، وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لا تستقيم إلا مع الإسلام الصحيح ، ومن النادر أن تأتلف العروبة مع مذهب آخر غير المذهب السنى البسيط الواضح .

وكان دليل قيام ذلك المغرب الأقصى العربى المسلم هو قيام مدينة فاس وجامعها العظيم ، وكما كان قيام القيروان هو الخطوة الأولى فى قيام أفريقية الإسلامية ، فكذلك كان قيام فاس الخطوة الحاسمة فى قيام المغرب الأقصى العربى المسلم . فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية ، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى .

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية ، وبدأ يتكون المجتمع العربى المغربى المسلم ، وهذه نتيجة ليست بالهينة ، إذ إنها تعتبر الخطوة الحاسمة فى التغير الكبير الذى جعل المغرب الأقصى بلداً عربية كاملة العروبة والثقافة .

الدولة الفاطمية في المغرب

٢٩٦-٣٦٢ هـ / ٩٠٩-٩٧٣ م

رأينا أن تاريخ المغرب في ظلال الإسلام ، سلسلة من التجارب المتنوعة في الحكم والإدارة ، وأن أهل المغرب الأصلاء - وهم البربر - والعرب الذين استقروا في البلاد ، أثناء الفتح أو بعده ، وتحولوا إلى عرب أفارقة أو عرب بلديين ، خاضوا غمار تجارب وصراعات عنيفة متوالية تهدف إلى إقامة حكم إسلامي في ذلك القطر الفسيح ، الذي استيقظ مع الإسلام من سبات القرون ، ودخل ميدان التاريخ يجرب حظه أو يبحث عن مصيره . ومن ناحية أخرى جهدت الحكومة المركزية ، سواء في دمشق أو في بغداد ، في السيطرة على هذه البلاد وتحويلها إلى ولاية إسلامية خاضعة طائفة ، تؤدي للدولة ما يقرر عليها من مال ، وتدين بالطاعة للوالي الذي ترسله الدولة .

ولم تفلح الدولة الأموية أو العباسية في ذلك ، لأن شعب المغرب من برقة إلى طنجة وبلاد السوس ، كان شعباً بكرأ عفاً ، وجد نفسه في الإسلام وتفتحت مواهبه على عقيدته وشريعته ، فأسلمت من جماعات هذا الشعب أعداد غفيرة ، انضمت إلى جيوش الإسلام الفاتحة ، وأكملت معها فتح المغرب إلى السوس أيام موسى بن نصير خاصة ، وأسهمت بنصيب الأسد في فتح الأندلس ، فأصبحت بذلك أعضاء أصيلة في جماعة الإسلام الكبرى ، وطالبت بنصيبها الحق الذي يعطيها الإسلام إياه ، واندست في صفوف بعضها جماعات الخوارج تؤلبهم على الدولة الأموية ، وتبين لهم حقوقهم التي يمنحهم إياها الإسلام ، فكانت مذاهب الخارجية وثورة أفريقية وصراع العرب والبربر ، وقامت في نواحي أفريقية والمغرب الكيانات السياسية المتنوعة ، مابين سنية ، كما نجد في إقليم أفريقية كله ، أو خارجية إباضية ، كما رأينا في تجربة بني رستم في تاهرت ، أو إباضية صفرية كما رأينا في دولة آل مدرار في سجلماسة ، أو خارجية دون تحديد مذهب ، كما كان الأمر مع دولة أبي قررة المغيلي الخارجي في نواحي تلمسان ، أو سنية

قامت تحت راية نفر من آل البيت ، أو دويلات قبلية ذات مذاهب بعيدة عن الإسلام كما رأينا في زندقة برغواطة .

وكل هذه كانت تجارب مغربية ، إما خالصة ، أو مغربية عربية اشترك فيها العرب والبربر كما رأينا في محاولة عبد الرحمن بن حبيب وآله ، وتجربة المهالبة ودولة الأغالية . كل هذه التجارب ، ما نجح منها وما لم ينجح ، وما طال عمره أم لم يطل ، وما كان عربياً أو بربرياً ، كانت تجارب ذات صلة بأوضاع المغرب ، أى أنها كانت في نهاية الأمر تجارب مغربية ، وتجاربها حلقات من الطريق الطويل الذى خاضه المغرب لكى يكتشف ذاته في النهاية ويتم إسلامه واستعراجه ، ويصبح جزءاً من ذلك العالم العربى الشاسع ، تقوم فيه الدول المغربية العربية التى تحمل جانبها من المسئولية عن الإسلام ، ومصيره في بلادها وخارجها ، حملاً كاملاً كما سنرى في دول المرابطين والموحدين والمرينيين ومن عاصرهم وجاء بعدهم إلى يومنا هذا .

ولكن التجربة التى سنوجز الكلام عنها في الصفحات التالية ، وهى تجربة الدولة الفاطمية وقيامها في المغرب ، كانت تجربة غربية عن المسار العام للتاريخ المغربى ، أو قل هى شجرة غربية زرعت في أرض المغرب ونمت وارتفعت فروعها في الهواء حيناً ، ولكنها لم تضرب جذوراً ، ولا أضافت إلى طوائف التجارب السياسية في المغرب شيئاً نابعاً من تربة تلك البلاد ، إنما هى كانت بذرة عقيمة مشرقية غربية عن بلاد المغرب ، حملتها أعاصير السياسة والزمان إلى أرض المغرب ، فكان لها فيه شأن ، ثم مضت مخلفة وراءها قلقاً شديداً ودماراً بعيد المدى ، ولكن ورثتها وهم صنهاجة المغرب الأوسط من آل زيرى بن هناد عرفوا كيف ينشئون على القليل الذى ورثوه عن الفاطميين . بناء مغربياً عربياً أصيلاً . يتمثل في دولتى بنى زيرى الصنهاجيين الذين سنلّم بتاريخهم في الفصل التالى . والقليل من العلم بشئون السياسة والدول الذى ورثه آل زيرى عن الفاطميين كان غير قويم أو كاف عن إنشاء الدولة وكيف يكون ، ولكن الفاطميين خلفوا لهم أساساً عربياً سليماً كان بعيد الأثر في تعريب المغرب ، لأن بنى عبيد الله أيا كان رأى في نسبهم كانوا عرباً أقاموا في أفريقية بناء سياسياً ، وكانت فيهم رغم كل

شيء فحولة عربية أصيلة ، وتلك — فحسب — هي أكبر ما ورث المغرب الإسلامي من تجربة الفاطميين . ثم إنهم — أي الفاطميين — عندما أرادوا إرغام بنى زيري على العودة إلى الطاعة قذفوا على المغرب بآل هلال وآل سليم بن منصور ، فأنثروا في المغرب أعاصير مدمرة . ولكن الأعاصير عندما هدأت ، كانت قد نثرت في المغرب كله بذوراً عربية أصيلة ، كان لها أثر حاسم في تكوين المغرب الإسلامي العربي .

وقد كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثمرة من ثمرات الأزمات السياسية الكبرى وصراع السلطان في المشرق ، لأن بنى العباس ، الذين دخلوا التاريخ دخولاً ضخماً ذا دوى بعيد ، معلنين مجيء دولة العروبة والإسلام التي تقيم دولة العدالة والسنة إلى آخر الزمان . لم تلبث على حال من القوة إلا قرناً واحداً من الزمان ، ثم انتابتها العلل والفتن والأزمات ، لأنها انحرفت بأصول الحكم الإسلامي ، التي تقوم على الشورى والعدالة والحرية وكرامة الإنسان ، وارتدت إلى قواعد الحكم الساساني . واستلهموا عهد أردشير بن بابك في أصول الحكم وغايته . وانتهى الأمر إلى وضع السلطان في يد الثالث المدمر الذي قضى على آل ساسان : ثالث السلطان أو كسرى في ثوب الخليفة ، والوزير المدبر لكل شيء باسم السلطان ، ثم القوة العسكرية الماجورة بالمال . وفي أثناء صراع الأمين والمأمون تولى آل العباس عن قاعدة العروبة إلا بالاسم ، فصاروا خلفاء عرباً يسوسهم أجلاف عجم . وعندما اكتشف العجم أنهم صولجان الملك وقوته ، نحوا الخليفة جانباً . وحكموا باسمه واضطرب الأمر في عالم الدولة العباسية كله ، وأصبحت وظيفة الإدارة العباسية هي جمع المال لإعطاء الجند التركي في الغالب . وشيئاً فشيئاً ، وخاصة بعد خلافة المنتصر بالله بن المتوكل على الله (شوال ٢٤٧ — ربيع الآخر ٢٤٨ / ٨٦١ — ٨٦٢ م) ، صار الوزير جابياً للمال أو ملتزماً بالجباية لقائد الجند المرتزق ، وتحول العمال ، حكام الولايات ، إلى ملتزمين يجمعون الأموال ويختصون أنفسهم وسادتهم منها بنصيب وافر ، ويبعثون بالبقية إلى الوزير . وتحول الخليفة العباسي إلى موظف في خدمة رئيس الجند وإن حمل لقب الخلافة ، فهو يتقاضى راتباً يُعَيِّنُه له الجند الأتراك ويأتمر بأمرهم .

وفي أثناء ذلك ضاعت الرعية ، فلم يُعَدَّ أحد يُعْنَى بأمرها ، وأهملت المرافق واستولى الخراب على كبار المدن ، وأصبحت بغداد نفسها بلداً مخوفاً يعيش الناس فيه على وجل ، ولا أمل لهم في صلاح ، أو خير من جانب خلفاء بني العباس ورجالهم .

واتجه الناس بآمالهم يبحثون عن الحاكم الصالح العادل ، لأن الإسلام دين صلاح وعدل وإنسانية ، ولا ييأس المؤمن قط من عدل الله سبحانه ، مهما ساء أمر الحاكم ، وتجسدت الآمال في العدالة في صورة العلويين أي سلالته على بن أبي طالب الذين لقوا من القتل والتشريد على أيدي بني العباس مثلما لقوا على أيدي الأمويين . وكان العلويون منذ أيام إمامهم العظيم جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو خامس أئمتهم ، إذا أضفنا إلى أولاد علي بن الحسين ، ابنة الحسن ، وهو الإمام الثاني في سلسلة أئمة آل البيت ، ومنه انتقلت الإمامة إلى أخيه الحسين فعلى زين العابدين فجعفر الصادق ، نقول : إن تفكيرهم اتجه من أيام جعفر الصادق هذا إلى أن يباعدوا السياسة ولا يطلبوا الحكم بسبب ما لقي رجالهم من الأذى في سبيله .

ولقد ظل جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ملتزماً سمت العلم والعلماء ما عاش ، بل إنه رفض الخلافة عندما عرضها عليه أبو سلمة الخلال وزير آل محمد وواحد من أكابر مؤسسي الدولة العباسية ، ولكن شيعة علي وآله ظلوا يعلقون آمالهم على آل البيت ، وإذا كان جعفر الصادق قد رفض أن يكون خليفة ، إلا أنه ظل يرى نفسه إماماً في العلم والفضل ، ووارثاً لعلم جده علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكان أنصار آل البيت يرون أن إمامة آل البيت لا تقتصر على العلم بل تشمل السياسة ، فهم أئمة المسلمين وأولى الناس بالحكم ، وإذا كان جعفر الصادق قد ترك السياسة فقد كان ذلك في رأيهم تقية أي تقى وورعاً أو اتقاء لأذى العباسيين ، وقالوا إن جعفرأ قرر أن التقية مذهبه ومذهب الأئمة أجمعين .

وفي حياة جعفر الصادق حدث ما جعله ينقل الإمامة من بعده من ولده إسماعيل إلى ولده موسى الكاظم ، ولم يوافق نفر غفير من شيعة آل البيت على

هذا النقل ، لأنهم قالوا إن الإمامة سر أودعه الله في آل البيت ، وهي تنتقل من الإمام إلى ابنه الأكبر وراثية حتمية . فظلوا متعلقين بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقالوا إن إسماعيل هو الإمام المستقر ، وأن موسى الكاظم أخاه إمام مستودع ، أي أن أباه استودعه الإمامة إلى أن تعود فتستقر في إسماعيل وأولاده . أما موسى الكاظم وأبنائه فهم الأئمة السبعة ، لأن موسى الكاظم عندهم هو الإمام السادس ، ثم جاء بعده ابنه الذي استتر ، ولا زالوا في انتظاره إلى اليوم .

وأما أتباع إسماعيل بن جعفر ، فقد جعلوا فيه الإمامة . ونقلوها من بعده إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى أبناء هذا ، إلى الإمام الثاني عشر الذي استتر خوفاً على نفسه من الأذى ، وسيعود إلى الدنيا عندما يشاء الله ليملأها عدلاً عندما يصل الفساد مداه ويشاء الله سبحانه إنقاذ الخلق ، وهو عندهم المهدي المنتظر .

وقد لقيت حكاية استتار الإمام إقبالاً من نفر غفير من أبناء الأمة ، لأن الإنسان إذا يش من الواقع لجأ إلى الأمل ، وكان العلويون أملاً ضخماً تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسية عن إقامة الحكم الصالح الذي بشر به الإسلام .

وفي خدمة الإمام المستتر قام الدعاة ببثون الدعوة في الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذي ثقل على القلوب . والدعاة جماعة من أهل الإيمان بإمامة علي وأبنائه أو من أهل الطموح السياسي والمالي الذين وجدوا في عطش الجماهير إلى العدالة والأمن فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الأنصار ، ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم من أصحاب الآراء الغريبة عن الإسلام ، فنشأت فرق الشيعة الكثيرة التي فصل أمرها النوبختي ، والذي يعنيها الآن هم الشيعة الإسماعيلية أو الاثنى عشرية ، والفاطميون منهم .

وقد نظم الدعاة أنفسهم على نحو يدعو إلى الغرابة ، فقالوا إن الإمام مستتر في مكان لا يعرفه إلا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصي ، وهذا الوصي أو وصي الإمام هو مدير الدعوة ومنظمها ، وتحسنت يده داعي الدعاة ثم الدعاة ، وهم مراتب ، وأخذ الموضوع صورة مؤامرة سرية كبرى هدفها نقل الخلافة من بني العباس إلى آل علي .

وقالوا : إن الإمام كان أول الأمر مستتراً في فارس ، ثم انتقل إلى سَلْمِيَّة قرب حماة ، وهي عندهم مركز الدعوة . والإمام فيها حصين آمن له حرس وعيون وارصاد في قصر الخليفة وبيوت رجال الدولة ، وهم يجمعون باسمه مالا كثيراً من الناس ، لأن الواحد من الناس إذا آمن بدعوتهم ، أصبح لزاماً عليه أن يؤدي الزكاة للإمام ، ومهما قل مبلغها ، فقد كان يتحصل منه في أيدي الدعاة ، من صغيرهم إلى الوصي ، مال جسيم ليصل بعضه إلى الإمام المستتر ، فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية ، ولقد قيل إن الإمام المهدي الذي سيكون أول الخلفاء في المغرب ، كان يملك أموالاً جساماً ، جعلها في سرايب تحت الأرض .

المسألة إذن في أمر الدعوة والدعاة كانت مسألة فيها مخاطرة ولا شك ، ولكن كان فيها كسب ومال كثير ، ثم إن قلوب الناس كانت مع آل علي ، ولهذا كان الناس يتسترون على الدعاة والشيعة ، ومن لم يردعه تقواه عن إقضاء سر العلويين ، يردعه المال وكان وفيراً في أيدي الدعاة . وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً ، ازدادت دعوة آل البيت قوة ، حتى أصبح عالم الإسلام خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شبكة سرية واسعة ، نشأ عنها ما سماه بعض المؤرخين بأكبر مؤامرة في التاريخ .

ففي بدايات القرن الرابع / العاشر الميلادي كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة موجاً ، وكان أولئك الرجال يجتهدون في إشاعة الخوف والقلق في النفوس حتى تتعلق الآمال بهم وبما يدعون ، ولكنهم كانوا تنظيماً سرياً فقط واسع النطاق دون أن يملك قوة عسكرية تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيان سياسي . وكانت الدولة العباسية رغم ضعفها تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحطم أي حركة مسلحة في أي ولاية محددة من ولايات الدولة مثل مصر والشام والعراق وخراسان ، ولهذا اتجهت أنظار رئاسة التنظيم الشيعي إلى البحث عن بلد بعيد عن متناول الدولة وعن المسالك والمداخل ، تستطيع أن تنمو في داخله ، وكانت أبصارهم تتجه إلى اليمن . ولكن بلاد اليمن لم تكن تضم إلا شرطين من الشروط اللازمة لإحداث ذلك التحول وهما وعورة الأرض وصعوبة المسالك ، مع

البعد الشاسع عن قلب الدولة ، أما الرجال فقد كانت بلاد اليمن حافلة بهم ، ولكنهم كانوا مفرقين شيعاً وأحزاباً وعصائب متعادية ، وقلما اجتمعت قواعد اليمن الكبرى وهي صعدة وصنعاء وتعز وزبيد وجند على رأى واحد ، لا فى السياسة ولا فى غيرها .

ولكن رجال الدعوة وجدوا فى اليمن على أى حال مهذاً آمناً يمكن أن يركز عليه التنظيم فى البحث عن الرجال الذين يؤلفون القوة العسكرية .

وفى أوائل القرن الرابع صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى شهر بن حوشب استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى دندان . فاستقر شهر ابن حوشب فى اليمن ، واتخذ بلدة تسمى عدن « لاعة » لتكون مركزاً لأعماله ، وهذه تفكيره إلى أن القوة التى يبحث عنها من الرجال يمكن أن توجد فى المغرب مما يلى أملاك الدولة العباسية غربى نهر شلف ، فهناك وحتى المحيط لا سلطان للدولة العباسية ، وهناك شعوب من البربر تمكنت بفضل قادة من العرب من إقامة دول مثل الدولة الإدريسية والدولة الرستمية فاختر داعيين ذكيين يسميان سفيان والحلوانى وبعث بهما إلى هناك ، فاستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكثامة ، وهو حلف قوى يسكن المناطق الجبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب ، فلا يفصل منازلهم عن بلاد بنى الاغلب إلا مجرى نهر شلف .

هذان الرجلان حرثا الأرض بمصطلح الدعوة ، أى أعدا النفوس لقبول فكرة الدخول فى الحركة الشيعية وإقامة دولة لرجل يرتضيه الناس من أهل البيت . وكان الكتاميون قبيلأ ضخمأ من البربر البرانس يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوبأ فى جبال الأوراس ، وكانوا قومأ فيهم عدد وقوة وإيمان وتطلع إلى السلطان ، وكانما حفزهم على ذلك ما تمكن من إنشائه جيرانهم فى المغرب الأوسط من دولة بنى رستم ، وما استطاع إنشائه فى المغرب الأقصى آل إدريس من دولة قوية غزت بها أوربا وسادت المغرب الأقصى .

ولم يتيسر الأمر لسفيان والحلوانى لأكثر من الحرث ، واحتاج الأمر إلى

صاحب بذر - بمصطلح الدعوة - أى رجل ينشر البذور فى الأرض المحروثة ويرعاها حتى تطلع ، أى رجل قادر على تكوين القوة العسكرية المرجوة .

أبو عبد الله الشيعى :

ووقع اختيار شهر بن حوشب على الرجل المطلوب ، وكان بالفعل رجل الموقف والساعة ، ويسمى أبا عبد الله الداعى ، وليس هذا باسمه ، وإنما هو كنية أو تكنية أو اسم حركى كما يقال ، فما معنى أن يقال إن اسمه أبو عبد الله فحسب ، أما بقية الاسم وهو الشيعى أو الداعى فصفة ، ولكن الرجل كان له أخ يسمى أبا العباس المخطوم ، وهذا أيضاً ليس باسم .

على أى حال كان أبو عبد الله الشيعى رجلاً موهوباً فى أكثر من مجال ، فكان ذكياً بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحيلة ضليعاً فى الفقه الشيعى وغير الشيعى ، وعندما عهد إليه فى المهمة ترك له أمر التصرف فى تنفيذها كما تقول المراجع ، ولكننا نشك فى الرواية التقليدية التى تقص عن لقائه لرجال كتامة واحتياله عليهم فى موسم الحج ، والأرجح أن ذلك اللقاء كان على تدبير ، ولكننا لا نملك براهين تؤيد الشك ، ليس أمامنا إلا أن نتبع الدرب المطروق حتى نتكشف لنا الحقائق .

والقصة التقليدية ، التى يروىها القاضى الشيعى أبو حنيفة النعمان بن محمد داعى الدعاة فى كتابه الممتع المسمى « ابتداء الدعوة » ، تقول إن هذا الرجل اتجه إلى الحجاز فى موسم الحج . وهناك أخذ يتقرب ويستقصى حتى وقع على وفد حجاج كتامة ، فجلس إلى جوارهم وأذنه صاغية إلى ما يجرى بينهم من حديث ، وهذا أول ما يشكك فى القصة ، لأن هؤلاء القوم إذا كانوا يتجادلون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك إلا بلغتهم ولهجتهم . والمفروض أن أبا عبد الله الشيعى لا يفهم منها شيئاً ، ولكن القاضى النعمان يريدنا أن نصدق روايته التى يروىها فى أسلوب أخاذ ولغة عربية سليمة ، يمكن أن تكون من أجمل أساليب النثر فى العصور الوسطى ، فيقول : إن أبا عبد الله الشيعى لم يزل ملازماً جوار القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث ، ثم تدخل فيه وأخذ يحدثهم عن آل البيت وأمور الفقه حديثاً يدل على علم وتضلع ، وصار يلقيهم فى

كل يوم فيلقى فيهم علمه حتى بهرهم واجتذب قلوبهم ، وكان يظهر مع ذلك عفافاً وورعاً وقناعة ودينياً وتعاوناً ، مما زاد الناس فيه محبة .

وعندما توثقت الأسباب بينه وبينهم واقترب موعد الرحيل ، قال لهم إن وجهته مصر لبحث فيها عن وظيفة معلم ، فهذه فيما زعم صناعته ، ففرحوا بذلك لأنه يتيح لهم فرصة ملازمته والاقتباس من علمه ، فأخذوه في ركبهم .

وعلى الطريق جرى الحديث هوناً بين أبى عبد الله وأولئك الناس ، وكانوا من خيرة شيوخ قبائل كتامة الكثيرة ، فعرف الكثير عن أمورهم ، وهم لا يعرفون إلا أنه مؤدب فقير يلتمس العيش ، وكان يلقي عليهم السؤال تلو السؤال في ذكاء وبراعة فيلقون إليه بما في نفوسهم في توسع وسداجة .

وعندما أدركوا مصر ، ودخلوا الفسطاط مضى في زعمه يبحث عن عمل فلم يجد ، فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم فهم في حاجة إلى معلم ، فقبل ومضى معهم إلى بلادهم وهم جد فرحون .

وكان أبو عبد الله قد عرف أين سينزل وكيف سيعمل ، وذلك لكثرة ما حصله من العلم بشئون أولئك الناس ، وعندما اقتربوا من موطنهم وصاروا على بلد صغير يسمى « ايكجان » في وعر من الجبل ، عرف أن هذه منازل « سكتانة » من بطون كتامة ، وعندما مر بفج قريب من ايكجان قال هذا هو فج الأخيار ، وأوهمهم أنهم هم الأخيار ، والفج ممر طويل في الجبل ، وكان اسم هذا الفج بالبربرية قريباً من لفظ « فج الأخيار » ، فدهش الناس من معرفة أبى عبد الله بذلك ، ثم قال لهم إن اسمهم كتامة ، وهو مشتق من الكتمان ، والكتمان أول شروط الدخول في الدعوة ، فأعجبهم ذلك مع أن اسم كتامة قديم وجدناه في سجلات الرومان .

واستقر أبو عبد الله الشيعي في بلدة ايكجان في منازل قبيلة سكتانة من قبائل كتامة ، ونهج في حياته نهج المعلم الصالح ، فسلك مسلك الطهر والعفاف والديانة ، وأخذ يعلم الناس حقاً حتى اشتهر أمره بالصلاح والعدالة ، فإذا استوثق من مكانته على هذه الصورة أخذ يتحول مرشداً لهؤلاء القوم على طريقة المعلمين الدينيين الذين يتحولون إلى قادة سياسيين ، وهو أمر تكرر حدوثه في

المغرب، فما كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري غير شيخ صالح من شيوخ الإباضية ، ثم صار إلى الرياسة السياسية ، وكذلك سيفعل عبد الله بن ياسين في قبائل صنهاجة الصحراء ومحمد بن تومرت في قبائل مصمودة . هنا أيضاً نجد أبا عبد الله الشيعي يمهد بالسلوك الحسن والقيام بمطالب التوجيه الديني ، وشيئاً فشيئاً نجد هذا الرجل يتحول إلى شيخ قبيلة سكتاتة ، ويصلح أمر القبيلة على يده وينشط رجالها في مغاورة حدود الأغالبة ، وشكا عمال بلاد الزاب الشرقي من عدوان السكتاتيين عليهم ، وسعى رجال الأغالبة في نصح بقية الكتاميين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعي من بلادهم ، ورفض السكتاتيون إخراجهم ولكنه خاف على نفسه ، لأن سكتاتة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية قبائل كتامة من أمثال لهيصة ومسالمة . وكان قد أنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار ، ورفع لنفسه جاهاً بالتقى والصلاح والعدالة وسعة العلم ، وقد نجح في إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبي ومثأهم بأن يورثهم الله بلاد الأغالبة إذا هم صدقوا في تأييده ، وكان هذا أيضاً مما أثار حفيظة بعض القبائل الكتامية ، لأن هذا الأمر إذا تم فلماذا تنفرد به سكتاتة .

الهجرة إلى تازروت وتحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية :

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعي أمره وانتقل إلى قاعدة وسط جبال الأوراس وعند مداخلها من الشمال تسمى « تازروت » . ولم يكمد يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار ، فسارع إلى تحصين بلده ، وفرض على أتباعه جباية قليلة هي أشبه بالتبرع للحركة ، وبلغ من ذكائه أنه جعل هذا المال بأيدي شيوخ من كتامة فلا يتصرف هو في شيء منه إلا بإذنتهم . وبإيمان الناس به ، وبما كان يمنيهم به من إقامة دولة صالحة عادلة يكونون هم ساداتها ، استولى على بلاد الأغالبة . وبهذا المال أيضاً بدأ سلسلة من الحملات على ما قرب من منازل كتامة من بلاد الزاب ، ووفق في حملاته الأولى وغنيت أيدي الكتاميين بالغنائم فاشتد حماسهم ، وكان هذا في أواسط أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبي .

وهنا تحول أبو عبد الله الشيعي إلى قائد سياسي عسكري ، وكشف عن

وجهه فصارع الناس بأنه يدعو للرضا من آل البيت ، وأنه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الأمر من آل رسول الله ﷺ وهو الإمام المستتر صاحب الزمان ، وأظهر هذا الرجل من الكفاية والحزامة والجرأة ما مكن له فعلاً من جمع قياد أولئك القبائليين العفاة ، واستطاع في زمن وجيز أن يستولى على بلاد الزاب كلها ، ثم دخلت قواته بلاد أفريقية ، وهنا تزعرع بنيان بني الأغلب ، وكان الناس قد سئموا حكمهم بعد الذي كان في حكم إبراهيم بن أحمد الأغلب ثم ابنه أبي العباس ثم أبي مضر زيادة الله الثالث قاتل أبيه ، وهو آخر الأغالبة ، وكان قد ارتكب أخطاء جسيمة في حق أهل أفريقية فمال الناس إلى دعوة الشيعي . وفي أوائل جمادى الأولى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م سقطت الأربس في يد أبي عبد الله الشيعي ، والأربس هي مفتاح القيروان ، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان ، وأعلن قيام الدولة الفاطمية وبعث يستدعي الإمام المستتر في سلمية وهو عبيد الله المهدي .

وقد سار أبو عبد الله الشيعي في أهل القيروان وبقية أهل أفريقية سيرة طيبة ، وحرص على ألا يصارع الناس بالدعوة الشيعية ، وأراد أن يتم ذلك عن طريق الإقناع ، ودأرت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكي وخاصة أبي عثمان سعيد بن الحداد وأبي عبد الله الشيعي ودعاة المذهب ، وفي أثناء المناقشات تبين أبو عبد الله أن قناة أولئك المالكيين لن تلين وأن الناس لهم تبع ، فعول على الانصراف عن الدعوة النشيطة حتى يستتب الأمر للدولة الجديدة . وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبي العباس المخطوم ، وكان عامل القيروان ، عندما لجأ إلى العنف مع بعض مناوئي الدعوة . وقد نجح أبو عبد الله الشيعي في زمن قصير في تثبيت أقدام الدولة وتنظيم أمورها ، وفي هذا الدور كان اعتماده على كبار أنصار الدعوة من الكتاميين وخاصة غزوية بن يوسف وأخيه .

قدوم عبيد الله المهدي :

وعندما وصلت الدعوة إلى هذه الدرجة من النجاح أرسل أبو عبد الله الشيعي يستدعي عبيد الله المهدي صاحب الزمان ، وتلك كانت خطيئة حياته ، فقد كان مستطيعاً أن يمضى في رئاسة الدعوة تحت اسم الوصاية حيناً ثم يحوزها

لنفسه ، ولكن الحذر يؤتى من مأمته ، وما كاد الخير يصل إلى عبيد الله المهدي في سلمية حتى أعد العدة للرحيل ، وكان يعيش في تلك القرية في سعة من العيش . وكان يعتز إلى حد ما بالقرامطة ، وهم فريق من دعاة الشيعة تزعمهم رجل يسمى أبو سعيد الجنابي ، يزعم بعض أعداء الدولة أنه والد عبيد الله المهدي ، ثم تولى رئاسة هذا الجناح من الدعاة والشيعة رجل تشيط ولكنه جاهل بشئون السياسة يسمى حمدان قرمط ، حسب أنه يستطيع التحصن في إقليم الحسا في شرقي الجزيرة العربية ، وانضم إليه عدد غفير من البدو واللصوص ، فصارت له قوة عسكرية مرهوبة أغار بها على البصرة وجنوب الحجاز أكثر من مرة . وروع جنوبي الشام والحجاز ، وبلغ من جرأته أن رجاله اختطفوا الحجر الأسود من الكعبة ، واحتجزوه في بلادهم حتى ردوه بتوسط العزيز بالله ثالث الخلفاء الفاطميين . وفي هذا الدور من الحركة العلوية كان القرامطة ودعاة الفاطمية أحلافاً يتآزرون على الدولة العباسية .

ووصل عبيد الله المهدي إلى مصر في ركب من أتباعه وأحمال من أمواله ، وقد عرف كيف يستخدم هذه الأموال في تيسير سفره ، وبعد خروجه من مصر اتجه إلى المغرب بمعاونة عامل مصر قيما يقال ، ولكنه بعد أن وصل برقة ، أحس أن رجال بني العباس علموا بأمره ، فاستعمل الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالا للمشرفين على الركب فحولوا اتجاهه إلى سجلماسة ، فنجأ من أيدي العباسيين ، ولكن صاحب سجلماسة من بني اليسع بن مدرار ، تخوف من أمره بعد استقراره في بلده ، فسجنه .

وهنا تواجهنا علامة استفهام كبيرة ، إذ ما الذي يدعو رجلاً خارجياً صغرياً هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء العباسيين وهو منهم ؟ ثم إن سجن عبيد الله وولده أبي القاسم محمد الملقب بالقائم لم يكن ، فيما يحدثنا القاضى أبو حنيفة النعمان داعى الدعاة ، لم يكن سجناً على الحقيقة . إنما كان تحفظاً أو تحوطاً .

وبلغ الخبر أبا عبد الله الشيعي فجمع جيشاً ضخماً وخرج به من القيروان في سنة ٢٩٧هـ / ٩١٠ م ووجهته سجلماسة ، ووصلها وتمكن من تخليص

عبيد الله المهدي والقضاء على صاحب سجل ماسية ، ويبدو حقاً أن أبا عبد الله الشيعي ، وكان داعياً للدعاة وصاحب الفضل في إقامة الدولة لم يكن يعرف عبيد الله المهدي معرفة شخصية ، ولا هو رآه من قبل ، حتى لقد أخطأ في شخصه وتقدم بطاعته إلى رجل آخر ، ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبيد الله ثم ابنه ، وهذا لا بد أن نلاحظ أن الكثيرين من مؤرخي الدعوة الفاطمية يقولون إن الخليفة الفاطمي الحقيقي كان أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، وأن هذا الأخير ، كان ممهداً له وراعياً لأمره ، وربما لم يكن أباه أصلاً ، ولكن هذه كلها أقوال . وكل ما يتصل بنسب الفاطميين موضع شك كبير ، فأهل السنة ينكرونه إنكاراً تاماً ، والمسرفون في الحملة عليهم يقولون إن عبيد الله المهدي ابن لرجل يسمى « القداح » يصفونه بأنه يهودي ، وهناك من يقولون : إنه من ولد أبي سعيد الجنابي ، ولكننا في الحدود التي نكتب في نطاقها لا بد أن نسلم بصحة نسب الفاطميين إذ لم يقدّم لدينا دليل على خلاف ذلك .

وبويع عبيد الله المهدي بيعة عامة في سجل ماسية ، وسلم إليه أبو عبد الله الشيعي الأمر وسار بين يديه يحترمه ، وفي طريق العودة من الجيش بتاهرت وأزال إمارة الرستميين ، وكان ذلك سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م وجعل المغرب الأوسط إلى تلمسان جزءاً من الدولة الفاطمية ، التي قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، ولا ندرى كيف نشأت تسمية هذه الدولة بالفاطمية ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يرون أنفسهم أبناء علي وفاطمة من ولد الحسين .

خلافة عبيد الله المهدي : ربيع الآخر ٢٩٧ — ربيع الأول ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م :

بويع عبيد الله المهدي بيعة عامة في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ ، وبذلك انتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات من ٢٨٨ إلى ٢٩٧ . فقد أصبح وزيراً وخادماً لهذا السيد الذي استقدمه من سلمية ، ولأول ولاية عبيد الله المهدي فعل فعله شككت الكتاميين في أصالته ومستوى تفكيره ، فقد استولى على الأموال التي جمعوها وحرسوها في إيكجان ، وأخذها دون أن يستشير أو يكثرث لرأي أحد ، فبدأت نفوس كبار الكتاميين تتغير ويساورها الشك ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعي شاركهم في ذلك ولم يخف استيائه . وإذا

كان أبو عبد الله الداعي قد تمكن من ضبط مشاعره ولسانه ، فإن أخاه أبا العباس المخطوم لم يستطع ، ولم يلبث الجو أن أظلم بين عبيد الله وأبي عبد الله وأخيه . فلجأ عبيد الله إلى الغدر ، واستعان برجل من كبار الكتامين هو غزوية بن يوسف في قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، وتلك كانت سلسلة من الاغتيالات والغدرات درج عليها خلفاء الفاطميين في المغرب خاصة ، وهي سياسة لم تعد على البيت الفاطمي بشيء .

بناء المهديّة :

وأحس عبيد الله المهدي أن الناس في أفريقية ليس لديهم استعداد لقبول فكرة خلافة تقوم على مبادئ الشيعة الإسماعيلية كما صاغها دعائهم ومفكرهم أثناء فترة الاستتار ، ودخلت فيها آراء غريبة كل الغرابة عن صفاء مذهب السنة والجماعة ، ويتجلى ذلك في تفاصيل المذهب الإسماعيلي كما شرحه الدعاة من أمثال القاضي النعمان بن محمد ، وكما طبقه الخلفاء الفاطميون عندما أحاطوا أسماءهم بهالات من التقديس والتعظيم ، لم يعرفها أهل أفريقية إلى ذلك حين ، حتى كانوا يتحدثون إليهم وكأنهم من طينة غير طينة البشر ، فعندهم أسرار الغيب وعلم ما سيكون ، ولديهم كتب يقولون إن فيها كل ما حدث ويحدث ، مسطور برموز لا يفهمها غيرهم ، ثم إن سياسة عبيد الله المهدي المالية كانت سياسة جشع بغير حدود ، فهو يجمع المال من الجبايات ورجاله يتاجرون له ولأفراد بيته ، وكلهم يجمعون الأموال بالحق والباطل .

وكانت في أهل أفريقية كما عرفناهم إلى الآن صراحة وجراة ، فجابها عبيد الله ورجاله بما يرون ، فأحس الرجل أنه ليس بين رعية وإنما تجاه خصوم ، وأنه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس قط . ولم يكن كذلك يستطيع الثقة المطلقة بالكتامين بعد الذي فعل بأموالهم وبأبي عبد الله الشيعي الذي كانوا ميالين إليه . ثم إنه لم يلبث أن دبر مقتل غزوية بن يوسف ، وتطلع إلى الاستعانة بغيرهم . فرأى أن يشيد لنفسه وأسرته قلعة يعتصم فيها هو وآله وجنده وحشمه وأمواله ، فأشبه في ذلك ما فعله إبراهيم بن الأغلب عندما بنى القصر القديم . وأمثال هذه القلاع الملوكية تؤمن رجال البيوت المالكة ولكنها تعزلهم عن الناس وتحول بين

بيوتهم وبين أن تضرب جذوراً في البلاد . وتعجل بزوالهم من البلاد ، وهذا هو الذي كان بالنسبة للفاطميين في المغرب . وكان بناء المهديّة سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م . وما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وهي حصن منيع يقوم على رأس بارز في الساحل الشرقي لتونس شمال سوسة ، « كأنه الكف » كما يقول المؤرخون ، ولا يوصل إليه من البر إلا عن طريق مدخل ضيق . وهو محاط بسور منيع على الذرى مستدير الزوايا . وبين السور والبحر قطعة من الأرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية ، وهذه أيضاً محصنة لا يوصل إليها بسهولة . وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد ، في موضع يسمى زويلة ، فلا يكونون في البلد إلا نهاراً ، فإذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الأسوار . وقد بلغ من حرص عبيد الله على تأمين مدينته تلك ، أن رسم لجنده أن يقبضوا على أهل أولئك العمال في قريتهم إذا هم أحدثوا في المدينة شغباً ، فكانوا بذلك مضطرين إلى السكون والطاعة . وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها بأمواله وآله وجنده وحشمه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » ، أي أنه أمن على نفسه وماله وأمواله . ومضى يدير البلاد من معتصمه هذا .

وكانت ثقة عبيد الله المهدي كلها في جنده المرتزق الذي استكثر منه واعتز به . واستكثر لذلك من الصقالبة والخصيان للخدمة في القصر . وقد خلف لنا اثنان من صقالبة الفاطميين في المغرب ، وهما منصور العزيزي والأستاذ جوني ، مذكرات هي الغاية في القيمة التاريخية ، فهي ترينا حياة الفاطميين الخاصة خلال الفترة المغربية ، ولم تكن بحياة سعيدة ولا نافعة للناس ، وإنما كان كل هم خلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التي صارت إليهم على أسوأ صورة . ومن هنا فقد كانت صورة المهدي عند عامة أهل أفريقية بغیضة بشعة تصورها رواية شعبية ذكرها ابن عذاري ، وهي تصور عذاب عبيد الله المهدي في أخريات أيامه ، ثم عذابه في الآخرة .

وبعد مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه غدر المهدي بغزوية بن يوسف كما قدمنا ، وتخوف من الكتاميين جملة ورمى ببصره إلى قبائل أخرى مجاورة كانت

تحسد الكتاميين ، وأهم هذه صنهاجة المغرب الأوسط وكان يترغمهم مصالة ابن حبوس ، فأغراه بالمال وسلطه على المغرب وبعثه في جيش كبير يغزو المغرب الأوسط والأقصى ، فأما في المغرب الأوسط فقد ملك العرب جماعات الزناتية التي كانت تسكن بعض نواحيه ، وعلى رأسهم علي بن حمدون الزناتى ، الذى فرز إلى الأمويين في الأندلس واستجار بهم ، وبنو خزر المغراويين الذين اندفعوا نحو الأمويين أيضاً . ووصلت جيوش مصالة بن حبوس إلى المغرب الأقصى وبخلت فاس أيام يحيى بن يحيى بن عمر بن ابن إدريس الثانى . وقد ولّى مصالة على منطقة فاس رجلاً من أقاربه يسمى موسى بن أبى العافية ، ولكنه أذن للادارسة بالبقاء في فاس تحت الطاعة الفاطمية ، فلم يزل موسى بن أبى العافية يتحيل حتى أضاقوا إليه فاساً ، فنفى من كان فيها من بقايا الادارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب في جبال الريف قرب مدينة تسمى بصرة المغرب ، فتجمع بقايا الادارسة هناك ، وارتبطوا بالناس وداخلوهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية ، وتلك هى بداية الدور الثانى من تاريخ الادارسة .

حكم عبيد الله المهدي خمساً وعشرين سنة هجرية (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م) ثبّت أثناءها قواعد بيته في أفريقية والمغرب الأوسط بالقوة العسكرية وجمع مالا وافراً . وكان في حكمه بعيداً جداً عما كان الناس يتصورونه عن المهدي الذى يعيد العدل إلى الأرض ، وقد أبغضه وأنكر أساليبه فقهاء المالكية وهم رؤساء الناس في أفريقية ، وأحس هو بكرهاتهم له ، فرسم أن يخففوا من نشاط الدعوى للمبادئ الشيعية ، ولكن ذلك لم يُفد كثيراً . فلم تكسب الدعوة الفاطمية في المغرب إلا نقرأ من شواذ الناس وضعقة الفقهاء ، وذلك كله حفز المهدي على التفكير في غزو بلد آخر والاستيلاء عليه والانتقال إليه بأهله وماله وجنده . وهذا هو السبب الذى جعله يحاول الاستيلاء على مصر . فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه القائم ، استولت على الإسكندرية وخربت بعض نواحيها ، وناوشت بعض نواحي الصعيد الأدنى عند الجيزة ولم تعد بنتيجة .

وقد خلف المهدي بعد موته ، ثلاثة من خلفاء الفاطميين هم :

القائم ، أبو القاسم محمد (١٤ ربيع الأول ٣٢٢ — ١٣ شوال ٣٢٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م) .

المنصور ، أبو الطاهر إسماعيل (١٣ شوال ٣٣٤ - ٢٩ شوال ٣٤١ هـ /
٩٤٦ - ٩٥٣ م) .

المعز ، أبو تميم معد وقد حكم في المغرب من مستهل ذي القعدة
٣٤١ هـ / ٩٥٣ م حتى انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م وتوفي فيها في ربيع
الآخر سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م .

فأما القائم فكان أقرب إلى العدل وحسن السياسة من أبيه . وقد ازداد
شعوره بالعزلة والغربة في المغرب وأراد التقرب من الناس دون جدوى ، فركز
جهوده على مغازاة المغربين الأوسط والأقصى ، وكانت لفتاه « ميسور » وقائع
طويلة مع جند الأمويين والادارسة في المغرب الأقصى ، مما اضطر عبد الرحمن
الناصر إلى احتلال سبتة ومليلة لتأمين بلاده من أنصار الفاطميين ، من أمثال
بلكين بن زيري بن مناد ، وهو زعيم صنهاجي استماله الفاطميون فأخلص في
خدمتهم . أما بقية أهل المغرب الأقصى من رجال دويلة نكور وبنى خزر
الزناتيين وبنى خزرون الزناتيين أيضاً ، فقد استجاشوا بالأمويين الأندلسيين
الذين لم يدخروا جهداً ولا مالاً في مناجزة الفاطميين وإبعادهم عن المغرب ،
فاتجهت أنظار الفاطميين إلى مصر ، إذ تصوروا أن الإخشيديين ضعاف لا
يستطيعون مقاومة الضغط الفاطمي طويلاً ، وكان يتولى أمور مصر كافور
الإخشيدى وكان رجلاً صبوراً مطاولاً ، يصانع الفاطميين حيناً ويناجزهم حيناً
آخر ، لأنه كان يرى أن الدولة العباسية - وهو تابعها - أعجز من أن تمده بعون
وقد أرسل القائم حملة إلى مصر لم توفق إلى كثير .

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد :

وبعد وفاة القائم بعد حكم قصير جاء ابنه المنصور أبو طاهر ، وفي أيامه
انفجرت ثورة أهل أفريقية والمغرب يقودها رجل من تكارية الإياضية يسمى
أبا يزيد مخلد بن كيداد ويلقب « بصاحب الحمار » .

وكان أبو يزيد في أول أمره معلم صبيان ، وفي هذه المهنة قضى معظم عمره ،
فلما اشتد غليان أهل المغرب غضباً على الفاطميين ، تزعم هذا الرجل وقبيله
الثورة ، وظهر الرجل في أول أمره بمظهر الزهاد المتنسكين ، فكان يركب حماراً

هزياً ينتقل به بين الجبال والقبائل فُلُقِبَ بصاحب الحمار . وكان الرجل مسناً عندما بدأ الثورة إذ كانت سنه تقارب السبعين . وقد انضمت إليه القبائل في حماس شديد ، وأيده أهل أفريقية إذ أنه لم يكشف عن نحلته الإباضية النكارية ، وإنما زعم أنه تآثر للعدالة والإسلام وكرهه البدع ، التي أراد الفاطميون إدخالها على العقائد والعبادات ، وتمكن الرجل من اجتياح بلاد الفاطميين وألجأ المنصور الفاطمي إلى التخلي في المهدي وحصره فيها .

ولكن حركة أبي يزيد كانت ثورة دون خطة ، فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حائراً ماذا يصنع ، وأساء السيرة مع كثير من القبائل مما قلل الثقة فيه ففر الكثير من القبائل منه ، وانتظر المنصور في حصنه حتى إذا ما رأى أن ذلك الثائر يتفرق عنه رجاله ويضعف ، أرسل إلى بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي فأقبل برجاله ، وتغلبوا على الثائر الذي انصرف عنه الناس ، ففر إلى الأوغار ، ومازال رجال الفاطميين يتعقبونه حتى قبضوا عليه ، فقتلوه وسلخوا جلده وحشوه فيما يقول الرواة قطناً وأركبوا جثته على حمار طاف بلاد أفريقية .

بهذا انتهت ثورة أبي يزيد ، وبنهايتها انتهت أيضاً قوى الفاطميين في المغرب ، فقد تزعزعت دولتهم إلى قواعد بنيانها ، وخاف المنصور أن يسيطر عليه الصنهاجيون أصحاب القوة في دولته . فارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف عنهم وأذى لهم . وعندما توفي وجاء ابنه المعز كان باب الخلاص الوحيد الباقي أمامه هو غزو مصر والانتقال إليها .

وذلك كان هدف الخليفة الفاطمي الرابع في المغرب وهو أبو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله ، الذي تولى الملك شاباً في ذي القعدة سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م .

غزو مصر ثم الانتقال إليها :

ولا نزاع في أن المعز كان أقدر الفاطميين وأبعدهم نظراً ، فقد رأى بوضوح أنه لن يستطيع الاستمرار في المغرب ، فقد نفر الناس في أفريقية من بيته ورموهم عن قوس واحدة ، ثم إن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط لم تكن تؤدي إلى نتيجة ، لأن آل بلكين بن زيري الصنهاجيين كانوا أصحاب القوة فيه ، وهم خلفاء الفاطميين فلا مطمع فيهم ، أما في المغرب الأقصى فإن الأمويين الأندلسيين أيام

الحكم المستنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، كانوا يرون أن الفاطميين خارجون عن الإسلام وحربهم جهاد ، فكدس الجانب الأكبر من قواه في حربهم في المغرب ورماهم بخيرة جنده وقواته ، وتمكن من طردهم من المغرب الأقصى والقضاء على أنصارهم واستألف الإدارة .

ومن حسن حظ المعز أنه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالبة الفاطميين هو جوهر الذى يلقب « بالصقلي » . فقد كان قائداً ماهراً وجندياً مخلصاً ورجلاً صاحب سياسة ونظر وتدبير . وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط ، ودخل مرة أخرى مدينة فاس وغزا بلاد تافيلالت ، عاد ليبلغ سيده الأمل في أفريقية أو المغرب ، وأن الأمل الوحيد الباقي هو في الاستيلاء على مصر .

وكان كافور الإخشيدي قد توفى ومضى لسبيله وانتهى أمر الإخشيديين ، وفي تلك الأثناء كان المعز وقائده يعدان العدة لغزو مصر معتمدين في ذلك على الكتاميين ، بعد أن صالحوهم ودخل في خدمتهم رجل من أقدر رجالهم هو جعفر ابن فلاح وكان من قواد جوهر الصقلي .

ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر ، فقد وضع المعز تحت تصرفه كل ما كان لدى الفاطميين والكتاميين من قوة ومال . وفي شعبان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م دخل المعز الإسكندرية ، ولأول دخوله إياها أعلن في بيان رسمي تخليه وتخلي دولته عن فرض المذهب الشيعي على أهل مصر ، وأحسن معاملة الناس ومناهم الخير الكثير والعدل الشامل ، فطاعوا له ، وبذلك بدأ في تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمي ، الذى يطيل نقر من المؤرخين الإطناب في فضائله . وبدأ في تاريخ الفاطميين أيضاً عصر جديد ، فقد تخلوا عن المذهبية فيما يتصل بعلاقتهم بالناس ، وقد اتعظوا في ذلك بتاريخهم في أفريقية .

وفي نفس الوقت وضع جوهر أساس مدينة القاهرة ، لتكون مدينة ملوكية وحصناً للفاطميين ، لكي ينتقلوا من قلعة المهديّة إلى قلعة القاهرة . فلم يكن البيت الفاطمي على طول تاريخه وبُعْد صيته بيتاً من بيوت الحكم المحبب إلى الناس أو الوثيقة الصلة بهم . فكما كانوا غريباء في المغرب سيكونون غريباء في الشام ، وفي كل موضع وصل سلطانهم إليه .

تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب :

دامت خلافة الفاطميين في المغرب نيفاً وستين سنة هجرية (من ٢٩٧ — ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٧٣ م) فهي نحو ستين سنة ميلادية ، وقد دانت لهم بلاد واسعة تمتد من طرابلس إلى منتصف المغرب الأوسط ، فلم تخرج عن سلطانهم منه إلا منطقة تلمسان ، ودخلت في خدمتهم قبائل مغربية غنية بالملكات والقدرات ، وكانت قاعدة ملكهم أفريقية ، وهي قاعدة حضارة وقوة ذات قدر عظيم . فإذا أضفنا إلى ذلك صقلية ، تبينا أن ملك الفاطميين في المغرب كان واسعاً وعريضاً ، وكانوا يستطيعون أن يفعلوا للبلاد وأهلها خيراً كثيراً .

ولكننا عندما نجىء للحساب الختامى لتلك الفترة نجد أن الفاطميين لم يقدموا للبلاد التي حكموها في المغرب أي خدمة إيجابية ، فهم لم يعمروا من المدن إلا المهدية ، وتلك كانت قاعدة خاصة لهم ، أما القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمنستير وغيرها فلم يخلف الفاطميون فيها أثراً ، بل هم لم ينشئوا مسجداً واحداً يذكر لهم بالخير غير مسجد المهدية ، وكان مسجداً خاصاً .

وكانت سياستهم تقوم على جشع مالى بالغ ، فقد كانوا يجبيون من المال مقادير طائلة كلها بالظلم والإيهاام ، وكانوا يحتجزون الأموال ويستخدمونها في المتاجرة أو في شراء جند يقوم بغزوات تعود عليهم بغنائم ، ولم تكن لديهم أي نية في زيادة عمران المغرب ، فلا هم شقوا طريقاً ولا أنشأوا سوقاً ولا نفعوا قبيلة من القبائل التي خدمتهم ، بل إن كتامة التي استنفدت قواها في قضيتهم بادت أو كادت . وفي العصور التالية كان بقايا الكتامين يتبرأون من تهمة القيام بالدعوة الفاطمية . وقد كانت أفريقية بالنسبة لهم مستقراً ومصدر ثروة وخطوة إلى وهم بعيد بخلافة تحل محل الخلافة العباسية . وعندما غادروا أفريقية إلى مصر ، صغر حجمهم فيها وابتلعتهم وصاغتهم على طرازها فحُفَّ حماسهم لمذهبهم الشيعي ، ولم يستطيعوا استغلال البلاد على النحو السيئ الذي فعلوه في المغرب ، لأن دافع الضرائب المصرى وهو الفلاح ، خبير بشئون الحكام

ومظالمهم ولديه أكثر من وسيلة للتخلص من ظلمهم ، ومع ذلك فقد قضى الجشع الفاطمي على معظم صناعات مصر التقليدية القديمة وخاصة صناعة التسيج في شمال الدلتا ، ثم كان الصراع بينهم وبين زراع مصر مؤدياً في النهاية إلى ما يعرف بالشدة المستنصرية . وهي أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الإسلام . ومن السذاجة أن نعللها بتوقف الفيضان سبع سنوات متوالية . وإنما هي نتيجة للسياسة المالية الفاطمية التي لم تعرف حوليات الإسلام أشد جشعاً منها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة ، فهم مثلاً عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا إنجازها ، فحرموها بذلك من عون بنى زيرى وهي امتداد طبيعي لأفريقية . ولولا أن المقادير تداركت صقلية ببني الحسن الكلبيين ، ابتداء من سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٢ م لضاع أمرها بعد انتقالهم إلى مصر بقليل .

وقد أوجع الفاطميون نيران العصبية القبلية في المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض في حروب إبادة ، بل هرب بعض زعماء البربر إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من صراع القبيلة في المغرب . وعندما تركوا آل زيرى مكانهم عندما رحلوا إلى مصر ، تركوهم غارقين في ثارات القبيلة مما عجل بزوال ملك بنى زيرى . وخاصة بعد أن قذفهم الفاطميون ببني هلال كما سنرى ، وما هو إلا قليل حتى انتهى أمر المغرب إلى سلطان قبيلتين من أعنى قبائل الزناتيين وأكثرهما إفساداً وهما « مغراوة وبنو يفرن » . ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين فالموحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية التي كانت أيضاً من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام في الأندلس .

والشيء الوحيد الذي يمكن ذكره للفاطميين في المغرب هو نشاطهم البحري ، فقد كانت أساطيلهم تسيطر بالفعل على مياه الحوض الأوسط للبحر المتوسط . ولكن قوة الفاطميين البحرية لم تظهر بكامل قوتها إلا خلال الفترة المصرية من تاريخهم .

دولتنا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغرب الأوسط :

توقيت : (١)

أبو الفتوح (بلكين) بن زيرى	٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م
أبو الفتوح المنصور بن يوسف	٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م
نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور	

المعز بن باديس بن أبى الفتح المنصور	٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م
تميم بن المعز	٤٥٣ - ٥٠١ هـ / ١٠٦٢ - ١١٠٧ م
يحيى بن تميم بن المعز	٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٦ م
على بن يحيى بن تميم	٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ - ١١٢١ م
الحسن بن على	٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م

أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م :

تقول الروايات التاريخية التى بين أيدينا إن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر ، عرض على جعفر بن على بن حمدون الزناتى ، أن يتولى أمور أفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين فى مصر ، فاشتراط جعفر بن على بن حمدون أن يكون أميراً مستقلاً يتصرف بما يراه دون انتظار رأى المعز ، ويولى القضاة بنفسه ولا يرسل أى مال إلى مصر ، فرفض المعز ذلك ، لأن معناه انفصال ولاية أفريقية عن الفاطميين تماماً واستقلال هذه البلاد بنفسها .

وعقب ذلك استدعى المعز لدين الله بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان من أكابر رجال صنهاجة ، وعرض عليه الولاية فقبلها بشروط المعز وهى : البقاء

(١) ليس الغرض من إيراد هذه التواريخ حفظها بل الاكتفاء بأسمائها والاستعانة بها فى ضبط سير الحوادث .

تابعاً للفاطميين تماماً ، والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في أفريقية والمغرب . ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز : « قتلتنى يامولاي بغير سيف ولا رمح ! » ويريد بذلك أنه ينوء تحت حمل المسئولية التي عهد إليه المعز فيها .

وعند هذا أصدر المعز له عهداً بولاية أفريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . ويقول ابن عذارى^(١) وابن خلدون^(٢) وابن الخطيب^(٣) أن المعز أوصاه وصية قال له فيها : « إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوص بالحضر خيراً » .

ونحن نستبعد هذه الحكايات لأن دولة الفاطميين في المغرب قامت على اكتاف الكتاميين الصنهاجيين ، فمن غير المعقول أولاً أن يفكر المعز في أن يعرض الولاية على زعيم زناتى ، مثل على بن حمدون هو بطبعه عدو للصنهاجيين ، ومن غير المعقول كذلك أن يوصى المعز نائبه على المغرب بالألا يرفع السيف عن البربر ، لأن ذلك النائب نفسه بربرى .

أما أن يوصيه بالألا يرفع الجباية عن أهل البادية فمفهوم إذا نحن قلنا إن المراد بأهل البادية هم البربر الزناتيون ، وكانت سياسة الدولة الفاطمية تقوم على محاربتهم وإثقالهم بالجبايات حتى يظلوا في فقر ولا يفكروا في الثورة عليها .

وكذلك يستبعد أن يكون المعز قد أوصى نائبه بالعتاية بالحضر ، والحضر هم أهل المدن ، وأهل المدن لم يكونوا قط من أنصار الفاطميين ، لأنهم ظلوا سنة يناوئون المذهب الشيعي .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المعز أوصى نائبه أبا الفتوح يوسف بن زيرى ابن مناد الصنهاجى بأن يواصل حملاته على المغرب الأوسط لحسم دائه ،

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٦ ص ٣١٨ .

(٣) ابن الخطيب ، أعلام الأعلام ص ٩٥ .

والقضاء على النفوذ الأموي فيه . وهذا معقول ، لأن الفاطميين ظلوا طوال تاريخهم أعداء الأمويين الأندلسيين ، خائفين من امتداد نفوذهم إلى المغرب .

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيري بن مناد الصنهاجي والياً أو أميراً شبه مستقل ، لكل بلاد أفريقية بأقسامها الثلاثة : طرابلس وأفريقية وبلاد الزاب ، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط .

وللمرة الأولى في التاريخ أصبح رجل من صميم أهل المغرب رئيس دولة إسلامية في بلاده ، وكان عليه بعد ذلك أن يستكمل استقلال هذه الدولة ويهيئ لها أسس النظام والقوة ، وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامي في المغرب في دور جديد . دور الاستقلال ، فبعد محاولات شتى لحكم البلاد ، قام بها العرب البلديون ثم العرب من ولاية الدولة ، المؤيدون بالجند الرسمي للدولة (المهالبة) ثم من العرب البلديين المواليين للدولة العباسية (الأغالبة) ، ثم من العرب المؤيدين بقوة عسكرية بربرية (الفاطميون) ، دخلت البلاد الآن في طور الاستقلال ، فإن بني زيري كانوا بيتاً بربرياً أصيلاً استعرب ودخل في غمار الجماعة الإسلامية العربية الكبرى . وسنرى أن بني زيري لم يلبثوا أن استقلوا عن الفاطميين وحاولوا النهوض بمسئوليات الحكم في بلادهم قدر ما استطاعوا ، ولم يكن توفيقهم بالقليل ، ولكنهم على أي حال كانوا دور انتقال من مرحلة التبعية للمشرق إلى دور الدول المغربية المستقلة الكبرى التي تبدأ بدولة المرابطين .

ويرى ابن خلدون في ذلك انتقالاً للملك والسلطان في المغرب من العرب إلى « أعياص »^(١) البربر ، أي زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، الذين استعصى على الدولة الإسلامية العامة (العباسية) حكمهم ، فعصوها وانفردوا بالسلطان في بلادهم . ومعنى هذا بتعبيرنا اليوم ، أن أفريقية والمغرب استقلا عن المشرق ، وهذه حقيقة ولكن الذي ليس بحقيقة هو محاولة المؤرخين الفرنسيين ، من أمثال هنري فورنل Henri Fournel في كتابه المسمى « البربر Les Berbères » وجورج مارسيه في كتابه المسمى « بلاد المغرب الشرقية » (أفريقية والمغرب الأوسط ،

(١) والأعياص : جمع عاص وهو الرجل المعز بتفسه المتأني على الخضوع لغيره .

والشرق الإسلامي^(١) القول بأن هذا الانتقال كان تحقيقاً لامل البربر القديم في الاستقلال عن العرب ودولتهم .

والمهم لدينا أننا الآن أمام أسرة بربرية مستعربة ، تتولى شئون أفريقية وتتطلع إلى سيادة المغرب الأوسط . معنى ذلك في رأينا أن أهل المغرب تدربوا على يد العرب ، وأخذوا فكرة بناء الدول والنظم السياسية عنهم ، وبدأوا تجربتهم في الحكم الوطني المستقل دون أن يكون ذلك مظهراً لنزوع قومي مغربي نحو الاستقلال عن العرب ، كراهة فيهم أو رغبة في الانفصال عن جماعة الإسلام الكبرى .

ولكن ذلك الحكم الذي وصل إليه بيت زيري بن مناد الصنهاجي تؤيده قوات قبائل صنهاجية كبرى ، أثار في المغرب كله نيران العداوة والتنافس العنيف بين الصنهاجيين والزناتيين ، كأنما كان خروج العرب من الميدان إيذاناً ببدء الصراع الحريز بين زناتة وصنهاجة على السيادة في المغرب .

وكان أول مظاهر هذا الصراع هو شعور جعفر بن علي بن حمدون الزناتي كبير زناتية أفريقية وشرق المغرب الأوسط ، بأنه لم يعد آمناً في بلاده ، فبارح أفريقية لاجئاً إلى الحكم المستنصر في الأندلس ودخل في خدمته ، ورحب به الحكم المستنصر ، إذ إنه كان عدواً للفاطميين ، وعقب ذلك ثار الزناتيون في أفريقية وانتفض الزناتيون في تاهرت أيضاً ، فسار نحوهم بلكين (يوسف) بن زيري لإخضاعهم ، ودخل على تاهرت وخربها ، ثم عاد دون أن يسترسل إلى غزو الزناتيين في المغرب الأقصى ، لأن المعز كان قد تصحه بالآيوغل في غزو المغرب .

وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨ م أضاف المعز إلى ولاية يوسف بن زيري ، طرابلس وصرت وأجدابية ، فولى عليها يحيى بن خليفة الملياني ، وهكذا نجد أن ولاية المعز اتسعت في الشرق حتى صارت عند حدود برقة .

ولم يسكت الزناتيون على غزو المغرب الأوسط وتخريب تاهرت ، فسار زعيم زناتى وهو خزرون بن فلفل بن خزر الزناتى نحو سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ /

(١) انظر فهرس المراجع في نهاية الكتاب تحت : George Marçais .

٩٧٦ م وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاكر لله المدراي ، وكان من أنصار بني زيري ، وأرسل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي في قرطبة ، فشجعه هذا على غزو فاس ، فدخلها سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م وبهذا يكون الأمويون القرطبيون وحلفاؤهم الزناتيون ، قد تمكنوا من إثارة المتاعب في وجه بني زيري التابعين للفاطميين في مصر . ويلاحظ أن الخليفة المستنصر بالله الأموي كان شديد العداء للفاطميين إذ أنه كان يرى في المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي نادى به الفاطميون نوعاً من الكفر والخروج على الإسلام ، أي أنه كان يعتبر حربه للفاطميين وأتباعهم جهاداً في سبيل الله . وعندما استولى على السلطان في الأندلس المنصور بن أبي عامر سار في هذه السياسة ، بل اندفع فيها اندفاعاً شديداً .

وإزاء هذه السياسة الأندلسية الواضحة ، نجد أبا الفتوح يوسف بن زيري يسير لغزو المغرب الأقصى ويدخل فاس ، ويقتحم أصيلاً وشالة على ساحل المحيط الأطلسي .

وتوفي أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو عائد إلى أفريقية سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطاً واسعاً ، وقام بالمهمة التي عهد إليه الفاطميون فيها خير قيام ، ولكنه لم يكن في الحقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يثبت أركان ملكه ويمهد الطريق لاستقلاله بالمغرب الإسلامي ، وقد وقع في أثناء ذلك في خطأ كبير وهو إثارة مخاوف الزناتيين ودفعهم إلى الاستعانة بالأمويين في قرطبة .

أبو الفتوح المنصور بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي

٣٧٤-٣٨٦ هـ / ٩٨٤-٩٩٦ م :

كان أبو الفتوح المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري قبل توليه الإمارة والياً على الزاب ونائباً عن أبيه فيه . وكان أول ما عمله بعد توليته ، أن أقام معه

أبا البهار بن زيري بن مناد عاملاً على المغرب الأوسط وجعل مركزه تاهرت ، وأقام في نفس الوقت أخاه يطوفت بن يوسف بن زيري والياً على أشير في المغرب الأوسط ، وأوصاهما بالتعاون معاً على حماية المغرب الأوسط من أي عدوان يحاوله الزناتيون . وكان المنصور بن أبي عامر المستبد يحكم الأندلس باسم خليفته الشرعي هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، قد أيد زعيماً زناتياً ، هو زيري بن عطية المغراوي الخزري وأعانه على بسط سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس .

ووجد أبو الفتوح المنصور بن يوسف أنه لا بد من مواصلة الحرب ضد الزناتيين سادة المغرب الأقصى ، فأرسل أخاه يطوفت في جيش كبير نحو فاس واحتلها ، ولكن زيري بن عطية الخزري المغراوي الملقب بالقرطاس ، تصدى له وهزمه في معركة قتل فيها ألف الصنهاجيين ، وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيري الصنهاجيين للتدخل في شئون المغرب الأقصى ، فأصبح هذا الأخير تحت سيطرة الزناتيين يؤيدهم الأمويون في الأندلس .

وعندما انشقت جماعة من الزناتيين على زيري بن عطية المغراوي ، وانضمت إلى أبي الفتوح المنصور وشجعته على غزو المغرب الأقصى ، لم يستجب لهم بل اكتفى بإقامة كبير هؤلاء الزناتية على طينة في الزاب .

وثار عليه داع شيعي يسمى أبا الفهم الخراساني سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ولكنه تمكن من التغلب عليه .

وتلاحظ أن دولة بني زيري في أيام أبي الفتوح المنصور ثانی أمرائها ، فقدت الكثير من قوتها واقتصر أمرها على بلاد أفريقية والزاب ، حتى وادي شلف ، أما سيادتها على المغرب الأوسط فكانت اسمية فقط ، وسنلاحظ أن ولاية المغرب الأوسط من بني زيري سيستقلون به بعد قليل .

ومن الواضح أن بني زيري ما كانوا ليستطيعوا سيادة بلاد أفريقية ، من حدود مصر إلى وادي شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية ، لأنهم كانوا رجال دولة صغيرة محدودة القوى والإمكانات ، وكانت تبعيتهم للفاطميين

تضعف من جانبهم ، لأنها كانت تفرض عليهم المذهب الشيعي ، وكان أهل المغرب ينفرون منه ، يؤيدهم في ذلك الأمويون الأندلسيون .

نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور

٣٨٦-٤١٦ هـ / ٩٩٦-١٠١٥ م :

لم يطل حكم أبي الفتح المنصور ، إذ أن الموت عاجله وهو في سن الشباب بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة هجرية ، وخلفه ابنه باديس الذي تلقب بنصير الدولة وكانت سنة ١٢ سنة ، فقام بالأمر أعمامه وأكبرهم يطوفاً بن زيري وإلى تاهرت وحماد بن يوسف الذي تولى أشير في المغرب الأوسط أيضاً .

ورفض الزناتيون الطاعة للأمير الجديد ، وقامت حروب طويلة بينهم وبين الصنهاجيين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد نحو خمس سنوات من الحروب الدامية ، استقر الأمر بعض الشيء لباديس بن أبي الفتح المنصور في أفريقية سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م . أما المغرب الأوسط ، فقد تولى أمره حماد بن يوسف بن زيري ، وهو عم باديس ، وخاض حروباً طويلة مع زيري بن عطية المغراوي شيخ زناتية المغرب الأقصى ، وكان النصر في النهاية لحماد بن يوسف ، على زيري بن عطية الزناتاني ثم ابنه ماكسن بن زيري . وفي سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م وجد الزناتيون أنهم لن يستطيعوا مقاومة بني حماد الصنهاجيين إلى مالا نهاية ، بعد أن قتل الصنهاجيون زعيمهم ، ماكسن بن زيري بن عطية ، الذي خلف أباه زيري وولديه محسن وباديس ، في معركة دامية ، فاضطر زاوي بن زيري (آخر أولاد ماكسن) إلى الهجرة إلى الأندلس مع ابنه حباسة وحبوس ابني ماكسن ، ودخلوا في خدمة عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وكان لهم ولبن هاجر معهم دور غير حميد في الفتنة الأندلسية التي وقعت بعد ذلك بقليل .

وكان لانتصار حماد بن زيري على الزناتيين في المغرب الأوسط وتأميمه حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، أكبر الأثر في تثبيت سلطان بيته في

المغرب الأوسط . ومع أنه لم يعلن انفصاله عن بني عمه أصحاب أفريقية ، إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بني عمه في أفريقية .

وتوفي نصير الدولة باديس سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م بعد حكم قصير غير مستقر ، انقضى في حروب متصلة مع الزناتيين من ناحية ، ومع بني عمه بني حماد أصحاب القلعة من ناحية أخرى .

المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف بن زيري

٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م :

تولى المعز بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م وكانت سنة ثمانى سنوات ، فقام بالأمر من دونه أعمامه ورجال دولته حتى بلغ سن الرشد . وبدأ يحكم منفرداً حوالى سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وقد أبدى مهارة كبيرة في إدارة شئون الدولة وخاض حروباً طويلة مع خصومها ، وطال حكمه حتى قارب الخمسين سنة هجرية ، وكان رجلاً واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسى ناضج مستقل ، ولكن الظروف التى أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء حكمه الطويل ، حالت بينه وبين التوفيق الكامل الذى كان يرتجيه ، فتدهورت الدولة وتفككت وحدتها رغم ما بذل من جهود كبيرة في سبيل الحفاظ عليها ، ولكنه كان ، كما يقول ابن خلدون : « أميراً هماماً حازماً سيئ الطالع فلم يوفق إلى كثير » . ورغم ما أصاب الدولة في أيامه من تصدع ، وما انتهى إليه أمرها في آخر أيامه من انهيار ، فهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرون الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وقد أثنى عليه معظم مؤرخينا القدامى وخاصة ابن خلدون .

بدأ المعز ورجاله بمحاولة لحل أكبر مشاكل الدولة إذ ذاك ، وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد . وخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها رجال المعز . وعندما تأكد حماد وبنوه أنهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً أمام

المعز ورجاله تقدم حماد يطلب الصلح على أساس أن يكون تابعاً للقيروان ، وأن يتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط . وتم الصلح في صفر ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، ونستطيع اعتبار ذلك الصلح بمثابة تاريخ لميلاد دولة بني حماد المستقلة في المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد في شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطان في القيروان ، إلا أن المشاغل الكثيرة التي أحاطت بهؤلاء الآخرين ، جعلتهم عاجزين في الواقع عن القيام بأي محاولة جدية لإجبار بني حماد على طاعتهم . ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية والتعاون في أثناء الأخطار التي تهددهما معاً ، وفيما عدا ذلك فقد سارت كل من الدولتين في طريقها .

وهناك من يرون أن قيام دولة بني حماد أصحاب القلعة ، يعتبر نقطة بداية تاريخ المغرب الأوسط ككيان سياسي مستقل داخل الدولة الإسلامية العامة . وهذا صحيح إلى حد ما ، وإن كان لابد أن نعود إلى الوراء إلى دولة بني رستم الصنهاجيين . لكي نصل إلى البداية السياسية لتاريخ المغرب الأوسط الإسلامي ، وهو يقابل معظم بلاد الجزائر الحالية .

انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين :

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمي بدولته وأهل بيته وكبار قواده وجنوده وذخائره ، بل برفات أجداده إلى مصر ، لم يعد لأفريقية في تفكيره السياسي مكان كبير رغم أنه لم يتنازل قط عن تبعية هذه البلاد له ، وظل يتمسك دائماً بأن يظهر بنو زيري الولاء التام والكامل نحو الخلافة الفاطمية في القاهرة ومذهبها الشيعي الإسماعيلي .

ولكن الظروف الجديدة التي أحاطت بدولة الفاطميين في مصر كانت تحول بينهم وبين إحكام قبضتهم على أفريقية ، فقد غرقوا في شئون مصر ومشاكلها ، وفي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كانت مصر تسير — رغم التقلبات السياسية الكبيرة التي مرت بها — في الطريق الذي جعلها أواسط هذا القرن أضخم وأقوى وحدة سياسية في الشرق الإسلامي كله ، فقد تمتعت البلاد

بأمان كامل من الأخطار الخارجية ، وعلى الرغم من ضعف الدولة العباسية وعجزها عن القيام بشئون دولتها ، إلا أن مصر سارت في طريقها التاريخي الطويل بفضل الطولونيين أولاً ثم الإخشيديين بعد ذلك .

فظهرت من جديد على مسرح التاريخ دولة قائمة بذاتها داخل إطارها الجغرافي الذي عرفها الناس فيه من آلاف السنين ، وانتظمت أمورها الإدارية الداخلية دون هزات أو اضطرابات عنيفة ، وصدق عليها قول ابن حوقل الذي زارها في العصر الفاطمي : « لمصر قانون ونظام ودولة » .

وعندما دخل المعز ورجاله مصر سنة ٢٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وجدوا أنفسهم في بلد هو أضخم وأغنى بكثير مما تصوروا ، وذلك اقتضى منهم جهداً ضخماً في السيطرة على إدارة كبيرة مستقرة الإطار مئات السنين . ثم إن إسلام أهل مصر كان يجتاز مراحله الأخيرة ، وكانت الغالبية العظمى من سكان البلاد تمتد حتى بلاد النوبة ، قد دخلت في الإسلام ، وذلك بدوره اقتضى تغييراً شاملاً في إدارة الدولة وسياسة حكمها . وبينما كانت مصر الطولونية مثلاً دولة يغلب على سكانها الدين المسيحي ، ومن ثم فلم تكن بذات وزن كبير في توجيه شئون الدولة الإسلامية ، فإن مصر التي دخلها المعز كانت دولة غالبية أهلها مسلمون مستعربون أو عرب ، ونتيجة لذلك بدأت مصر تقوم بدور متزايد في عالم الإسلام . وكان على المعز وخلفائه أن يتولوا توجيه شئون مصر في هذا الدور ، ولكنه لم يحكم مصر إلا أربع سنوات .

وهذا كله جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام اللازم نحو شئون أفريقية والمغرب ، فتحلوا مرغمين عن السلطان الحقيقي عليهما ، واكتفوا من ولائها بالطاعة الرسمية . وفي نفس الوقت أخذ استقلال بنى زيري في أفريقية والمغرب الأوسط يتحول إلى حقيقة واقعة ، ولم يعد من الممكن أن تعود أفريقية والمغرب الأوسط إلى التبعية للمشرق من جديد .

ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين - وخاصة جورج مارسيه - إلى أن ذلك كان نتيجة لنفور البربر من العرب وعدائهم لهم واتجاههم إلى الاستقلال عنهم ،

وهذا غير صحيح لأنه كان في الواقع كما رأينا نتيجة لتطور داخلي طبيعي داخلي المغرب الإسلامي نفسه .

فكما استقلت مصر مثلاً عن الخلافة العباسية دون عداء - كان يكتفه شعب مصر للدولة الإسلامية العامة ، بل لأن هذا الاستقلال بطبيعته ، كان لابد أن يتم نتيجة لتطور مصر الداخلي - فكذا حدث في أفريقيا والمغرب ، لأن اكتمال الإسلام والاستعراب كان في كل مكان الخطوة الحاسمة نحو نضوج الوعي المحلي وظهور الشخصية الإقليمية ثم الاستقلال الحقيقي .

ومثل هذا يقال أيضاً عن انفصال المغرب الأوسط عن أفريقية وقيام دولة مستقلة فيه على يد بني حماد ، فلم يكن ذلك راجعاً فحسب إلى قدرة بني حماد وسياستهم ، بل كان النتيجة الطبيعية للتطور الداخلي في المغرب الأوسط الإسلامي من أيام بني رستم ، بل من أيام الثورة البربرية الكبرى . وفضل بني حماد يتلخص في أنهم قادوا هذا التطور في مراحله الأخيرة ، وأعطوا استقلال المغرب الأوسط عن أفريقية صورته السياسية المحددة .

أما المغرب الأقصى فقد بدأت عملية الاستقلال تتجلى فيه من أيام قيام الدولة الإدريسية كما رأينا ، ومع أن الإدارة لم يستطيعوا السير بعملية الاستقلال إلى نهايتها فسقطوا أخيراً تحت وطأة النزاع الضخم بين الفاطميين الشيعة من المشرق والأمويين السنيين من الشمال ، إلا أن المغرب الأقصى لم يعد بعد ذلك قط إلى التبعية ، لا إلى المشرق ولا أفريقيا والمغرب الأوسط . وكان عليه أن يشق طريقه في عُسر خلال القرن الرابع الهجري ، حتى إذا أمّل القرن الخامس كان الكيان الداخلي للمغرب الأقصى الإسلامي الغربي قد وصل إلى درجة النضوج ، فأخذت شخصيته المستقلة تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ، حتى أخذت صورتها الجلية على أيدي المرابطين كما سنرى .

وقد تمكن المعز لدين الله الفاطمي من المحافظة على تبعية بني زيري له ، لأنه اتبع معهم سياسة ماهرة تضمن له مظاهر تلك التبعية ، ولا تتعارض مع ما كان بنو زيري يطمعون إليه من الاستقلال في الحقيقة ، ثم إنه كما قلنا لم يحكم في مصر إلا سنوات أربع .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى هذا الأخير أن بنى زيرى يتجهون نحو الاستقلال بصورة ظاهرة أيام أبى الفتح المنصور ابن زيرى ، ففكر في أن يضع العراقيل في طريقهم ويعمل على إضعاف بنى زيرى حتى يظلوا دائماً في حاجة إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل داعية شيعياً يسمى « أبا الفهم » لكى يثير قبائل كتامة على أبى الفتح المنصور وفعلاً انضمت إليه جموع منهم ، ولكن المنصور انتصر عليهم وقتل أبا الفهم ، مما اضطر العزيز إلى العدول عن سياسة التدبير السيئ من وراء ستار ، فعاد إلى مصانعة المنصور ومهادنته ، وكان ذلك سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م أى بعد انتقال الفاطميين من المغرب وقيام الدولة الزيرية بثلاثين سنة .

وعندما تولى الحاكم بأمر الله ، ثالث خلفاء الفاطميين في مصر ، كان عرش بنى زيرى قد انتقل إلى نصير الدولة باديس ، وهو أيضاً ثالث بنى زيرى على أفريقية . فأراد الحاكم بأمر الله أن يختبر قوة نصير الدولة ، فأرسل إلى واليه على برقة (وكانت جزءاً من مصر) يأمره بالاستيلاء على طرابلس (وكانت جزءاً من ولاية أفريقية والمغرب) وبالفعل استولى والى برقة على طرابلس ، ولكن نصير الدولة باديس هزمه وأخرجته من البلاد ، وعاد الحاكم فحاول أن يعطى طرابلس للزناتيين أعداء الصنهاجيين ، فعهد إلى فلفل بن سعيد المفاوى الزناتى في دخول طرابلس وحكمها ، ولكن نصير الدولة باديس تمكن من القضاء عليه وعلى أخيه من بعده ، وهنا نجد الخليفة الحاكم يعود إلى مصانعة باديس واسترضائه بالهدوء .

ولكن الأمر تغير عندما تولى الأمير المعز بن باديس في ذى الحجة ٤٠٦ هـ / مايو ١٠١٦ م وكان المعز كما قلنا أميراً قوياً ، اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ، ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين وإلغاء المذهب الشيعى في المغرب جملة . وقد تم له ذلك ، بعد تطورات كثيرة في سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فأعلن المعز بن باديس في القيروان عودته إلى المذهب السنى المالكى . ورحب شعب القيروان بذلك ترحيباً شديداً ، حتى قامت ثورة على من كان في القيروان من الشيعة . وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم

بأمر الله ، يطلب منه عهداً بتوليته على أفريقية والمغرب ، فأرسل إليه الخليفة رايات سوداً وخلعاً سوداً ، وعهداً بالولاية . وهكذا انفصلت دولة بنى زيرى وبلاد أفريقية والمغرب عن مصر والمشرق كما قلنا ، وسار ذلك الجناح الغربى لدولة الإسلام في طريقه من ذلك الحين .

دخول العرب الهلالية بلاد المغرب :

ينحدر بنو هلال بن عامر بن صعصعة وأبناء عمومتهم بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر ، ولكتهم كانوا يختلفون في طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثراً في الفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين .

وبنو هلال وبنو سليم الذين نتحدث عنهم يدخلون فيمن يسميهم ابن خلدون بعرب الجيل الرابع أو العرب المستعجمة ، الذين فقدوا خلق العرب الأول ، ولم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ، ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس كالبويهيين والترك والغز والسلاجقة ومن جاء بعدهم ، ولهذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها ، وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار دون أن يؤذن لهم في دخولها وسكنائها ، وقست عليهم الدول فأنحصروا في صحرائهم ، وهناك اشتد بهم الفقر ، واعتمدوا في معاشهم على الغارات يشنونها على الحجاز وأطراف الشام والعراق . وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحج وينهبونها ، حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون . « خولاً وأتباعاً للدول وشرّاً وبلاء على الحضر » .

إلى جانب ذلك فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة . وفسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم إلى ما يشبه لهجات البدو في بعض نواحي جزيرة العرب اليوم ، وشابت لغاتهم ألفاظ وعبارات أعجمية ، فاستعجمت ألسنتهم ، ولهذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة .

وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ودخلوا بجيوشهم في عمان والبحرين ، واشتركوا في الحرب ضد الفاطميين في الشام ومصر والحجاز ، وعندما تغلب المعز لدين الله على القرامطة وأرغمهم على الارتداد إلى البحرين انفصل بنو هلال وبنو سليم عنهم ومالوا إلى الفاطميين ، فنقلهم العزيز بالله الفاطمي إلى صعيد مصر ، وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل واشترط عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية ، وكان هدفه من ذلك الحيلولة بينهم وبين الانضمام إلى أعداء الفاطميين في المغرب . فأقام من انتقل من بنى هلال وبنى سليم في الصعيد الأعلى ، وأذنوا الفلاحين إيذاء شديداً . فأما بنو سليم فقد اندمج الكثيرون منهم في كتلة السكان في الصعيد ، وأما بنو هلال فقد ظلوا بدواً ، ومن أكبر قبائلهم « جشم والأثيج وزغبة ورياح وربيعة وعدى والزواودة » .

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها وبعض ، « وعمَّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم » كما يقول ابن خلدون^(١) وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر .

في ذلك الحين كان المعز بن باديس قد أعلن استقلاله عن الفاطميين وعاد إلى المذهب السني ودخل في طاعة الخليفة العباسي ، وكانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضده . وهنا خطرت ببال الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن ابن علي اليازوري فكرة إقطاع بنى هلال وبنى سليم بلاد أفريقية والمغرب ونقلهم إليها ، وكان رأيُه أنه إذا تمكن الهالليون من القضاء على دولة بنى زيري ، كان ذلك خيراً للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بنى زيري وعودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمي ورجاله ، فإذا حدث العكس وقضى بنو زيري على بنى هلال كان هذا خلاصاً من هؤلاء دون أن تخسر الدولة شيئاً ، ولم يفكر هذا الوزير الفاطمي فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها .

(١) ابن خلدون - العبر ج ٦ ص ٣٠ .

ومع أن العرب الذين دخلوا مصر واستقروا فيها كانت غالبيتهم من بنى سليم ، فإن اسم بنى هلال غلب عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا أوغل في البداوة وأعنف من بنى سليم في معاملة الناس وإنزال الضرر بهم ، فأصبح الكل يتسبون إلى هلال بن عامر بن صعصعة وسموا هلالين ، أو هلالية .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء ، بجموعهم إلى الغرب واتجهوا نحو برقة ، وكان الخليفة الفاطمي قد أقطعهم أفريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه « ملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الأبق فلا تفتقروا بعد ذلك » .

وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ووجدوها خالية من السكان تقريباً بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من زناتة وقوات بنى زيرى الصنهاجيين ، فاستقر فيها نفر من بنى سليم فى برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وأفريقية ، فاستقروا فيها دون أن يلقوا مقاومة ، وأرسلوا إلى بقية بنى عمومهم فى الصعيد يستدعونهم ، فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرياحى شيخ بنى رياح ، أحد قروى بنى هلال ، وكان رئيساً بدوياً شجاعاً مغامراً ، وكان له سلطان كبير على رجاله . فلما استقر فى طرابلس أصبح سيد هذا الإقليم الواسع ، وانهقدت له رئاسة بنى هلال وبنى سليم فى انتقالهم إلى أفريقية وتوغلهم فى أراضي بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين . ويصعب تقدير عدد بنى هلال وبنى سليم الذين دخلوا المغرب ، ولكن الأغلب أن الكتلة الأولى التى هاجرت منهم كانت حوالى ٥٠,٠٠٠ فرد ، ثم تلاحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ، ويقدر مجموع الذين دخلوا المغرب منهم بمائة ألف ، بما فى ذلك النساء والصغار .

تغريبة بنى هلال ونشوء ملحمة أبى زيد الهلالي :

وقد سميت هجرة بنى هلال هؤلاء إلى المغرب بالغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال أو « التغريبة » فقط ، وقد دارت بينهم وبين الزناتيين فى طرابلس أول الأمر ، معارك طويلة مليئة بالمغامرات والوقائع ، وكانت أخبار هذه الوقائع تصل إلى الباقين منهم فى مصر ، فينظمها شعراؤهم فى صورة قصص شعبية عربى مصرى ، عُرِفَ فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى « أبو زيد الهلالي » ،

أما خصمه فيسمى خليفة الزناتى أو الزناتى خليفة . وهذه الملحمة تعتبر من أشهر آثار الأدب الشعبى العربى وإن لم تكن من أكثرها جمالا ، ولكنها تمتاز بطابع شعبى خالص يجعلها شيئا فريداً فى الأدب العربى كله . ومن تماذج شعرها قول بدر الهلالى يخاطب بواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية بطلة القصة ، ويرجوه أن يفتح له باب مكة ليزور قبر النبى ﷺ :

أنا أول كـلامى قد حثت الثـهـامى تظلمه الغمامى لله الحج راح
يـارب ازوره واثلى بنـوره واشاهد قبوره وتلك النـواح
واقول يا حبيبى يامسكى وطيبى مدحك من نصيبى مساً ، مع صباح
لك يوم الهجرى غمامة تسرى وانبت البشرى بكل الصلاح
يابواب افتح لى الباب المصفح من دخله يريح وينال القلاح

وقصة بنى هلال فى الأدب تختلف عن وقائع التاريخ اختلافاً بيناً . فهى أشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ ، مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية مثل «أنشودة رولان» وه قصيدة السيد . فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال عشقها فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فلم يرض أهلها عن الزواج بعد تمامه ، واحتالوا على الفتاة واسمها الجازية ، ومضوا بها إلى المغرب بعد أن خدعوا صاحبها . وفى المغرب زوجها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بزوجها الأول حتى ماتت ، ومات هو أيضاً هياماً بها بعد حرمانه منها . وتدور القصة بعد ذلك على محور الصراع بين قبائل بنى هلال بعضهم وبعض . وما وقع لهم من الحروب فى المغرب ، وكلها تبدو للقارئ وكأنها أضغاث أحلام تضم بعض لمحات من الجمال الشعرى والقصصى .

استقر بنو هلال فى برقة وخرَّبوا مدنها مثل المدينة الحمراء (برقة) وأجدابية وامتد أذاهم إلى طرابلس وقران ، وانتهى الأمر بأن سادوا معظم سكان هذه النواحي واختلطوا بهم .

وأما بنو هلال فساروا في جموعهم إلى أفريقية « كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه » كما يقول ابن خلدون^(١) .

ويسرف ابن خلدون في تفصيل ما أنزله للهلالية في أفريقية والمغرب من خراب ، والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب ، يختلفون كل الاختلاف عمن عرفنا من عرب الأجيال الأولى ، التي قامت بالفتوح الإسلامية المجيدة ، لأن بنى هلال لم يكونوا جيوشاً نظامية ، ذات هدف ديني أو قومي معنوي واضح ، كما رأينا في فتوح العرب الأولى ، وإنما كانوا بدواً ظلوا طوال تاريخهم بدواً ، ولم يغيروا طبعهم البدوي أبداً ، لأن طول إقامتهم في البوادي وقوة الدول عليهم وإخراجها إياهم من كل نطاق حضاري ، جعلتهم بدواً من قمة رأسهم إلى أخمص قدمهم ، فهم يتحركون ويتصرفون جماعياً ، ويطيعون رئيس القبيلة ولا يعرفون رئيساً غيره ، ولا يرون في العمران إلا مجالاً للغارة والنهب ، وهم يغيرون على المزارع والمنشآت دون أن يتنبهوا إلى أهميتها وقيمتها ، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه ويعيثون فيها فساداً ، فهم يقتلعون الأبواب ويستعملون أخشابها وقوداً للنار ، ويطلقون قطعانهم في المزارع تأكل الحاصلات دون تفكير ، ولا يعتززون إلا بشيء واحد : « العصبية » فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لأي شيء آخر .

هذا كله غاب عن خاطر المعز بن باديس الذي تصور أنه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من صنهاجة ، وتصور أنه يستطيع اتخاذهم جنداً ويستغنى بهم عن الكتاميين وغيرهم ، ولهذا رحب بمؤنس بن يحيى الرياحي ، دعاه إلى الوقود عليه بقومه ، فكان في ذلك مستجيراً من الرمضاء بالنار ، ذلك أن مؤنساً وقومه عندما دخلوا أفريقية أفزعوا المعز فزعاً شديداً إذ رأهم يخربون ويحرقون وينسفون المزارع ، دون أدنى تفكير ، فسارع إلى القبض على مؤنس الرياحي ، وكان يقيم في القيروان وطلب إليه أن يخرج قومه من بلاده ولكن الأوان كان قد فات ، لقد دخل بنو هلال بلاد أفريقية وأنشبوا أظفارهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه إنقاذها منهم .

(١) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٣١ .

واستنجد المعز بإبن عمه حماد صاحب القلعة ، فاتجه بألف فارس واستصرخ زناتة فأقبل إليه المستنصر بن خزرون بألف فارس من زناتة ، وجمع هو جنده وانضم إليه بقايا العرب البلديين وهم عرب الفتح ، ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا للهلالية عندما دارت المعركة .

دارت المعركة بين أهل أفريقية ، يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية ، عند مكان يسمى « حيدران » قرب قابس في ذي الحجة ٤٤٢ هـ / أبريل ١٠٥١ م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظراً لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية في هذه المعركة من بنى رياح وعدى من بطون الهلالية ، ولكن انفصال العرب البلديين عن جيش المعز أضعف صفوفه وجرّ عليه الهزيمة ، ففضى الهلاليون على جيشه تماماً ، فراجع وتحصّن في القيروان وأقبل العرب يحاصرونه فيها .

وعبثاً حاول المعز أن يصدّهم عنها ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمرائهم دون جدوى ، وأخيراً اضطر إلى الانسحاب بجنده ونخائره إلى المهديّة ، وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل ، في طرف لسان بارز في البحر إلى شمال سوسة . وفي رمضان سنة ٤٤٦ هـ / ديسمبر ١٠٥٤ م ، دخل الهلاليون القيروان وخرّبوها تماماً كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وأفريقية وجعلوها حطاماً ، وقتلوا من أهلها من قدروا عليه وتفرق الباقون فعَمَّ الخراب البلاد .

وقضى المعز السنوات الأخيرة من حكمه سجيناً في المهديّة وشريط من الأرض حولها ، حتى توفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٣ م بعد أن رأى بعينه خراب بلاده . وخلفه ابنه تميم الذى اقتصرت دولته على المهديّة وأجوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جربة .

وتعتبر هذه نهاية بنى زيرى في أفريقية ، رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالمساحة التى ذكرناها من أرض أفريقية ، أما الباقي فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة ، وانقسمت البلاد إلى إقطاعات صغيرة وضاعت وحدتها .

وهذا هو الذى أطمع النورمان فى سواحل أفريقية ، وكانوا قد غزوا صقلية فى ذلك الحين ، ثم لم يلبثوا أن تطلعوا إلى سيادة أفريقية .

سقطت صقلية فى يد روجر الأول النورماندى بعد حرب قصيرة بدأت سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلاً سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج آخر المدافعين عنها وهو ابن الحواس بأهله وماله إلى أفريقية . وقد ظلت « قصريانة » تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم استسلمت وفى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت بلرم ، فانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وقد طالت الحروب بين تميم بن المعز والنورمان فى البر والبحر ، وتقلب علاقاته معهم بين صلح وحرب ، وبعد وفاة تميم بن المعز جاء ابنه على بن تميم ابن المعز ، وبدأ بوضوح أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهدية . فاستنجد بالمرايطين ، وكانت دولتهم قد قامت فى المغرب الأقصى . وبالفعل قام أسطول مرايطى بغزو صقلية والاستيلاء على مدينة « نقوطرة » سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م .

وبعد انصراف المرايطين جمع « روجر » أو « رجار » أسطولاً ضخماً وأعلن على المهدية حروباً صليبية . وعجز الحسن بن على بن تميم بن المعز عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهدية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وكذلك كل مدن ساحل أفريقية وطرابلس فى يد النورمان .

وظل الحال كذلك حتى تمكن الموحدون من طردهم وتخليص البلاد منهم .

نهاية دولة بنى حماد أصحاب القلعة :

توقيت :

حماد بن يوسف (بلكين) بن زيرى	١٤٩-٤٤٦ هـ / ١٠٢٨-١٠٥٤ م
القائد بن حماد	٤٤٦-٤٤٧ هـ / ١٠٥٤-١٠٥٥ م
محسن بن القائد	٤٤٧-٤٥٤ هـ / ١٠٥٥-١٠٦٢ م
بلكين بن محمد بن حماد	٤٥٤-٤٨١ هـ / ١٠٦٢-١٠٨٨ م

الناصر بن علناس	٤٨١-٤٩٨ هـ / ١٠٨٨-١١٠٤ م
المنصور بن الناصر	٤٩٨-٥٠٠ هـ / ١١٠٤-١١٠٦ م
باديس بن المنصور	٥٠٠-٥١٥ هـ / ١١٠٦-١١٢١ م
العزیز بن المنصور	٥١٥-٥٤٧ هـ / ١١٢١-١١٥٢ م

ذكرنا كيف انقسمت دولة بنى زيرى إلى دولتين ، إحداهما في أفريقية وعلى رأسها بنو زيرى بن مناد الصنهاجى الذين رأينا نهايتهم . والآخرى في المغرب الأوسط يتولاها بنو حماد أبناء عمومة بنى زيرى . وقد اتخذ بنو حماد مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جنوبها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بنى حماد . وكانت هذه القلعة هى حصن أمراء بنى حماد ، الذى يلجئون إليه وقت الخطر . كما كان الحال مع المهدية بالنسبة للفاطميين وبنى زيرى والقصر القديم بالنسبة للأغالبة والمنصورية بالنسبة للفاطميين في أخريات أيامهم في أفريقية . وبلغ من ضخامة قلعة بنى حماد أن نسبوا إليها وأصبح اسمهم في الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة .

وقلعة بنى حماد تعتبر من أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون في تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد في الشام ، التى بناها الصليبيون في الشام واستولى عليها صلاح الدين ، وقلعة صلاح الدين في القاهرة ، فهى في الحقيقة مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قسبة ، أى حصن منيع داخل ، وما زالت بقاياها قائمة في بلاد الجزائر إلى اليوم .

ومن الملاحظ أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتها أفريقية منذ قيام الثورة المغربية الكبرى في النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، جعلت الدول التى قامت هناك لا تعتمد على القبائل أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والجند المرتزق والسلاح .

وعندما ضاقت أشير عن أن تكون عاصمة دولة كبيرة بعض الشيء ، انتقل الأمير الناصر بن علناس بن حماد إلى مدينة بجاية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م بعد أن أعاد بناءها وجدها وجعلها عاصمة دولته .

كان حماد بن يوسف بن بلكين بن زيري ، أول أمراء هذه الأسرة ، وقد نجح في مدُّ سلطانه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر المولوية . وكان المعز بن باديس قد اضطر قبل ذلك إلى الاعتراف بابن عمه حماد أميراً مستقلاً على المغرب الأوسط سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م .

وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م صار عرش دولة بني حماد إلى الناصر بن علناس بن حماد وهو أعظم أمراء هذه الأسرة ، وقد اتخذ بجاية عاصمة له كما قلنا وانتقل إليها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم المغرب الأوسط حتى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م .

وخلفه ابنه المنصور الذي بلغت الدولة أوجها في عصره ، وقد عني المنصور ابن الناصر بن علناس بالمنشآت والقصور ، وفي أيامه أصبحت بجاية أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً .

وكان آخر أمراء هذه الدولة هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر ابن علناس . وكان العرب الهلاليون قد دخلوا المغرب الأوسط وقضوا على عمرانه ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه . وأخيراً تمكن عبد المؤمن بن علي ، أول خلفاء الموحدين ، من دخول بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وهكذا انتهت دولة بني حماد . وبعد ثمانى سنوات ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م دخل عبد المؤمن ابن علي أفريقية واستعاد المهديّة من النورمان ، وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب كله من طرابلس إلى المحيط الأطلسي على يد الموحدين .

دولتا بنى زيرى فى الميزان :

تعتبر دولة بنى زيرى فى أفريقية وفرعها دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، من صغار دول المغرب ، فقد ظلنا أمداً طويلاً تابعتين للفاطميين حتى قام المعز ابن باديس بالاستقلال عنهم .

ودولة بنى زيرى أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعراهم ، وأصبحوا عضواً أساسياً فى جماعة العروية والإسلام . وقد رأينا أن

أمراء هذه الدولة بذلوا جهداً مشكوراً في تنظيم البلاد وحكمها وإن شابت حكمهم قسوة وعنف ، سواء مع رعاياهم أو خصومهم . وكان فيهم ميل إلى الترف والبذخ ، ولكن ذلك كان على صورة بدوية ساذجة ، وقد أنفقوا في ذلك الترف الساذج أموالاً طائلة ، ونفروا بجفوتهم وقسوتهم الكثير من القبائل ، وقد استنفدوا قواهم في حروب عقيمة على مدى قصير ثم ظلت دولتاها تحتضران بعد ذلك ، ومهما كان الأمر فلم يكن بنو زيري وأبناء عمومتهم بنو حماد أسوأ بكثير من غيرهم من أصحاب الدول في القرن الرابع الهجري وما يليه ، فقد تقسم العالم الإسلامي ، فيما عدا الأندلس ، كله إلى دويلات صغيرة يحكمها مستبدون بالأمم يهجمون على السلطة وينتزعونها انتزاعاً دون حق ، ويحكمون بقوة جنود مرتزقين يشترونهم بالمال ويسلطونهم على الناس ، ووسط هؤلاء العتاة والمستبدين الذين تقاسموا عالم الإسلام فيما بينهم ، من حدود الصين إلى حدود الأندلس ، يعتبر بنو زيري وبنو حماد من أفضل هؤلاء الحكام وأكثرهم حرصاً على راحة رعاياهم ومصالح بلادهم . ويلاحظ أنهم على الجملة كانوا حريصين على إقامة العدالة في بلادهم ، ولم ينصرفوا إلى اللهو والعبث انصرافاً شائئاً كما نرى عند الكثيرين من أمراء هذه العصور ، وإذا كانوا لم يوفقوا في الوصول ببلادهم إلى أحسن مما استطاعوا ، فإن الذنب كله لم يكن ذنبهم ، وإنما يرجع ذلك إلى قلة نصيبهم من الحضارة والتثقيف فقد كانوا رؤساء قبليين في ثياب أمراء ، ولكنهم كانوا ذوي يسالة وهمة . وقد بذلوا أقصى ما في قدرتهم ، ثم إن بلادهم كانت فقيرة ، وكانت تحتاج إلى سنوات طويلة من الهدوء لتستعيد عمرانها بعد الفتن التي مرت بها . فلما وصلت الدولتان إلى الاستقرار المنشود ، أيام المعز ابن باديس وابنه تميم بن المعز في أفريقية والناصر بن علخاس في المغرب الأوسط ، جاءت الغزوة الهلالية فكانت عاصفة قوضت دعائم الدولتين جميعاً .

بل إننا نلاحظ أن بنى زيري وبنى حماد كانوا أحرص على التمسك بالدين واحترام رعاياهم أكثر مما فعلت دولة الفاطميين نفسها . وقد نهج بنو زيري سياسة مغربية واضحة ، فلم يكن لهم اهتمام شديد بما كان يجري في المشرق ، بل انصرفوا إلى محاربة زناتة وحاولوا حماية بلادهم من الأمويين في الأندلس .

وكانت الدولتان تجربتين موفقتين للحكم المحلى في المغرب ، وهما خطوة بين أفريقية التابعة للمشرق وأفريقية والمغرب الأوسط القائمين بأمر بلادهما دون تبعية أو سند خارجي . ولا شك في أن المعز بن باديس والناصر بن علناس يعتبران من عظام أمراء العالم الإسلامي في عصرهما ، وقد ساعدت سياستهما على إظهار شخصية المغرب الإسلامي وإعطائها ملامحها المميزة وسط بلاد العالم الإسلامي .

وقد قامت دولة بنى زيرى بدور كبير في تاريخ البحر المتوسط ، فقد وقفت في وجه النورمان وحدها زمناً طويلاً ، وكان المعز بن باديس وتميم بن المعز موضع احترام ملوك النورمان ، وكذلك كان الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد أصحاب القلعة ، تدأ لـ « روجر » ملك صقلية النورمانية ، ولم يضعف أمر بنى زيرى أمام النورمان إلا بعد أن حطمت الغزوة الهلالية قواهم واستولى الأعراب على معظم بلادهم فأصبحت دولتهما صغيرتين ضعيفتين . ومع ذلك فقد كان نشاطهما البحرى عظيماً .

وقد ضاعت صقلية من أيدي المسلمين أيام بنى زيرى ، ولكنهم لم يكونوا مسئولين عن ذلك ، بل تقع المسئولية على الفاطميين الذين احتفظوا بصقلية تابعة لهم بعد انتقالهم إلى مصر ، وكانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا من هناك القيام بما كانت حماية صقلية تتطلبه ، ولكن أنايتهم أثبتت إلا أن تفصل صقلية عن أفريقية ، التي كانت البلد الإسلامي الوحيد الذى يستطيع إنجاء صقلية ، وهكذا ضاع قطر إسلامى (هو صقلية) بسبب أنانية الفاطميين .

الرأى فى الغزوة الهلالية :

رأينا أن عرب بنى هلال وبنى سليم ، ومن انضم إليهم من عرب الجبل الرابع من قيس عيلان ، أنزلوا بأفريقية والمغرب الأوسط خراباً بالغاً كان له أبعد الأثر فى تاريخ البلاد ، وشرحنا أسباب الأعمال الهمجية التى قام بها أولئك الناس ، وجعلت مع دخولهم البلاد ، نكبة كبرى على تاريخها . بل يبلغ الأمر أننا فى تاريخنا للمغرب نقول إن غزوة بنى هلال تعتبر الخراب الأكبر للمغرب ، فقد

قضت على عمرانته وعلى جهود الدول الماضية في بناء حضارته ، فكان على أهله أن يعيدوا إنشاءها من جديد .

ولكن بنى هلال أدوا مع ذلك خدمة كبرى بالنسبة لعروبة المغرب ، فقد أضعفت مجموعهم قوى تلك القبائل الزناتية ، التي كانت تحاول سيادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة ، ثم إن الهلاليين انتشروا في كل ناحية في البلاد الممتدة إلى أحواز المغرب الأقصى ، وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس فكان عملهم هذا إكمالاً لتعريب المغرب ، فتحولت بلاد الجريد في تونس وبلاد المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) إلى بلاد عربية إسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربي . ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربياً على الصورة التي نراها الآن .

لم تكن الغزوة الهلالية إذن شراً خالصاً ، بل كانت شراً تأتى عنه خير كثير . وإذا كنا نفخر اليوم بالمغرب العربي ، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى أولئك البدو الذين عاشوا وانتهوا بدواً مخربين ، ولم يتعلموا قط الانتظام في دول أو احترام مظاهر العمران . ومن الأسف أن ابن خلدون عندما تحدث عن العرب في مقدمته كان متأثراً في كلامه وأحكامه بما فعله الهلاليون في المغرب ، فجاءت صورة العرب في المقدمة قائمة جداً .

لقد غير بنو هلال التكوين البشرى لأفريقية والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى فيما بعد ، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربرية . ولقد أباد أولئك الهلاليون قبائل كثيرة ، ودفعوا قبائل أخرى إلى الهرب أمامها نحو المغرب ، فخلت بلاد الجريد وقسطنطينة والزاب في أفريقية من أهلها الأولين ونزلتها بطون الهلالية وتكاثرت فيها ، وشيئاً فشيئاً ثاب إليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط الشعبان اختلاطاً تاماً ، فأصبح المغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمقها إسلاماً .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وإدماجه في الكتلة العربية ، فبعد جهود العرب الأول وصراعهم مع البربر وتحويلهم أفريقية

إلى بلاد عربية الحضارة واللسان داخلة في عالم السنة والجماعة ، جاء الأدارسة
فنتروا في أرض المغرب الأقصى بذور عروبة طيبة ، ثم أتى الهلاليون من المشرق
فبذروا بذوراً أخرى لم تلبث أن أثمرت ثم أينعت ، وإلى جانب ذلك كان مهاجرة
الأندلسيين يُقبلون إلى المغرب ، حاملين علماً كثيراً بثوه في نواحي المغرب كلها .
وعندما تقوم دولة المرابطين تكون الأرض قد تمهدت لقيام الدولة العربية المغربية
الكبرى .



دولة المرابطين

رغم ما انتهت إليه تجربة دولة الأدارسة من توفيق يقل كثيراً عما كان ينتظر لها ، ورغم ما بذلته القبائل المؤيدة لها من جهود في توحيد أكبر قسم من المغرب الأقصى تحت لواء دولة إسلامية قوية ، تقوم على مذهب السنة والجماعة ، فإن توفيقها السياسي كان قصير العمر ، نظراً لقلّة الخبرة السياسية التي أتاحت للكثيرين من قادتها من ناحية ، ثم لأن الظروف التاريخية غير المواتية وضعتها في موضع الصراع بين الفاطميين الإسماعيليين والمروانيين الأندلسيين السنيين . ومع ذلك فقد رأينا أن التوفيق الحضاري للأدارسة كان كبيراً جداً ، فقد ضمن لهم نسبهم الشريف مكانة عظيمة في قلوب الناس ، ثم إنهم داخلوا أهل المغرب وصاهروهم وأصبحوا منهم وكان لهم أبعد الأثر في تعريب أهل المغرب ونشر اللغة العربية وعلوم الإسلام من منبر جامعة القرويين . وعندما اضطرتهم الظروف التي أحاطت بهم واضطرت بقاياهم إلى اللجوء إلى قلعة حجر النسر ، كان المغرب الأقصى قد وجد نفسه في العروبة والسنة والجماعة وأخذ يبني نفسه قُدماً .

وكانت تجربة الأدارسة كذلك درساً سياسياً باقى الأثر في المغرب ، فقد رأت قبائله كيف قامت في بلادهم دولة إسلامية منظمة الإدارة ، يقوم على رأسها إمام مطاع مرهوب الجانب من آل البيت وذوابة العروبة ، عزت به السنة والجماعة ، ويستقيم الإسلام الصحيح بجاهه ، وجاء القبائل البربرية المستعربة التي تؤيده وتتجلى في ظله فضائل العروبة . ويظهر بفضل ذلك كله فضل قبائل مغربية لم تكن قبل ذلك بذات شأن سياسي كبير في المغرب الأقصى مثل أوربة^(١) وغمارة ودكالة وسدراتة ونقزة ومكناسة . وبعض هذه القبائل مصمودية ، وبعضها صنهاجية ، وبعضها الآخر زناتية .

(١) كان لأوربة قبل ذلك شأن كبير في المغرب الأوسط كما رأينا آنفاً .

كان نجاح هذه القبائل في إقامة دولة بنى إدريس ، حافزاً لزعماء قبائل أخرى ، على محاولة إقامة دول مماثلة لحسابها ليعز بها أمرها . ويجدير بالذكر أن تنافس القبائل المغربية على السلطان والسيادة قوة محركة دائمة لتاريخ المغرب وأحداثه في كل عصوره .

وبعد نهاية الدور الأول من تاريخ الإدارة ، وخروجهم من حوض نهر سبو وخروج فاس من أيديهم وانتقال بقاياهم إلى قلعة حجر النسر في شعاب جبال الريف ، استبد بالأمير موسى بن أبي العافية مؤيداً بجاه الفاطميين . ولكن الأمر لم يستقر لموسى بن أبي العافية طويلاً ، لأنه لم يستطع إقامة النظام ، فلم تلبث وحدة القبائل التي أقامت دولة الإدارة أن انفرطت . وخلال العقود الأولى من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، عاد المغرب الأقصى إلى الفوضى ، وسيطرت عليه جماعات زناتية معظمهم من مغراوة وبنى يفرن ، وأخذت زندقة برغواطة تنتشط من جديد .

وفي عصور سيادة الزناتية تسود الفوضى ويعانى الحضر من ثقل المغارم ، لأنهم لا يحميهم من عدوان البدو إلا دول الحضر أي البرانس التي تسأخذ بناصرهم وتحمل المدن وأهلها وتعمرها بالمنشآت والمساجد ، وهي دور علم في نفس الوقت .

حدث شيء من هذا بعد القضاء على آخر الإدارة على يد مصالة بن حبوس الصنهاجي ، حامل لواء الدعوة الفاطمية في المغرب الأوسط والأقصى ، سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٥ — ٩٢٦ م . وفشل موسى بن أبي العافية الذي أنابه مصالة بن حبوس عنه في حكم منطقة فاس ، فعادت قبائل الزناتية إلى الاستبداد بالناس من جديد ، فكانت جماعات المقرابين واليفرنيين تروع أمن الناس ، وتلزم من قدرت عليه بأداء المغرم في نواحي مكناسة ورباط تازا في الشمال ، إلى وادي أم الربيع في الجنوب ، بما في ذلك السهل الساحلي المسمى ريف تامسنا ، وامتد سلطانها إلى سهل دكالة فيما بين وادي أم الربيع ومجرى نهر تانسيفت ، بل

سيطرت بعض فروعهما على سهل السوس وبلاد تافيلالت وعاصمتها
سجلماسة.

صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص

من سيادة الزناتيين - جدالة :

في ذلك الحين ، وبعد النصف الثاني من القرن الهجري الرابع / العاشر
الميلادي كانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب ، فيما يلي نهر درعة جنوباً وفي
الصحراء التي تليها جنوباً ويسمىها البكري صحراء « تنسر » التي تمتد إلى
حوض السنغال ، كانت تعيش مجموعة من القبائل الصنهاجية تسمى
بصنهاجة الصحراء ، أهمها جدالة ومسوفة ولتونة وتارجا ولطة وجزولة
وبنو وارث . كانت تعيش حياة شظف وجهد في الشريط الصحراوي الأطلسي بعد
أن طردها الزناتيون إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل تافيلالت
وأصبحت في صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب ،
وكانت قبائل عفية كثيرة العدد ، تعيش على الرعي وقليل من الزراعة ، وكانت قد
دخلت الإسلام ، ولكن إسلامها كان سطحياً ، في حاجة إلى عمق وفهم ، وكان
زعماء بعضها مثل جدالة ومسوفة ولتونة على جانب كبير من بُعد الهمة والتطلع
إلى كسر هذا الحصار المضروب حولها .

وطول هذه الصحراء التي سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالى ألف
كيلو متر ، تقطعها القوافل في شهر لتصل إلى حوض نهر السنغال ، وهو أول
أنهار أفريقية المدارية الغربية شمالاً ، وجدير بالذكر أن لفظ سنغال صورة
برتغالية محرفة لاسم صنهاجة ، فقد نطقها البرتغاليون لأول وصولهم إلى هذه
السواحل سنهagal ثم سنجال Senegal .

وعند منابع نهر المولوية وحتى مجرى وادي درعة يمتد إقليم تافيلالت ، وهو
إقليم واحات ومنايع مياه كثيرة أكبرها سجلماسة ، وكانت سجلماسة من أكبر
المحطات التجارية على أبواب الصحراء ، فإذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة
التي أشرنا إليها ، وصلوا إلى محطة قوافل أخرى في الحوض الأعلى لنهر السنغال
تسمى أودغشت ، وكانت كل من سجلماسة وأودغشت ، سوقاً تجارية عظيمة

يفد عليها التجار ، وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والأموال .

في ذلك العصر — أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي — كانت الرياسة بين القبائل الصنهاجية التي أشرنا إليها لقبيلة جدالة . وكان يتزعمها إبراهيم بن ترغوت ، وخلفه في الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى . ونقول مراجعنا أن يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت الجدالي هذا ، خرج للحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وأنه لقي في طريق عودته الفقيه أبا عمران الغفجومي الفاسي ، وكان من أكبر فقهاء المالكية في القيروان في عصره . واستمع يحيى بن عمر الجدالي إلى دروسه ، فتأقت نفسه إلى أن يرى في بلاده فقيهاً مثله ، يلقي دروسه في منازل قبيلته ويعلمهم الكتاب والسنة ويفقههم في الدين ، فتحدث إلى أبي عمران الفاسي في ذلك .

وكان يحيى بن عمر يفكر في نفس الوقت في أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقه ، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التي ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغيانهم ، الذي امتد حتى تافيلالت ، ففي هذه الناحية ساد فرع من مغراوة الزناتيين ، يسمى بنى وانودين ، وكان رئيس هذا الفرع يسمى مسعود بن وانودين ، وكان على شراء واسع وكان زعماء زناتيون آخرون يحكمون في نواح أخرى ، فكان « خير بن خزر » ينشر سلطانه على مكناس ، ومعنصر بن مصاد شيخ بنى يفرن يسود منطقة قلعة مهدى ، في حين سيطر الفتوح بن دوناس على فاس ومنطقتها وهكذا .

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعاني كثيراً من تلك السيادة الزناتية ، وكان يسودها خوف على المصير ، لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة ، تنتهي بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين ، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها .

هذا الخوف ، كان بعض السبب الذي حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي إلى البحث عن شيخ يُعلم رجال قبيلته شرائع الإسلام ، ويجمع كلمتهم وينور أبصارهم ، لأن العلم نور للبصائر وتنبيه للأذهان وإخراج للناس من غفلة الجهالة إلى يقظة العلم . ولا شك في أن يحيى بن عمر بن إبراهيم هذا ، لاحظ أن

كل من حركوا القبائل البربرية وهياوها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من رجال الدين أو أصحاب الدعوات الدينية ، من أمثال أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وأبي عبد الله الشيعي ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حتى برغواطة تزعمها رجل من أهل العلم هو ميسرة الفقير ، وغمارة تزعمها صالح البرغواطي الذي زعم أنه « صالح المؤمنين » الذي ورد ذكره في القرآن .

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضاً أن يتنبه قومه من صنهاجة الصحراء ، إلى خطر الحصار الذي يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ، ويسجنونهم في صحرائهم القاسية ، ويحولون بينهم وبين الانتشار في الأراضي الخصيبة في وديان أنهار السودان الغربي .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبي عمران الفاسي في إرسال أحد تلاميذه معه ، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة لبعث المسافة وخطورة المغامرة ، فكتب أبو عمران الفاسي له كتاباً إلى أحد تلاميذه من الفقهاء والعاملين في سجناسه واسمه وجاج بن زلو اللمطي ، إحدى قبائل صنهاجة الصحراء . وكان وجاج فقيهاً ذا مكانة كبيرة ، ولكنه لم يشأ القيام بهذه المهمة نظراً لعلمه بصعوبة قيادة الجداليين ، فندب لذلك تلميذاً شاباً من تلاميذه يسمى عبد الله ابن ياسين الجزولي .

عبد الله بن ياسين :

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مهمته ، وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وبدأ يعمل ، وتكشف عن رجل نشيط متحمس واسع المطامح . فلم يقتصر على تعليم الجداليين شعائر الدين ، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التي كانوا يعيشون فيها ، ووضع لهم نظاماً للأداب العامة وأخذهم بالشدة . وكان الجداليون كثيرين وكانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام ، فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم ، لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته .

ولجأ عبد الله بن ياسين إلى شيخه وجاج بن زلو ، فطلب إلى يحيى بن عمر

عقابهم على ما فعلوه ، فقام بذلك وجعلهم يطلبون عودة عبد الله بن ياسين إليهم ، ولكنه رفض ، فنصحهم وجأج بأن يذهب إلى منازل قبيلة لتونة ، وكانوا أميل إلى النظام والتماسك والعمل الجاد .

وإلى حين قريب لم نكن نعرف إلا شيئاً قليلاً عن عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولكننا نعرف الآن أنه كان رجلاً واسع العلم بعيد الطموح شديد الذكاء ، ويحدثنا ابن عذاري أنه زار الأندلس ودرس فيه علوماً شتى ، وعندما عاد إلى المغرب قطعه من الشمال إلى الجنوب ، ومر في طريقه بريف تامسنا ، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك تترجح تحت وطأة الزناتيين وقُدْر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأدرك أنه من الممكن التغلب عليهم وإقامة دولة لصنهاجة هناك . وبعد ذلك بسنوات ، عندما توجه إلى منازل لتونة أحس أن فرصته قد حانت ليحقق ما كان يجول في ذهنه ، وهذا تجل عبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسى مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

وعرف من أول الأمر كيف يكسب محبة يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي ، وهو من جدالة كما يتجل من نسيه ، ولكن جده إبراهيم كان قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب إليهم ، وأصبح يعد نفسه من سلاسل ترغوت بن ورتاسن ابن منصور بن مصالة بن أميت ، الذى عـرب على « أمية بن وانمالى » ، الذى عـرب على « وانمال بن لتونة » التى تنطق أيضاً « تالميت » بن صنهاجة ، وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لتونة . ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان : عمر وتاشفين . فأما تاشفين فهو أبو يوسف الذى ستصير إليه زعامة المرابطين فيما بعد ، وأما عمر فقد أنجب أباً بكر ويحيى ، ويحيى هذا هو الذى تحدثنا عن رحلته إلى المشرق ومروره بالقيروان ولقائه مع أبى عمران الفاسى ثم مجيئه أخيراً بعبد الله بن ياسين .

كان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلاً نشيطاً ومغامراً سياسياً لا يهاب شيئاً ، وكان عظيم الإيمان بالإسلام . وكانت فيه شدة في حمل الناس على إقامة شعائر الدين ، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى في أدائها ، وقد أقاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين ، لأن الشخصية المهيبة التى كان يتمتع بها هذا الأخير ، كانت ترغب الناس على الطاعة ليحيى ، وكان يحيى من

ناحيته لا يدخر وسعاً في تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كَوْن حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط ، قرب مصب وادي السنغال في الغالب ، لكي يفرغوا لأمر العباد . وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه ، فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون ! » هذه رواية ابن عذارى الذي يقول بناء على ذلك أن هذا أصل تسمية المرابطين . ولكن هناك من يقولون إن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم في إحدى معاركهم .

وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين الفأ ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا في الجزيرة ، إلى البر والسير للجهاد ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم . وكان ذلك في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وكانت القوة والقيادة في تلك الجماعة المرابطية الأولى للمتونسة ، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة : صورة القائد العسكري الماهر الذي يحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك ، ويبدى في ذلك الميدان مهارة لا بأس بها ، وكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى .

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، قلما وصل إلى إقليم تافيلالت الذي كان يسوده مسعود بن وأنودين ورجاله من المغراويين ، فانتصر عليهم واستخلص سجناساً من أيديهم ، وفي المعارك قتل مسعود بن وأنودين ، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراكش الذي يجري فيه نهر تانسيفت ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب ، فعبر الصحراء ، وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال ، وانتصر عليهم ، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب أفريقية المدارية ، أي أن ذلك الرجل كسر الحصار الذي

كان مضروباً على صنهاجة الصحراء ، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوباً ، فاخذت قبائل لتونة وجدالة ومسوفة ولطة وجزولة أو كزولة تتوسع جنوباً ، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر النطاق الوقتي ووصل إلى شعوب أفريقية السوداء من هذه الناحية ، وذلك حادث تاريخي عظيم الأثر والمغزى .

وفي أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة التي جمعت متناقضات كثيرة ، من إيمان وحماس ديني شديد وميل مفرط إلى النساء والاستمتاع ، وزهد وميل إلى التصوف ، إلى جانب النزوع إلى السلطان والجاه ، ولكنه كان على الجملة رجلاً فذاً واسع النظر بعيد المطامح ، دقيق الإيمان بالإسلام شديد العصبية لقومه . وكان يزعم أنه فقيه واسع العلم ، ولكن الحقيقة أن علمه بالفقه كان قليلاً . وقد أحصى المؤرخون عليه أخطاء فقهية كثيرة وأحكاماً صدرت عنه مخالفة للشرع ، ولكنهم جميعاً يثنون عليه بالذكاء والصلاح والإيمان والإخلاص والشجاعة . وخلاصة القول فيه أنه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة ، أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقد قام عبد الله بن ياسين بعمله كله ، معترساً بجاه يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي أمير لتونة ومن انضم إليها من قبائل المرابطين . وعندما مات يحيى بن عمر وخلفه في الرياسة أخوه أبو بكر بن عمر ، حظى عبد الله بن ياسين بتأييده ، بل زادت مكانته عنده ، لأن عبد الله بن ياسين ، رغم اتساع جاهه لم يتخط حدوده قط ، واستمر يعطى الأمير حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة . وإن جنح أحياناً إلى فرض هيئته الدينية عليه بذكاء .

وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن عمر وقبيلته لتونة ، قد استقر وطاعت له كل قبائل لتونة الصحراء ، أي أن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته ، ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وقاد خطراتهم الأولى في الانتصار على الزناتيين في الشمال وقبائل أفريقية المدارية السوداء في الجنوب ، وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة ، وأشعرها بقوتها وأعطاها غايات وأهدافاً دينية وسياسية واضحة ، ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف .

استمرار مسيرة الحركة المرابطية بقيادة أبي بكر بن عمر ، إنشاء مراكش :

وسار أبو بكر بن عمر بالحركة في طريقها ، وكان يستعين في عمله بالظاهرين من قرابته وأهل بيته ، وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان إذ ذاك شاباً واسع الطموح .

وحوالى ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م كان سلطان المرابطين قد استقر في حوض نهر تانسيفت القسيح ، وظهرت الضرورة إلى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للحركة في ذلك السهل الذى أصبح مركز الحركة كلها ، وكانت هناك قريتان بدائيتان ، على ضفة نهر صغير من نهيرات تانسيفت ، يجرى من الجنوب ويصب في النهر ، وكانت كل منهما تسمى أغمات ، والأغمات هو اللفظ الجبرى الذى يطلق على القرية البدائية التى تتألف من سور من الطين أو القصب وفروع الشجر ، وتتخذها القبيلة التى تنشئها معتصماً لنسائها وأطفالها ، وحى لواشيها بالليل وفي أوقات الخطر والحروب ومخزناً لسلحها وأزوادها ، وتسمى مثل هذه القرية البدائية في اللغات الأوروبية باسم كراال Kraal وتسمى في العربية باسم المجمع . وكان واحد من الأغماتيين ملكاً لقبيلة هيلانة أو ايت إيلان والثانى كان ملكاً لقبيلة أوريكه ، وكلا القبيلتين مصموديتان ، ولكنهما طاعتا لصنهاجة الصحراء ، مثلهما في ذلك مثل بقية القبائل المصمودية الضاربة هناك ، وقد انضمت هذه القبائل المصمودية إلى الحركة المرابطية ، واشتركت في جيوشها وأعمالها العسكرية . وقد رحب بذلك أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده ، وقد أفادت الحركة المرابطية من ذلك فائدة كبرى ، إذ أصبحت جيوشها تتألف من صنهاجيين ومصامدة وإن ظلت الرياسة في يد الصنهاجيين .

وتنافست القبيلتان كل منهما تريد أن تنشأ القاعدة في أغماتها ، وانتهى الأمر بأن تنشأ في الأغماتين معاً ، فكانت كتلتها في أغمات هيلانة ، وتحولت أغمات أوريكه إلى ضاحية للمدينة الجديدة ، وظل يطلق عليها اسم أغمات فقط ، وتقع إلى جنوبى مدينة مراكش .

وشرع أبو بكر بن عمر في بناء قاعدته سنة ٦٤١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م .

وأطلق عليها اسم مراكش ، وهي بالبربرية مراكش ومعناه قصر الحجر ، لأن مباني المدينة أقيمت بالحجر ، وما لبثت المباني الرئيسية في المدينة أن تمت ومضى الناس ينشئون البيوت والأسواق ، وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذي ولد في حوض نهر السنغال في أفريقية المدارية ، عرف بفضل إيمانه بالإسلام ودخوله في حضارته ، أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام وأوفرها بركة وأشهرها في الدنيا ، وهي مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم .

وبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل في بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بـزوجة جميلة تسمى زينب بنت إسحاق النفزاوية يبلغه خبر أزجه ، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لتونة في الصحراء وأنزلت بها مذبحة ، فقرر العودة مسرعاً إلى منازل القبائل الصنهاجية في الصحراء لإنقاذ لتونة . وقبل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يختاروا من بينهم رئيساً لهم يقوم بأمرهم في غيابه ، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وكان تاشفين والد يوسف أخاً ليحيى وأبى بكر ابني عمر بن إبراهيم بن ترغوث .

وترك أبو بكر بن عمر ثلث القوة المرابطية مع يوسف بن تاشفين ، وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

يوسف بن تاشفين - انقسام القوة المرابطية إلى قسمين :

واحد يعمل في المغرب ثم في الأندلس ، وواحد يعمل في أفريقية المدارية الغربية :

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين : واحد منهما شمالي ، مركزه سهل مراكش ، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين ، والثاني يعمل في أفريقية المدارية الغربية ويقوده أبو بكر بن عمر . ونظراً لبعد الشقة بين القسمين ، لأن الصحراء تفصل بينهما ، فقد مضى كل من القسمين في طريقه يعمل بنشاط ، فأما القسم الشمالي الذي يقوده يوسف بن تاشفين ، فهو الذي سنتتبع تاريخه الآن ، وأما القسم الثاني الجنوبي فقد تابع مسيرته

ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في أفريقية المدارية ، وكان له دور عظيم في ذلك المجال .

قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

٤٦٣ — ٥٠٠ هـ / ١٠٧١ — ١١٠٧ م :

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أتجبههم المغرب الإسلامي وكان لهم أبعد الأثر في توجيه تاريخه ، وقد قام بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ ، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط ، ومد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقى نهر المولوية ، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربي من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى ، ولكن يوسف بن تاشفين بعمله هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد ، وهي محاولة سيتابعها الموحدون فيما بعد ، وستظل دائماً نقطة البداية في إنشاء ما يسمى بالمغرب العربي الكبير .

ثم إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس كما سنفى ، وقام بدور كبير في إنقاذه من الضياع خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكسب للإسلام في صراعه مع النصرانية على مصير الأندلس ، انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة ، لها مكانها في تاريخ أوروبا والمغرب كله ، وهو لهذا كله يعتبر من أفاذا الرجال في تاريخ الإسلام العام .

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية ، التي تميز بها كبار بناء دولة الإسلام على مر العصور ، وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته ، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار ، وثانيها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط ، فهذا الرجل الصحراوي لم يكن يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برأيته ، لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وثالثة هذه الخصائص هي الشعور الكامل

بضرورة نصرة الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها ،
وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكد يسمع صرخة المسلمين في الأندلس حتى أسرع
فلبى النداء ، ووضع إمكانياته كلها في القيام بهذه الرسالة الكبرى ، والرابعة هي
إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها ، فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف
العربية دون أن يجيدها ، ولكنه اجتهد في إتقانها وشجع العلماء والفقهاء وحثهم
على نشر العلوم العربية والإسلامية ، وقرب إليه كبار الكتاب والأدباء من
أندلسيين ومغاربة وأدخلهم في خدمته ، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها
إلى المغرب للعمل في الدولة الجديدة .

ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين في سنة
٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، كل النتائج السياسية التي حققها قبله في المغرب عبد الله بن
ياسين ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر ، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير
المسلمين ، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذه ، ولم نسمع كذلك بأن أى
رئيس دولة إسلامية اتخذه ، وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته ،
فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصادريين من الصحراء ، واهتم كذلك
بمراكش وسهلا ، فأتسع العمران فيها ، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة
وكثر فيها المساجد والمنشآت ، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين ، الذين كانوا
يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجوبون من أهلها المغارم ، وشيئاً فشيئاً مد
سلطانه إلى الشمال واحتل فاس ووادي سبو ، وكان قد سيطر على فاس قبل ذلك
زعيم زناتى يسمى معتصر بن المعز بن زيري بن عطية صاحب مكناس ،
فتغلب يوسف عليه واستخلص فاس ، ثم هاجم بقواته معقل غمارة وبرغواطة ،
في جبال الريف ، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام التي
كانت تعيش هناك من زمن طويل ، وأخذ الفقهاء في نشر مذهب السنة والجماعة ،
وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حربه لبرغواطة وغمارة جهاداً دينياً .

وأصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها ، وجعلها مدينة
واحدة بعد أن كانت مدينتين ، وأدار عليها سوراً حصيناً ، وأكثر من إنشاء
المساجد فيها .

وأفلح يوسف بن تاشفين في التغلب على مقاومة كل القبائل التي كانت قد انفرجت بتواحيها في « بسيط الهبط أو هبط غمارة » ، ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدى من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، وعمر مدينة تازا في وسطه ، وابثنى بها مسجداً جميلاً ما زال باقياً إلى اليوم ، ومن ممر تازا ، مضى يوسف ابن تاشفين إلى إقليم تلمسان ، وبسط سلطانه على وادي ملوية الذي يصل إلى سجلماسة جنوباً ، وواصلت قواته السير شرقاً في منازل صنهاجة المغرب الأوسط ، ودخلت مدينة الجزائر التي كانت إذ ذاك تعرف بجزائر بني مزغنا ، وابتنى فيها مسجداً جامعاً ما زال باقياً إلى اليوم . وكانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقاً ، إذ شغلهم عن استكمال توحيد المغرب أحوال الأندلس على ما سنراه .

ثم تجرد يوسف بن تاشفين للاستيلاء على سبتة وطنجة ، وكانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الشمالي ، وكانت البلدتان في ذلك الحين من توابع الأندلس ، وقد بدأت تبعيتهما للأندلس من أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان يحكم سبتة رئيس بربري يسمى « سقوط أو سكوت البرغواطي » . ولأه إياها بنو حمود أصحاب مالقة الذين ادعوا خلافة الأندلس فترة قصيرة من الزمان ، في أعقاب انتشار أمر خلافة قرطبة وبداية عصر الطوائف سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٢ م ، وقد تحول « سقوط » إلى أمير طوائف بدوره واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المنصور المعان سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م .

وفي سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م أرسل يوسف بن تاشفين قائده صالح بن علي ، فتمكن من اقتحام سبتة وإنهاء إمارة سقوط البرغواطي ، ثم انتزع طنجة من يد ضياء الدولة بن سقوط ، وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد وحد المغرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبى وادى درعة إلى ساحل البحر المتوسط ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف ، تبيناً ضخامة العمل السياسى الذى قام به هذا الرجل القدير ، الذى نهض بقومه ، من جماعة من المجاهدين المتحمسين ، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى في ذلك العصر .

وقد ساس يوسف هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدارية وتنظيمية كبيرة ، وكان أساس تنظيمه كله العدل ، أى أنه كان يقوِّض بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل ، فكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله ، من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية ، ويضمُّ إلى كل وال فقيهاً أو أكثر لى تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية . ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التى كان الزناتيون يجيئون بها ، وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس . وكانت له شخصية مهيبية فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية ، وأهمها فى أيامه لمتونة وجدالة ومسوغة وتليها فى الأهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وارث وتارجا . وقد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل هذه القبائل كلها ، فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منازلهم فى الصحراء وما يليها جنوباً ، وانضموا إلى جيوش المرابطين ، إذ أن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الامام ، وكان يوسف بن تاشفين رائداً فى ذلك المضمار .

المرابطون يعبرون إلى الأندلس لنصرة الإسلام :

فى حدود سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب ، أى أنه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتى عشرة سنة فحسب من العمل الدؤوب ، وأقامها على اكتاف رجال من صميم العترة المغربية ، وقيام هذه الدولة يمثل لنا ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الإسلامى . وقد عرضنا من قبل لكل المحاولات والدول السابقة ، ورأينا اختلاف حظوظها من الترفيق فى بناء الدول . وهذه التجربة المرابطية أقواها وانضجها جميعاً إلى ذلك الحين ، مما يدل على أن الإسلام عندما دخل أفريقية والمغرب ، أيقظ أهلها ووضعهم فى طريق التقدم السياسى والاجتماعى ، حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذى وصل إليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية .

وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين إذ ذاك فى العالم الإسلامى كله ، بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد مخلص فى سبيل الله ، ولا غرابة والحالة هذه أن نسمع بأن الإمام أباحامد الغزالي كان يثنى على يوسف بن تاشفين .

وفي ذلك الحين كان أمر المسلمين في الأندلس قد وصل إلى درجة من
الاضمحلال جعلت مصير الإسلام في شبه الجزيرة في الميزان ، فقد تقاسمت بلاد
الأندلس جماعة من الوثابين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ، كانوا في الأصل
عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة نواحيهم ، فقدمهم الناس للولاية حتى
تنجلى غمرة الحرب الأهلية التي دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط دولة
العامريين^(١) سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . ولكن الغمرة لم تنجل ، بل ازدادت
الأحوال سوءاً لأن أولئك المستبدين بالنواحي ، حولوا أنفسهم إلى سلاطين صغار
لكل منهم بلاط وحشم وحاشية في ناحيته ، وبعض هذه النواحي كان ولايات
واسعة مثل طليطلة أو أشبيلية ، وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها
مثل دانية Denia أو البوئث أو سهلة بنى رزين .

وانتهز ملوك إسبانيا النصرانية هذه الفرصة ، للتوسع على حساب أولئك
الأمراء الضعاف الذين كان أقواهم يعتمد على قوة من الجند المرتزق ، لا تزيد على
بضع مئات من الفرسان ، وقد كانت بعض ممالك النصرانية أصغر وأفقر من
جاراتها من إمارات الطوائف مثل أرجون التي كانت مملكة صغيرة في أسفل جبال
البرت أي البرانس ، تجاورها إمارة إسلامية واسعة هي الثغر الأعلى
الأندلسي وقاعدته سرقسطة ، وكانت تحكمها أسرة بنى هود التجيبين ،
ولكن ملك أرجون الصغير كان يستطيع تجريد جيش من ألف فارس وأكثر ،
يجمعهم إلى لوائه الإيمان بأنفسهم والطمع في أراضي المسلمين الواسعة الغنية .
ومن هنا فلا غرابة في أن نجد أمراء سرقسطة يدفعون الإتاوة لأمير نصراني أصغر
منهم ولاية وثروة ، ولكن الصراع السياسي خلال التاريخ كله ، يعتمد أولاً وآخره
على إيمان الرجال بحقوقهم وعقائدهم واستعدادهم للبذل والتضحية . وقد كان
المسلمون من أهل سرقسطة وطليطلة مستعدين للبذل والتضحية في سبيل
بلادهم ودينهم ، ولكن أمراءهم كانوا بعيدين جداً عن مثل هذا التفكير ، قضّيَ عوا

(١) العامريون يراد بهم عماد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور ، الذي استبد بأمور الخلافة
الأموية ، وخلفه ابنه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول (انظر القسم الخاص بالأندلس من
هذا الكتاب) .

رعاياهم وباعوا أرض الإسلام في سوق البخس حفاظاً على عروش وهمية وإرضاء لغرور أتاني خسيس .

وكانت أضعف هذه الإمارات الإسلامية الأندلسية إمارة بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، وكانت طليطلة ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجه إلى مشارف حوض الوادي الكبير ، بل كانت هي وحدها تمثل ربع الأندلس مساحة ، وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب نفسه بالمأمون ، وكان غاية في الغباء وقصر النظر وضعف الإيمان ، فكان يبتنى القصور ويقيم الحفلات الكبرى وليس لديه من القوة العسكرية ما يدفع به عدواً . وقد اشترى سلامته بأتاوة كان يدفعها لملك قشتالة وليون المجاور له من الشمال والغرب .

وكانت قشتالة إذ ذاك كونتية أى إمارة صغيرة تابعة لمملكة ليون ، وكان يحكم ليون ملك يسمى سانشو الثاني ، اختلف مع أخيه الفونسو فطرده خارج بلاده ، فلجأ إلى بلاط المأمون بن ذى النون ، ورجب به هذا وخلطه بنفسه وأطلعته على أسرارها ، فعلم هذا الأمير المنفى أنه لو اقتدر على ألف فارس ، لاستولى بهم على طليطلة وأزال ملك بنى ذى النون .

وهذا هو الذى حدث ، فقد شاءت الظروف أن يقتل الملك سانشو الثانى ويجتمع فرسان مملكة ليون وكونتية قشتالة لاختيار خلف له ، واستقر رأيهم على استدعاء الفونسو من منفاه ، وتوجه ملكاً على قشتالة وليون بزعامة فارس جرىء يسمى ردرىجو دياث دى بيبيار الملقب « بالسيد القمبيطور » .

وقد اكتسب الفارس لقب السيد ممن كان يعمل معه من مقاتلة المسلمين ، وكان الكثيرون منهم قد تحولوا إلى أهل حراة أى قطاع طرق وفرسان مرتزقين يخدمون من يدفع لهم أعلى أجر ، وكان هذا السيد القمبيطور فارساً مرتزقاً جريئاً ماهراً فى شئون الحرب ، وكان حامل لواء ملك قشتالة وليون .

وبعد استقرار الفونسو السادس على عرش بلاده ، بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ، وكان المأمون بن ذى النون قد شاخ وركبته الأمراض ، ولم يكن له من وريث إلا حفيد قليل الذكاء يسمى يحيى ، فحسب المأمون أن الفونسو السادس يرعى زمام طليطلة بما آواه من قبل عندما كان طريداً ، ولكنه عندما مات أوصى

رجال دولته بحقيقه الذي أصبح أميراً وتلقب بالقادر ، وما هو إلا قليل حتى دخلت قوات قشتالة وليون يقودها الفونسو السادس أراضي طليطلة واستولت عليها دون أن يرتفع للدفاع عنها سيف واحد ، لأن القادر بن ذي النون حسب أن الملك النصراني إنما أتى لعونه على خصومه في بلاده ، فإذا به يرى أنه أتى ليستولي منه على ولايته طليطلة بكل مدنها وحصونها وحدودها ، ويعوضه عنها بولاية بلنسية وكانت تابعة لطيطة ، وهكذا استولى الفونسو السادس على ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحاً ، وخرج التعيس القادر من بلده ليتولى بلنسية في حماية قلعة من فرسان قشتالة على رأسهم فارس يسمى (الفار هانيث) الذي تكتبه مراجعنا ألبر هانس Alvar Hanez وكان ذلك سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

هنا أفاق ملوك الطوائف من غفلتهم ، وأدركوا أن مصيرهم كله إلى بوار ، إذا هم ساروا في طريق الضلال الذين كانوا سائرين فيه خاصة وقد تحولت مملكة قشتالة وليون بعد استيلائها على طليطلة ، إلى أكبر دولة في شبه الجزيرة ، فقد أصبح حجمها ثلاث مرات حجمها الأول ، وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ، ودخلت قواتها قورية والأشبونة وشنترين ، وكان السيد القمبيطور قد انفرذ ببلنسية وحاصرها حصاراً مريباً حتى استولى عليها ، وتحركت مملكة أرغون وأخذت تتقدم في أراضي إمارة سرقسطة أي الثغر الأندلسي الأعلى ، وحالفت كونثية قطلونية وعاصمتها برشلونة واستولت على طركونة ثم طولوشة وأخذ الفونسو السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ، ولم يعد يقنع بالإتاوات التي يؤديها إليه أمراؤها^(١) .

هذه هي الظروف التي اضطرت ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف ابن تاشفين ، والحق أنهم كانوا مترددين في ذلك حتى اضطرتهم رعاياهم إلى ذلك ، فتوجه وفد من فقهاء الأندلس ولقي يوسف بن تاشفين ، وأطلعته على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف ، وطلب إلى الأمير المرابطي أن يعجل بنجدة الأندلس . وأدرك الرجل خطورة الموقف ، ولبي داعي الجهاد لأنه بطيعة وطبيعة حركته ، مجاهد في سبيل الإسلام .

(١) عن هذه الأحداث بشيء من التفصيل - انظر القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب

وفي عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بجيش ضخم بعد أن نزل له المعتمد بن عباد عن مدينة الجزيرة الخضراء ليؤمن لنفسه وقواته خطوط الاتصال مع المغرب . وسارع المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية للقاءه ، وتم الاتفاق على أن يتجه الجيش المرابطي ومن يرافقه من مقاتلة الأندلس ، نحو بطليوس في غرب الأندلس ، لأن الفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والأشبونة وشنترين ، كان يستعد للاستيلاء على إمارة بطليوس ، وكانت تشمل جانباً ضخماً من غرب الأندلس ، وأقبل الفونسو السادس بحشوده ، وكان اللقاء في سهل متسع جنوب غربي مدينة بطليوس يسمى الزلاقة بالعربية ، وفي الإسبانية Sacrajas ، واتجلى اليوم بعد قتال بالغ العنف ، بنصر مؤزر ليوسف ابن تاشفين ، فقد أبيدت صفوف قشتالة وليون ، وفر الفونسو السادس في لمة قليلة من فرسانه ، وهو لا يصدق بالنجاة .

هذا الانتصار كان له أثر حاسم في سير الحوادث في الأندلس ، فقد تحطمت القوة الضاربة لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب ، وارتد رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلة ، واستعاد المسلمون الأشبونة وشنترين وتوقف تقدم كونتية البرتغال في غرب الأندلس ، وغريب من الأمر أن المتوكل بن الأفطس ، صاحب بطليوس ، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وقلقاً من المرابطين ومال إلى الخيانة والتفاهم مع العدو . وقد بلغت أخباره هذه يوسف بن تاشفين . ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عباد تراخى من ناحيته وخاف على إمارته ، أما الأمير أبو عبد الله الزيري صاحب غرناطة ومالقة (وهو صنهاجي الأصل مثل يوسف ابن تاشفين) فقد بدا وكان النصر لم يكن على هواه .

في وسط هذه الظروف وجد يوسف بن تاشفين أن يعجل بالعودة إلى المغرب لينظر في أمور دولته الواسعة ، ولهذا لم يستطع الاستفادة من ذلك النصر العظيم الذي حازه ، ولو أن أمراء الأندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قواتهم لتقدم إلى طليطلة واستولى عليها ، وأعاد ميزان الأمور في الأندلس إلى نصابه ، لأن الانتصارات العسكرية مهما عظمت فإنها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة إذا لم تستغل سياسياً وعسكرياً ، ولو أن صلاح الدين الأيوبي لم يسارع باستعادة

القدس بعد نصر حطين لما كان لهذا النصر القيمة التاريخية الكبيرة التي يحتلها في صحائف التاريخ .

عاد يوسف بن قاشفين إلى المغرب فتتفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وأفرخ روعها . وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذي خفّ لتجدتهم . أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لا بد أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر ، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانوني في الأندلس ، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو مدينة الجزيرة الخضراء وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافقوه بالمؤن والأزواد أو تقديم أى عون . لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها .

وبعد أن مهد يوسف لنفسه في الأندلس تمهيداً معقولاً استجاب لصريح أهل الأندلس ، وعبر للمرة الثانية سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٨ م إلى الأندلس . ووجهته هذه المرة شرق الأندلس ، لأن جماعة من فرسان قشتالة احتلت حصناً هاماً بين مرسية وبلنسية ، يسمى حصن لايبط Alado وأخذوا يقطعون الطريق على المسلمين مما أشاع الفوضى في الشرق كله ، هذا إلى أن السيد القمبيطور كان يعيش في بلنسية وشرق الأندلس كله فساداً . وكان يرأس فرسان ذلك الحصن الفارس القشتالي المشهور البر هانس .

وسار يوسف بقواته نحو لايبط . وانتظر أن توافيه حشود الأندلسيين ، ولكن أحداً منهم لم يلب داعي الجهاد ، بل منعوا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء ، وكانت نية يوسف أن يستولى على لايبط ثم يخرج السيد القمبيطور من بلنسية ومن هناك يتجه نحو طليطلة ، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رأيه ، إذ نقذت مؤنه وطال حصار الحصن دون جدوى ، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يحكم الأمر ويتم عدته . ومع ذلك فإن يوسف لم يكسب يرفع الحصار ويرتد جنوباً حتى سارع البر هانس وفرسانه فأخلوا حصن لايبط خوفاً على أنفسهم فاستولى عليه صاحب مرسية ، وأوجس السيد القمبيطور خوفاً من المرابطين .

وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عيوره الثالث ، الذي قام فيه بعزل ملوك الطوائف من إماراتهم فيما عدا أمير سرقسطة ، الذي دخل في طاعته ، وتركه يوسف بن تاشفين ليسد الثغر الأعلى الأندلسي المهدد بالخطر ، وفي هذه المناسبة عزل يوسف بن تاشفين ، المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وأخذه معه إلى المغرب حيث قضى بقية عمره في أغمات جنوبي مراكش . وفي هذا المنفى أو الأسر كما يسميه المعتمد ، قال هذا الأمير الشاعر أجمل أشعاره وأصدقها في رثاء نفسه والتحسر على ما ضيع من فرص للعمل والجهاد .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها دولة كبرى تمتد في قارتين ، حدودها الشمالية فيما بين نهر تاجة والواديانة في إسبانيا والبرتغال في أوروبا وحدودها الجنوبية في أفريقية المدارية ، وفي كلتا الجهتين كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً ، يتطلب سبلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تحصى . ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوه في الجهاد لتبنت جبهة الإسلام هناك بصورة يمكن الدفاع عنها . ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدى كامل الاستعداد لمواجهة العدو ، كان رؤساء بلاد الأندلس ينصرفون إلى إقامة الصعوبات والعقبات في وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذهم . وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر في الأندلس يسخرون من المرابطين ويرفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم تفسدهم الأنانية التي أضعفت حكام الأندلس وجعلتهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم .

وقد فرض الأندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمالي خط الواديانة ، لأن الأندلس كانت دار جهاد ، وقد دخلها المرابطون مجاهدين ، وكان عليهم أن يستمروا في هذا الصراع المجيد ، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً ، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك مسئوليات المرابطين في المغرب ، تبين أنهم حملوا في الواقع من المسئوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى .

كسب المرابطون في الأندلس مواقع كبرى أولها الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ /

١٠٨٦ م . وفي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استرد بلنسية القائد المرابطي محمد بن
مزدلي ، وكانت قد وقعت في يد الفارس القشتالي رودريجو دي بيبار الملقب
بالسيد القمبيطور El Cid Campeador واستعاد المرابطون بعد ذلك عدداً من
المدن الأندلسية في شرق الأندلس مثل مريبطر Murviedro والمنارة Almenara
والسهلة Santa Maria de Albarracin وغيرها . وانتصرت قواتهم على قوات
الفونسو السادس في عدد آخر من المعارك عند قنسوجرة Consuegra وقونقة
Cuenca وملجون Munzon في سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م . وفي سنة ٥٠١ هـ /
١١٠٨ م انتصر القائد المرابطي تميم بن يوسف على قوات قشتالة في معركة دامية
عند أقليش Uclis شرقي طليطلة وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد النصارى
منهم سبعة من الأكناد ، بل قتل الأمير شاتجه بن الفونسو السادس . ولهذا
سميت المعركة « بمعركة الأكناد السبعة La Batalla de los Siete Condes » .
وتوفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وخلفه ابنه علي ، وبوفاة
يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات تاريخ الإسلام ، وقد
سبق أن تحدثنا عن خلاله ومآثره وأعماله وقدرناه قدره ، ومن حسن الحظ أن
ابنه علياً كان على شاكلته من ناحية صدق الإيمان والإخلاص لامة الإسلام .
وكان أميراً أحسن التكوين والتدريب . ولد في المغرب وتربى في الأندلس وشب أميراً
عالماً مجاهداً يتميز بالعدالة وصلابة الخلق ويتمتع بثقافة عالية ، وسار في آثار
أبيه في كل ميادين العمل ، وكان أهم ما شغل باله واستنفذ جهده ، الجهاد في
الأندلس .

وبينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس بدأ محمد بن
تومرت المعروف بمهدي الموحدين دعايته ضد المرابطين واجتهد في تشويه
سمعتهم واتهامهم بالمروق عن الدين والتجسيم وما إلى ذلك ، وقد نجحت دعايته
لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء

دولة لهم تضاهى ما وصلت إليه قبائل لتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية ، ولهدا فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزى إلى صدقه في الاتهامات التي وجهها إلى المرابطين ، بل إلى ذكائه في معرفة اللغة التي يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه . وسنتحدث عن ذلك في كلامنا عن الموحيدين .

ويهمنا الآن أن نقول إن علي بن يوسف خلف هذا الملك العريض والحاقل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين ، وكان شاباً حسن الاستعداد ، ولكن الظروف التي تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع ، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم .

تاشفين بن علي ٥٣٧ — ٥٣٩هـ / ١١٤٢ — ١١٤٤ م

ونهاية دولة المرابطين في المغرب والأندلس :

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحيدين في المغرب دفاعاً عن كيانتهم ، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه . ومن أغرب ما حدث في تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام في نفس الموضع ونفس العصر ، فقد كان القيام الحقيقي لدولة المرابطين سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١ م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالي من دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحيدين سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠ م بولاية عبد المؤمن بن علي ، فتلاقت الدولتان في النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي . وإحداهما في أوج قوتها والثانية في عنفوان شبابها ، فكان لقاؤهما بلاء على المسلمين ، ولو تأخر ظهور دولة الموحيدين نصف قرن من الزمان

لتعاقبتا على الجهاد وكان تعاقبهما نعمة على الإسلام وأهله ، ولكن هكذا شاءت المقادير وخسر المسلمون في هذا التعاصر شيئاً كثيراً ، ولكن النتيجة على الجملة طيبة في النهاية ، فقد خطا المغرب على أيدي الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية ، وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم . وهذه في ذاتها معالم واضحة في التاريخ القومي المغربي العام .

ونظراً لتداخل تاريخي المرابطين والموحدين خلال الحقبة الأخيرة من تاريخ الأولين والأولى من تاريخ الآخرين ، فسنعرف هنا بتاريخ المرابطين لنستتمه في أطوار ما سنرى من تاريخ الموحدين .



دولة الموحدين

محمد بن تومرت :

كان النجاح الذي لقيه المرابطون في إقامة دولتهم بفضل تفكير الفقيه عبد الله ابن ياسين محركاً لهم المصامدة ، في أن يقيموا هم الآخرون لأنفسهم دولة تضاهي دولة المرابطين ، خاصة وهم أغنى بلاداً وأعز نفراً . وقد ذكرنا في كلامنا على يوسف بن تاشفين ، أنه أدخل المصامدة في طاعته وساد بلادهم وضم مقاتلة منهم إلى جيوشه ، فكان هذا باعثاً آخر حرك في نفوس المصامدة الرغبة في إنشاء دولة لهم ، فهم معظم سكان المغرب الأقصى ، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد ، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة . وقد أتاحت الظروف لهم هذه القيادة في شخص فقيه مصمودي من قبيلة هرقة التي تسكن في ناحية من نواحي جبال الأطلس العليا على سهل السوس .

هذا الفقيه هو محمد بن تومرت الهرغي الذي ولد سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على وجه التقريب في بيت يغلب عليه طلب العلم ، ولا نعرف عن أصله إلا القليل ، ونسبه كما يسوقه تلميذه أبو بكر الصنهاجي الملقب « بالبيدق » موضع شك كبير ، فإنه يجعله شريفاً حسنياً ، وهذا مستبعد ، ولكننا نجد أن جده كان يلقب بلفظ « واجليد » وهي صيغة للفظ بربري هو « آجليد » ومعناه الزعيم أو القائد ، ومعنى ذلك أن ابن تومرت كان من أصل مرموق وإن كان رقيق الحال .

واتجه محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر ، فدرس في بلده ثم في مراكش . وحوالي سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢ - ١١١٣ م ، يشرع في رحلة دراسة طويلة إلى المشرق ، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير ، فإن ابن تومرت يقول إنه وصل فيها إلى بغداد ، ولقي أبا حامد الغزالي ودرس عليه ، ولكننا نستطيع القطع بأنه لم يلق حجة الإسلام أبا حامد الغزالي ولا درس عليه ، لأن الغزالي غادر

بغداد إلى غير رجعة سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم توفى في طوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م . فإذا كان محمد بن تومرت قد غادر بلده متجهاً إلى المشرق سنة ٥٠٦ هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالي ، بل إننا نشك في أنه بلغ بغداد . وغاية ما نستطيع القطع به هو أن ابن تومرت وصل إلى الإسكندرية في مصر ودرس على بعض شيوخها . ثم عاد إلى المغرب ، فدرس في القيروان وبجاية وحصل جانباً لا بأس به من العلم بالفقه .

ولا شك في أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادي الذكاء ، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية ، وكان العلم عنده نقطة بداية وطريقاً يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية ، وكانت هذه الغايات غير واضحة في ذهنه أول الأمر ، كما يحدث للكثيرين من أهل المواهب السياسية ، فإنهم يحسون في نفوسهم نزوعاً غامضاً إلى القوة والسلطان ، ويتجهون الوجهة التي توصلهم إلى تحقيق هذه النزعات غير الواضحة في نفوسهم ، وكلما ساروا في الطريق شوطاً اتضحت لهم ملكاتهم الحقيقية شيئاً فشيئاً .

وعندما ندرس حياة ابن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما حصله من العلم في خدمة غاياته السياسية ، وهذا الطموح السياسي عند ذلك الشاب الهرغى مشكلة من المشاكل في دراسة حياته ، فهذا الشاب الذي تصدى لإنشاء كيان سياسي ديني فريد في بابيه في تاريخ الإسلام ، وتمكن من إسقاط دولة كبرى هي دولة المرابطين وإقامة دولة أكبر هي دولة الموحدين ، هذا الرجل كان زاهداً متقشفاً لا يتمسك بأي مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان ، ولكنه وصل بالفعل إلى جاه ديني وسلطان سياسي بلا حدود ، ثم إنه كان حصوراً لا يأتي النساء ، ومن ثم فلا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته ، ثم إنه لم يتخذ وهو في أوج سلطانه لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة ، وإنما زعم أنه « المهدي » ، والمهدي في تاريخ الفكر السياسي الديني الإسلامي صورة صنعها تطلع المسلمين إلى العثور على الحاكم القوي العادل الذي يزيل المفاسد والمظالم ويقيم دولة العدل والدين والإيمان والمساواة ، أو الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت

جوراً كما يقول المصطلح الذي يستعمل عادة في الكلام على المهديين . ومعظم من نقرأ عنهم في تاريخنا من المهديين هو أنهم بدأوا فقهاء ثم تحولوا إلى دعاة للمعروف ونهاة عن المنكر ، وهذه الدعوة تنقلهم من الفقه إلى السياسة ، ومن ثم يندفعون في الطريق السياسي متدثرين دائماً بثياب العلم والفقه والدين .

ويستوقف النظر في تاريخ محمد بن تومرت ، أنه منذ لقي عبد المؤمن بن علي وضمه إلى زمرة تلاميذه وأتباعه جعله على رأس أولئك الاتباع واستخلصه لنفسه ورشحه لخلافته ، وبالفعل مات محمد بن تومرت وحركته في بدايات نجاحها ، فخلفه عبد المؤمن بن علي ، وقد تلقب فعلاً بخليفة المهدي ثم خليفة المسلمين واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وأقام دولة كبرى ذات نظام وقوة وأصبح خليفة جليلاً ، وورث أبناؤه ملكه ، وتمتع هو وأولاده بالقوة والثروة والجاه ، في حين أن محمد بن تومرت مات فقيراً زاهداً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً وإن تمتع بسلطان على أتباعه ، لم يصل إليه أعظم السلاطين .

وإذن فشخصية محمد بن تومرت شخصية غريبة معقدة ، وكلما قرأنا سيرة حياته كما كتبها خادمه أبو بكر الصنهاجي المعروف « بالبيدق » ، ونقلها عنه مؤرخو الموحدين من أمثال ابن القطان وعبد الواحد المراكشي ، تكشف لنا جوانب أخرى تزيد شخصية هذا الرجل تعقيداً وغموضاً .

وهذا التعقيد يكتنف أيضاً كتاباته التي كانت أساساً للتفكير الديني في الحركة الموحدية ، فإذا قرأنا كتابه المسمى « أعز ما يطلب » - وهو أحسن ما كتب ، وعنوانه مشتق من أول عبارة فيه ، وتتلخص في أن أعز ما يطلب هو العلم بالدين وأصوله وشريعته وأحكامه - وجدنا في هذا الخطاب خليطاً من آراء أهل السنة وأفكار غلاة الشيعة ، الذين يقولون بعصمة الإمام وضرورة طاعته طاعة كاملة وتنفيذ كل ما يأمر به دون مساءلة ، وفيه كذلك أفكار صوفية متطرفة لا يقبلها فقهاء أهل السنة والجماعة ، وكلامه كله بعد ذلك فيه غموض متعمد وتكلف لأساليب الكهان وأهل السحر ، مما لا زال إلى الآن يحيرنا في أمر عقيدة ابن تومرت ومذهبه في الفقه وتفكيره الديني .

تبدأ معلوماتنا الدقيقة بعض الشيء عن حياة محمد بن تومرت أثناء عودته

من المشرق ، ويرويها لنا خادمه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق وابن القطان في كتابه « نظم الجمان » وعبد الواحد المراكشي في كتابه المسمى « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وهذه المعلومات في مجموعها حكايات تدور كلها حول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تصدى للقيام بها ، ومع أننا لانستطيع التسليم بمعظمها ، إلا أنها تعطينا الصورة التي دخل بها هذا الرجل التاريخ ، وهي صورة فقيه بسيط أمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهي بداية تتفق تماماً مع خطته التي رسمها لنفسه ، وهي اجتذاب الأنظار نحو نفسه والظهور بمظهر المصلح الديني الثائر على ما يقع في هذا المجتمع من مخالفات للدين .

عندما يصل محمد بن تومرت إلى تلمسان يلتقي بعبد المؤمن بن علي من قبيلة كومية الصغيرة التي يقال إنها زناتية ، ولكنها تدخل التاريخ على أنها قبيلة مضمودية ، ومن ذلك الحين يرتبط الرجلان برباط صداقة وعمل فيصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ورئيس جماعته ، وكان رجال هذه الجماعة قد أصبحوا نقرأ غفيراً يسيرون حوله وينتقلون معه من مكان لمكان .

من تلمسان سار ركب الفقيه من السوس إلى وجدة ثم فاس ، وهنا يأمر تلاميذه بتحطيم ما يجدون من أدوات الموسيقى ، ففعلوا ذلك ، فأمر عامل فاس بإخراجهم من البلد ، فذهبوا إلى مراكش ، وقد كثر جمع محمد بن تومرت وانتشر صيته كولي من أولياء الله وفقيه عالم كبير ، لا يتصدى له فقيه إلا أفحمه ، فيما يقول الذين كتبوا عنه . وكان يهتم اهتماماً شديداً بإظهار علمه الواسع وجهل الفقهاء الذين يحاولون الاعتراض على ما كان يتظاهر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

انتشر صيت ذلك الرجل في مراكش وأصبح حديثه على كل لسان ، وهنا نسمع أنه هاجم ما كان يسميه بتجسيم المرابطين ، والتجسيم معناه إعطاء الله تعالى صورة مادية أو ملموسة ، كالقول بأن له سبحانه وتعالى وجهاً ويدين وعينين ، أو أن له صوتاً يسمع وما إلى ذلك . وما كان المرابطون يقولون بذلك لأنهم كانوا جماعة سنية مجاهدة تعمل ولا تتكلم أو تكتب ، فلم يكن لأفرادها رأي خاص في أي ركن من أركان الإسلام ، ولكن كان في الفقهاء في المغرب وغيره

عدد كبير من أهل الظاهر الذين يقولون بأنه ما دام القرآن يقول ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى إن يد الله مع الجماعة فلا بد من أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها ، فلا ينبغي أن نقول : إن يد الله سبحانه لا بد أن تكون كأيدينا ، فقد يكون المراد بها شيئاً آخر ، ولكننا لا يجوز لنا أن نتناول تأويل كلام الله بحسب ما يتراءى لنا .

كان نقد ابن تومرت للمرابطين في مجموعه على غير حق ، ولكنه كان رجلاً جريئاً لا يخاف السلطة أو رجالها . فمضى يقول كلاماً يرمى من ورائه إلى إثارة غضب رجال الدولة ، فيتعرضون له بالحبس والطرده من المدن ، فيزداد صيته ويكثر جمعه ، لأن الناس في تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص ويسرهم أن يجدوا إنساناً يتحدى الحكومة ورجالها ، سواء أكان على حق أم باطل ، لأن الفكرة العامة كانت « أن رجال الدولة دائماً على باطل » ومن ثم فكل ناقد لهم يكون على صواب .

ابن تومرت ينشئ جماعة الموحدين في تينملل :

وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة من الاتباع المخلصين ، انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلس قريب من منابع وادي نفيس ، الذي يجري جنوبى نهر تانسيفت ، هذا الموضع يسمى « تينملل أو تينمال » . قرب هذا الموضع أقام محمد بن تومرت سوراً حول المكان الذي أراد أن يجعله مركز أعماله ، هذا السور يسمى بالبربرية (أغمات) . وكان يقع عند سفح جبل ، وسفح الجبل يسمى بالبربرية (ايجلز أو ايجلس) . ومن هذا الموضع الحصين أخذ ابن تومرت يناوش النواحي القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين .

في نفس الوقت أخذ يرتب أنصاره طبقات بحسب إخلاصهم له ، وما سماه سابقة انضمامهم إلى دعوته . هنا نجد محمد بن تومرت يحاول أن يسير في خطى الرسول ﷺ ، فيقول إن تينملل هي دار هجرته . ثم يقسم أصحابه إلى طائفتين كانهم المهاجرون والأنصار من الصحابة ، وصحابة محمد بن تومرت يسمون أهل عشرة أو « أيت عشرة » والأنصار يسمون « أيت خمسين » ، وتلى هاتين

الطبقتين طبقة « المستدركين » بعد التمييز ، أى الذين عُذِّلَتْ مراتبهم بعد الفحص والاختيار . وابن تومرت يظهر هنا ملكة تنظيمية كبرى ، ويقبض بيد من حديد على أنصاره فيعطى « أيت عشرة » سلطاناً كبيراً ويحكمهم فى الناس . ولما كان أفراد « أيت خمسين » كلهم من رؤساء القبائل ، فإنه يسيطر بواسطتهم على قبائلهم ، وهؤلاء جميعاً بالإضافة إلى المستدركين يعملون عيوناً له بعضهم على بعض ، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما يجعل هذا الرجل مطلعاً على كل شئ ، على ظواهر الأمور وبواطنها . وهذا بدوره يلقى له رهبة شديدة فى النفوس ، ولهذا نرى أصحابه يخفون أوامرهم مهما بلغت من الصعوبة أو القسوة خوفاً من العقاب . وهكذا نجد هذا الرجل يصبح سيداً مطاعاً ومرهوباً فى جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً ، وتخاف منه خوفاً شديداً . حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه فيسارع إلى تنفيذ الأمر دون تردد .

وهذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها محمد بن تومرت جعلته يتخذ لقب الإمام المهدي المعصوم ، أى الرجل الذى اختاره الله لإصلاح حال الدنيا وإقامة ميزان العدل فى الأرض .

بعد ذلك نجد محمد بن تومرت يستخدم أحد أتباعه فى القيام بعملية تصفية جسدية بشعة ، يقضى فيها على كل من يشك فى ولائهم أو فى تصديقهم بأنه المهدي المعصوم حقاً ، فيرتب معه خدعة تسمى « بالتمييز » ، أى تمييز الصالحين من غير الصالحين ، ومصير غير الصالحين هو القتل الناجز على أيدي رجال قبائلهم ، فمات فى هذا التمييز المخيف ألوف من الأبرياء .. وأحسن ابن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له تماماً ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة فى تحقيق حلمه السياسى الكبير .

ففى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتصدى القوة المرابطية ، فأرسل نحو مراكش جيشاً عدته ٤٠.٠٠٠ من الموحدين ، على رأسه عبد المؤمن بن علي . وقد أخطأ ابن تومرت التقدير ، لأن هذا الجيش الموحدى لقي هزيمة شديدة على يد المرابطين ، وهلك فى هذه المعركة نفر كبير من كبار الموحدين

وأيت عشرة ، وذلك في معركة دامية تسمى « يوم البحيرة » ، وكان من بين الهالكين الشيخ أبو محمد البشير ، وهو الذي دبر معه ابن تومرت مذبحة التمييز ، ولم يأسف ابن تومرت على أحد ممن مات مادام عبد المؤمن بن علي قد نجا ! وفي هذه المعركة جرح أبو حفص عمر اينتى أو الهنتاتي وكان ثاني شخصية بين أتباع محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن بن علي . وقد مات أبو حفص عمر اينتى بعد ذلك بسنوات ، ولكن رجال الحركة قالوا إنه مات من أثر الجرح الذي أصابه في يوم البحيرة ولقبوه بالشهيد ، وقد ارتفعت مكانته بين جماعة الموحدين خاصة وقد وقف إلى جانب عبد المؤمن بن علي .

وسيزل أبو حفص عمر الهنتاتي الشخص الثاني للدولة الموحدية ، خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة إذ ذاك ، ويرث أولاده مكانته . وقد لقب أبو حفص « بالشيخ » ، وأهل بيته بالأشياخ ، وهم يلون في طبقات الموحدين طبقة السادة والمفرد سيد ، وهم آل بيت عبد المؤمن بن علي ، وتلى بيوت السادة والأشياخ بيوت بقية آل عشرة أي « أيت عشرة » ثم « الطلبة » . وينطق اللفظ في المصطلح المغربي « الطُلُبة » بضم الطاء وسكون اللام ، ويراد بهم الطلبة الذين يدرسون فقه ابن تومرت ، ويحفظون كتبه ويعلمونها للناس ، ومن بينهم كان يختار معظم موظفي الدولة ومساعدى العمال في الولايات . وكان يوجد منهم نفر في كل مدينة وكل قبيلة موحدية مهمتهم مراقبة أعمال الناس ، والمحافظة على عقيدتهم في المهدى المعصوم ، على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقيدى للدولة الموحدية كلها .

بعد هزيمة « البحيرة » بقليل يموت محمد بن تومرت في ١٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ / ٢٦ أغسطس ١١٣٠م ، بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن علي وقد مات فقيراً محروماً ووحيداً أيضاً ، لأن عبد المؤمن بن علي وأبا حفص عمر وبقية قادة الحركة أخفوا خبر موته ثلاث سنوات ، فلم يعلنوه إلا سنة ٥٢٧هـ . بعد أن تأكدوا أن السلطة كلها قد انتقلت إليهم برياسة عبد المؤمن بن علي وأبي حفص عمر اينتى .

نستطيع أن نقول : إن هذا الرجل لم يَجُنْ من جهوده ونشاطه غير المتعاب ،

وإذا صدقنا أن تاريخ ميلاده كان سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فإن عمره كان تسعاً وثلاثين سنة هجرية عند وفاته ، وهي سن باكرة جداً ، فإذا ذكرنا العمل الضخم الذي قام به هذا الرجل منذ عودته من المشرق إلى وفاته ، تبين أنه كان رجلاً فذاً حقاً . وأنه كان من صنّاع التاريخ وقادة الرجال رغم كل ما نأخذه عليه من أعمال العنف والقتل ، ولكنه كما قلنا كان رجل سياسة ، والسياسة في تلك العصور كانت لا تستنكر أعمال العنف والقتل والحيلة والكذب والخداع والظلم . ولابد أن نشك في تاريخ ميلاده رغم ذلك ، لأنه عندما لقي عبد المؤمن بن علي ، عند تلمسان في حدود ٥٠٧ هـ / ١١١٢ م كان عبد المؤمن شاباً تخطى العشرين . أي أنه ولد حوالي ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ وكان محمد بن تومرت يكبره بنحو ٢٠ سنة على الأقل ، إذ أنه تبناه .

وقد ارتكب محمد بن تومرت كثيراً من الآثام ليصل إلى النتيجة التي وصل إليها في ذلك الوقت القصير نسبياً ، فقد كان لا يبالي أن يكذب ويزيف الأحاديث النبوية ويخدع الناس عن قصد ، وكان قليل الاكتراث للدماء فعرّض الكثيرين للقتل دون مبرر ، ولم يأسف بعد ذلك على موتهم ، وكان يستغل ثقة العوام فيه وظنهم أنه ولي من أولياء الله أو إمام معصوم كما قال ، فكلّفهم تضحيات كثيرة دون أن تعود عليهم من ذلك أي فائدة .

ولا شك أن محمد بن تومرت كان يعرف أن المرابطين ليسوا مُجسّمين ولا مقصرين في حقوق الله والدين ، وكان يرى جهادهم في الأندلس واجتهادهم في الدفاع عن حوزة الإسلام ، فما الذي دفعه إلى القيام بهذه الحركة التي قضت على دولة مجاهدة وهي في عنفوان كفاحها ضد أعداء الإسلام ؟ .

لا نستطيع الإجابة على هذا السؤال بصورة مؤكدة ، لأن معلوماتنا عن الرجل قليلة ، أو قل : إننا لا نثق كثيراً في المعلومات التي لدينا ، لأن معظمها كتب في أيام الموحدين ، ولكننا نقول إن هذا الرجل كان مصمودياً في أعماق نفسه ، وأن حافزه إلى العمل والحركة كان الرغبة في تجميع المصامدة والانتفاع بقوتهم لإنشاء دولة مصمودية ، كما عمل عبد الله بن ياسين على إنشاء دولة مرابطية من قبائل صنهاجة الصحراء ، وهذا هو السبب في تحمس المصامدة له ، فلننا نجد أنه منذ

أن استقر في تينملل ثواقدت عليه وفود قبائل المصامدة .

وكان لقب الموحدين الذي أطلقه على أتباعه غير ذي معنى ، لأن كل المسلمين موحدون ولم يكن المرابطون أقل توحيداً من الموحدين وإنما هي تسمية أراد محمد بن تومرت بها أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى إحياء عقيدة التوحيد الخالصة .

ونلاحظ كذلك أن الرجل كان يتمتع بالمزايا التي نجدها عند كبار الدعاة ومحركي الجماعات مثل كبار دعاة الشيعة ومهدي السودان والسنوسى وغيرهم ممن يوهبون قدرة غير عادية ، على إقناع الناس بأن الله اختارهم لأمر عظيم ، وتوجيههم الوجهة التي يريدون . وكان ابن تومرت دون شك خارق الذكاء واسع النشاط شديد المكر ، ولكننا لا نلاحظ في كتاباته ما يبرر القول بأنه كان على علم غزير . وعلى أى حال فقد شقى هذا الرجل وأرهق نفسه ليورث ثمرة جهده لصاحبه عبد المؤمن بن علي . فقد عاش متقشفاً متقللاً من الدنيا ، وكان إلى جانب ذلك حصوراً ، فلم يتزوج أو ينجب .

عبد المؤمن بن علي ، قيام الدولة الموحدية

٥٢٤ — ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ — ١١٦٣ م :

لم يوفق ابن تومرت إلى إنشاء مذهب ديني أو سياسى معين واضح المعالم ، لأن تفكيره الدينى كان مشوشاً متناقضاً لا يقوم على علم غزير ، وإنما هو علم سطحي غير متناسق ، احتطبه الرجل دون اهتمام كبير بأساسه العلمى ، ليستعمله كوسيلة من وسائل تحقيق مطامعه السياسية . وينبغى أن ننظر إلى محمد بن تومرت دائماً على أنه رجل سياسة لا رجل دين ، فكل تفكير هذا الرجل سياسى وإن أخذ ظاهراً دينياً ، وحتى مبدأ التوحيد الذى يقال إن الحركة كلها قامت عليه ، لا نجد لابن تومرت فيه رأياً جديداً يجعل منه مذهباً محدد المعالم . بل إن ادعاء المهدي وقوله إنه المهدي الذى يأتى آخر الزمان ، يتنافى آخر الأمر مع التوحيد الحق ، فإن الذين يقولون بإمكانية مجيء « المهدي » ، يفترضون أن الله

سبحانه وتعالى يهبه من لدنه قوة لعمل المعجزات والكرامات ومعرفة الغيب
ومعرفة ما في الصدور ، وهذه كلها في نظر أهل التوحيد الصحيح صفات
لا يتصف بها غير الخالق سبحانه .

فالقول بالتوحيد وبالمهدية وبعصمة الإمام واتهام المرابطين بالتجسيم
والمروق عن الدين وجواز قتالهم وتكوين هيئات أهل آيت عشرة وآيت خمسين
والمستدركين بعد التمييز والطلبية ، كل هذه تكوينات سياسية أو حزبية إذا شئت ،
الغرض منها بناء قوة سياسية تتركز في يد المهدي ومن يرشحه للخلافة بعده .
الصورة النهائية التي أخذتها هذه الحركة الموحدية صورة دولة قبائلية
مصمودية . وهذه الدولة هي دولة الموحدين التي قامت على اكتاف قبائل
مصمودية .

أهم تلك القبائل المصمودية التي قامت على اكتافها قوة الموحدين « هنتانة
وهرغة وهزرجة وهزميرة ومسكورة وهيلانة » . ويلاحظ أن أسماء أكثرها تبدأ
بحرف الهاء ؛ والسبب في ذلك أن هذه الأسماء مُعَرَّبَةٌ وهي في الأصل تبدأ بهمة
يعقبها حرف ساكن مثل (آيت أرغان) التي عُرِّبَتْ على (هرغة) (وايت
الان أو ايلان) التي عُرِّبَتْ على (هيلانة) ، وآيت اينتى التي عُرِّبَتْ على هنتانة .

وعبد المؤمن بن علي الكومي ينتسب إلى قبيلة كومية ، وهي ليست من قبائل
المصامدة الكبرى ، بل هي فرع زناتى في الغالب كان يسكن غرب تلمسان ، وقد
ولد في قرية هناك تسمى « تاجرا » ، ولقى محمد بن تومرت أثناء عودة هذا الرجل
من المشرق ، وقد تعلق ابن تومرت بعبد المؤمن من أول لقائه له ، ورأى فيه
خليفته فعلم على دفعه إلى الأمام بصورة مستمرة ، وابن تومرت نفسه كان
حضوراً فهو لم يتجرب أولاً ، ومعنى ذلك أنه كان يشعر أنه يمهد الأمر لصاحبه
هذا ، وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ ، لأن عبد المؤمن نفسه لا يعد من
منشئ الدول ولا كانت له المواهب اللازمة لذلك ، وهو مدين في كل شيء
لصاحبه هذا ، فهو الذي أعده للرياسة وعلمه ودربه ، وأخذ أتباعه بطاعته مما
مهد له الأمر ، وفضله يتجلى في أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب ، فعرف
كيف ينهض بعبء الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الأمام .

وفي أواخر أيام ابن تومرت حاول الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي أن يستولوا على مراكش ، ولكنهم ارتدوا عنها بخسارة كبيرة . وكان الذي هزمهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين .

ويقال : إن اسم الموحدين أطلقه ابن تومرت على جماعته أثناء الاستعداد لهذه الغارة ، إذ أنه كان يحسب أنهم سيستطيعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة ، فسماهم الموحدين بصورة رسمية زيادة في حماسهم وكذلك سمى جيشهم بجيش المؤمنين ، وسمى عبد المؤمن بن علي بأمير المؤمنين .

احتاج عبد المؤمن إلى وقت طويل ليثبت سلطانه ، فإن ابن تومرت توفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، وأعلنت وفاته سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، وقد قضى هذه السنوات الثلاث يجمع الصفوف وينظم الحركة بعد موت صاحبها ، ولكننا لا نسمع عن قيامه بعمل كبير إلا في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٣٩ م عندما بدأ التصادم العسكري مرة أخرى بينه وبين تاشفين بن علي ، خليفة علي بن يوسف ، وقد شغل عبد المؤمن نفسه خلال هذه السنوات بالاستيلاء على حصون مرابطية في الطريق إلى مراكش .

بعد ذلك نجد عبد المؤمن يتحاشى مقابلة المرابطين في مراكز سلطانهم في سهل مراكش وما يليه شمالاً ، فيسير بجيوشه شرقي جبال درن ويخترق ممر تازا ، ويصعد شمالاً إلى تلمسان ونواحيها ، وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة في المغرب الأوسط . وفي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٣ م توفي علي بن يوسف وخلفه ابنه تاشفين ، فتشجع عبد المؤمن ومن معه من الموحدين على مهاجمة المرابطين ، خاصة وأن تاشفين بن علي كان شاباً قليل التجربة وإن كان شديد الحماس ، وقد مات هذا الشاب صريعاً وهو يحارب الموحدين ويدفعهم عن وهران في يوم ١٧ رمضان ٥٣٩ هـ / فبراير ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران وتلمسان ، وأخذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالى عليها .

وقد أبدى المرابطون بسالة كبيرة في الدفاع عما بأيديهم من البلاد رغم الظروف العصيبة التي أحاطت بهم ، فلم يستطع عبد المؤمن بن علي الاستيلاء

على فاس إلا بعد حرب طويلة وحصار شديد داماً تسعة أشهر في ذي القعدة ٥٤٠هـ / أبريل ١١٤٦م . وفي محرم ٥٤١هـ / يونيو ١١٤٦م دخل مراكش وقتل إسحاق بن علي بن تاشفين ونفراً من أمراء المرابطين . وبذلك انتهت الدولة المرابطية وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

تقدير المرابطين :

مهما تصورنا دوافع ابن تومرت للقيام على المرابطين وشن هذه الحرب القاسية عليهم ، فإننا لا بد أن نسلم بأنها حرب لم تكن لها ضرورة . فإن المرابطين لم يكونوا دولة مُلك وسلطان واستمتاع وتدهور سياسي واجتماعي واقتصادي كما هو الحال مع الدول التي تقوم عليها الثورات ، بل كانت دولة جهاد وحرب وإنقاذ ، وعندما قام محمد بن تومرت بدعوته ضد المرابطين كان أميرهم علي بن يوسف ، وهو من خيرة أمراء الإسلام ، فكان ذلك مزيداً من الضعف للإسلام والدولة .

لقد حكم المرابطون المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط نحو قرن من الزمن فقد دخلوا أغمات سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م وسقطت مراكش في يد الموحدين سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ويمكننا اعتبار هاتين السنتين بداية ونهاية دولة المرابطين في المغرب ، أما الأندلس فقد دخلوه سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، فكانتهم حكموا ما تيسر لهم منه ٦٠ سنة .

فأما في المغرب فإن المرابطين هم الذين صنعوا وحدة المغرب الأقصى على النحو الذي ثبتت به في التاريخ ، فقد ظل المغرب من ذلك الحين إلى الآن يشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادي درعة ، وامتد شرقاً من المحيط الأطلسي إلى شريط من الأرض شرقي نهر المولوية ، أما ما يلي هذه الحدود جنوباً وشرقاً ، فقد دخلت في المغرب الأقصى حيناً وخارجت عن سلطانه حيناً آخر ، ففي العصر المرابطي مثلاً كان الجناح الجنوبي من المرابطين يعمل بنشاط في أفريقية الغربية المدارية ، ولكنه كان قد انفصل عن كتلة المرابطين العاملة في الشمال ، وأصبح دولة أخرى ذات طابع آخر واتجاه تاريخي آخر ، فقد كان هذا الجناح

أفريقياً في طبيعته وروحه ، وإن كان إسلامياً مغربياً في طراز حضارته ، ولم يعد المغرب إلى الامتداد جنوباً إلا أيام سلاطين الشرفاء السعديين ، ولكن ذلك كان اتساعاً سياسياً وليس تغييراً للحدود التاريخية للمغرب ، ونقصد بذلك بلاد السنغال وما يليها جنوباً .

وحد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً ، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وغمارية وما إليها ، وقطعوا دابر المذهب الإباضي والشيعي فيما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة ، وإلى المرابطين يرجع الفضل في الوحدة العقائدية السنية التي تميز المغرب الأقصى .

وأتى المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً ، فقد كان رافع لواء حركة التصحيح الديني فيه فقيه مغربي استعرب من زمن طويل هو عبد الله بن ياسين ، وقد قام بحركته الدينية بصفته فقيهاً عربياً مصلحاً يعمل على نشر الإسلام السني والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة . وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية على يد يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت ظل الاتجاه الثقافي العربي للحركة كلها مستمراً ، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين . فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز في هذه الدولة ، وفي بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء ، وهم دائماً عامل تعريب وثقافة عربية ، صورة سياسية . وقد وجه نقد كثير إلى المرابطين ، وخاصة إلى علي بن يوسف بسبب سلطان الفقهاء في الدولة ، ولكن هذا الاتهام مفتعل ومبالغ فيه ، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول . ولكن الذي لا شك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبي واسع المدى في أنحاء دولة المرابطين ، فساروا خطوة واسعة بما بدأه الأدارسة في هذا الاتجاه ، وقد كان لأمراء المرابطين اهتمام كبير باللغة والأدب والفنر خاصة . ويعتبر العصر المرابطي العصر الذهبي للفنر الفني في المغرب والأندلس . ففي ذلك العصر ظهر قطا حل الناضرين وكتاب الرسائل ، من أمثال أبي بكر بن الجيد ، وأبي محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي بكر ابن القبطورية . وقد أكثر المرابطون من إنشاء المساجد في بلادهم حتى قيل إن يوسف بن تاشفين خطب له على ٦٠٠ منبر ، والمساجد كما تعلم مراكز للعلم العربي الإسلامي .

أما في الأندلس فقد سبق أن ذكرنا كيف أنهم أوقفوا التقدم النصراني بانتصارهم في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التوسعية التي كان يقودها الفونسو السادس ، ملك قشتالة وأرغون ، ثم كسروا كذلك الموجة التي كان يقودها الفونسو الأول الملقب « بالمحارب » ملك أرغون ، بانتصارهم عليه في معركة « أفراغة » بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة (٥٢٨هـ / ١١٣٤م) ولم يكن الفونسو الأول المحارب أقل خطراً من الفونسو السادس ، فكان عمل المرابطين بذلك عملاً حاسماً امتد أثره قروناً بعد ذلك ، أضف إلى ذلك أن انتصار المرابطين في مواقع أخرى مثل أقليمش وتهديدهم المستمر لطليطلة ثم استعادتهم بلنسية في شرق الأندلس قد أعطى الحركة المرابطية قوة كبرى .

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الإسلام في الأندلس ، بعد أن أوشكت على الانهيار قبيل دخولهم ، وإذا كان عمر الإسلام في الأندلس قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فإن الفضل الأكبر يرجع إلى هذه الجماعة الباسلة من المجاهدين .

وخلال هذه القرون التي أضافها المرابطون إلى عمر الإسلام الأندلسي ، كتب أهل الأندلس صفحات زاهرة أخرى في تاريخ الحضارة .

حكم عبد المؤمن بن علي :

بعد هذه الوقفة القصيرة عند مكان المرابطين في التاريخ نعود إلى استتمام ما استطردنا عنه من أعمال عبد المؤمن بن علي أثناء حكمه .

بعد سقوط مراكش في يد الموحدين وصل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادي درعة ، إذ أن المدن والقبائل في المغرب كله ، حتى طنجة وسبتة في الشمال ، سارعت إلى الدخول في طاعة الدولة الجديدة .

وكان نفر من رؤساء الأندلس قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين في المغرب ، فثاروا بهم وطردها وأعلنوا أنفسهم حكاماً مستبدين في نواحيهم ، وعاد الأندلس مرة أخرى موزعاً بين أمراء محليين ، ولهذا تسمى

فكرة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين « بعصر الطوائف الثاني » ويبدأ من سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وهي السنة التي قتل فيها تاشفين بن علي ثالث أمراء الموحدين عند وهران وتنتهي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وهي السنة التي تمكن الموحدون فيها من استعادة المرية بعد سقوطها في يد النصاري ، وباستعادة المرية توحد ما بقي من الأندلس مرة أخرى تحت راية الموحدين .

خلال هذه الفترة ظهر من طلاب السلطان في الأندلس نفر كبير ، صفاتهم الأساسية الجشع وقلة الإيمان وقصر النظر ، وقد دخل بعضهم في طاعة الموحدين دون حرب ، ولكن بعضهم الآخر لم يستسلم في سهولة . وقد وجه الموحدون همهم ناحية غرب الأندلس لأول نزولهم الأندلس سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وكان غرب الأندلس موضع اهتمامهم طوال مدة حكمهم فيه كلها . فقد كانت أشبيلية هي عاصمتهم هناك ، وفي غرب الأندلس قاموا بمعاركهم الكبرى ولم يتسع أمامهم الوقت للاهتمام بشرق الأندلس ووسطه ، ولكن أعمالهم العسكرية الباهرة في غرب الأندلس أثبتت جبهة الإسلام فيما بقي لهم في شبه الجزيرة كله نحو قرن من الزمان .

وكان أسوأ ما نجم عن أعمال أمراء طوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية في يد الفونسو السابع بن ريموندو . المسمى عند مؤرخي المسلمين « بالسليطين » ، وقد سموه بالسليطين لأنه تولى العرش صغيراً بعد وفاة أمه الأميرة أراكة ابنة الفونسو السادس . وقد تولى العرش سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م وتوفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وكان استيلائه على المرية في نفس السنة ، فصعد الموحدون لاسترجاعها . وقد حاول الفونسو السابع السليطين ، الدفاع عنها قدر ما استطاع . وكان يعاونه في حرب الموحدين زعيم أندلسي ممن كان لهم أثر غير محمود في أحداث هذه الفترة ، وهو محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان يقود الموحدين عند هجومهم على المرية السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي ولاه أبوه أشبيلية ، ولما رأى ابن مردنيش استيصال المسلمين في استعادة المرية خجل من نفسه وانصرف عن حليفه النصرائي ، ووجد الفونسو السابع نفسه وحده أمام المسلمين فأسلم البلدة وولى هارباً ، ثم لم يلبث أن توفي من أثر ما لقي في هذا القتال ، وهذا ثاني ملك من ملوك إسبانيا

النصرانية يقضى عليه المسلمون في حربهم الطويلة للعد الصليبي النصراني في إسبانيا ، والأول هو القونسو السادس جده . هذا خلا الأمير سانشو ابن هذا الأخير الذى قتل في معركة أڤليش . وكانت استعادة الموحدين لألمرية في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، ويعتبر ذلك بداية لحكم الموحدين في الأندلس .

وباستعادة الموحدين ألمرية توحدت بقية الأندلس الإسلامى تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن ابنه أباسعيد عثمان والياً عليه كله . وفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق الذى سمي « بجبل الفتح » ، وكان الذى بناه المهندس الحاج « يعيش » وأشرف على البناء السيد أبو سعيد عثمان ، وما زالت قطعة من هذا البناء باقية إلى اليوم في جبل طارق وتعرف باسم الحصن العربى El Castillo Arabe ثم عبر عبد المؤمن بن على إلى الأندلس وكان له في جبل الفتح استقبال مشهود ، وقد تمت له السيطرة على الأندلس سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م .

وقد تأخر وصول عبد المؤمن إلى الأندلس لأن أحوال أفريقية والمغرب الأوسط شغلته عقب دخوله مراكش ، فقد ترمى إلى سمعه أن النورمان قد استولوا على المهديّة على ساحل أفريقية من أيدي أمراء بنى زيرى الصنهاجيين ، وكان أمرهم قد ضعف عقب دخول عرب بنى هلال إلى أفريقية ، وتخريبهم مدائنهم خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، فسار عبد المؤمن بن على بجيش موحدى ضخم استولى على تلمسان وبقية المغرب الأوسط وكل مدائنه ، ثم دخل أفريقية واحتل بجاية ثم تونس والقيروان . ثم قصد إلى المهديّة ونازل النورمان وما زال بهم حتى استرجعها من أيديهم . وكان ذلك سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م التى تعرف في تاريخ المغرب « بسنة الأخماس » ، وهى سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسى إلى قفصة تحت لواء واحد ، ولم تلبث طرابلس أن دخلت في طاعتهم . ومعنى ذلك أن الخلافة الموحديّة شملت المغرب العربى كله ، وهو حدث حاسم يكفى وحده لتخليد ذكرى عبد المؤمن بن على ، فكيف لو عرفنا أنه في نفس السنة عبر إلى الأندلس ، وضم ما بقى منه إلى دولته ، فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لوائه .

وفي سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م تمرد الهلاليون في تونس وانضموا إلى شائر

يسمى عبد الله بن خراسان وهزموا السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، فقرر عبد المؤمن أن يضع حداً لعصيان أولئك العرب ، فخرج في سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م في جيش جرار يقال إنه أكبر جيش موحدى قاده عبد المؤمن ، وتمكن من احتلال تونس ، ثم تقدم نحو المهدية وكانت قد سقطت في أيدي النورمان فحاصروهم حتى سلمت المدينة في سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ، وكانت بعض بطون الهلالية مثل بنى كامل وبنى رياح وبنى الورد ، قد استبدوا ببعض بلاد تونس مثل قفصة وقابس وتصالخوا مع النورمان ، فأرسل عبد المؤمن ابنه عبد الله في حملات إلى هذه النواحي فأدخلتها في دولته ، وخرج هو في حملات أخرى . ولم تحل سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكن لسلطان الموحدين فيها ، وقد تم له ذلك في نفس السنة ، وبذلك تكون هذه السنة تاريخاً فاصلاً في التاريخ المغربى كله ، فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط في دولة واحدة يحكمها خليفة واحد في مراكش . وفى ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية اقوى الدول الإسلامية وأوسعها سلطاناً ، فإن الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف ، ولم تكن الدولة الأيوبية قد قامت بعد ، وجدير بالذكر أن الاحتلال الصليبي لأراضى الشام كان إذ ذاك في عتفوانه .

وفى أواخر أيام عبد المؤمن تمرد فى الأندلس ثائر يسمى إبراهيم بن همشك ، وعاونته فى ذلك صهره محمد بن سعد بن مردنيش ونفر من رؤساء الجند فى الأندلس ، فعبر عبد المؤمن إلى الأندلس وقضى على حركات التمرد وثبت أقدام دولته هناك ، ثم عاد إلى المغرب ، وعندما وصل (سلا) نزل به المرض ، ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحيبه فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ / يونية ١١٦٣م .

حكم عبد المؤمن بن علي أربعاً وثلاثين سنة تعتبر فاتحة عصور الازدهار فى التاريخ المغربى . لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية ضخمة ، فعرف كيف يستخدمها فى إنشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، فقد امتدت من خط الواديانة فى الأندلس إلى وادى

درعة في جنوب المغرب ، وترامت من المحيط إلى آحواز طرابلس ، وقد أبدى الرجل نشاطاً واسعاً وذكاء كبيراً في إنشاء هذه الدولة . حقاً إن الرجال الذين تولى قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامي وأقواها وأشدّها إخلاصاً للدين في ذلك الحين ، ولكنها كانت أيضاً تحتاج إلى يد قوية لضبطها والسيطرة عليها وتوجيهها التوجيه الصحيح . وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه . وأهم هذه المواهب أنه عرف كيف يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت ، من أمثال أبي حفص عمر أينتى المعروف بالهنتاتى ، وأبى يحيى أبى بكر بن ايجيت ، وأبى إبراهيم إسماعيل الهزرجى المعروف بابيج ، وعمر بن عبد الله المعروف بعمر أزناج وغيرهم وكانوا جميعاً رجالاً ذوي ملكات وإخلاص ، وقد اعتمد عليهم وعلى ابنائهم من بعدهم محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على وخلفائه ، وإليهم يرجع جانب كبير من الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع . وهؤلاء كانوا كبار مشيخة الموحدين أى هيئة قيادتهم ، وقد تألفت المشيخة من رجال آيت عشرة وآيت خمسين وخلفائهم ، وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة . وعندما ضعف أمر المشيخة بدأت الدولة كلها في الضعف .

خلفاء عبد المؤمن بن على :

أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م :

لم يكن يوسف بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم بحسب ما رأى رجال مشيخة الموحدين ، وكان في حدود الثلاثين عندما تولى الأمر ، وكان قد قضى سنوات طويلة في الأندلس عاملاً على أشبيلية لأبيه . فتدرب على قيادة الأمور ، وكان ذا ثقافة واسعة وإيمان متين مع أن ملكاته السياسية لم تكن بالمستوى الذى كانت تتطلبه ظروف دولة واسعة كدولة الموحدين ، إلا أنه بذل أقصى جهده في القيام بأمرها وساس الأمور في حزم واجتهاد ، فوفق في المحافظة على التراث الضخم الذى صار إليه رغم أنه كان كثير العلل والأمراض .

في دولة واسعة كدولة الموحدين ، تتكون من أقاليم شاسعة لم يسبق دخولها تحت لواء واحد من قبل مثل الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط

وأفريقية ، تكون مهمة الحاكم الأولى هي المحافظة على الهدوء والنظام والعدل في نواحي البلاد ، ولكن ذلك كان أمراً عسيراً جداً في ذلك العصر ، ومن هنا لا تخلو سنة من سنوات التاريخ الموحدى من قيام نائر في ناحية من نواحي الدولة ، وكان لابد من الإسراع للقضاء على الفتنة وإلا اضطرب حبل الأمن في الدولة كلها .

قامت على يوسف ثورات كثيرة في أفريقية ، وكان قد وفد على طرابلس جماعة من الأيوبيين مع جندهم ، بقصد تمهيد هذه الناحية لصالح الدين ، فتحالف معهم نفر من عرب بني هلال ، وأصبح هذا الطرف القصى لدولة الموحدى مصدرأ للقلق والاضطرابات ، وقد بذل يوسف جهداً كبيراً في القضاء على الفتنة التى قامت هناك .

وقامت كذلك فتن كثيرة في الأندلس ، أثارها محمد بن سعد بن مردانيش كبير ثوار شرق الأندلس ، وقد تولى حربه السيدان أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن ، أى من إخوة يوسف ، وقد تمكنوا من إيقاف خطر ابن مردانيش في سنة ٥٦١هـ / ١١٦٦ م .

وتبين ليوسف بن عبد المؤمن أن الأندلس في حاجة إلى عمل حاسم يقضى على خطر ابن مردانيش ويوقف تقدم النصارى ، وكان يتولى عرش ليون وقشتالة إذ ذاك ، الملك فرناندو الثانى ، وكان يتوجس خيفة من إمارة البرتغال التى كانت تسير سيراً حثيثاً نحو القوة في ذلك الحين بقيادة أميرها ، الفونسو أنريكي Alfonso Enríque « وهو الذى يكتبه مؤرخونا » ابن الرنق « ويحرقه بعضهم إلى ابن الريق .

لهذا تحالف فرناندو الثانى مع أبى يعقوب يوسف ووعد بمساعدته ، فتمكن قواا الموحدى من القضاء على محمد بن سعد بن مردانيش صاحب مرسية وشرق الأندلس ، بعد حرب مضنية حافلة بالخسائر .

وبعد وفاة فرناندو الثانى تولى عرش ليون وقشتالة الفونسو الثامن ، وكان رجالاً تشيطاً طموحاً شديد الخوف من المسلمين ، فبدأت العلاقات تسوء بين الجانبين وخشى أبو يعقوب يوسف من التقارب بين مملكة ليون وقشتالة وإمارة

البرتغال ، فقرر القيام بحملة كبيرة على غرب الأندلس هدفها إيقاف الخطر البرتغالي خاصة .

سار الجيش الموحدى نحو شنترين Santaren أكبر قواعد غرب الأندلس إذ ذاك وكان البرتغاليون قد استولوا عليها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م . وأحس الفونسو أنريكي بقرب الخطر ، فحصد شنترين وشحنها بالمؤن والمعدات ، وأقبل الموحدون فحاصروها . هنا تلاحظ ظاهرة ستكرر كثيراً في التاريخ العسكرى للموحدين ، وهى أن جيوشهم على ضخامتها كان ينقصها النظام وتعوزها القيادة ، ولقد امتاز العصر المرابطى بعظماء القادة ، الذين عرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان ، ولكن الموحدين لم ينجبوا قادة من هذا الطراز ، والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الموحدين كانوا يصرون على أن يتولى القيادات أفراد بينهم أو أفراد بيت أبى حفص عمر الهنتاتى ، ومن سوء الحظ أن أمراء البيت الموحدى ، وكانوا يلقبون بالأشياخ ، كانت مواهبهم محدودة فى جملتهم ، ولا يكاد يمتاز من بينهم إلا عبد المؤمن بن على نفسه ، وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده أبو يوسف يعقوب ، ولهذا قلّت انتصارات الموحدين بعد عصر أبى يوسف يعقوب .

هنا فى حصار شنترين نجد هذه الظاهرة بوضوح ، فهذا الجيش الضخم الذى يقوده الخليفة بنفسه يعجز عن الاستيلاء على ذلك الحصن ، وفى وقت ما أثناء الحصار ، نجد غير الخليفة يصدر أمراً برفع الحصار والانتقال إلى مدينة أخرى . صدر هذا الأمر فجأة ودون إبلاغه إلى بقية الجنود بالطرق التى تقتضيهما النظم العسكرية ، ففوجئ الجنود بقساطيط الخليفة ورجاله ترفع على عجل فظنوا أنها هزيمة وثبادروا إلى الفرار وانتهاز العدو الفرصة فهجم على معسكر المسلمين ، وأصيب الخليفة بسهم يقال إنه كان مسموماً ، وهكذا وفى ساعات قليلة انفرط نظام هذا المعسكر الضخم ، ونزلت به خسائر فادحة ، وحُمِلَ الخليفة الجريح فى مَحْفَةٍ ، وعاد الجيش أدراجه ، وبعد ليلتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م .

وعلى أى حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً ، وفى تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة

مريضاً طريح الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار .

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً نشيطاً بذل أقصى جهده في القيام بواجبه ، وقد سار بالدولة خطوات واسعة إلى الأمام ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي .

أبو يوسف يعقوب المنصور ، الدولة الموحدية في ذروتها

٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التواجد وإقامة الدول الكبرى في العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً ، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل الدولة الموحدية ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم ، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي كله ، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من خيرة أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً ، ثم من بقية الصنهاجيين ، بل الزناتيين أيضاً ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها ، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة المظفرة ، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة ، لأنه إذا كان زعماء الأندلس قد انتابهم التدهور الخلقى والنفسي ، فإن شعب الأندلس نفسه ظل قوياً مؤمناً صامداً رغم الكوارث المتوالية .

بالإضافة إلى ذلك ، أنشأ الموحدون قوة من الحرس للخليفة من العبيد ، ممن

كانت الدولة تشترىهم من بلاد السودان ، ولهذا كانوا يسمون « عبيد المخزن » (١) أو « الدائرة » لأنهم كانوا يحيطون بفسطاط الخليفة أثناء الحروب كأنهم دائرة ، وقد كان عبيد المخزن هؤلاء أو عبيد الدائرة قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد حاربت دائماً في قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء في استماتة .

رغم هذه القوات كلها كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة ، كما نرى في جيوش العرب الأولى ، وفي جيوش صلاح الدين والمماليك والأتراك العثمانيين . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة محكمة ، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى .

ثورة بنى غانية المسوفيين :

ومن سوء الحظ أن دولة الموحدين ابتليت في أيام أبي يوسف يعقوب هذا بمشكلة بدأت صغيرة في حجمها وأهميتها أول الأمر ، ولكن عجز الإدارة الموحدية عن معالجتها بالصورة الناجعة جعل منها مشكلة ضخمة ، استنزفت من دماء الدولة وجندھا جانباً كبيراً ، وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة كلها .

تلك هي مشكلة بنى غانية المسوفيين ، وينبغي أن نقرأ اسم بنى غانية بتشديد الياء ، لأن مؤسس بيتهم ، محمد المسوفى ينسب إلى أمه وكانت من غانة ، فهي غانية ، وكانت النسبة إلى الأمهات شائعة بين المرابطين ، فهناك أبو عبد الله ابن عائشة ، وأبو بكر بن الصحرأوية ، ومحمد بن قنؤ (اسم امرأة) وهكذا لأن الرجال كانوا يتزوجون كثيراً ، فينتسب الأولاد إلى أمهاتهم تمييزاً لهم بعضهم عن بعض في البيت الواحد .

أول من نسمع به من رجال ذلك البيت ، أبو زكريا يحيى بن غانية ، الذي أقامه على بن يوسف على بعض أعمال قرطبة ، وأثبت أنه قائد ماهر ، وقد توفي أبو زكريا يحيى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .

(١) المخزن : مصطلح مغربي يراد به الدولة ، فيقال : بلاد المخزن أي البلاد التابعة للدولة .

وقد تولى أخوه محمد بن غانية الجزائر الشرقية ، وهى البليار منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين نهائياً . وعندما عبر الموحدون إلى الأندلس وأدخلوه في طاعتهم ، ظل محمد بن غانية مباحداً لهم ، ثم عمداً إلى مداراتهم ، وكان آمناً منهم ، طالما عاش محمد بن سعد بن مردنيش ، الذى كان يسيطر على شرق الأندلس ، ولكن بعد موت هذا سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ووصول الموحدين إلى بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى ، كان على بنى غانية أن يحددوا موقفهم من الدولة الجديدة ، وكان محمد بن غانية قد توفى سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م وخلفه ابنه عبد الله ثم أخو هذا إسحاق بن محمد ابن غانية ، ثم محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية ، وقد مال محمد إلى مصالحة الموحدين والدخول في طاعتهم ، ولكن إخوته الكثيرين رفضوا ذلك وخلعوه وولوا مكانه أخاه علي بن غانية ، فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين ، وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة ، خاصة وقد لجأ إليه الكثيرون من بقايا المرابطين ممن امتلأت قلوبهم حقداً على الموحدين أو خافوهم على أنفسهم .

وكان علي بن غانية رجلاً جريئاً مقداماً مغامراً ، ومن الغريب أن إقدام مسلمى عصور الانحطاط كان لا يظهر إلا إذا حاربوا إخوانهم العرب والمسلمين ، أما إذا حاربوا أعداء ملّتهم وجنسهم فهنا لا نرى إقداماً ولا بسالة .

فكر علي بن غانية في أن يخرج بأسطوله ويغير على أفريقية ، فيفتح بذلك جبهة جديدة أمام الموحدين . والحق أن تفكيره هذا كان شيطانياً ، لأن أفريقية كانت بعيدة جداً عن قلب الدولة الموحدية ، ثم إن نواحيها كانت عامرة بالعرب الهلالية ، المستعدين دائماً للاشتراك في أى عمل يفتح لهم أبواب السلب والنهب وإطلاق العنان ، لما جبلوا عليه وعرفوا به من الغارة أو الغزوة والسلب والنهب .

وربما كان أحسن ما يعمل الموحدون في هذا الظرف ، وهم أمام عدو خطر هو دول إسبانيا النصرانية ، أن يدعوا جانباً موضوع الجزائر الشرقية وبنى غانية فيها ، وألا يشغلوا أنفسهم كثيراً بأمر أفريقية حتى يفرغوا من العدو النصرانى ، ولكن الذى حدث هو أنهم لم يتخذوا هذه السياسة ، بل اهتموا أشد الاهتمام ببنى غانية ، ومضوا يرسلون الحملات تلو الحملات على أفريقية ، ففقدوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين في حرب عقيمة بلا نهاية ، لأن بنى غانية وأحلافهم

من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم ، فكلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ، ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة استنزفت جانباً كبيراً من قوة الدولة وثروتها .

وقد تصدى أبو يوسف يعقوب المنصور لبني غانية في حزم وأنزل بهم هزيمة قاصمة في شعبان سنة ٥٨٢هـ / أكتوبر سنة ١١٨٧م ، وهرب على بن غانية وحلفاؤه من العرب والغز أو الأغزاز ، وهم المعروفون في تاريخ مصر والشام بالمماليك أو الترك إلى الصحراء ، واستراح أبو يوسف يعقوب من شرهم إلى حين .

جهاد المنصور في الأندلس انتصار الأرك العظيم :

انتهاز أبو يوسف يعقوب المنصور فرصة الفراغ مؤقتاً من أمر بني غانية واتجه بقواه نحو الأندلس ، وكان الموقف قد عاد إلى التخرج فيه ، إذ أن الضغط النصراني على الأندلس كان قد أصبح كسيل متدفق ، جرف السدود ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من أعمال الإنقاذ الكبرى ، كتلك التي قام بها نور الدين ثم صلاح الدين في المشرق ، وكان صلاح الدين معاصراً لأبي يوسف يعقوب المنصور .

توفي الفونسو أنريكي ملك البرتغال في أواخر سنة ٥٨١هـ / أواخر سنة ١١٨٥م وخلفه ابنه سانشو الثاني ملك البرتغال ، وقد عقد العزم على انتهاز فرصة انشغال الموحدين ببني غانية ، ليستولي على بعض بلاد غرب الأندلس ، وقد اشتد ساعده بحشود صليبية كان بعضها في طريقه من غرب أوروبا إلى بلاد الشام ، فكانت تنزل ببعض الموانئ البرتغالية في طريقها ، وتمكن سانشو من إقناع بعض رجال إحدى هذه الحملات بمعاونته في الاستيلاء على « شلب » ، وكانت من أكبر موانئ ما بقي من غرب الأندلس في أيدي الموحدين ، وبالفعل تمكن سانشو والصليبيون ومعظمهم من « القلمنك » (أي من الهولنديين) والإنجليز في هذه المناسبة من الاستيلاء على « شلب » في رجب سنة ٥٨٥هـ / سبتمبر سنة ١١٨٩م بعد أن دافع أهلها عنها دفاع الأبطال .

حرك سقوط شلب أيا يوسف يعقوب المنصور إلى العمل ، فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس يعيد بها الأمور إلى نصابها .

احتقل المنصور الموحدى احتقالاً قحماً بغزوته تلك ، فاستنفر الناس في كل نواحي بلاده ، وأعد أحسن فرق جنده ، ودعا العرب إلى الاشتراك معه في الجهاد ، ولا شك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٧م واسترجاعه القدس قد زاد في حماسه ، وأثار في المسلمين موجة مثدفة من الحماس ، فتقاطر الناس على المعسكرات ، وشرابت النفوس إلى النصر ، وفي أواخر المحرم سنة ٥٨٦هـ / أوائل سنة ١١٩٠م ، تحرك المنصور من رباط الفتح نحو الأندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشود بموافاته في أشبيلية ، وأخذت الألوف من المسلمين طريقها إلى الموعد المضروب ، وجدير بالذكر أن أعداد المتطوعة ، أي المسلمين الذين ندبوا أنفسهم للجهاد حسبة لله تعالى ، كانت تعدل قوات الجيوش الرسمية أو تزيد قليلاً ، وقد تمكن المنصور من استعادة شلب وعدد آخر من الحصون سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ، ثم شغلته شواغل أخرى ، وألم به مرض طويل فتعطل إتمام غزوته الكبرى على الأندلس .

وفي أوائل سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م ، اكتملت أهبة المنصور لغزوته الكبرى فعبر إلى الأندلس بحشود ضخمة ، وأخذت القوات الأخرى تتوافد إلى أشبيلية .

وعندما علم الفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك ، أسرع فاستنفر كل ملوك إسبانيا النصرانية ، واستصرخ البابوية ، فوافته حشود كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة وتجربة في الحروب ، وتقدمت هذه الحشود فأخذت مكانها في سهل فسيح حول حصن يسمى الارك ALRAK على ضفة الوادي « آنة » وإلى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ، ودارت رحى المعركة في ٩ شعبان سنة ٥٩١هـ / ١٨ يوليو سنة ١١٩٥م وانجلت عن انتصار ساحق للمسلمين ، وأفلت الفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولأذ بالفرار نحو طليطلة ، وقد كان لهذه الحركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة .

وبعد ذلك النصر الذي ثبت حدود الإسلام في الأندلس على خط الوادي « آنة » ، أرسل المنصور فرقاً من الجيش استعادت الكثير من حصون غرب الأندلس ، وتوجه هو نحو طليطلة عاقداً العزم على الاستيلاء عليها ، ولكن الشتاء

كان قد حل ، فلم يزد المنصور على تخريب عدد من الحصون وحرق الزروع وما إلى ذلك . وفي نفس الوقت قام الفونسو التاسع ملك ليون حليف المنصور ، بمهاجمة أراضي قشتالة واجتياحها ، ومن الغريب أن المنصور لم يحاول - في أي غزوة قادمة - الاستيلاء على طليطلة ، ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة ، ولا ندري لماذا أحجم عن ذلك وكان إحجامه سبباً في ضياع ثمرات نصر الأرك العظيم ، فقد أتاح الفرصة للفونسو الثامن ليستجمع قواه ويأخذ بثأره في أيام محمد الناصر ابن أبي يوسف يعقوب المنصور .

وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى إلى الأندلس ، ولكنه لم يقم بأي عمل عسكري كبير ، واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجال المال وما إلى ذلك .

وتوفي المنصور في ٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / ٢ يناير سنة ١١٩٩ م بعد أن أتم ٣٩ سنة ميلادية وبضعة أيام ، فقد ولد في أواخر ذي الحجة سنة ٥٥٤ هـ / يناير سنة ١١٦٠ م . وهذه الوفاة المبكرة تستوقف نظرنا ، لأن الرجل كان منهكاً خائراً القوى قبل ذلك بأربع سنوات ، أي أنه كان ضعيف البنية مصاباً بأمراض لا نعرفها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن أباه أبا يعقوب يوسف توفى في السابعة والأربعين من عمره (ولد في سنة ٥٢٣ هـ / ١١٣٩ م وتوفى في ١٠ جمادى الثانية سنة ٥٥٨ / ١٦ مايو سنة ١١٦٣) وتوفى في ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ / ٢٩ يولييه سنة ١١٨٤) وأن ابنه أبا محمد عبد الله الناصر توفى في الرابعة والثلاثين من عمره (ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وتوفى في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ / ١٧ يناير سنة ١١٩٩ ، وتوفى في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣) لكان لنا أن نقرر أن ذلك الخط من البيت الموحدى كان مصاباً بشيء ، إذ ليس من الطبيعي أن يموت رجل وسنه ٤٧ سنة وابنه وسنه ٣٧ سنة وحفيده وسنه ٣٤ سنة .

ولقد خلد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى اسمه بكسبه معركة الأرك ، وإذا كنا نأخذ عليه أنه لم يحاول اجتناء ثمرها ، فإننا ينبغي أن نذكر أنه مات في زهرة العمر ، وأنه لو عاش لكان حرياً أن يقوم بأعظم مما قام به في الأرك ، فقد كان شاباً ذكياً قادراً متحمساً قوى الشخصية عارفاً بشئون الملك وسياسة

الدول ، ومن ثم فلا نستطيع الحكم عليه حكماً نهائياً ، لأن الذي لدينا هو نصف حياة فحسب ، فإن الخلفاء والسلاطين يبدأون العمل في السن التي توفي فيها هذا الشاب الذي غاله الموت وهو في ريعان الشباب وإقبال العمر .

خلافة أبي محمد عبد الله الناصر سنة ٥٩٥ هـ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م :

خلف أبا يوسف يعقوب المنصور ، ابنه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر ، وكان يوم ارتقى العرش في الثامنة عشرة من عمره (ولد في أواخر سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) وكان شاباً قليل الذكاء ، وقد تجلت قلة ذكائه في صورة استبداد بالامر ورفض لقبول النصيحة من رجاله ، وكان أبوه قد نصحه بالآلا يقطع رأياً دون مشاورة أبي حفص محمد بن أبي حفص وكان رجلاً عاقلاً على السن بعيد النظر . ولكن الناصر لم يكن له هم بعد أن ثبت سلطانه إلا مخالفة هذا الشيخ العاقل الحكيم .

بدأ الناصر حكمه بداية طيبة ، فقد رأى أن يفرغ أولاً من ثورة بني غانية في الجزائر الشرقية وأفريقية ، وكان إسحاق بن علي بن غانية قد تمكن في سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة . بدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى على الجزائر الشرقية للاستيلاء عليها ، فتم له ذلك في ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ / ديسمبر سنة ١٢٠٣ م ، وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومي والياً ، وبهذا يكون الموحدون قد قطعوا جذور بني غانية في الجزائر الشرقية (البليار وهي ميورقة ومنورقة وياساسة) وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في أفريقية والمغرب الأوسط ، وبعد ذلك يستتبع (في ٢ ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ / ١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م) أنزل الموحدون ببني غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن إسحاق الميورقي هزيمة ساحقة في تاجرا قرب قايس ، وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائياً على فتنة بني غانية .

ميلاد الدولة الحفصية نهاية بني غانية - الطوارق :

وقد قام أبو محمد عبد الله الناصر بتأمين النتائج التي وصل إليها في الأفريقية

بقرار يعتبر أسلم وأحكم قرار اتخذته في حكمه . اختار لولاية أفريقية أصلح رجال دولته وأكثرهم تجربة ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي . وقد عارض أبو محمد في قبول هذا العرض أول الأمر ، لأنه ظن أن المراد إبعاده عن مسرح الحوادث - وربما كان هذا هو ما رمى إليه الناصر في حقيقة الأمر - ثم قبل بشرط أن تطلق يده في الولاية إطلاقاً كاملاً فلا يتدخل في شئونها أحد ، وأن يختار من جنود الدولة قوة كافية تؤيده . وأن يكون تعيينه لمدة ثلاث سنوات فقط فقبل الناصر هذه الشروط .

وقد أثبت أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص كفايته من أول الأمر ، فعندما حاول يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي انتهاز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته ، أوقع به أبو محمد هزيمة قاصمة عند تبسة في إقليم الزاب في ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ / ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م ، وتعتبر هذه الواقعة النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في أفريقية . وتعتبر كذلك بداية نجاح أبي محمد عبد الواحد في عمله وتثبيت أقدامه في ولايته الجديدة .

واتجه بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية وخاصة من رياح وزغبة وعوف ودياب والزواودة نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان ، فأصرع أبو محمد وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى في جبل نفوسة ، وقد انجلت هذه المعركة عن وقوع معظم أموال بني غانية وأزوادهم ومخزن أسلحتهم في يد الموحدين ، وكان هذا هو السبب الرئيسي في ضياع أمرهم بعد ذلك لأنهم افتقدوا إلى المال والسلاح . وفي هذه الموقعة أيضاً قتل عدد كبير من رؤساء العرب الهلالية ، مما هبط بقدرتهم بعد ذلك على الشغب والغارات والسلب والنهب .

وظل أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص يحكم أفريقية في كفاية وحزم حتى وفاته سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص حاكماً لأفريقية ، تحت إشراف أمير موحدى هو أبو العلا إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور ، ولكن السلطة كلها كانت في يد أبي محمد الحفصى . وفي ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ / أبريل ١٢٢٦ م ، أصبح أبو محمد بن عبد الواحد والي أفريقية منفرداً بولايتها وحده ، وبعد ذلك بعشر سنوات أصدر الخليفة الموحدى أبو العلا المأمون أمراً بتعيين أبي محمد حاكماً

لأفريقية بصفة دائمة ، فسار إليها مع أخويه أبو زكريا يحيى وابن عبد الله اللحياني ، فدخلوها في ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ / يولية ١٢٣٦ م ، وقام أبو محمد بتوزيع ولايات أفريقية على أهل بيته ، ومن ذلك الحين بدأ استقرار بني حفص في حكومة أفريقية بصفة دائمة ، ويمكننا اعتبار هذا التاريخ بداية للدولة الحفصية في تونس .

وقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الإغارة على أفريقية فلم يتيسر له الوصول إلى شيء ، وتحول هو ومن معه من شذاذ البدو إلى لصوص ، يغيرون على البلاد ثم يفرّون إلى الصحراء ، وكانوا يعتصمون أحياناً في تلمسان وأحياناً أخرى في سجلماسة ، وفي سنة ٦٣١ أو سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ أو ١٢٣٦ م توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر بعد أن أرسل بناته إلى أبي زكريا يحيى الحفصي ، وأوصاه بتعهدهن . وقد برهن أبو زكريا وأسكنهن في بيت خاص وعرض عليهن أن يزوجهن فرفضن وبقين عانسات حتى الموت ، وتلك كانت نهاية ذلك البيت من شوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين ، لم يدفع إليها إلا الحقد والرغبة في الانتقام . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين بما امتصت من دمائهم نحو نصف قرن كامل دون أن تعود على بني غانية بطائل . وهنا نجد مثلاً من مئات على ما فعل المسلمون بعضهم ببعض بدافع الحقد وقصر النظر . بينما العدو الأكبر - نصارى إسبانيا - يهددون عرب الأندلس جميعاً بالقضاء .

أما بقايا جند بني غانية فكان معظمهم من قبائل مرابطية مثل مسوفة وجدالة وتارجا ، وكانت تارجا من صفار قبائل المرابطين الصنهاجيين الصحراويين ، ولكن منازلها كانت في قلب الصحراء ، ولهذا كانت ملجأ بني غانية الأخير ، ونسبت بقاياهم وفلولهم ، التي تأبدت في الفقر من ذلك الحين ، إلى هذه القبيلة التي عُرِّبَ اسمها إلى « طارقة » والنسبة إليها طارقي والجمع طوارق . وهذا هو أصل الطوارق أصحاب اللثام الأزرق وأولاد الصحراء وسادتهم إلى اليوم ، فهم بقية المرابطين ، هذه العصابة المجيدة من حماة الإسلام .

موقعة العقاب وانهيار الجبهة الإسلامية في الأندلس :

اشتغل الخليفة الموحد الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بأمور أفريقية منذ

بدأ خلافته سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ولم تعد الجيوش الموحدية الكبيرة تعبر إلى الأندلس ، فتشجع الفونسو الثامن ملك قشتالة وأخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامي ، وقد بدأ في ذلك بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدي وكانت نهاية الهدنة سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م وأراد الناصر أن يقوم بغزوة تضاهي غزوة أبيه المنصور ، فقرر العبور إلى الأندلس والإيقاع بقوات النصارى ، فجمع حشوداً هائلة وعبر إلى الأندلس في نهاية سنة ٦٠٧ هـ / يونية ١٢١٠ م ، واستقر في أشبيلية ، وهناك أخذت الجموع تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذي كسب موقعة الأرك ، ولكن بينما كان أبوه ذكياً حكيماً ، عرف كيف يستفيد من القوات التي كانت معه على خير وجه ، عجز هذا الشاب عن ذلك . النتيجة أن نفر منه الأندلسيون وخاصة بعد أن قتل أكبر قوادهم أبا محمد بن قادس قبيل المعركة ، قتله غدرًا وظلمًا نتيجة لوشاية وصلت إليه .

وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته في الأرك ، فعقد هدنة مع ملكي نافار وأرجون واستنجد بالبابوية ، وشيئاً فشيئاً توحدت الجبهة المسيحية الإسبانية ، وأتت أعداد كثيرة من بقية أوروبا ، أي أن الناصر الموحدي كان يواجه في الحقيقة حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة القتال التي رسمها الناصر لنفسه سليمة ، فقد قرر أن يصرع بالاستيلاء على خاتق « دسنيابيروس » ، وهو الباب المؤدي من قشتالة إلى حوض الوادي الكبير - ويسميه العرب « مطرد الكلب » - فإذا تم له الاستيلاء على ذلك الممر حبال دون النصارى ودخول الأندلس بقوات كبيرة وتمكن من القضاء على من يدخل منهم .

وقد بدأت الحملة بداية طيبة فتحرك الناصر بجيش جرار في أوائل سنة ٦٠٨ هـ / أواخر يوليه سنة ١٢١١ م ، ودخل جيان وحصنها ثم تركها إلى خاتق مطرد الكلب ، وعسكر في السهل الواقع أمام مخرج المضيق ، وهو سهل مليء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب بكسر العين ، جمع عقبة بفتح العين والقاف وهي في الإسبانية nava وجمعها navas وهي التل أو العقبة ، ولما كان ذلك الموقع قريباً من قرية صغيرة تسمى تولوسا فإن معركة العقاب تسمى في النصوص الإسبانية Las Navas de Tolosa ، وتمكن الناصر من الاستيلاء

على حصن شلبطرة Salvasierra القريب من أبدة Ubeda وكان معقل فرسان
الداوية ، ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداداته .

وفي محرم سنة ٦٠٩ هـ / يونية سنة ١٢١٢ م ، سار الناصر بجحافل نحو
مطرد الكلب ، وفي نفس الوقت اتجهت قوات النصرانية كلها نحو هذا الموقع . ولم
يسبق أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه ، فقد كان فيها ملوك
قشتالة وليون ونافار وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا النصرانية وقوات
ألمانية وفرنسية وبرتغالية ، وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على قلعة رباح
التي كان يحميها القائد الأندلسي أبو الحجاج يوسف بن قادس ، وعندما وصل
الناصر وبلغه الخبر أمر بقتل ابن قادس ومن معه ، فنفر منه الأندلسيون وقرروا
أن يغدروا به في المعركة .

وبالفعل غدروا به في المعركة الهائلة الفاصلة التي وقعت يوم الاثنين ١٥
صفر سنة ٦٠٩ هـ / ١٧ يولية سنة ١٢١٢ م . وعرفت باسم معركة « العقاب » .

وكانت المعركة قد بدأت بمحاولة نصرانية لزعزعة جماعات المتطوعة
المعسكرة في الجانب الغربي من الميدان ، وفشل النصاري في ذلك فحاولوا النفاذ
من الناحية الشرقية التي كان يعسكر فيها الأندلسيون والعرب ، فهرب
الأندلسيون وتبعهم العرب ، واختارقت القوات النصرانية صفوف الجيش
الموحدى ، فاضطرب نظامه ووصلت بعض الفرق إلى فسطاط الناصر نفسه
وبدأت مذبحة كبرى انتهت بتبديد ذلك الجيش الموحدى الضخم . ويتبدد تلاشى
كذلك الأمل في تمكن المسلمين من الثبات في الأندلس . وقد هلك في هذه المعركة
الوف من خيرة محاربي المسلمين وعشرات الألوف من أنجاد البربر . ولهذا تعتبر
هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام في الأندلس .

وقد توفي الناصر بعد ذلك بشهور قلائل في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ / ٥
يناير سنة ١٢١٢ م ، وموته يعتبر أيضاً نهاية عصر القوة للدولة الموحدية .

الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب :

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر الذي تلقى

بالمستنصر ، وقام عليه اقرباؤه في الاندلس والمغرب ، وبدأت الحروب الاهلية والمنافسات التي انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مريـن الزناتيون بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠ م ، وكان على رأس بنى مريـن ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي ينتسب إلى بنى مريـن الزناتيين . وفي هذا التاريخ تنتهى أسرة الموحدين ويحل محلهم في المغرب الأقصى بنو مريـن .

أما في الاندلس فكانت هزيمة الأرك إيذاناً بالنهاية ، فقد تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريباً ، ولكن بدء التصفية المحزنة كان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧ م عندما قام أبو العلاء إدريس عامل إشبيلية ، بالناداة بنفسه خليفة للموحدين ، منافساً لأبى زكريا يحيى بن الناصر الذى بويـع له في مراكش في ذلك الوقت ، وكذلك منافساً لأخيه أبى عبد الله محمد الذى كان والياً على مرسية في شرق الاندلس ، فترك ولايته ومضى إلى مراكش حيث بايعته مشيخة الموحدين وقد لقب « بالعدل » . وقد أخذ أبو العلاء إدريس الذى تلقب « بالمأمون » كل ما استطاع من القوات الإسلامية في الاندلس ، وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطلب الخلافة ، فأخذت كبار العواصم تسقط وانهار خط الوادى الكبير وفيما بين سنة ٦٢٣ وسنة ٦٤١هـ / سنة ١٢٣٦ — ١٢٤٣ م سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية والجزائر الشرقية (البليار) فكانت تصفية محرقة . ويكفى أن نذكر أن قرطبة عاصمة الاندلس الزاهرة سقطت في ٢٢ شوال سنة ٦٣٢ هـ / ٢٩ يونية سنة ١٢٣٦ م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد .

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادى الكبير ، تجمعت بقايا المسلمين في الاندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذى اعتصم في جبال غرناطة واتخذها مقراً لملكة صغيرة بدأ تاريخها في سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م . واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبى من الاندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريباً ، حتى سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢ م عندما سقطت غرناطة في يد فرناندو وإيزابيلا وانتهت

دولة الإسلام في الأندلس (١).

ولا نزاع في أن دولة الموحدين تعتبر من عظيمات الدول في تاريخ الإسلام . لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلى المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية ، هذا بالإضافة إلى ملكهم في الأندلس .

وفي هذه المساحة الشاسعة بلغت الحضارة المغربية والأندلسية أوجاً جديداً ، فبلغت العمارة الإسلامية في المغرب أرفع درجة وصلت إليها في تاريخها ، وعلى الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التي لا تتصل مباشرة بالدين ، يعتبر عصرهم العصر الذهبي للفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس ، فهو عصر ابن طفيل وابن رشد وهما من أعظم الفلاسفة في تاريخ الفكر الإنساني ، وفي ذلك العصر أيضاً ظهر محيي الدين بن عربي أعظم الصوفية والفلاسفة المسلمين .

وترجع قدرة الدولة الموحدية إلى اعتمادها أساساً على فرع ضخم من فروع البربر اشتهر بصلابته وتماسكه وصحة إيمانه هو فرع المصامدة ، وهم معظم سكان المغرب الأقصى في تلك العصور . وكان المصامدة مجموعاً كبيراً من القبائل التي عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه ، وتركزت جموعها الأساسية في جبال الأطلس بقرعها : الأطلسي والصحراوي وما بينهما من هضاب وسهول مثل سهل السوس . في هذه البيئة الطبيعية الغنية المتنوعة عاشت جماعات المصامدة منذ الأزل حرة في جبالها ومراعيا ومزارعها لا يطرق وطنها طارق ، حتى دخل الإسلام بلادهم على يد عقبة بن نافع أولاً ، ثم على يد موسى بن نصير ورجاله . وقد احتاج المصامدة إلى قرون طويلة ليتمكن الإسلام في قلوب رجالها وينشأ فيها وعى بكيانها وقوتها وما يمكن أن تقوم به . ولقد خضع الكثير من قبائل مصمودة للمرابطين ، وتعلموا الكثير منهم ، ثم جاء محمد بن تومرت ففتح لهم أبواب القوة بتوحيدهم وقيادتهم في طريق القوة والعمل السياسي والديني .

وكان محمد بن تومرت كما قلنا منظماً من الطراز الأول ، ومهما كانت المآخذ على تفكيره وأساليبه في العمل السياسي ، فقد كان الرجل منظماً قديراً وإنشأوه

(١) تفاصيل ذلك واردة في القسم الأندلسي من هذا الكتاب .

للمؤسسات التي قامت عليها قوة الحركة الموحدية - أيت عشرة وأيت خمسين والطلبة بصفة خاصة - يدل على أن الرجل أدرك ما لم يدركه غيره من منشئ الدول في العصور الإسلامية الماضية ، وهو أن الدول تقوم على مؤسسات لا على أفراد من الرجال ، لأن أفراد الرجال من الممكن أن يقيموا بنياناً سياسياً ، ولكن استمرار هذا البنيان لا يتم إلا إذا كانت هناك مؤسسات ذات صبغة شرعية وقانونية ، تقوم عليها الدولة وترتبط بين السلطة الحاكمة وجمهور الناس . وقد ظن معظم مؤسسي الدول الإسلامية أن « الأسر » هي المؤسسة تؤيدها قوة عسكرية من الجند المرتزق ، فلم يكتب لها البقاء طويلاً ، ولم يلبث الضعف أن دب إلى كيانه وانتقل السلطان من البيت الحاكم إلى سنده وهي القوة العسكرية ، لأنها المؤسسة التي قامت عليها قوة الدولة ، ولكنها كانت دائماً مؤسسة هشة غير متماسكة ، لأن الجند المرتزق لا يمكن أن يكون مؤسسة شرعية يكتب لها دوام أو تتحقق بها شرعية .

فهم محمد بن تومرت ذلك ، ولذلك فقد بنى المؤسسات الدستورية التي تقوم عليها قوة الحركة وتضمن استمرارها ، وهي مشيخة الموحدين ، وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت استمرت المشيخة وأقامت الدولة ، وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن علي من إنشاء دولة الخلافة الموحدية .

ومن حسن الحظ أن الذي قاد المشيخة بعد محمد بن تومرت تلميذه وصفيه عبد المؤمن بن علي ، يعاونه رجال ذوو إيمان وصلابة ، تؤيدهم قبائل قوية وأظهرهم أبو حفص عمرائنتي ، الذي نفع الدولة بشخصه وأهل بيته وقبيلته هنتاتة ، أعظم النفع ، وبفضل التعاون والالتحام بين البيت الحاكم والمشيخة ، بين السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية وتمكنت من تحقيق حقيقة تاريخية كانت تبدو مستحيلة ، وهي توحيد المغرب كله ومواصلة عملية إنقاذ ما بقي من الأندلس .

ومن سوء الحظ أن عبد المؤمن قصر الولايات والقيادات على السادة وهم أهل بيته ، والأشياخ وهو بيت أبي حفص عمر . وكان البيت الموحدى فقيراً جداً في الرجال ، فباستثناء ابنه أبي يعقوب يوسف وحفيده أبي يوسف يعقوب المنصور ، لا نكاد نجد أبداً موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية ، وهؤلاء السادة مسئولون عن

ضياع الدولة وخاصة أبناء أبي يوسف يعقوب المنصور : أبي عبد الله محمد المعروف بالعادل ، وأبي العلاء إدريس المعروف بالمأمون ، وأبي محمد عبد الله المعروف بالبياسي ، فهؤلاء الثلاثة زلزلوا كيان البيت الموحدى وخاصة أبو العلاء إدريس المأمون ، وهو الروح الشريرة التى عصفت بذلك البيت المجيد وقصمت ظهره وكادت تقضى على الأندلس جملة .

وقد أوجزنا تاريخ الموحدين ، وبقي أن نقول : إن دولتهم تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذى بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية ، فقد حفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين والعرفاء أى المهندسين الذين أقاموا منشآت بديعة مثل مسجد « الكتبية » ومسجد تينملل ومسجد أشبيلية الجامع وحدائقه التى فضل أمرها أبو مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، وكذلك جامع حسان وهو مسجد لم يتم ، وبقيت صومعته أى منبذته المسماة اليوم بصومعة حسان - علماً باقياً على دولة مجيدة وحضارة زاهرة ، ورمزاً كذلك على أن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ، وأن تلك الحضارة الزاهرة لم ترزق من العمر ما يمكن لها من الوصول إلى غاياتها ، فإن ضعف الموحدين شجع بنى مرين وبنى وطلاب وبنى زيان الزناتيين ، على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم ، وتمكنت هذه الجماعات القبلية الزناتية من ذلك ، وعادت بالمغرب إلى عصور سيادة زناتة ، وهى عصور اتصفت بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية وانحراف مسيرة الحضارة عن طريقها السوى .



القسم
الثاني

الأندلس

مدخل بيليوغرافى لتاريخ الأندلس

كما فعلنا فى دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب ، عندما قدمنا له بمقدمة بيليوغرافية ، تعرف بالموارد التاريخية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخه ، فكذاك نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة بيليوغرافية وصفية ، نعرف فيها بموارده ما بين أصول ومراجع .

فيما يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى عصورها الإسلامية ، لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية ، والرواية غير العربية ما بين لاتينية وإسبانية وبرتغالية . ولا غنى لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية بمختلف لغاتها وخاصة ما كتب منها فى شبه جزيرة إيبيرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية ، لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة ، والكثيرون جداً من العرب الذين يكتبون تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً ، مثله فى ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً ، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية . ولكننا رأينا فيما رويناه من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك ، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة ، دفعوا بمن بقى من ساداتها القدماء ، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام ، إلى أقاصى الشمال وحصروهم عند سفوح جبال ألبرت من ناحية ، وخلف جبال الكتنبيرية من ناحية أخرى فيما يعرف « بأشتريس وجليقية » . وفى هذه الأراضى القليلة الجبلية الوعرة انحصر أولئك النصراني وعاشوا آمنين ، خاصة بعد أن أخرجوا من أشتريس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلفها قريباً من الموضع الذى وقعت فيه موقعة « كوفادونجا » عند جبل شيبية . وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba .

وسنرى أن المسلمين - بسبب قتلهم عددياً أول الأمر ، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الولاة ، وما كان بينهم وبين البربر من

نزاع طويل ، وما أعقب ذلك من مجاعة شملت الأندلس بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أى حوالى سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م — تركوا الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقة فراخ لا يعمرها أحد ، ابتداء من منتصف المسافة بين نهري « الدويرو والمنيو » حتى ساحل بسكاي ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسبان المنحصرين في الشمال لكي يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه النواحي وخاصة ما كان فيها من مدن ومراكز عسكرية رومانية قديمة من أمثال « ليون وأماية وأشرقة وسهاجون » وما إليها . وفي عصر الملك الفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنيو ، وامتدوا إلى حوض منديق ، بل وصلوا إلى حوض الدويرو أى أن مملكتهم التي أصبحت تسمى مملكة أشتريس وليون ، أصبحت دولة قوية ذات أراضٍ واسعة وموارد وافرة ومدن عامرة ونظم سياسية قائمة .

هذا عن الجانب الغربى من شمال شبه الجزيرة ، أما الجانب الشرقى ويشمل حوض نهر الإبرو ، وما يليه من الأراضى شمالاً حتى « لاردة ووشقة وتطيلة » ، أى ذلك القسم من الأندلس الذى عرف باسم « الثغر الأعلى » ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سفوح جبال ألبرت المعروفة باليرانس ، وانحصرت قوات نصرانية في إمارات صغيرة قامت في جبال ألبرت ، وجزء من السهول جنوبها ، وأهمها في الغرب إلى الشرق نيرة وعاصمتها « بلبونة » ثم ثلاث كونتينات جبلية صغيرة هي من الغرب إلى الشرق « أرغون وشرب وريباجورثا » ، وتلك هي الكونتينات الثلاثة التي ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما في أقصى الشرق أى في المنطقة الواقعة شمال مصب نهر إيسرو والتي تمتد عبر السهل الساحلى المؤدى إلى غالة وهي فرنسا ، وتستمر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى « سبتمانية » وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم في موقعة بلاط الشهداء ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها في نفس الوقت الذي قامت فيه الإمارة الأموية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالثغر الإسباني وتحول فيما بعد إلى كونتية قطلونية ، ولم يحاول المسلمون إلا في مناسبات قليلة استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً نصرانية فرنجية أولاً ثم إسبانية بعد ذلك . وقد انضمت قطلونية هذه في أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ونشأت عن ذلك مملكة

أرغون الكبيرة ، التي تضاعف حجمها بعد استيلاء ملوكها على الثغر الأعلى الأندلسى وقاعدته سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ م على يد ألفونسو الأول المعروف بالمحارب . وقد بلغت هذه المملكة أوجها في عهد ملكها « خايمة » الأول المعروف بالكبير الذي تمكن من الاستيلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار ، فأصبحت مملكة أرغون بذلك مملكة واسعة ثرية ، تنافس في سيادة شبه الجزيرة مملكة قشتالة وليون التي توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكها ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م .

وعندما اتخذت مملكة قشتالة وليون مع مملكة أرغون بزواج « إيزابلا » ملكة قشتالة وليون « بجيليب الثانى » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانية هي القوة الرئيسية في شبه الجزيرة ، خاصة إذا ذكرنا قيام مملكة البرتغال في غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدويرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة في العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصارى معا ، ولا يكتمل هذا التاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصلاً على المصير ، والاقتصار على دراسة الجانب العربى لا يعطى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كنا ندرس عُباد الرحمن الثلاثة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقف على عظيمهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور محمد بن أبى عامر وما بلغه الأندلس أيامه من قوة لا يكاد يقف في وجهها أحد . فإننا ينبغي أيضاً أن نذكر أنه كان في الناحية الأخرى كذلك ملوك عظام لهم أكبر الأثر في تشكيل صورة الجزيرة ، بل انتهت قصة الأندلس بالصورة التي صاغوها فيها ، من أمثال ألفونسو الأول والثاني والثالث ملوك ليون . وسانشو الكبير ملك نبرة وألفونسو الأول المحارب ملك أرغون . وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون . وألفونسو الثانى ملك قشتالة وليون أيضاً وخايمة الكبير ملك أرغون ، « وألفونسو - أنريكي » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لى تكون دراسته صحيحة وعلى أساس ، أن يدرس إسبانيا النصرانية كما يدرس إسبانيا الإسلامية ، حتى يخرج في النهاية

بصورة معقولة تفسر له السبب فيما نسميه عادة بضياغ الأندلس وهذه أيضاً تسمية خاطئة لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كانت قد ضاعت من المسلمين فقد كسبها آخرون وما نسميه نحن ضياعاً إنما هو كسبٌ بالنسبة لهم . وميزان الحكم في النهاية هو قاعدة الحياة على وجه الأرض ، وهي أنها صراعٌ بين البشر والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن موارد تاريخ الأندلس تتكون من روايتين ، الرواية العربية أي الأصول والمراجع المكتوبة بالعربية ، والرواية غير العربية أي المؤلفات والمبدونات والوثائق وما يجرى مجراها المكتوب بغير العربية .

الرواية العربية :

كتب العرب في الأندلس وعن الأندلس كثيراً جداً ولكن الجانب الأكبر مما كتب الأندلسيون عن أنفسهم ضاع في غمرة الصراع الطويل بين المسلمين والنصارى على مصير شبه الجزيرة ، فجزء منه فقد كما يفقد الكثير من الكتب لقلّة نسخته ، وبعضها حملته المهاجرون الأندلسيون إلى مهاجرهم فتبدد معظمه وبقي أقله . وجزء آخر قضى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه في أننا لا نملك شيئاً كاملاً من مطوّلات تاريخ الأندلس ، وقد ألف الأندلسيون في تاريخ بلادهم مطوّلات كثيرة فلم يبق لنا منها إلا أطرافٌ نعثر عليها قطعاً في المكتبات أو تفاريق في كتب الفث في عصور متأخرة في المشرق . ورغم ذلك فإن ما لدينا من أصول التاريخ الأندلسي كثيرٌ وافٍ والحمد لله ، ولقد قال « غرسيه غومس » في كتابه الصغير المسمى « الشعر الأندلسي » وقد ترجمناه للعربية ، « إننا لا نملك من دواوين الشعر الأندلسي إلا عدداً قليلاً جداً ، وبقيّة ما لدينا من ذلك الشعر إنما هي نثارٌ كالنثار الذي يتبقى من تحطّم إناءٍ من البلّور ، ومع ذلك فعلى أساس هذا النثار نستطيع أن نكتب تاريخ الشعر الأندلسي لأنه كان من الوفرة بحيث أن القليل الباقي منه يمكننا من كتابة تاريخ متصل وكامل تقريباً للشعر الأندلسي .

وأهم أصول التاريخ الأندلسي هو ما بقي لنا من كتابات أحمد بن

محمد الرازي أبي التاريخ والجغرافية في الأندلس . وقد أشرنا إليها خلال كلامنا في بيليوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخي الأندلس بعد محمد بن محمد الرازي وابنه عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، المولود في قرطبة سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م والمتوفى فيها سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من الدراسة الدكتور محمود علي مكي في المقدمة الضافية التي كتبها للجزء الذي نشره من مقتبس ابن حيان ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره في بيروت مع تعليقات وافية سنة ١٩٧٣ .

وقد نشر جزءاً من مقتبس ابن حيان ، « الأب ملشور أنتونيا » في باريس سنة ١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن علي الحجي في بيروت سنة ١٩٦٥م جزءاً آخر من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسباني هو الدكتور « بدرو شالميتا سندررون » بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءاً كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين سنة من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذي يعتبر أحسن ما بقي لنا مما كتب في ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استقصى في كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمد الرازي وعيسى بن أحمد الرازي ومعاوية بن هشام الشبانسي صاحب كتاب « تاريخ بني أمية في الأندلس » وأبي بكر بن عبادة بن ماء السماء الذي ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو الوليد القُرظي وكان له كتاب كبير في تاريخ الأندلس . وسكن بن إبراهيم الكاتب وأبي عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتاب آخر يعتبر إلى الآن في حكم المفقود وهو كتاب « المتين » ، وهو كتاب ألفه ابن حيان في تاريخ عصره مطوّلاً وافرّاً بالتفاصيل ، وقد بدأه قبل كتابه المقتبس ثم قطعه عندما قامت الفتنة ثم أتمه بعد ذلك ، ودون فيه تراجم أهل عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

وكما احتفظ لنا ابن حيان في المقتيس ، بالكثير من قطع تاريخ الرازي وغيره ممن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخ أندلسي آخر هو « ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني » المتوفى في قرطبة سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، بقطع كبيرة من كتاب المتين لابن حيان ، التي تتناول نقرأ كثيراً من كبار الشخصيات الأندلسية في عصر الطوائف . وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام كتاب في تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ابن بسام ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطه أي وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ، وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت منه أجزاء تتناول الموسطه والغرب وبقي منه جزء الشرق ، وتراجمه وتراجع ابن بسام وافية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس في عصره وقد استوعب في كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان في « المتين » الذي ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التي لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان صغيران ولكنهما على أكبر جانب من الأهمية : الأول هو كتاب « الأخبار المجموعة » لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمة ضافية المستشرق الإسباني « لافونتي الكنتارا » في مدريد سنة ١٨٦٧ م ودرسه دراسة مستفيضة « خوليان ريبيرا » وهو من أعظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ، وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عدد من الأندلسيين من أبناء البيوت الكبيرة المواليين للبيت الأموي ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً موثوقاً في صحتها على أكبر جانب من الأهمية . ثم درس هذا الكتاب مستشرق أسباني آخر هو « سانتشيت البورونوث » Sanchez Albornoz وألف فيه كتاباً ضخماً فيه فرائد كثيرة وإن كان فيه كذلك لغو كثير لأن الرجل لم يكن يحسن العربية ، رغم أنه يعتبر من أكابر مؤرخي إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً .

والأصل الثاني هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبي بكر محمد بن القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وهو كتاب عظيم القيمة لأن مؤلفه من حفدة « سارة » القوطية حفيدة غيطشة الذي غصبه لذريق عرش الأندلس وكان أبناؤه من أعوان المسلمين في فتح تلك البلاد ، وقد قصدت « سارة » الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكو إليه ظلامه أصابها فأكرمها

وزوجها أحد مواليه ، وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف
«بابن القوطية» الذي نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك المولى .

كان ابن القوطية عالماً بالنحو حافظاً للغة متقدماً فيها على أهل عصره
كما يقول ابن الفريسي ، وكان شاعراً سلس القريض ، وهو تلميذ أبي عمر بن
لبابة الفقيه الأندلسي الكبير ، والكتاب لا يقتصر على تاريخ افتتاح الأندلس ، وإنما
هو مجموعة من الأخبار عن أمراء الأندلس وخلفائه ، مروية في نسق متصل
متناسق ، والنسخة التي بقيت لنا هي سماع من أحد تلاميذه ، ومادة هذا الكتاب
أصيلة يوثق فيها ، لأن ابن القوطية مثله في ذلك مثل معظم أهل الفكر في الأندلس ،
كان من المتحمسين لبنى أمية الأندلسيين ، شديد الصلة بهم ورجال دولتهم ،
ولهذا فإن الأخبار التي يوردها على جانب كبير من الأهمية . وقد نشر ذلك الكتاب
«بسكوال دي جايانجوس» Pascual de Gayangos وترجمه إلى الإسبانية ترجمة
بليغة تعتبر قطعة أدبية «خوليان ريبيرا» Julian Ribera الذي قلنا إنه شيخ
مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هذه الأصول ذات القيمة التاريخية العظيمة ، كتب ألفت في عصور
متأخرة ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول التاريخ الأندلسي وأهمها :

— «نقح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن
الخطيب» ، ومؤلفه أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المقرئ المتوفى في
القاهرة في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من
مرة ، فنشر في مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منه في مجلدين كبيرين نشر
المستشرقين في هولندا على رأسهم المستشرق المشهور «راين هارت دوزي» ، ثم
أعاد نشره كاملاً «محيى الدين عبد الحميد» في القاهرة سنة ١٩٥٠ م وما بعدها
بدون فهرس في ثمانية مجلدات ، ثم نشره أخيراً نشرة كاملة بفهارس الدكتور
«إحسان عباس» في بسبوت سنة ١٩٦٨ م في ثمانية مجلدات بما في ذلك جزء
الفهارس .

هذا الكتاب فريد في بابيه لأن قصد مؤلفه في أول الأمر كان الترجمة للسان
الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطي المعروف ، الذي ستتحدث عنه فيما بعد ،
ولكن المقرئ التلمساني الذي وفد على الشرق في تلمسان في عصر كثر الحديث فيه

عن الأندلس ومحتنتها ، رأى أن يقدم لتاريخ ابن الخطيب بمقدمة وافية عن الأندلس ، بلغت أكثر من نصف الكتاب ، وهى وحدها تقع فى أربعة مجلدات كبار ، وقد ألف الرجل هذا الكتاب على طريقة الجمع والتصنيف وتأليف المقتبسات بعضها مع بعض ، ومعظمه نقول تتراوح بين فقرات قصيرة إلى كتب كاملة . وقد قسم الرجل القسم الأول من كتابه الذى يتناول تاريخ الأندلس إلى فصول طوال الأول فى صفة جزيرة الأندلس ، وهو وصف أدبى تاريخى يختلط فيه الشعر بالنثر ، ولكنه يضم مادة جغرافية ذات قيمة كبرى ، والفصل الثانى يتناول افتتاح الأندلس بتطويل وجمع حافل بالفوائد ، ثم يخصص فصلين لما جادت به قرائح الأندلسيين من بديع الشعر والنثر ، ثم يفرد فصلاً لقرطبة ومحاسنها ، وفصلين الأول منهما لمن وفد على الأندلس من الشرق والثانى لمن انتقل من أهل الأندلس إلى المشرق ، والتراجم هنا مستفيضة ممتعة ، وفى أثناء ذلك يقصد الرجل جانباً كبيراً من تاريخ الأندلس السياسى والأدبى ثم يختم هذه المقدمة الطويلة بفصل عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث الأسيفة التى انتهت بخروج ذلك القطر من عالم الإسلام .

أما الجزء الخاص بابن الخطيب فيقع فى ثلاثة أجزاء ، ويتناول تاريخ ذلك الوزير الأديب الشاعر المؤرخ بتفصيل كبير ، ويتحدث عن عصره ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد نماذج كثيرة من كلام ابن الخطيب ومعاصريه

والكتاب على هذا النحو خليط لا يستريح الإنسان إليه أحياناً ، لأن الرجل يجرى فيه على طريقة الاستطراد ، فقد يكون فى سياق ترجمة رجل ثم يمر ذكر رجل آخر فيترجم له بعد أن يقطع الترجمة الأولى ، ثم يعود إليها بعد نحو عشرين صفحة أحياناً ، ولكن الذى يستوقف النظر أن الكتاب طريف جداً ، لأن هذا الاستطراد ينقل الإنسان من جو إلى جو ، ومن موضوع إلى موضوع ، وينتهى القارئ فى النهاية بصورة واضحة جداً عن الأندلس ، تكونت من مقتبسات وضعت حطياً بليلاً فى بعض الأحيان ولكنها تعطى فى النهاية صورة متكاملة على الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشتالت » أى الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرئ كتاب « أزهار الرياض فى أخبار عياض »

وهو القاضي « عياض بن موسى اليحصبي » المغربي الأندلسي الذي تذكر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى » .

ويقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات ، وقد نشر في القاهرة بتحقيق « مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي » (١٩٣٩ - ١٩٤٢ م) وفي هذا الكتاب أيضاً الذي أداره المقرئ على القاضي عياض يتبع نفس الطريقة ، الاقتباس والاستطراد والجمع والتوفيق ، ولكنه يعتبر كذلك من أوثق ما لدينا عن الأندلس في عصوره المتأخرة ، لأن المقرئ عندما ذكر تلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب نهاية الأندلس ، ومادة هذا الكتاب مثلها مثل مادة نفع الطيب موثوق فيها لأن المقرئ كان صدوقاً قوياً الذاكرة يعتمد على أصول حملها معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأساسية التي تعتمد عليها في كتابة تاريخ الأندلس كتاب « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، لابن عذاري المراكشي المتوفى بعد سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وقد تحدثنا عنه في كلامنا عن مراجع تاريخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذاري خصص للأندلس معظم كتابه الذي يتكون كما ذكرنا من خمسة مجلدات : الأول عن تاريخ المغرب إلى آخر أيام دولة بني زيري الصنهاجيين ، مع فصول معترضة ذات أهمية كبرى عن فترات من تاريخ المغرب ونواح نواحيه تتخطى ذلك التاريخ ، والجزء الثاني يتناول تاريخ الأندلس إلى موت المنصور محمد بن أبي عامر ، والجزء الثالث يتحدث عن عصر الطوائف ، والجزء الرابع صـغير يجمع ما عثرنا عليه من تاريخ المرابطين وهو جزء ناقص سقط منه نحو خمسين سنة من تاريخ هذه الدولة تتعلق بمعظم أيام يوسف بن تاشفين ، والجزء الخامس يتناول تاريخ الموحدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بالنسبة لنا ، ويتميز الكتاب كما ذكرنا بأن صاحبه ينقل قطعاً كاملة من مؤلفات أصيلة ضاعت الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمة أصيلة ، والكتاب على هذا في جملة يعقير من الأصول . وإن كان قد ألف في زمن متأخر ولا يستغنى عنه أي دارس لتاريخ الأندلس ، وإن كنا في حاجة إلى طبعة جديدة للجزء الخامس الخاص بالموحدين ، وفهارس ضافية لذلك الكتاب .

ثم تلا ذلك في الأهمية المكتبة الأندلسية ويراد بها مجموعة من كتب التراجم التي ألفها علماء من أهل الأندلس عن علماء بلادهم ، وهذه المجموعة ترتبط فيما بينها وتتكامل على مثال ما تتكامل كتب الوفيات في المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلة من كتب الوفيات أُلِّفت في المشرق ، تتناول التراجم من أول عصور الإسلام إلى العصر المملوكي ، فهناك « وفيات الأعيان لابن خلكان » ثم يكمله « فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي » ثم يواصله ويستدرك قواته كتاب « الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي » ، ثم تختتم السلسلة بكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي » .

كذلك في الأندلس نجد سلسلة من كتب التراجم ألفها علماء أندلسيون أجلاء يكمل بعضها بعضاً ويسد بعضها قوات بعض ، وقد بدأ ينشر هذه السلسلة المستشرقون الإسبان الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريبيرا » ومن في طبقتهم ، وهذه الكتب هي :

— « تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى بن الفرضي (٣٥١ — ٤٠٣ هـ / ٩٦٢ — ١٠١٣ م) وقد حققه فرنسيس كوديرا ونشره في مدريد سنة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ويمتاز أبو الوليد بن الفرضي بأنه من العلماء الأثبات ، فقد كان مؤرخاً وفقهياً وشيخاً جليلاً صدوقاً ومن ثم فنحن نثق في كلامه ، ولم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة في التاريخ إلا ذلك الكتاب القيم ، الذي يتناول تاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م .

— « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي المتوفى في مرسية في ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م . وهو يواصل تراجم ابن الفرضي ويهتم اهتماماً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اعتمد هذا الرجل في تراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدي » الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

— « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد

ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي وهو من أهل ميورقة . وقد توفي في بغداد سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تايوت الطنجي في القاهرة سنة ١٩٦٦ م وكان الحميدي تلميذاً لابن حزم ، وقد ألف كتابه هذا في المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشوبها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعته ، ولكن الكتاب في مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبي اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جذوة الحميدي .

— كتاب « الصلة » لأبي القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصاري (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠١ - ١١٨٣ م) وابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره حفظاً وصدقاً ورواية ، وكانت له مشاركة في التاريخ إلى جانب الفقه ، وكتاب هذا الذي يعتبر صلة ، أي إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، لا يقل أصالة أو صدقاً عن تراجم ابن الفرضي ، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب في مدريد أولاً ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٩٦٦ م على تحقيق مدريد .

— « صلة الصلة » لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (٦٢٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٣١ - ١٣٠٨ م) وهذا الكتاب يواصل تراجم ابن بشكوال ويكمل فوائده وقد نشره ليفي بروقنسال في الرباط سنة ١٩٣٧ م .

— « التكملة لكتاب الصلة » لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس في عصره وأكثرهم حفظاً وصدقاً وأصدقهم رواية ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير في كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التي لدينا . وقد نشر منه جزءان في مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧ م ثم عثر « الأركون » المستشرق الإسباني على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربية أندلسية مختلفة ، تحت عنوان Mice-lenea في مدريد ، وبعد ذلك عثر « محمد بن أبي شذير » العلامة الجزائري على قطعة كبيرة في أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والباء ونشرها في الجزائر ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره في نسق واحد ، لأن تراجمه تمتاز

بما تمتاز به مؤلفات ابن الأبار من علمٍ واسعٍ وحفظٍ دقيقٍ وتنبيهٍ يستوقف النظر إلى حقائق الأمور .

« الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة » لأبى عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصارى الأزدي المراكشى المشهور باسم عبد الملك المراكشى (٦٢٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٠٤ م) ويعتبر هذا الكتاب أوسع كتب التراجم الأندلسية والمغربية ، فهذا الرجل ألف كتاباً واسعاً في التراجم تقع نسخته المطبوعة في خمسة مجلدات (ولم تتم بعد) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد ابن شريفة وإحسان عباس ، وبدأ صدور المجلدات في بيروت سنة ١٩٦٤ م . والميزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظم تراجمه تتعلق برجال من أهل عصره ، أى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وهو من العصور الفاضلة في تاريخ الأندلس ، وتراجمه مطولة وتقدم لنا إشارات ذات قيمة اجتماعية كبيرة ، وقد بلغ من حرص الرجل على التطويل وإيراد كل ما عنده ، إنه في أحيان كثيرة يورد نصوص كتب كاملة وإن كانت صغيرة ، ولكننا ونحن نقرؤه نعيش في جو أهل العلم في الأندلس في القرن السابع الهجرى الذى تجلت فيه علامات نهاية الأندلس وضياعه ، وفي هذا العصر أيضاً قامت مملكة غرناطة . ومما يستوقف النظر أن أولئك العلماء الذين يترجم لهم كانوا ماضين في دراساتهم ورواياتهم منفصلين تقريباً عن الحياة السياسية في الأندلس ، ومن يقرأهم لا يكاد يحس بالمأساة الدائرة حولهم .

« ويكمل هذه المجموعة من كتب التراجم كتاب « الحلة السيرة » لابن الأبار الذى ذكرناه ، وقد نشر في القاهرة في جزئين سنة ١٩٦٢ م بتحقيق كاتب هذه السطور ، وقد جمع فيه ابن الأبار تراجم الخلفاء والأمراء والرؤساء الذين أثر عنهم شعر يروى ، وقد ألفه تقريباً لأبى زكريا الحفصى بعد هجرته إلى تونس . وتراجمه طويلة مستفيضة وأسلوبه جزل متدفق والرجل حافظ واعية ، وقد تنبه إلى أهمية ذلك الكتاب الذى يضم حشداً كبيراً من تراجم الرؤساء في المغرب والأندلس ، المستشرق راين هارت دوزى . ونشر تراجمه الأندلسية في كتاب مشهور بين أيدي دافنى الأندلس ، ثم نشر جزءاً كبيراً من تراجمه المغربية المستشرق « ماركوس ملر » ، ثم نشر النشرة الكاملة التى ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسي بوقفه عند آخر الكبار من مؤرخي الأندلس وهو « لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني بن الخطيب » (رجب ٧١٣ - ٧٧٦ هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤ م) .

وابن الخطيب بلا شك من أعظم مفكرى الأندلس وكبار كتابه وشعرائه ، وقد عاش في العصر الغرناطي في أيام محمد الغنى بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياة حافلة بالعمل العلمي والنشاط السياسي ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر في أن هذا كله تم في حياة رجل واحد ، وقد ترجم له الأستاذ محمد عبد الله عنان ترجمة واقية في كتاب خاص به متداول بين أيدي الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتباً كثيرة في تاريخ الأندلس تعتبر عندنا من الأمهات ويهمننا هنا أن نذكر منها كتابين :

الأول : هو « إعلام الأعلام بأعمال الأعلام ممن بويع قبل الاحتلال » ، ويعرف عادة باسم « أعمال الأعلام » ، وهو كتاب ضخم يقع في أجزاء كثيرة . يهمننا منها القسم الثاني الذي نشره ليفي بروفنسال في بيروت سنة ١٩٥٦ م تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » وهو من أحسن كتب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علم ودراية ، واحتشد في تأليفه فجاء من أحسن ما لدينا من المؤلفات التي لا يستغنى عنها دارس تاريخ الأندلس .

والقسم الثالث من ذلك التاريخ يتناول تاريخ المغرب الإسلامي وقد حققه ونشره د. أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتاني ونشر في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » وهذا الجزء لا يقارن - بحال - بالقسم الثاني الذي كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخ ناقص مضطرب السياق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجل ، ولكنه على أي حال لا يخلو من فوائد تاريخية بين الحين والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد ، وهو يخرج عن اختصاصنا هنا ، ولكننا أطلعنا عليه على أية حال ، وليس فيه ما يضيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أما الكتاب الجليل الذي يُعد مفخرة لابن الخطيب فهو « كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة » وهو كتاب ضخم ، تقع نسخته المطبوعة في أكثر من ألفي صفحة ،

تضم تاريخاً وافياً للأندلس وخاصة إقليم غرناطة ، وهو يبدأ بمقدمة ضافية عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافي الذي يجعل لابن الخطيب مكاناً صدرأ بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجم الوافية الضافية لمئات من العلماء وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية في الغالب . وقد قام على تحقيقه بصير يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره في أربعة أجزاء في القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤ م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعة هزيلة صغيرة نشرت في القاهرة قبل ذلك .

تلك هي أهم أصول تاريخ الأندلس التي يتبعى أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتب أخرى تسمى إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشي في تاريخ الموحدين ، ولكننا أثرنا أن نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيان المراجع الذي سنورده في آخر هذا الكتاب .

الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علم بالأصول والمراجع غير العربية التي كتبت في تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفة عامة وخاصة ما كتب منها بالإسبانية ، وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإسبان في تاريخهم كثيراً جداً وعندهم كما عندنا أصول ومراجع . فاما الأصول فما كتب في العصور الوسطى ومعظمه ألفه رهبان بدأوا في كتابة تاريخ إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي وهم في العادة يكتبون تواريخ عامة أي تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق ، كما كان يفعل بعض مؤرخي المسلمين ، وهم في العادة يكتبون من ناحية دينية ، أي أنهم معادون للمسلمين عداً شديداً لا على أساس قومي بل على أساس ديني ، وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأول كانوا يكتبون وهم يعيشون في بلاد إسبانيا النصرانية

مباعدين للإسلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتابته مؤلف مجهول كتب تاريخاً ينسب إلى « البلدة » وعنوان هذا التاريخ Cronica Albeldinse وقد ألف سنة ٨٨٣ م ، وهو مجرد جدول بالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكر قليل لأخبار الصراع بين المسلمين والنصارى . وهذه الأخبار القليلة ذات فائدة كبيرة لأنها تضبط لنا تواريخ ومراحل ذلك الصراع وتسد الفراغات التي يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانية الأولى تلك المعروفة باسم تاريخ العالم الذي كتبه « لوقا التودي » Lucas de Tuy : Historia Mundi وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٢٦ م وهو يعطينا بيانات وافية عن ملوك القوط وملوك ليون ثم ملوك قشتالة وليون إلى عصره .

وقد عاصره تقريباً مؤرخ إسباني عظيم الأهمية بالنسبة لنا يسمى Rodrigo Jimenez de Rada ، وكان أسقفاً لطليطلة وقد كتب تاريخاً مطولاً لإسبانيا حتى قرب وفاته سنة ١٢٤٧ م ، وهذا الرجل يعطى تفاصيل مفيدة جداً بالنسبة لتاريخ قشتالة وليون والممالك النصرانية الأخرى ، وكذلك بالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه Rerum in Hispania Gestorum Cronicon وقد نشر أول مرة في غرناطة سنة ١٩٤٥ م وأعاد نشره A. Schott في مجموعته المسماة Hispania Illustrata الجزء الثاني من ص ٢٥ إلى ١٩٤ .

وقد اعتمد عليه الكثيرون جداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية حتى قرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عن مراجعة ذلك الكتاب في كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانية كتب ألفها مستعربون ممن كانوا يعيشون بين المسلمين ويكتبون باللاتينية أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيا النصرانية ، وهناك كتبوا مدونات في التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى « إيزيدور الباجي » الذي كتب كتاباً في تاريخ مملكة أشتريس منذ بدايتها ويسميه الأب فلوريت بالمدونة الباجية Cronica Pacense وهو يعرف أحياناً باسم La Cronica Mazarabe de Cronica del Anonimo de Cordoba ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم Continuatío لأن بعضهم يظن أن المؤلف كتب كتابه في قرطبة ، ويسمى أحياناً :

Hispana لأنهم كانوا يظنون أنه إكمالٌ لتاريخ كتب قبيلة لإسبانيا القوطية ، ويغطي هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ - ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديرة بالثقة مدونة الفهاقس أشتوري يسمى El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التي وقعت أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التي ترعها قسٌ مستعربٌ يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونة « البلدة » التي تنسب إلى الموضع الذي عثر عليها فيها وهي قرية « البلدة » في إقليم « ريوخا » وهذه المدونة تصل بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦ م ، أي إلى عصر الحكم المستنصر ، والمؤلف معاصرٌ لألفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة ٩١٠ م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومسن » وهو علامة ألماني تخصص في الدراسات الرومانية وكتب في تاريخ الرومان كثيراً ونشر الكثير من المخطوطات المتعلقة بتاريخ الرومان ، وله مجلدٌ ضخّم جمع فيه المخطوطات الإسبانية التي تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه ، والمؤرخ الألماني « تيودور مومسن » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض » Epitome Ovitense .

ومن هذا الطراز من المدونات مدونة تخص تاريخ إسبانيا في عصر الملك «ومبا» حتى موت أردنيو الأول (٦٧٢ - ٨٦٦ هـ / ١٢٧٢ - ١٤٦١ م) ملك أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك ألفونسو الثالث الملقب بالكبير ، وإن كان هناك شك في تلك النسبة ، لأن الباحثين الإسبان عثروا منها على مخطوطتين ، إحداهما مكتوبة بأسلوب سني حافل بالأخطاء ، ويظن أن تلك هي التي كتبها ألفونسو الثالث بنفسه ، ومخطوطة أخرى منمقة مهذبة يظن أن قساً يسمى سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث وهي تنسب عادةً إلى الراهب سبستيان الذي أشرنا إليه .

وتشبه هذه المدونة ، مدونة تنسب إلى راهبٍ يسمى « سام بيرو » ولهذا تسمى Cronica de Sampiro ، وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامي ٩٧٠ - ١٠٤٢ م وقد عمل في القصر في أيام الملك برمودو الثاني وخلفه ألفونسو الخامس ثم أقيم قساً لمدينة أشترقة وكان الذي أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

ملك نبرة ، وهذا التاريخ يبدو وكأنه إكمالاً لدونة الفونسو الثالث ، ويتناول الأحداث في عصر هذا الملك حتى بدايات حكم الفونسو الثالث ملك ليون (٨٦٦ - ١٠٠٠ م) .

ويجد القارئ بياناً بهذه المدونات الأساسية بالنسبة لتاريخ إسبانيا والأندلس في الفصل الأول من الجزء السادس من « تاريخ إسبانيا العام » الذي أشرف على كتابته الأستاذ « منندث بيدال » الذي سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه عن الأصول ، ونضيف أن راهباً إسبانياً يسمى الأب « فلوريت » جمع هذه المدونات كلها ونشرها في سلسلة من نحو ثلاثين مجلداً تسمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez, Espana Sagrada ولا بد لأي باحث في تاريخ الأندلس من أن يرجع إلى ذلك المجموع وإلى المجموع الذي نشره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننتقل الآن إلى المراجع أي إلى المؤلفات الإسبانية التي كتبها الإسبان في العصور الحديثة في تاريخ بلادهم ، وهي كثيرة جداً ومعظمها جيد وإن اختلفت في القيمة ووجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلي :

- Jeronimo Zurita, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتي ١٥١٢ - ١٥٨٠ م .

- Bernardo Brito, (1569 - 1671), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعة من الكتب يحمل كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقات يسيرة في هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها :

Ambrosio de Morales - Esteban de Garibay -

P. Juan de Mariana - Juan de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Alcalá Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العامة لإسبانيا التي لا بد من الرجوع إليها في التاريخ الأندلسي مما كتب في الخمسين سنة الماضية ، ولا زال يعاد طبعها وتنقيحها

لتساير تطور الأبحاث التاريخية :

- Antonio Ballesteros Beretta, Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal (12 vols. Barcelona 1918 - 1941) .
- Luis Pericot, Historia de Espana. Gran Historia General de los Pueblos Hispanicos, (6 vols. Barcelona 1935 - 1962) .
- Ramon Menendez Pidal, Historia de Espana, (Espasa - Calpe) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهذان التاريخان اشترك في كتابة فصولهما عدد كبير من المؤرخين تحت إشراف العالمين المذكورين ، وتختلف القيمة العلمية لفصولهما اختلافاً ينفياً .
وجدير بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذي أشرف على تحريره « رامون منندث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب :

- Levi - Provincial, Histoire de l'Espagne Musulmane .

الطبعة الثانية - باريس سنة ١٩٥٥ م وما بعدها . وقد قام بالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسيه غومس » .

- Pedro Aguado Bleye, Historia de Espana. 3 vols. Madrid 1947 - 1958 .

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن الكتب المتوسطة الحجم التي ألفت في تاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامي فيه جيدة .

- Fernando Soldevila, Historia de Espana. 8 vols. Barcelona 1952 - 1959 .

ومؤلف هذا الكتاب قطلوني ، وهو لهذا ينظر لتاريخ إسبانيا من الزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذر شديد .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de Espana (Madrid 1955) .

• Jaime Vicens Vives, Historia Social y Economica de Espana y America (Barcelona, 1957 - 1959) .

أما الكتب المؤلفة في عصور بعينها أو موضوعات محددة من التاريخ الإسباني - بما في ذلك الأندلس - فكثيرة جداً يجد القارئ بياناً بها في بيبليوغرافية كل تاريخ عام مما ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذي كتبه « بايسترورس » والتاريخ الذي أشرف عليه مننث بيدال ، فإن قوائمهما البيبليوغرافية من أحفل ما عرفنا . وكذلك تجد مادة بيبليوغرافية في كتاب ذي قيمة كبيرة في تاريخ إسبانيا ألفه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا واسمه :

Antonio Ubieto, Juan Regalá, José Mariá Jover, Introduccion á la Historia de Espana, Barcelona (Teide 1963) .

والخلاصة أن دارس تاريخ الأندلس لا ينبغي أن يغيب عن باله أنه يدرس تاريخ بلد إسلامي أوروبي ، فالعناصر الأوروبية جزء من تكوينه البشري والطبيعي ، والمراجع الأوروبية جزء من مراجعه ، ولا يكفي قط أن يطلع الإنسان على المراجع العربية سواء أكانت قديمة أم حديثة ، لأنها في مجموعها تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمد على الأصول العربية وهذا لا يعطي إلا جزءاً من الصورة ويبقى نصفها الثاني . وفي بعض الأحيان يكون ذلك النصف الثاني أهم من المراجع العربية .

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجع العربية ، لا يعطي إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحدث عنهم مراجعنا بتطويل فتجعل مثلاً صورة المعتمد بن عباد قاضياً إشبيلية التي تولى أمرها ، صورة رجلٍ سياسي بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويوجه الأحداث . بينما هو كان في الحقيقة لا يمثل من الناحية السياسية أية قوة لها أثر في سير الحوادث ، فهذا رجل لا يملك قوة عسكرية تمكن له من التأثير في الحوادث ، بل هو يدفع إتاوة للملك النصراني - ملك قشتالة وليون - وهو أي الملك النصراني هو القوة المحركة للحوادث . وإذن فنحن إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية في عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجري داخل إشبيلية ، ولكننا لا نعرف مصير إمارة إشبيلية كلها ، لأن الذي كان يقرر ذلك المصير هو

ملك قشتالة ، وعندما صار أمير إشبيلية في كفة الميزان ، كان المرابطون ، وهم مغاربة مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين تولوا مواجهة الخطر النصراني . وإذن فالذي نقيده من دراسة المراجع العربية شيء قليل ولا يعطى كما قلنا إلا جانباً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراسة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولائنية وبرتغالية وقطلونية .

وقد آن الأوان أن ندرك هذه الحقيقة وأن نعلم أن تاريخ الأندلس جزء من التاريخ الأوربي ، كما هو جزء من التاريخ العربي ودارسه ينبغي أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زاويتها العربية والإسبانية .

ونختم هذه المقدمة الببليوغرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخ عربي لا يعرف غير اللغة العربية والمراجع العربية ، اسم رجل من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » واسمه الكامل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصاري ، فكيف يكون أنصاريًا واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسباني صرف ؟ وأبسط ما تدل عليه هذه الظاهرة هي أن سلسلة آباء ذلك الرجل ليست عربية أنصارية خالصة فقط بل عربية أنصارية إسبانية ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانية اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لا بد من قراءة الاسم ونسب الرجل هكذا : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود وبشكوال الأنصاري ، وهذه في ذاتها ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة .



الأندلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقات الفتوح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تنويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ، الذي استغرق كما رأينا حوالي سبعين سنة ، ما بين نصر وهزيمة ومدّ وجزر وكان ذلك دليلاً على حيوية الشعب العربي وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحر الزقاق » كما يسمى ، ووصلوا في أوائل العقد الأخير من القرن الهجري الأول / العقد الأول من القرن الثامن الميلادي إلى ساحل المحيط الأطلسي ، من طنجة شمالاً إلى سهل السوس جنوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوروبا من هذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العربي أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطى بحر الزقاق ونزل شبه الجزيرة الإيبيرية وفتحها حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبال ألبرت التي تسمى البرانس خطأ ، وغزا « غالة » وهي فرنسا اليوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنوبى باريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليه العرب شمالاً نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضع وصلت إليه جيوش العرب غرباً إلى دمشق نحو ثمانية آلاف كيلو متر ، كلها قطعها العرب محاربين منتصرين على أقدامهم أو ظهور الخيل والجمال . وذلك عمل لم يسبقهم إلى مثله أحد في التاريخ . ومن الواضح أن شبه جزيرة إيبيرية ، وهي ما يسميه العرب بالأندلس وما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال ، كانت شاسعة البعد عن مركز الخلافة ، ويكفى أن نذكر أن المسافة بين دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو متر ، وهذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرس جيد أربعة أشهر ، فكأنك لو أرسلت رسالة من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعة أشهر ، وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . وذلك يصور لنا بعد هذه الأقاليم من مركز الدولة الإسلامية ، ومع ذلك فقد فرض العرب أنفسهم على ذلك البلد البعيد ، وحكموه وعاشوا فيه وحولوه إلى بلد عربي إسلامي ، واستمر سلطانهم هناك ما بين مدّ وجزر ثمانية قرون ، وإذا كان الأندلس قد ضاع منا في النهاية فذلك ليس بعجيب وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل .

الأندلس هي الدولة الأولى التي أقامها العرب في أوروبا . وقد كانت للإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية : الأولى دولة الإسلام في الأندلس ، والثانية هي دولة الخلافة العثمانية في الشرق .

وهذه هي الناحية الأولى التي تهتمنا وهي الميزة التي تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التي فتحها المسلمون ، فنحن هنا في بلد أوربي ونحن مع ملك أقامه العرب في قلب الغرب الأوربي بين فكّسي الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركز من مراكز الإسلام والعروبة . وذلك يشهد للجنس العربي بالتفوق والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزي نيفيل باربر : إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أي أنه كان بلاد المهجر البعيد الذي ينهض إليه كل رجل جرئ مغامر يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن البديهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التي أسلمت وأظهرت قدرة على مجابهة الصعاب . ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهى بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولةً مجيدةً هي الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرة لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومدّوا جسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوربي .

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهادٍ مجيدٍ وعملٍ متصلٍ مباركٍ ، وجهد شعبٍ قويٍّ استطاع بالفعل أن ينشئ على أرضٍ أوروبيةٍ حضارةً عربيةً إسلاميةً ، تتميز عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوابعٍ نعرفها بمجرد نظرةٍ على أي مظهرٍ من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى .

اسم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعني ما سادته العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كلّهُ إلى جبال ألبرت كما قلنا ، وإلى خليج بسكاي الذي يسميه العرب « حائط إفرنجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ١٢٨ هـ /

٧٥٦م كان العرب قد فقدوا الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، واستقر سلطان العرب على بقية البلاد حتى سقوط الخلافة الأموية الأندلسية سنة ٤٣٢هـ / ١٠٣١م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقدون أجزاء أخرى من شبه الجزيرة . ولكن لفظ الأندلس ظل يطلق على ما بيد المسلمين من شبه الجزيرة ، حتى اقتصر فى النهاية على مملكة غرناطة ، فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة وهو يمثل ٨/١ ثُمَّن مساحتها . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس ، وفى النهاية عندما لم يبق فى يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هى الأندلس وهكذا .

ولفظ الأندلس معرَّبٌ جاء من لفظ « الوندال » الذين يسمون فى اللغات الأوروبية « الفاندال أو الفاندالوس » . وهذا القبيل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى ، وانحدر إلى الجنوب تدفعه قبائل أخرى جرمانية ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، وهناك أقام زمنًا طويلًا وسُمِّي ذلك الطرف الجنوبى باسم « قاندا لوسيا أو واندا لوسيا » ، وبهذا الاسم عرقه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق . وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض « وندلس » ، وحرف « الواو » هو أداة التعريف فى لهجة بربر طنجة ، فعُرِب الاسم إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربى . ولا زال اللفظ فى صورة إسبانية هى « إندلوثيا » يطلق إلى اليوم على ثمانية محافظات صغيرة فى الثلث الجنوبى لشبه الجزيرة جنوبى نهر الوادى الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولية وإشبيلية .

وشبه جزيرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال - إقليم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلو متر مربع . وإسبانيا وحدها ، وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثلثة بلاد أوربا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم^٢ - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو متر مربع .

وشبه الجزيرة فى مجموعه عبارة عن هضبة متوسطة ، ارتفاعها ستمائة متر عن سطح البحر ، وهى أعلى بلاد أوربا باستثناء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ثمانمائة متر . وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ألف وستمائة متر ، كثيرة جدًا .

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة هي سلسلة الجبال التي تسمى
باللغات الأوروبية « البرانس » ، وهي سلاسل من الجبال تقفل الطريق من شبه
الجزيرة إلى جنوبى فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من معبرين في الشرق والغرب ، ومن
ممرات خلال الجبال تسمى « بالأبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها في العربية
وهو جبال البرت ومعناه جبال الباب أو جبال الأبواب . وبسبب هذا الحاجز
الكبير ، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبى الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً
يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا .

وشبه الجزيرة مخمّس تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضة ، وبين كل
سلسلة من الجبال والتي تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهرٌ مستعرضٌ أيضاً ، ولهذا
فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطق مستعرضة يلى بعضها البعض .
ولكل منطقة سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب في
المحيط الأطلسى وتتبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لجارى
المياه ، ولا تجد الأنهار الكبيرة التي تحمل الماء الوغير إلا في النصف الشمالى لشبه
الجزيرة . وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هي المنيزو ثم
الدويرو ثم تاجة ثم الواديانة أو الوادى أنه ثم الوادى الكبير وعليه تقع قرطبة
وإشبيلية وهي قلب الأندلس الإسلامى . ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر
شنيل ، وعلى فرع من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهرٌ واحدٌ كبيرٌ يطلق عليه اسم النهر وهو
« إبرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قطلونية » الذى استقل الآن استقلالاً
داخلياً ، وكان وادى إبرو في أيام المسلمين يسمى بالشجر الأعلى للأندلس وعاصمته
سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة في شبه الجزيرة . أما بقية
الأنهار التي تصب في البحر المتوسط بعد نهر إبرو ، فصغيرة نسبياً يسميها
العرب بأسماء المدن التي تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضاً
بالوادى الأبيض واسمه في اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك . وشبه
الجزيرة في مجموعها إقليمٌ جافٌ بصفة عامة ، فلا تكثر الأمطار إلا في نصفه
الشمالى أى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه
الجزيرة قبل الفتح العربى . وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة في جملته وجدنا أن

التصف الاغنى هو الشمالى ، حيث الأتهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة ، وفيما بين نهر تاجه ونهر المنيو توجد أوسع مناطق القمح في أوروبا بعد الأوكراينا في روسيا ، وهناك أيضا أى في الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المراعى الواسعة التى تربى عليها الماشية الكبيرة والأغنام الوفرة الصوف وكذلك الخيول الكبيرة الحجم ، وهناك أيضا مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى — ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى سادته العرب كان أوسع مساحةً بينما كان القسم الذى سادته النصارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروة ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته أوفر ولهذا كان الناس أيسر حالاً ، وغذاؤهم أحسن ، وكذلك كانت خيلهم أقوى ، وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصومهم معركةً عنيفةً دائماً ، برغم أن المسلمين كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنه الأفقر ، فلم يكن في النواحي الداخلة في الأندلس من الأقاليم الغنية فعلاً إلى إقليم بلنسية في الشرق ، وهى اليوم أعظم مناطق إنتاج البرتقال والأرز في أوروبا ، ثم ناحية إشبيلية ، وفيما عدا ذلك فإن بقية البلاد الأندلسية التى نفخر بها كانت تقوم في مناطق فقيرة نسبياً ، حتى قرطبة ذات الصيت البعيد تقع في إقليم فقير في جملته . ومن هنا نتبين حقيقةً كبرى ينبغي أن نضعها في أذهاننا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأ شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، فإن الوادى الكبير نفسه إقليم فقير ، ثم إنك لا تستطيع أن تسيطر على شبه الجزيرة من بلد يقع في سدها الجنوبي ، ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طليطلة لتغير وجه التاريخ ، لأن طليطلة تقع في وسط شبه الجزيرة تقريباً . ومن الوسط تستطيع بطريقة أسهل ، أن تسيطر على البلد ، ثم إن طليطلة ، وعلى مقربة منها مدريد ، وهى منشأة عربية تقع في وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء وافر والمراعى غنية ومصادر المعادن متوفرة ، وهى أسلحة الصراع الكبرى ، ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقية عشيرتهم في بلاد المغرب ، وعلى أى حال فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائج المعروفة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

فتح الأندلس

تمهيد في أحوال شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي :

كان شبه الجزيرة الإيبيرية قبل الفتح الإسلامي خاضعاً لسلطان القوط الغربيين ، وهُم واحدٌ من شعوب الجرمان المعروفة بالمتبربرين ، الذين اقتحموا بلاد الدولة الرومانية وتقاسموها فيما بينهم من أواخر القرن الرابع الميلادي .

دخل القوط الغربيون بلاد الدولة الرومانية أوائل القرن الخامس الميلادي وصاروا في رفقة أبناء عموماتهم القوط الشرقيين ، واستقروا في « غالة » المعروفة حالياً باسم فرنسا ، وهناك انقسموا قسمين كبيرين ، فأما القوط الشرقيون فقد استقروا في إيطاليا ، وكان على أيديهم زوال الدولة الرومانية في الغرب ، إذ أنهم دخلوا روما بقيادة زعيمهم أداكر سنة ٤٧٦ م .

أما القوط الغربيون فقد مدُّوا سلطانهم في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين الفرنجة وهم أيضاً من شعوب المتبربرين ، وانتهى الأمر أوائل القرن السادس الميلادي بانسحاب القوط الغربيين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وانفرادهم بها وتغلبهم على من كان قد سبقهم إليها من شعوب المتبربرين من أمثال السويف والألان وغيرهم .

ساد القوط الغربيون شبه الجزيرة كله من أوائل القرن السادس الميلادي ، واتخذوا طليطلة عاصمة لهم ، وأنشأوا مملكة يتولى أمورها القوط وحدهم ، فكانوا يحكمون رعاياهم من أهل البلاد من الإيبيريين الرومان بالقوة والعنف ، خاصةً وقد كان القوط مسيحيين على المذهب « الأريوسي » الذي يقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، في حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكي الذي يقول بالطبيعتين . وبين المذهبين من الخلاف ما بين دين ودين ، ونتيجة لذلك كان هناك عداً شديداً بين القوط ورعاياهم .

وفي عهد ملك من ملوك القوط يسمى « ريكاردو » تحول القوط إلى المذهب الكاثوليكي ، فكان ذلك سبباً في مصالحة بين القوط ورعاياهم وتحسنت الأحوال

نتيجة لذلك وتمكن القوط من السير بدقة الأمور فترة من الزمن ، ولكنهم لم يختلطوا برعاياهم قط وظلوا يعتبرون أنفسهم طبقة متميزة على بقية السكان .

وقبل الفتح العربى بنحو عشرين سنة صار العرش إلى ملك يسمى « ومبا » صلحت على يديه الأمور ، وأعلن سياسة تسامح في البلاد ، فرضى عنه الناس وكان له أبناء كثيرون سيكون لهم دور في الفتح العربى للمغرب .

وقبيل الفتح العربى شار على الملك « ومبا » حاكم قرطبة القوطى ، واسمه « رودريك » ويعرّبه العرب على « لذريق » وخلعه عن العرش وتولى مكانه ، وأتبع سياسة ظالمة لأهل البلاد ، واضطهد اليهود فتغيرت قلوب الناس عليه وفكروا في القيام ضد حكمه ، ووجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الاستعانة بالمسلمين . وتولى الوساطة بين الساخطين على لذريق و« طارق بن زياد » - قائد جيوش المسلمين المعسكرة عند طنجة - الكونت « يولييان » حاكم سبته وهو شخصية لا تعرف حقيقة أمرها ، فمن قائل إنه كان بربرياً وزعيماً لقبيلة غمارة ، ومن قائل إنه كان حاكماً للإقليم باسم الدولة البيزنطية ، وهناك من يقولون إنه كان ممثلاً لملك القوط في إقليم سبته وطنجة . على أى حال كانت العلاقة سيئة بين لذريق ويولييان ، ويذهب المؤرخون العرب إلى أن سبب ذلك هو أن الملك لذريق اعتدى على بنت يولييان ، وكانت تترعى في قصره ، وعلى أى حال أقبلت الوفود على طارق تدعوه لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية أو الأندلس ، وكانوا جميعاً يعتقدون أن العرب عندما استجابوا لهذا الطلب ، لم يكونوا يقصدون أكثر من إزال ضربة قاضية بلذريق ثم العودة إلى المغرب محمّلين بالغنائم ، وغاب عنهم أن العرب لا يقومون بهذه المهام ، وأنهم قوم فاتحون يحملون رسالةً وديناً سماوياً .

فتح الأندلس :

ولقى الطلب أذنأ صاغيةً من طارق بن زياد ، لأن قوته العسكرية المقيمة في طنجة كانت معطلة دون عمل وكانت نفوس أفرادها تتوق إلى الجهاد ، وقد ذكرنا أنه كان مع طارق أعداد كبيرة من جند البربر والعرب .

أرسل طارق إلى « موسى بن نصير » - وكان إذ ذاك والى المغرب للأمويين -

يستأذنه في غزو الأندلس فأذن له ، ولكنه أمره بأن يختبرها قبل ذلك بالسرايا ، لكي يعرف مدى مقاومة القوط قبل القيام بذلك العمل ، ثم إنه نصح طارقاً بأن يستوثق من ولاء يوليان بتكليفه بالقيام بغارة على الأندلس ، حتى يضمن أنه أصبح عدواً للذريق ففعل يوليان ذلك وتعهد بنقل جنود المسلمين إلى الأندلس في سقنه .

وفي سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م أرسل طارق بعثاً استطلاعيّاً يقوده قائد من قواد البربر يسمى طريف بن زرعة بن أبي مدرك ، فقام بمهمته خير قيام وأغار على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بغنائم وأفرّة دون أن يلقي مقاومة ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف يطلق على بلدة صغيرة جميلة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة .

تشجع طارق بهذه النتيجة ، فعبر إلى الأندلس في شعبان ٩٢ هـ / أبريل - مايو ٧١١ م ونزل بصخرة جبل طارق التي كانت تسمى قبل ذلك بصخرة «كالبى» فأصبحت تسمى باسمه ، وهناك أنشأ قاعدةً وجصناً ، عهد في حمايته إلى يوليان . ثم سار إلى الشمال حتى بلدة تسمى قرطاجة وترك بها حاميةً ، ثم انحدر إلى الجنوب وعسكر في رأس بارز في البحر سماه العرب « الجزيرة الخضراء » وبسنتشأ هنا مدينةً إسلاميةً زاهرةً (لا زالت زاهرةً إلى اليوم) تحمل اسم الجزيرة . ثم سار إلى الجنوب حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ، وسار بمحاذاة ذلك الساحل وعبر نهيراً صغيراً يصب في المحيط الأطلسي يسمى وادي « لكة » ، يصب في بحيرة ضحلة سماها العرب « الخندق » ولا زالت تحمل ذلك الاسم إلى الآن « لاختاندا » ، وبعد ذلك ضرب بمعسكره في منطقة واسعة يحدها من الشرق وادي « لكة » ومن الغرب وادي « البرباط » ، وهو عبارة عن نهر آخر . وهي منطقة سهلية واسعة تكثر فيها المدن ، فهناك مدينة « قادش » على البحر ومدينة « شريش » إلى جوارها في الداخل ، وفي الشمال في الطريق إلى قرطبة تقوم مدينة « شذونة » واسمها الأصلي « سيدونيا » . وفي ذلك السهل الواسع أخذ طارق ينظم قواته انتظاراً للقوط . ووصل الخبر إلى لذريق ، وكان مشغولاً إذ ذاك في شمال شبه الجزيرة ، فجمع قواته وانحدر إلى الجنوب للقاء المسلمين ، لأنه يبدو أن الأخبار التي بلغته روعته روعاً شديداً . ووصل إلى بلدة شذونة .

وهناك أخذ يستعد لخوض المعركة ، ثم سار للقاء المسلمين . ولم تثبت المعركة أن شُيِّت ، وهى لم تقع فى موضع محدد بحيث يمكن أن تسمى باسمه ، ودامت أكثر من أسبوعٍ فهى غير محددة لا فى المكان ولا فى الزمان ، وإنما كانت معركة من طرازٍ جديدٍ بين قوتين غير متعادلتيْن ، واستمرت حتى انهزمت قوة القوط . ولهذا فهى تحمل فى النصوص أسماء كثيرةً فهى تسمى « معركة البرباط » أو « معركة شريش » أو « معركة الخندق » أو معركة « وادى لكة » ، وأحياناً تسمى معركة شذونة وما إلى ذلك . ويبدو أن طارق بن زياد هو الذى رسم خطة المعركة على هذا النحو ، لأن الفرق فى القوة بين من كان معه ومن كان مع عدوه ، كان فرقاً كبيراً جداً . ولم يكن من الممكن التغلب على العدو إلا على طريقة الحرب الصغيرة التى تسمى اليوم باسم « الجريلا » التى نسميها عادةً بحرب العصابات ، وهذا مجرد تشبيهٍ للتوضيح فقط ، لأن جيش طارق لم يكن جيش عصابات . على أى حال نجح طارق فى القضاء على قوة القوط ، وهرب لذريق فقتبعه المسلمون فى اتجاه الشرق حتى أدركوه عند نهرٍ يصب فى نهر « شقورة » التى تقع عليه الآن مرسية . وهذا النهر يسمى « وادى الطين » وهناك قتلوه عند بلدة تسمى « لورقة » ولا صحة لما يقال من أن لذريق قتل فى ميدان المعركة ، وكذلك لا صحة أيضاً لما تذكره بعض المراجع من أنه هرب إلى الشمال والتقى مع العرب فى معركة ثانية قرب « سلمنقة » وبعد ذلك مباشرةً نجد أن طارقاً يعطينا دليلاً ثانياً على قدرته وموهبته العسكرية كفاتحٍ عظيم ، فقد رأينا هذا الرجل يدخل بلداً غريباً شاسعاً وراء البحر ويرسم خطة موفقةً للسير ، ثم عرف بعد ذلك كيف يختار مكان المعركة وطريقة المعركة ، وبعد ذلك مباشرةً سار إلى الشمال وقد امتلأت أيدي أصحابه بالغنائم وركب الخيل منهم من لم يكن عنده حصانٌ ، وإذا أردتم أن تقرأوا تفاصيل جميلةً عن ذلك الفتح ، فعندكم كتاب « فتح الطيب » للمقرئ التلمسانى ، وستجدون فيه وصفاً مطولاً عن ذلك الفتح .

اتجه طارقُ بمن معه إلى الشمال فعبّر نهر الوادى الكبير ، وكانت وجهته أن يدخل طليطلة وهى عاصمة القوط ، وتبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمائة كيلو متر ، فى أرضٍ وعرةٍ كلها جبال ووديانٌ ومضائقٌ عسيرة . وإنه لمن عجائب التاريخ التى تدل على قوة الأجيال الإسلامية الأولى وعزيمتها وإيمانها ، أن تلك

القوة الإسلامية استطاعت ، بعد معركة طاحنة ، أن تعبر تلك المسافة الشاسعة وأن تصل إلى طليطلة وتدخلها بعد مقاومة عنيفة . وفي الطريق نجد طارقاً يرسل قائداً من قواده يسمى « مغيث » الرومي فاحتل قرطبة ، وكانت في ذلك الحين معسكراً رومانياً قديماً على ضفة نهر الوادي الكبير ، وعندها تقوم قنطرة حجرية على النهر . وعندما نرى طارقاً يقوم بذلك العمل ، ندرك أن ذلك الرجل كان بالفعل قائداً عسكرياً ملماً بشئون الحرب ، لأن السيطرة على قنطرة الوادي تؤمن له طريق العودة ، وستصبح قنطرة الوادي هذه من أكبر معالم قرطبة الإسلامية ، وسيكون لها شأن في التاريخ الاجتماعي والأدبي للأندلس الإسلامي .

استقر طارق في طليطلة ، وهرب منها كبار القوط وكذلك كبار رجال الدين وعلى رأسهم أسقف طليطلة المسمى « سندرديد » في اتجاه شمالي شرقي . في الطريق الذي يسميه العرب « وادي الحجارة » والمراد بالحجارة هنا جمع حجر وهو الحصن . وقد حمل القساوسة معهم ذخائر الكنيسة ومن بينها مذبح الكنيسة ، والمذبح منضدة فاخرة مزينة بالجواهر تستعمل في الكنيسة لأغراض الصلاة . وعند بلدة صغيرة تسمى « الكالادي هنارس » ، ويسمىها العرب « قلعة عبد السلام » وتسمى أيضاً « بمدينة المائدة » والمراد بذلك مائدة سليمان التي غنمها المسلمون في ذلك البلد ، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بسليمان عليه السلام . وإنما هي المنضدة التي كانت توضع في صدر الكنيسة وعليها أدوات الصلاة من صليبان وكؤوس وكتب مقدسة وأجراس ، وتسمى في العادة بمذبح الكنيسة . وكان رجال الكنيسة يهتمون بصناعتها - أدرك العرب فيها الهاربين من طليطلة ، من رجال الدين وحصلوا منهم على ذخائر ذات قيمة كبيرة ومن بينها مذبح الكنيسة ، الذي سماه العرب « مائدة سليمان » وكانت من أكبر الذخائر التي حصل عليها العرب في فتوحهم .

وعلى أي حال استولى طارق في تلك البلدة الصغيرة ، وهي مدينة المائدة على مائدة سليمان هذه وذخائر لا تحصى ، وكان الشتاء قد دخل فعاد إلى طليطلة واستقر فيها ومن هناك كتب إلى موسى بن نصير يبلغه الخبر العظيم .

دخول موسى بن نصير الأندلس واشتراكه في الفتح:

ووصل خبر هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصير في القيروان ، وهنا نجد نقرأ من المؤرخين يذهبون إلى أن الغيرة استبدت بموسى فغضب على مولاه ، وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد ، وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه . ونجد كذلك نقرأ آخر منهم يقولون إن موسى غضب على طارق فعلاً ، ولكن ليس نتيجة الحسد بل خوفاً على جند المسلمين من الترامي إلى هذا البعد في بلد فسيح دون نظركم إلى العواقب ، وربما كان رأى هؤلاء الآخرين هو الأصوب ، لأننا نعلم أن طارقاً بعد أن استقر في طليطلة بعث إلى مولاه تفصيل ما دار في الفتوح وطلب إليه مدداً .

ولم يتردد موسى في السير إلى الأندلس في قوة كبيرة ووصل في أواخر شتاء ٧١١ م وأوائل ٧١٢ م إلى طنجة . وفي يونيو ٧١٢ م (رمضان ٩٣ هـ) عبر إلى الأندلس في قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجل ، غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرة ، وكان فيهم عدد كبير من كبار « القيسيين » والكلبية » ، وكذلك عدد من أهل اليمن ، أشهرهم « علي بن رباح » و « حنش بن عبد الله الصنعاني » . نزل موسى في الجزيرة الخضراء ولم ير بناء على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين من أهل البلاد أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه طارق بن زياد ، بل يتبع طريقاً آخر فيفتح بلاداً أخرى ينسب إليه فخرها حتى يصل إلى طليطلة ، فبدأ بالاستيلاء على شذونة وعلى حصنين كبيرين إلى جوارها وهما « قرمونة وقلعة وادي إبرة » ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة « لبللة » وهي اليوم من مدن البرتغال .

وتقدم موسى نحو « ماردة » وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية ، يحيط بها سور حصين ، وقد اعتصم فيها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم فحاصرها موسى واستعمل في ذلك أدوات الحصار . ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة في الأرواح ، ولكنهم استمروا في الحصار حتى استسلم البلد في أول شوال ١٤ / ٣٠ يونية ٧١٢ م ، وقد وجد المسلمون في ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم .

وفي شهر يولية التالي تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة ، وخرج طارق بن زياد للقاء مولاه موسى حفيهاً به ، ويقال إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك ، ولكن هذا كله غير صحيح وربما يكون الرجلان قد تعاتبا ، ولكننا نجدهما عقب ذلك يسيران معاً لمواصلة الفتوح . وفي أثناء ذلك انتفضت إشبيلية على المسلمين ، فَعَجَّلَ موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفأ الثورة ، واستولى على لبلبة وباجة وأكشونية وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربي لشبه الجزيرة ، ومنها يتكوّن النصف الجنوبي للبرتغال اليوم . وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسي في هذه الناحية .

ويذهب المؤرخ الإسباني « سافدرا » إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق في « طليبة » تسامع بظهور لذريق ، ملك القوط في غرب شبه الجزيرة في ناحية « سلمنقة » ، فأسرع إلى هناك وتلاقى مع لذريق ، وبقي القوط في معركة قرب بلدة صغيرة قرب قرية « تاماس » الحالية ، وهناك لقي لذريق مصرعه الأخير . ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيح فليس هناك ما يؤيده .

ثم عاد موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس ، وهو دون شك أول عربي يحكم قطراً أوروبياً ، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عملة إسلامية في دار السكة بطليطلة . ولما كان عمال هذه الدار إسباناً يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة أن لا إله إلا الله باللاتينية على أحد وجهيها IN NOMINE DEL: NON DEUS NISI DEUS SOLUS; NON DEUS ALIUS. وتقرأ في الوجه الثاني :

HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714.

وأراح موسى في طليطلة شتاء ٧١٢ - ٧١٤ م ، ومن هناك أرسل رسولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه النبا مع طرف من الذخائر ، ويقال إن الرسولين كانا « علي بن رباح اللخمي ومغيث الرومي » مولى الوليد بن عبد الملك .

وعندما أقبل ربيع ٧١٤ م خرج موسى بجيشه في اتجاه شمالى شرقى ، فأصدا سرقسطة وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التي تعتبر مفتاح منطقة وادي إيسرو كلها ، وقام التابعي « حنش بن عبد الله الصنعاني » باحتطاط جامع سرقسطة الذي سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة .

وعقب ذلك سار نحو « لاردة » متبعاً الطريق الروماني الكبير المبلط ، الذي يعرف بالطريق القيصرى ، ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط ، وقد استولى موسى على لاردة ، وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة ، ويقال إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى « أرغون » ومنها إلى روما . ويورد المقرئ في نفح الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يرمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب ، وهو إشراف في أحسن الظن كما هو واضح ، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كيلو متر ، كلها جبالاً ومرتفعات ، يحتاج قطعها إلى أعدادٍ وعُدٍ يصعب تصورهما .

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاردة ، فقد أقبل إلى معسكره مغيث الرومى عائداً من دمشق بأمر من الوليد بن عبد الملك ، بأن يذهب موسى وطارقاً معاً إلى دمشق ليقدماً بنفسيهما بياناً عن الفتوح إلى الخليفة . ويبدو أن مغيثاً الرومى لم يكن ياراً بموسى فيما نقل إلى الوليد من أخبار ، وكان مغيثاً رجلاً متآمراً قلقاً ، وقد انتهت حياته في معركة « الأشراف » في الغرب الأوسط ولكن أسرته « بنو مغيث » ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية المقربين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب ، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الشرقى لشبه الجزيرة ، ثم يتجه بعد ذلك لفتح الشمال الغربى فأمر طارقاً بمواصلة السير مع الطريق الروماني . وسار هو في اتجاه الشمال الغربى ، ثم انحرف غرباً بعد ذلك ، نحو جليقية ، فسار بحذاء الجبال الكتنبيرية ، أما طارقاً فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغون ، وعاهد أميرها المسمى « فرتون » ، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بنى « قسى » الذين سيكون لهم دورٌ كبيرٌ في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى وهو حوض نهر الإبرو ، وبعد ذلك اتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصن أماية ثم على مدينة أشترقة ، وكانت مركز الناحية التى تسمى في النصوص العربية « ألبه والقلاع » ، وتسمى في الجغرافية التقليدية الإسبانية بإقليم قشتالة القديمة ، وآخر ما استولى عليه طارقاً كان بلدة ليون .

أما موسى فقد سار أول الأمر بحذاء نهر إبرو الأعلى ، في اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابراً الجبال الكتنبيرية ، ودخل إقليم « اشتريس » فاستولى على

«أبيط» Oviedo ووصل إلى ساحل خليج بسكاي عند «خيحون» ، وهرب أهل الناحية وبقياء القوط شرقاً نحو البلد المسمى حالياً «كينجاس دى أونيس» ، ووراءها تقوم منطقة جبلية وعرة ترتفع فيها ثلاث قمم عالية تسمى بقمم أوروبا.

عندما وصل موسى إلى ساحل خليج بسكاي ووصل قائده طارق إلى مداخل إقليم جليقية ، شعر موسى أنه أتم فتح شبه الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلبي أمر الخليفة الوليد .

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظيمين يأخذان طريق العودة إلى الشرق في ذي القعدة ٩٥ هـ / سبتمبر ٧١٤ م وقد خلفا الأندلس وراءهما ، بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية ، في بحر ثلاث سنوات من الجهد المتصل والحركة الدائمة . فقد استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ، ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، أن يفتحوا قطراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية . وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعةٍ تعتبر مضرب المثل ، وساروا على خطية عسكرية وسياسية واضحة تدل على خبرة جيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان ، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمر بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح .

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس مكانه ، فإذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاة الأندلس كان عبد العزيز هو الثاني . وقد بدأ ولايته في سبتمبر سنة ٧١٤ م .

وقد ذكرنا فيما سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ويقال إن طارق بن زياد شكاً لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخير الأسلاب والمغانم وخاصة مائدة سليمان ، التي طارصيتها في الروايات الإسلامية .

وعلى أية حال فإن سليمان بن عبد الملك ، وكان عدواً لكبار رجال دولة بني أمية الفاتحين ، لم يستطع تقدير طارق العظيم ، فانزوى هو الآخر ومات في خمول .

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى ، بدأ في تاريخ الأندلس عصر الولاة أى الولاة التابعين للحكومة المركزية في دمشق ، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م وهى السنة التى قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وقد أنفق عبد العزيز معظم أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة ، لأن الفاتحين الكبارين قضوا على دولة القوط ووصلوا إلى الحدود في كل ناحية غير أنه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة في شرقها وغربها دون فتح ، وكان لابد من استكمال فتحها . وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، لذا فنحن نعتبره ثالث فاتحى الأندلس ، ونعتبر أن فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

عصر الولاة

٩٧ - ١٣٨ هـ / ٧١٦ - ٧٥٦ م

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحد منهم مرتين . ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالى أقل من سنتين ، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة . وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع ، فلدينا أولاً اضطراب السياسة العامة لبنى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ، ووقوعها فريسة للعصبية القبلية والشخصية ، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس ، كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب .

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبية العربية فى المغرب ، ثم خلافا العرب البلديين مع العرب الشاميين ، ثم خلاقات هؤلاء جميعاً مع البربر ، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس .

وهناك أيضاً التنارع على السلطان بين الطامعين فيه ، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبيد الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك .

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته له ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين ، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد . ويستوقف نظرننا أن العرب رغم مشاغلم الكثرة فى الأندلس ، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى « غالة » أى فرنسا ، نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس ، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية . ولا يقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء ، ولذلك سنرى أن المد العربى لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية ، كان لا بد أن يقف عند نقطة ما ، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم قليل نسبياً ، بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه ، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها ، فكان أن يعالجوا مشاكلَ جمةً . وإن الإنسان ليدعش إذ يراهم رغم صعوبة ظروفهم ، وقلة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية ، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقاً ، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً ، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك ، وعُثوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري وأنشأوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريباً .

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب ، صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهو من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام ، فأنقذ البلاد من الفوضى ، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية ، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود هباءً .

ولا يتسع المجال للكلام على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة ، ولكننا سنكتفي بتتبع ميادين العمل الرئيسية ، ثم المشاكل الكبرى التي واجهت الحكم العربي ، وما قام به الحكام حيالهم حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل .

خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر :

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى « أيوب بن حبيب اللخمي » ابن أخت موسى ابن نصير في منتصف سنة ٩٧هـ / مايو ٧١٦م تقريباً ، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد ، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى ، مع الخليفة سليمان أملاً منهم في أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد .

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال ، ولكنه هو الذي نقل عاصمة الأندلس إشبيلية إلى قرطبة ، لأن موقعها أكثر توطئاً ، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم .

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام « يزيد بن أبي مسلم » وإلى سليمان بن عبد الملك على المغرب ، بتعيين « الحُر بن عبد الرحمن الثقفي » على الأندلس ، فكان الحُر — على هذا — يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين ، مما أبعد عنه البلديين . وقد بدأ « الحُر » ولايته في ذي الحجة سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، واستمر سنتين وثمانية أشهر ، لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل ، ولكنه هو الذي أقام دار الإمارة في قرطبة ، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادي ، وكانت قبل ذلك مقرًا للحاكم القوطي الذي انتزع مغيث الرومي البلد من يده ، وقد سكن مغيث في جانب من القصر عرف ببلاط مغيث ، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه ، فلما جاء الحُر بن عبد الرحمن الثقفي ، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قرية على ضفة النهر ، باسم « بلاط الحُر » .

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في ١٠ صفر سنة ٩٩ هـ / ٢٢ سبتمبر ٧١٧ م ، نظر في أمر المغرب والأندلس فأقام على الأول « إسماعيل بن عبيد الله » وعلى الثاني « عنبسة بن سحيم الكلبي » وكلاهما كانا من خيرة الحكام . بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠ هـ / أبريل - مايو ٧١٩ م ، وعلى الرغم من قصر المدة التي تولاها ، فإنه من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية ، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما قُتِح منها صلحاً مما فتح عنوةً . وبدأ استخراج الخمس من الأراضي التي فتحت عنوةً ليُجعل ملكاً للدولة ، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة والمفروض أنه فتح عنوةً . وقد دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحُر في بعضها مقبرة للمسلمين ، ووزع الباقي على الزراع على أساس المزارعة ، أي المناصفة في الغلة . ثم أعاد بناء قنطرة الوادي وكانت قد تصدعت .

وفي سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م خرج عنبسة غازياً في غالة فاستشهد في « طرسونة » في يوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة ، إذ كان

المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يسلمون ، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك .

وكان عمر بن عبد العزيز قد ولى على الأندلس رجلاً من خيرة الولاة هو السمع بن مالك فصلحت الأمور على يديه فترة قصيرة من الزمن ولكن بعد وفاة السمح بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز ، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الجند الشاميين وولاتهم ، قصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين ، وانضم البربر في الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته في الأندلس حتى سنة ١١١ هـ / ٧٢٠ م ، وهي التي انتهت فيها إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابي » وكان من أشد الولاة تعصياً للشاميين ، الذين يسمون هنا أيضاً القيسيين . وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحدٍ منهم عاملاً على الأندلس . ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد ، وبعد عزل الهيثم ، أقام عرب الأندلس والياً منهم ثم اختارت الحكومة واحداً منهم ، هو « عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي » قبدأ ولايته في صفر سنة ١١٢ هـ / مارس - أبريل ٧٢٠ م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم في الجهاد في غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له همٌّ إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد ، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة ، ولسوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد في بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٢٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم ، هو عبد الملك بن قطن الفهرى الذي سيكون له دورٌ كبيرٌ في تاريخ الأندلس فيما بعد ، وكانت ثورة البربر في المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصدائها إلى الأندلس ، قبدأ أمر العرب في ذلك البلد يتخرج .

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر على العرب في الأندلس . وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم في أفريقية ، ولقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها ، أي المناطق الجبلية القاحلة ، وذلك غير صحيح فإن أراضي

الأندلس الخصيبة من الكثرة بحيث تنسج لكل المهاجرين عرباً وغير عرب ، ثم إن المسلمين ، لم يكونوا إذا دخلوا بلداً يقتسمون أراضي الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها ، وأراضي البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التي تحكمها ، ولم نسمع أبداً أن قبيلاً من العرب دخل بلداً فاستولى على مزارع وضياع وطرد أصحابها منها ، وإنما الفاتحون كانوا يستقرون في النواحي جماعات عسكرية تحت تصرف الدولة ، وفي قبائل ، مقابل ذلك كانوا ينالون حصّة مقررّة من الخراج ، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن يتصرفوا للزراعة ، فقد زرعوا أراضي بالاتفاق مع أصحابها على أساس المزارعة ، وليس على أساس آخر ، وفي هذا المجال تجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالا بالزراعة ، وقد انساحوا دون حرج في الأراضي الغنية في مشرق الأندلس وفي أحواض الوديان القريبة وخاصة وادي تاجة ودويرو ، وذلك كانت نواحي غنية بالأرض والثمار .

وإنما يمكن أن يقال إن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظناً منهم أن الدولة دولتهم ، وكان معظم هؤلاء من الشامية أي من القيسية ، أي من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون ، ومعظمهم من اليمنية فكانوا بعيدين عن هذه النزعة ، لأنهم كانوا أهل أرزاق ومعاش شأن غالبية الأمصار ، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم .

في هذه الظروف نقههم أن أخبار ثورة بربر المغرب التي أنكرت سيادة العرب جملة ، وجدت صدئ في الأندلس ، فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم ، وخاصة من جليقية وحوض الدويرو والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبد الملك بن قطن القهري كبير العرب البلديين ، وكان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين ، فلما رأها موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه ، من نواحي أشترقة وليون وسلمنقة وأبله وشقوبية أنفسهم أن البربر يسرون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة ، والجزيرة الخضراء على الترتيب ، خاف الرجل سوء العاقبة .

وفي هذه الأثناء كان بلجج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبتة بعد

هزيمة « الأشراف » التي أشرنا إليها في كلامنا عن الفتنة المغربية الكبرى في عصر الولاة ، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى ، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر . وبدأوا بالفعل بقيادة بلج سنة ١٢٢ هـ / ٧٤١ م . ولم ينقض عامٌ على دخولهم الأندلس ، وكانوا حوالى ١٠ آلاف ، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الشائرين . وكانت المعركة الحاسمة عند وادى سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ / نوفمبر ٧٤١ م . وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون بطاردون البربر وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعاً شديداً ، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصةً في الوسط والشمال الغربى ويعودون إلى أفريقية . وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس ، فإن الوفاً كثيرةً من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعمرها بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة ، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين ، فأصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثانى للقرن الثامن الميلادى أراضى خلاء مفتوحةً لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيفما يشاؤون ، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرو أرضاً نصرانيةً ، لقد خسر المسلمون نتيجةً لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة ، خسروه دون أن يخرجهم منه عدوٌ ، وإنما أخرجهم منه كراهةً بعضهم لبعضٍ وقلةً نظرهم إلى العواقب . وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب « بلج » رفضوا العودة إلى أفريقية ، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن فوقع النزاع الشديد بين « بلج » وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير ، وولاية بلج بن بشر في ذى القعدة ١٢٤ هـ / سبتمبر ٧٤١ م .

وقد أنكر أهل الأندلس جميعاً رئاسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين ، وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً ، فخلفه شامى شديداً العصبيته مثله هو ثعلبة بن سلامة العامل ، واشتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر في جانب والشاميين في الجانب الآخر .

أبو الخطار وانشاء الكور المجندة :

وأُسرع عامل أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، فبدأ ولايته في رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بدايةً طيبة ، فأمن العرب والبربر البليدين على أراضيهم ومصالحتهم ، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها .

ثم نظر إلى الشاميين فتيين أنهم جميعاً متجمعون في قرطبة وإقليمها ، وهذا التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة ، ففكر في أن يوزعهم على نواح شتى في الأندلس ، لا ينزلها من البليدين وأهل اليمن أحد . وقد أشار عليه بذلك أرتاباس بن غيطشة ، شيخ نصاري الذمة ، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى « بقومس الأندلس » ، وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ، ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصاري الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما طلبت ذلك .

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

جند مصر : كور^(١) أوكشونية وباجة وتدمير .

جند حمص : كور إشبيلية .

جند فلسطين : كور « ريه » ، Regio ، وهو كورة مالقة .

جند دمشق : كورة البيرة وهي غرناطة .

جند قنسرين : كورة جيان .

وقد أصبحت هذه الكور الشمالية تسمى بالكور المجندة ، وقد استقرت فيها

(١) الكورة في مصطلح التقسيمات الإدارية العربية هي ما يقابل المحافظة أو المديرية في مصطلح اليوم ولكل كورة زمامها (أى مساحتها) المعروف المحدد ، ولها قاعدة أى عاصمة تتبعها مدن أخرى أصغر تقابل المراكز في التقسيم الحالى .

جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم وأطمأنوا فيها ، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذي ذكرناه ، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثالث خراج الأرض ، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربي للأندلس .

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى اليمنية ، وثار النزاع من جديد .

وفي السنوات العشر الأخيرة من عهد الولاة في الأندلس ، ظهرت حكومة الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، والصيلم شخصية فريدة في بابها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين ، الذين سخطوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاع لا يهاب الموت كريمٌ يجود بكل ما في يده دون تردد ، شهم لا يرتكب ما يمس المروءة ، وهو سيدٌ مهذبٌ يعرف كيف يعامل الناس ، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجيد ، وهو بعد ذلك كله أميٌّ لا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرأ يسيراً ، وهو عنيف في خصومته شديد الحقد لا ينسى ثاره ، ومسرفٌ في العطاء لا يكاد يبقى شيئاً وكان لا يتورع عن شرب الخمر ، وهو ذكيٌ خبيثٌ لا يفوته أمرٌ ولا يتردد في القضاء على خصومه ، وهو كسول في معظم أوقاته ، فإذا قام على قدميه لم يهدأ ، وتحول إلى شيطان متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذىً شديداً .

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس فثنين بسبب قيسيته ، أي شاميته ، أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب ، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أي صورة من الصور ، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين ، فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواءه ، ثم بحث في المعسكر الآخر أي البلديين فاختر زعيماً يؤيده ويُسَيِّر الأمر باسمه ذلك الوقت ، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي أجمع البلديون على رياسته ، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب مضررتهم ، وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهري ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه واستقر

الأمر على ذلك في ربيع الثاني ١٢٩ هـ / ديسمبر ٧٤٦ م . ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع رعيم يمني يسمى يحيى بن حريث ، بلغت عصييته لليمنية مبلغاً جعله غير قادرٍ إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيل ، ولكنه انهزم وقتل في معركة شقندة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف القهرى حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وقد بدأت الأحوال هذه السنوات ، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبينهم وبين البربر ، فازدادت الهجرة إلى أفريقية وقل عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان ، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يمنيين فاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .



قيام الدولة الأموية الأندلسية

١٢٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهري، وهي ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبي ساد البلاد في أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكم قوي نشيط، فإن البلد خضع للمسلمين، لكنه لم يتحول إلى بلد إسلامي بعد، فقد كانت غالبية السكان نصرانية، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو القلق المضطرب فإن أمر المسلمين في الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيد بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر ولو عادت الفتنة مرة أخرى، ولو لفترة قصيرة لأصبح تلافى النتيجة المحتملة مستحيلاً.

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادث هو من قبيل المصادفات، ولكنه كان من أسعد المصادفات في تاريخ الإسلام، ذلك أن قيام الدولة العباسية في ربيع الأول ١٢٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م اقترن بمذابح واسعة النطاق، أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بآل البيت - في الظاهر - وتخلصاً من بقايا الأمويين وأنصارهم في المناطق، وقد حصد العباسيون الأمويين دون رحمة ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكور عدا البنات، وقد قُتل الابن الأول، فبعث قُتل من الأمويين في دمشق عندما دخل العباسيون، أما الثاني فقد قُتل في مذبحة «دير الجماجم»، وفر الثالث والرابع فقد كانا في بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ففرا معاً، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وكان في التاسعة عشرة، وأخ له صغير في الثالثة عشرة، واختفيا في مكان من ضفة الفرات، ثم طلبا إلى نوتى أن يعينهما على العبور، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما، ففرا على وجهيهما وألقيا بنفسيهما في الماء ليعبرا سباحة، ووقف الجند على الشاطئ يدعونهما إلى العودة.

وبعد أن أعطياهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع ، فلم يكن يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فرّ إلى قرية في الشام ، وكان قد اتفق مع أخته « أم الوليد وأم الأصبع » على أن ترسلأ له مولييهما « بدرأ وسالمأ » فيعود إلى هذه القرية ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب وكادوا يقعون في يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نجوا إلى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا في قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة .

وعلى بعد ٦,٠٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان . كانت سنة ١٢٦ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميل ويوسف الفهري وكان سالمأ مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير . ولكن سالمأ لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبعث معه بدرأ الذي سيكون له نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية في الأندلس .

وفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٥٢ م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى الصميل ويوسف الفهري وكان سالمأ مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة عساكر موسى بن نصير . ولكن سالمأ لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق وبعث معه بدرأ الذي سيكون له نصيب كبير في إقامة صرح الدولة الأموية في الأندلس .

وكان في الأندلس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية ، ما بين موالى خلفاء كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموي عامة وموالى موسى بن نصير ومغيث الرومي ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليهم موالى القرشيين ، وقد عرفوا بموالى قريش ، فكثر عددهم وكانوا من خيرة مسلمي الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهري قد ادعى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند زهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم في ذلك قوة لهم ، فاندرجوا في أنصار يوسف وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى شيء بفضل هؤلاء الموالى في الأندلس .

لهذا أرسل مولاة بدرأ برسالة إلى زعمائهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت - يرجوهم فيها معاونته على الوفود إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياة مناسبة لئله .

ومن أول الأمر فهم الموالي أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك يوافق أهواءهم فاهتموا للأمر ، وكلموا فيه الصميل بن حاتم ، لأنهم كانوا يعرفون أن القوة في يده . ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى ، والمفروض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورة في سرقسطة ، قام بها اليمينيون وكان يلح على الصميل وموالي بني أمية في الخروج ، وهؤلاء يسوّفون . ثم خرج الجيش آخر الأمر وفي أثناء الطريق تبين موالي بني أمية أن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمّر لعبد الرحمن هذا خيراً ، فأنصرف زعماءهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالي في « البيرة وجيان » ، وفي الطريق قرروا أن ينفضوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرية وأن يعتمدوا على القبائل اليمينية الكلبيّة ، وكانوا موفقين في هذه الخطوة لأن اليمينية كانوا يتوقون إلى الأخذ بثأر مزيّتهم في « شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهرى .

لهذا استجاب اليمينيون في إقليم غرناطة إلى هذا النداء وتحمسوا لعبد الرحمن ، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وقرروا مع موالي بني أمية استقدامه إلى الجزيرة ، وهكذا عبر عبد الرحمن في ربيع سنة ١٢٧هـ / ٧٥٤م إلى الأندلس ونزل في « فرضة المنكب » في كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دلو يوسف بن بخت شيخ جند قنصرين وأحد كبار موالي بني أمية ، وهناك توافد عليه الموالي وأتباعهم وذاع الأمر في الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى في سرقسطة ، وكانت ظروفهما سيئة بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن في أحد حماسٍ حقيقى للنهوض معهما ، وأقبل الشّقاء وهما في هذا الثغر القصي ومضى الناس يهوّنون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام .

وفي هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في « طرش » يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه المنضمين إليه من اليمينيين ، وانضمت إليهم جماعات من البربر ، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل في ظل حكم جديد .

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضر والقيسية تتوافد على الصميل ويوسف، وكانا قد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المضرين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التي وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم. وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمنيين لاستنهاضهم، فانضم إليه الكثيرون وتقدم من قرطبة وضرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، في حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الجانبان للقاء حاسم. ووقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة ١٢٨هـ / ٧٥٦م عند « المصارة » وهي طرف قرطبة الغربي، وانتهى اليوم بنصر حاتم لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم. ثم صلى بالناس وخطب على جند قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، بل ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي كله.

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنهما ثم نكثا عليه، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموته مخنوقاً في سجنه، أما يوسف الفهري فقد تشرّد في نواحي الأندلس حتى قُتل في قرية قريبة من طليطلة.



فتوح المسلمين

شمالي جبال البرت

في غالة (فرنسا)

في مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة . هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكي يستمر العرب في الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبثمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلي جبال البرانس في الشمال فكانت تحتله في الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « بردال أو بردو » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفي ناحية الشرق ، شمال سبثمانية كانت تقوم دوقية « برغنديّة » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أي أن العرب في محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة : بقايا قوات القوط في سبثمانية التي تسمى أحياناً « لاجاليا جوثيكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغنديّة ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرندة المعروفة باسم « خيرونا » ، وبذلك كان شبه الجزيرة كله في قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جدية على يد السمع بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م . وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقاد جنده من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولونة (تولوز) أولى المداخن الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م ، ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمع هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الجند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلبي ، فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / ، فرقب أمر حاميش « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء على مدن . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بوجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعدت مع السارون شمالاً

فتوح المسلمين

شمالى جبال البرت

فى غالة (فرنسا)

فى مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة . هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبثمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « بردال أو بردو » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبثمانية كانت تقوم دوقية « برغندي » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أى أن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة : بقايا قوات القوط فى سبثمانية التى تسمى أحياناً « لاجاليا جوتيكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغندي ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرنده المعروفة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جدية على يد السمح بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقاد جنده من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولونة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم . وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يونيو ٧٢٠م ، ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمح هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم ، تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الجند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عتبة ابن سحيم الكلبي ، فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عتبة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / ، فرقب أمر حاميتي « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن يتفق وقتاً في الاستيلاء على مدن . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللوار الذي يلتقي بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والآخرى صعدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعد ٧٠ كيلو متراً جنوبى « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهى تبعد نحو ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال البرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة وإيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التى تمت فتوح المسلمين فى « غالة » خلالها ، فإن عنبة كانت يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراسّة على بعضها بعضاً ، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقة كانوا يمرون فى فترة نهوض سياسى تولاه آل « كارل مارتل » الذين عرفوا بالكارولنجيين ليحلوا محل الميروفنجيين ، وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربية « قارله » يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصة التى تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دون ملك الميروفنجيين الضعيف .

وأخذ عنبة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله ، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنبة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون ، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه ، وربما جاز تشبيه حملة عنبة بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع ، ولكن ظروف العرب فى المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التى عهدناها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنبة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحاماً وأوغلوا فى داخل بلادها ، دون أن يستطيع أحد مقاومتهم ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل أو كارل بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقاء حاسم ، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء « برغندية » واتفق مع رجال « سبتمانية » ومع الدوق « أودو » ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق في صفوف المسلمين المقيمين في الثغر الأعلى الأندلسي أي حوض الإيرو وكان له أثر سيئ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى «موقوسة» كان مركزه في الناحية الغربية من جبال ألبرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال . وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقي الذي كان يحكم أرغون وينظم أعمال الجهاد اختلف مع موقوسة اختلافاً شديداً ، وكان عبد الرحمن رجلاً عنيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبة بن نافع ، فاشتد مع موقوسة فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر .

وكان عنيسة قد استشهد في طريق عودته إذ دهمتهم قوات نصرانية كبيرة في خوانق جبال ألبرت ، وقد قُتل عنيسة في اللقاء في شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهري الذي حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونية - يولية ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعمليات عسكرية قليلة في غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامي الذي كان مركزاً في أرغون كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة في كل جهة ومثل هذه الغارات والضربات تؤتي غنائم وافرة للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهي من ناحية ترعب الناس من المسلمين ، وتلقى في روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحية أخرى فهي تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهري لم يستطع ضبط رجاله ، فداع اسمه في جنوبي فرنسا كلها كرجل سفاك نهاب ، وتطلع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهبة ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارل مارتل . بينما تعاقب على ولاية الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الغافقي وذلك خلال الأعوام (١٠٥ - ١١٢ هـ / ٧٢٢ - ٧٣٠ م) سبعة ولاة ، لم يقض أحدهم فيها أكثر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الولاية وقيادة الفتوح صارت في صفر ١١٢ هـ / أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، حقاً إنه لم يستطع استعادة موقوسه إلى صفوفه ، ولكنه على أي حال أوقف تيار تدهور الفتح إلى غارات ، ولو أن عبد الرحمن الغافقي كان أقل عنفاً عما كان في الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الغافقي بحملته الكبيرة في أوائل ١١٤ هـ / ربيع ٧٣٢ م وكان معه ٧٠ ألف جندي تقريباً غالبهم من البربر ، في حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل .

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وأتى عبر جبال ألبرت في ١١٤ هـ / صيف ٧٣٢ م من الممرات رأساً إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مرةً أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فاجهز على ثورة قامت في مدينة « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « برود » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أودو » فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدوردوني ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرع « أودو » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتييه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذي تسميه مراجعنا « قارله » فحشد كل ما استطاع من قوة للقاء المسلمين ، واستنفر الناس استنفاراً فتضخم جيشه ، وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكي يثبت جدارته بالملك من دون الميروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامي كبيراً ولكن ليس بالضخامة التي يصفه بها المؤرخون النصارى . وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامي رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جداً عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريباً شمال جبال ألبرت .

وجبال ألبرت تبعد ٩٠٠ كم عن قرطبة ، وهذه مسافات واسعة جداً تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجاذ إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين ، في حين أن «قارله» كان يحارب في بلاده وبين أهله وعشيرته .

ثانياً : كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة على ما ينبغي في هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقي من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف في الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

ثالثاً : كان الوقت خريفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربي لم يكن يحسن الحرب في الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها في الجو الدافئ الجاف .

رابعاً : يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جندياً عظيماً ، ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق بن زياد ، فقد استمر عبد الرحمن في سيره حتى لقيه الفرنجة .

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التي كان الجيش الإسلامي يسحبها وراءه ، ويقفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة .

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال «بواتيه» في الطريق إلى «تور» وجنوبي مجرى اللوار ، في موضع قريب من طريق رومانى قديم هو المسمى «بالبلاط» ، وفي هذا الموضع قرية تسمى الآن مواسيه لا باتاي Moissias la Bataille وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة .

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت في ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م / أواخر شعبان ١١٤هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية ، والحق أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال ، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناس جرمانية أخرى ، وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامي ، فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ودقت ثغرات نفذ منها الأعداء ، وفي أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقي بسهم أصابه ، وكان هذا نذير الهزيمة . وقد استمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فانتهبوها ولم يفكروا في تتبع المسلمين ، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، عامل أفريقية ولّى عبد الملك بن قطن الفهري من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفي الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين في جبال ألبرت وجنوب فرنسا . وثبت سلطان المسلمين في سبتمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خلفوا الدوق أودو في حكم نواحي أقطانية وتمكن في وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التي خلفت عن هزيمة البلاط ، ومن حسن الحظ أن « كارل » شغل عن المسلمين بأعداء كثيرين من أبناء جنسه في شمال مملكته ، فأتاحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطن من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد من قواده ، تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهري . وقد فتح يوسف هذا مدن « آرل وأينيون وفالانس وليون » وثبت حدود أملاك المسلمين هناك ، ثم أخضع إقليم « دوفينية » الذي يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً كبيراً مما يعرف اليوم بالرافغييرا الإيطالية ، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحي جبال ألبرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسة جديدة لحكم ما بيدهم من فرنسا وهي إقامة حاميات قوية في المدن وتحصين قلاعها

واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكذا كان الحال في ليون وأبنيون التي يسميها المسلمون صخرة أبنيون وأرل وغيرها .

ثم تولى بعد ذلك عقبة بن الحجاج السلوى فآتم إخضاع نواحي برغنديّة ، وكان عقبة مجاهداً عظيماً ، فتجددت همة المسلمين للقتال ، وأحس كارل أنه لا مفرّ له من مواجهة المسلمين مرّة أخرى . وتقدم بالفعل بجيش كبير يقوده هو وأخوه « شلديراند » ، وسار نحو المسلمين أيضاً ملك اللومباردين ، فاضطر المسلمون إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرغون وتحصنوا فيها ، وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وكان ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة على أملاك إسلامية شمال جبال ألبرت ، فأخلى هذه الأراضي واقتصر على شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكان ذلك خطأ منه ، لأن جبال ألبرت هي مفتاح إسبانيا ، وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعادت الفرنجة فيما بعد منطقة قطلونية ، فأنشأ شرلمان فيها ولاية الشجر الإسباني « لماركا هيسبانيكا » . ومعنى ذلك أن شبه الجزيرة انتقص أيضاً من الشرق بعد أن انتقص من الغرب كما رأينا .

وقد بقيت للمسلمين جماعات محاربة في نواحي سبتمانية ودوفينية ، وانسحب معظمها إلى نواحي جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع يقومون منها بأعمال عسكرية فيما يجاورها ، وقد وصلت أعمالهم الحربية إلى قلب سويسرا ، ولكن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلامية ، إنما هي غارات معظم هدفها الدفاع عن النفس والسلب ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، تاركة أسماءها على بعض النواحي وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية . من أمثال « أمرو » وهو عمرو « واشمه » وهو هرثمة « وسارازان » وهو اسم عام يراه به المسلمين عامة في هذه النواحي .

عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٣٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م
هشام الأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م
الحكم الأول ابن هشام (الرضى) ١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينة ، يستطيع الاطمئنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفات كثيرة : السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير رغم أن سنه كانت صغيرة إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خصالاً أهلتة للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموي ، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسة تكون فيها نقر من خيرة المتأخرين من بنى أمية ، منهم : مروان بن محمد الجعدي وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام هذا ، فبدأ يرقب أموره بهدوء ويتلقى الثورات التي قامت عليه ، في حزم وثبات ، ومضى قدماً في تثبيت أركان إمارته التي وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير في العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغى لها من قواعد ، فنجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بنى أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « تمام بن علقمة ويوسف ابن بخت وبدر مولى عبد الرحمن نفسه وعبد الواحد بن مغيث الرومي وعبد الحميد بن غانم وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعي وعبد السلام ابن عبد الله جد بني عبد الرؤوف وعبد الله بن وانسوس المكناسي » مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأبنائهم من عهد القوة والنظام الأموي والأندلسي على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصلت في بيوتهم . وأهم بيوت أهل

الحكم هذه التي تميزت على غيرها ، وكثير ظهور النابهين من بين أفرادها في ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتولى العمالات والوصول إلى مراتب الإدارة مرة بعد مرة ، بيوت : « تمام بن علقمة وعبد الواحد بن مغيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبو الغمر حسان بن أبي عبدة » ، وستنضم إليها وتتفرع منها في الطريق بيوت أخرى ، ولكنها بيوت موال أيضاً ، ومن يدرس تاريخ بنى أمية الأندلسية لا بد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبي عبدة وبنو عبد الرؤوف وبنو شهيد » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضلٌ عظيمٌ على بنى أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبد الرحمن الداخل هو الذي وضع ذلك الأساس ، لأنه كان في حاجة بالفعل إلى رجالٍ يعتمد عليهم فهو غريبٌ عن البلاد ، لا يعرف عن أهلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموالى جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فنشأت بيوتهم أندلسية في طبيعتها ، ونشأ أولادهم أندلسيين في مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانوا عرباً في روحهم وثقافتهم ، مسلمين أمناء في ديانتهم ، وسيسير بنو أمية أنفسهم في ذلك الطريق ، سيتزوجون من أهل البلاد ، وينبض في عروقهم الدم الأندلسي ، وابتداءً من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث في القصر والشارع وشئون الأسر والأسواق ، كانت مزاجاً من العربية والإسبانية ، بينما كانت العربية لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات . وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسي على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عونٍ كبيرٍ من العرب اليمنيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمنيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن ، معناه أن الدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعون الآن أن يتصرفوا كيف يشاؤون ، ويستثمرون على أسلوب الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال والإغراق في العصبية القبلية ، التي وصلت بالأندلس إلى الحالة السيئة التي رأيناها خلال عصر الولاة ، ولكنهم قوَّجُوا بأن العهد الجديد لن يعترف بقيسيةٍ أو يمنيةٍ ولا يفرق بين شاميين وبلديين أو بربرٍ أو أهل البلاد ، إنهم جميعاً أهل وطنٍ واحدٍ ، ولا بد لهم من الخضوع لقرطبة ، وقد أنكر اليمنيون ذلك إنكاراً شديداً واعتبروه جحداً لفضائلهم ، فتسَّالت ثوراتهم على عبد الرحمن في كل ناحية ، وقد اعتمد في

حربهم على مقاتلي بني أمية ، وعلى جند الكور المجندة وعلى حشود البربر وأهل البلاد ، وكانت خطته معالجة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفيع كبير ، فقضى دون كبير مشكلة على ثورات اليمانيين في الجزيرة الخضراء وإشبيلية وطليطلة وباجة .

وكانت بعض هذه الثورات خطرة حقاً مثل ثورة «العلاء بن مغيث اليحصبي» في باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمانيين والفهرريين وجند مصر ، ودعا لبني العباس وكتب إليهم يطلب سجلاً بالحكم ورخصوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين في حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م ، وقد حاول زعيم يمني آخر هو «سعيد اليحصبي» المعروف «بالمطري» ، أن يثار لقتل ثورة العلاء بن مغيث ، واستنفر اليمانيون للثورة على عبد الرحمن في «لبلة» جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هي الأخرى وعلى محاولة مماثلة في إشبيلية .

وكانت آخر ثورة خطيرة واجهها عبد الرحمن هي ثورة رجل بربري يسمى «شقياً» أو شعياً بن عبد الواحد ، زعم أنه من أبناء قاطعة الزهراء ، وقد قامت في منطقة وعرة هي «شنتمرية» ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعي الفاطمي إلا بعد جهد شديد سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م .

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولة قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطة في الثغر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعاً تحت راية عبد الرحمن في ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه ووعدوه المعاونة ، كانوا عرباً يتزعمهم «سليمان بن يقظان الكلبي» المعروف بالأعرابي ، وإلى برشلونة ، «والحسين بن يحيى الأنصاري» وإلى سرقسطة ، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرضوا الإسلام والعروبة في الأندلس للخطر ، في سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقضاء شارلمان في «بادربورن» في ولاية وستفاليا في غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونوه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفي شوال ١٦١ هـ / ربيع ٧٧٨ م سار شارلمان نحو إسبانيا في جيش ضخم ،

فعبّر جبال ألبرت من الشرق أى من ناحية « تريبونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية في ممر في الجزء الغربي من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشررى » ، وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من حلفاء المسلمين في ذلك العمل ، وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصارى » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شارلمان على بنبلونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابي قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهى بغزو نصراني أجنبى لبلاد إسلامية ، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس على أولئك الغزاة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقرر العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابي ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً في سنة ١٦٦ هـ / ٧٧٨ م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمى الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، فقرروا الهجوم عليه عندما تتوسط قواته خوانق ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير^(١) إن « شارلمان لما بعد عن بلاد المسلمين واطمان ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابي في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة » . وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة لواقعة خطيرة سيكون لها صدئ بعيد في الأدب الشعبي الفرنسى ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارس من إقليم بريطانيا ، يسمى « هر دولاند » ويعرف عادة « بـرولاند Roland » فاتفق عليها المسلمون والبشكونس ومزقوها وقتلوا رولاند ، رغم ما أبدى هو ومن معه من بسالة ، ثم وقع قتال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان . والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » ، ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخى ، لكنها تزيّن تصور الناس في جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم . وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، ففضى على يقايا الثائرين

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٦ صفحة ٥ .

ومُهدَّ أمرَ إقليمها ونظمه ودخل بنبلونة عاصمة البشكونس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٢ هـ ، ١٦٤ هـ / ٧٨١ م .

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه في هدوء نسبي ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته . ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بعث يستدعى بقايا بني أمية ، ليستعين بهم في أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهد إليهم بمسئوليات كبرى ولكنه فوجيء بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم في القضاء عليه فيش من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلاقى تكران الجميل وانقلاب الرجال ، مما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بني أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجتدة وهم من العرب ، وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوة جديدة من الصقالبة ، وكان أمراء المسلمين والأوربيين في ذلك العصر يشترون أبناء الصقالبة صغاراً من بلاد نصرانية ، ويُربَّون في البلاد الإسلامية تربية إسلامية عربية ، وينشأون جنداً خالصاً للإمارة ورجالها ، وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس .

وقد تولى عبد الرحمن في ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ٣٣ سنة ، كلها عمل متواصل ومصاعب وأهوال ، فهذا الرجل الذي شاد بنفسه ملكاً ، وأنقذ بلداً ووضع أساس تاريخ شعب وحضارة أمية ، لم يسترح يوماً منذ تولى أمر الأندلس في ذي الحجة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م ، فقد كان البلد الذي تولى أمره ضيقاً .

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غريباً وحيداً تقريباً ، فتمكن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولة ، تعد من أمجد دول الإسلام ، أقامها على أسس إدارية وسياسية ومالية متينة أثبتت الأيام صلابتها ، وهو من هذه الناحية يفوق معظم مُنشئي الدول في تاريخ الإسلام ، ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين قُدِّرَ له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على الفوضى والأتانية والقسوة وقصر النظر وكان الكثيرون من زعمائهم ، لا يُبالون بمصير الإسلام

والعروبة ، في سبيل مصلحة يسيرة يحققونها ، أو تأثر يدركونه ، أو كبرياء يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملة أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبالى في سبيل الدولة بأى شيء . وقد وصفه « دوزى » بالكيافيلية والقسوة والخبث ، ولكن دوزى ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر في الغرب الأوربي في ذلك العصر الذى كان الناس فيه يرفضون الخضوع للدول وتنظيمها . ولهذا فقد اشتد في نقد عبد الرحمن ، والحقيقة أن هذه خلال التى لا نرضاها في هذا الرجل ، لم يكن عنها غنى لرجلٍ مثله في مثل ظروفه ، وكان لا بد على أى حالٍ من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد نجح عبد الرحمن في ذلك ولكننا لا مندوحة لنا من أن نقرر أنه كان دائماً يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبةً منه في الخلاص من المشكلة بسرعة ، وبعد أن توالى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحدٍ ، وقد غضب على بدر مولاة بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه في شبه نفي بسبب صغير لا يستحق ، وعامل رجاله بعنفٍ وحزمٍ بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حدٍ كبير جدّه هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسن حظاً منه ، لأن هشام بن عبد الملك تولى أمر دولة كانت في سياق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولة ناشئة يضم كيانها موارد متدفقة بالقوة والحيوية فأقبل ينتفع بها على أحسن وجهٍ مستطاع .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أموياً صريحاً يشبه في كثير من خلاله مروان ابن الحكم وعبد الملك وابنه ، وفي بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهة من الوليد ابن عبد الملك (في موضوع المنشآت والعمائر) وملاحم من هشام بن عبد الملك (في ناحية السياسة المالية وتدبير مصروفات الدولة) أى أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بنى أمية المشاركة ، ووضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسةً حكيمةً لدولة سليمة البناء ، تقوم على أسسٍ سياسية وإدارية ومالية تمكّنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور .

وإلى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهماً نشيطاً ذا همّة ، وعاملاً لا يتعب ، فخلال إمارته التى امتدت ثلاثاً وثلاثين سنة ميلادية ، لم تقعد له همّة

ولم يركن إلى الراحة إلا في فترات قصيرة جداً سجلها المؤرخون ، ومن ذلك أن « ابن عذاري » ، يكتب في بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التي تقول : « وفي هذه السنة لم تكن للأمير حركة » ، وكان أحسن ما فيه عقله المرتب وطريقته المنظمة في العمل ، فكان يدرس مشاكله في هدوء ويتلقى أخبار الثورات التي تقوم عليه بجنان ساكن ، ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله ، مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإن أخذ عليه سرعتة إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكننا لا نقرأ في أخباره ما تعودنا أن نقرأه في أخبار أمثاله من الغدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم ، وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر ، كما فعل مع الصميل بن حاتم ، إذ أنه أمر بخنقه في سجنه ، ولكن الغدر والقسوة كانت من أسس الحكم في العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعالاً لا ترضى عنها ، وهذا يخفف من مسئولية عبد الرحمن عما يُتهم به من أعمال القسوة والعنف والغدر في كتب التاريخ .

وعندما توفي عبد الرحمن خلفاً العرش لابنه هشام ، ترك دولة ثابتة الأركان ، فلم يكن على ابنه هشام إلا أن يسير في خطوات أبيه .

وقبل أن تنتقل إلى هشام ، لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففي أيامه بدأ عمران قرطبة ، وهو الذي أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبالة قصر الإمارة ، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثر معماري في تاريخ الغرب الإسلامي كُليّة .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحة فسيحة واسعة قبالة المسجد ، وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه المساحة كلها لتكون قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصراً خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالحديدات الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقارب من ضفة نهر الوادي الكبير ، فعمد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وفتح باباً في السور في الشارع

بين النهر والسور ، وسمي هذا الباب « بباب السدّة » ، لأنه كان يواجه سدّة جعلوها في مجرى النهر لكي يرتفع مستوى الماء ليحرك ناعورة أو ساقية كبيرة أقيمت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر وإصاله إلى داخل المدينة ، وقد سمي الحى الصغير الذى أحاط بتلك الناعورة « بمنية الناعورة » .

وباب السدّة هذا كان مفتوحاً للجمهور ، إذ أنه كان يُفصى إلى مكاتب الدولة التى كانت تزداد عدداً وموظفين مع الزمن ، وكلما مضى عددٌ من السنوات أنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلية من قصور الإمارة مركزاً إدارياً للدولة فى قرطبة ، وإلى جانب باب السدّة جلس من نسميهم بالكتاب العموميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التى يتقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلاب العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانوا يقيمون فى ضاحية جنوبى قرطبة تسمى ضاحية أو « ربض شقنّدة » ، وكان هذا الربض مسكن العمال من كل صنف ، وكان بينه وبين مدينة قرطبة قنطرة حجرية تعرف بقنطرة الوادى وأصلها من بناء الرومان ، ولكن العرب جددوها مرّة بعد مرّة ، وكانت من نزعات الأندلسيين المشهورة لأن تلك القنطرة القائمة على النهر كانت واسعة قائمة على أرجل أى أعمدة فى ماء النهر ، وكانت عامرة بالحركة لأنها كانت تؤدى من ربض شقنّدة إلى « المحجة العظمى » وهى الشارع الرئيسى الذى يقطع قرطبة من جنوبها إلى شمالها بادئاً من قنطرة الوادى ومُنْتَهياً إلى الباب الشمالى الأقصى الذى عُرف بباب « عبد الجبار » ، وكان من أشهر أبواب سور قرطبة .

وإلى الشمال من قرطبة وعلى بعد نحو أربعة كيلو مترات منها أنشأ عبد الرحمن لنفسه قصرأ ريفياً على مثال البوادى أى قصور البادية ، التى كان خلفاء بنى أمية فى المشرق ينشئونها فى البادية ليقضوا فيها أوقات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكان هذا القصر الذى بناه عبد الرحمن يقوم على تل مرتفع يسمى « تل الرصافة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافة . وهو يطل من الجنوب على الحقول التى تفصل بينه وبين قرطبة ، ومن الشمال كان يطل على « فحص » أى

أرض فضاء واسعة سُميت « بفحص السراق » ، وفي ذلك الفحص أو الميدان الواسع اتخذ عبد الرحمن المنازل لجندده وقواده ، وكان يحرص على تربيتهم وتدريبهم تدريباً منظماً مستمراً ، وفي نهاية شتاء كل سنة كان ينادى بالنفير فتأتى إلى قرطبة حشود العرب من أهل الكور المجتدة ومن ينضم إليهم من « المطوعة » أى الراغبين فى الجهاد فى سبيل الله دون أجر ، مكثفين بنصيبهم من الغنائم وما يكتب لهم من ثواب الجهاد . وإلى هذه القوات كانت تضاف قوات الصقالبة الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صفاراً ويربيهم تربيةً عسكرية دينية إسلامية ليكونوا جنداً للإمارة وخداماً لها فى شتى شئون القصر والحكم وكانوا يسمون بتسمية عامة هى « الصقالبة » ومعناها « السُلاف » أى من الأصل السُلافى ، وهو أصل الروس ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتكوتون من كل أجناس أوروبا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك الغلمان من الدول القريبة التى كانت تأسرهم وتعرضهم للبيع فى أسواقٍ معروفةٍ لأولئك التجار ، وقد استمر عبد الرحمن يشتري من أولئك الصقالبة حتى صار له منهم جيشٌ عدته أربعون ألفاً ، كان من بينهم حرسُة الخاص وخيرة جندده . وكان العاملون فى القصر من أولئك الصقالبة يُسمون بالفتيان وينقسمون قسمين « الفحول » و « الخصيان » ، فاما الفحول فكانوا يُستخدمون للحرب وأعمال الدولة وأما الخصيان فكانوا يخدمون داخل القصور ، وكان تجار المسلمين يشترونهم من تجار اليهود الذين تخصصوا فى إجراء عمليات الخصى لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .

هشامُ الأولُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ المعروفُ بِالرَّضِيِّ

وخَلَفَ عبدَ الرحمن ابنَه هشاماً ، ولم يكن أكبر أولاده ، ولكنه كان محبباً إلى أهل الدولة والفقهاء ورجال القصر لدمائه كانت في خلقه ، ولهذا تخطى أخاه سليمان ، وكان جندياً لا يهتم إلا بالجيش وأهله .

بدأ هشامُ حكمه في جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأمّه أم ولد جليقية ، وكان يُبغض لينا وورعاً ، ولكنه كان في الحقيقة سياسياً يجتذب الناس بمظهر التقى ، ولم يفعل شيئاً ذا بالٍ أثناء حكمه القصير ، ولكن الناس ارتاحوا له ، لأنهم كانوا قد تعبوا من عنف أبيه وسرعته في البطش واستمراره في الحركة والعمل ، ونستطيع أن نعتبر إمارة هشامٍ إكمالاً لإمارة عبد الرحمن .

ولم يعكر صفو إمارة هشام إلا ثورات قام بها بعض اليمانيين ، وخاصةً في إقليمي قطلونية وسرقسطة ، ومحاولات قام بها نصارى الشمال للاتساع جنوباً ، ولكن قواد هشام عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار .

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم ما حدث في عصر هشام هو دخول مذهب مالك إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب « الأوزاعي » إمام أهل الشام ، ويمتاز فقهه بالناحية العملية ، فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع صالح الجمهور فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض مع أوامره ونواهيه . وهو مذهب أخذت منه المذاهب الكبرى بأطراف ، ولكن مالكاً يعممه ويجعله قاعدة . ومن سوء حظ « الأوزاعي » والليث بن سعد وطاووس « وأمثالهم من أصحاب المذاهب الفقهية الأولى التي دثرت ، أنهم لم يرزقوا تلاميذ يُدونون مذهبهم وينشرونها في الآفاق ، أما مالك بن أنس فقد كان أحسن حظاً ، فقد رزق تلاميذ نبهاء أمثال « عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز » ومن إليهم من منشئ المدرسة المالكية المصرية ، ثم « أسد بن القرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون » اللذين أدخلوا مذهب مالك إلى المغرب ، وعَمَلًا على نشره مع طائفة من أجلة الفقهاء .

وفي الأندلس أيضاً كان مذهب مالك حسن الحظ ، فقد كان مالك معاصراً
لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكف عن الثناء عليه ، وكان ذلك يبلغ هشاماً
فيسرّح إليه ، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالك الذين درسوا عليه ، من
أمثال « الغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وعيسى بن
دينار وسعيد بن أبي هند » ، رُحِبَ بهم هشام وجالسهم وأذن لهم في تدريس
مذهب مالك في المسلمين وأخذ القضاة بالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكية قضاة
وفقهاء مشاويرين ، أي أهل شورى يستفتيهم الأمر فيما يجريه من أمر ، وشيئاً
فشيئاً أصبح المذهب المالكي المذهب الرسمي في الأندلس .

التقليد الشامي :

ومذهب مالك هو العنصر الحضاري الوحيد الذي قبلته الإمارة الأموية
الأندلسية خارجاً عن نظم الأمويين في الشرق . وأهم هذه النظم العربية المطلقة في
لغة الدواوين وأوساط الدرس ، فبينما كان العباسيون في الشرق يقبلون صوراً
حضارية إيرانية وهندية ، كان الأمويون في الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربي ،
وهم لم يفعلوا ذلك بقانون سنوه ، وإنما كان اتجاههم عاماً في الحياة ساروا فيه
وتبعهم الناس ، فعلى الرغم من أن مسلكهم قسام في أوروبا ، إلا أن الحياة في
قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكانت قصور بادية ، تذكرنا ببوادي
خلفاء بني أمية الشرقيين في الشام . ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه
قصر الرصافة الذي أشرنا إليه . ولم يخرج حكام بني أمية الأندلسيين حتى أيام
الناصر عن التراث والعصائد ، واعتمدوا على رجال ذوي همّة وبسالة وروح
عربي ، وإن لم يكونوا من أرومة عربية خالصة ، فقد كان منهم بربر ونفر من أهل
البلاد ، ولكنهم جميعاً استعربوا لساناً وفكراً وأسلوب حياة ، وصاروا يعدون
أنفسهم عرباً . وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة الكنيسة
لنصارى الأندلس ، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات ، وقد كان
ذلك من أكبر العوامل التي أسرعت بتعريب أهل الأندلس ، وتحويل هذا البلد إلى
مركز من مراكز الحضارة العربية ، ويعرف ذلك كله « بالتقليد الشامي » الذي
التزمه أمراء بني أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة .

« وكان معظم الموالي الأندلسيين يعدّون أنفسهم بين الشاميين ، لأنهم كانوا

موالى بنى أمية ، وبنو أمية ظلوا حتى في الأندلس يعتززون بأنهم شاميون ، ولهذا فقد كانوا يفضلون أهل الشام على غيرهم ، وكانوا يتخذون في حياتهم ونظم حكمهم ما كان سائداً في بلاد الشام ، وهذا هو الذي أعطى هذا التقليد اسم الشامي .

وقد توفي هشام بعد سبع سنوات من حكمه ، فكانت سنة عندما مات في صفر ١٨١ هـ / أبريل ٧٩٦ م لا تزيد عن أربعين سنة ، وهى سنٌ صغيرة جداً ، ولكن بنى أمية عامة كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم في الشرق قليلون ، أما في الأندلس فلا نعرف منهم من تخطى الخامسة والستين ، إلا الأمير عبد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُثنى معظم المؤرخين على هشام بسبب رضا الفقهاء عليه وقيامهم بالدعوة له ، وتصويره في صورة الأمير التقى الورع الرحيم ، ولم يكن الرجل كذلك في الحقيقة وإنما كانت فيه قسوة على أعدائه لا نجدها عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكام أتقياء ، فقد سمل عيني شاعر يُسمى « أبا المخشى عاصم بن زيد » ، لأنه أثنى على أخيه ومنافسه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريبة في نفسه ، وقد اعتذر عن ذلك وبذل شيئاً من العوض ، ولكن ذلك لا ينفي الجناية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة ، وزعموا أن هشاماً كان يخرج في الليل ويطوف في المساجد فإذا وجد فيها ناساً عاكفين على قيام الليل أعطاهم مالاً . وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسةً منه وخُبثاً .

ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الربضى ، نقول كلمة يسيرة عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخبجون ، وكيف اعتصمت قلل القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية ، في الناحية المسماة باسم أشتريس .

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحية القاصية فارس يسمى « بللاجيوس » ويسمى عادة « بيلايو » ، ويُسميه

العرب « بلای » وكان من أعوان غيطشة وأنصار لذريق ، فلما اعتصمت بقايا القوط في ناحية أشتريس ، أصبح بلای رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم .

وقد انتشرت هذه الفلول أول الأمر في النواحي المطلّة على خليج بسكاي من جليقية إلى أشتريس ، ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين المتوالية في ناحية جبلية شرقي أوقييدو الحالية عند البلد المسمى « كانجاس » واتخذت حصناً لها موضعاً جبلياً تصل فيه الجبال الكنتيرية إلى أعلاها عند قمم أوروبا ، وفي هذه الناحية موضع مغارة تسمى « كوقا دونجا » ويسمونها العرب صخرة بلای ، وقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها أيام الحرب مع عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها . ولم تكن ذات أهمية في ذلك الوقت على أي حال .

وفي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أثناء إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابي » بعث حاكم الثغر الأعلى « عثمان بن أبي نسعة » جيشاً إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك . وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلای وأنصاره . وتنسب الروايات النصرانية إلى بلای انتصاراً كبيراً على المسلمين عند « كوقا دونجا » ، وتعتبر هذا النصر نقطة البداية لتاريخ إسبانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا ما يؤيد ذلك .

وكانت هناك إمارة نصرانية أخرى صغيرة في الجزء الشرقي من بلاد كنتيرية أنشأها زعيم يسمى « بتروس » . ثم خلفه أمير يسمى « ألفونسو » واتخذ لقب الدوق ، ثم تزوج ألفونسو ابنة بلای وتوحدت مملكة أشتريس التي يسمونها العرب مملكة الجلالة .

وكان سكان هذا الجانب الشرقي مما يقع شمالي الجبال الكنتيرية حتى بلاد البشكوتس يُعرفون باسم الكنتيريين ومن هؤلاء الكنتيريين وبقايا القوط ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالة .

وآلفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التي ستستمر في النمو والانتساع حتى تستولي على الأندلس من المسلمين . وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية فيما بينهم على ما فصلناه قبل قدوم عبد الرحمن الداخل .

وحوالي منتصف القرن الثامن الميلادي كانت إمارة أشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر المنيو. واقتربت من حوض الدويرو، واستولى الفونسو الأول على أشتريقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التي نزلت بالأندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر.

وفي أثناء حكم يوسف الفهري والصميل بن حاتم، امتدت المملكة النصرانية على مهلي، وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الشائرين، سقطت في أيدي النصارى مدن هامة مثل « لكة Lugo وبرتقال Portucallies ».

وعندما استقر الوضع لعبد الرحمن، استرجع أهم هذه المدن، وكان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فرويلا Froila »، وهو الذي خلف ألفونسو الأول، وكان قاسياً عنيفاً سفاكاً فكرهه الناس ومالوا إلى محالفة المسلمين، يتزعمهم في ذلك ملك يسمى « مورجات أو مورقات »، يقال إن أمه عربية. وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش الفونسو الأول.

وفي الشمال الغربي كذلك نشأت إمارة نصرانية مستقلة في بلاد البشكونس عُرفت باسم نبرة Navarra وقاعدتها بنبلونة وإلى غربيها قامت ثلاث إمارات صغيرة في جبال ألبرت هي على التوالي: أرغون وشبرب وريباجورثا وقام الزعيم البشكونسي « اينيجواريسا Inigo Arista » بتوطيد قواعد إمارة نبرة Navarra في الغرب. وفيما بين مملكة الجالقة التي تعرف أيضاً بمملكة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتدت منطقة خلاة حتى حوض نهر الدويرو، وكان النصارى يحاولون الامتداد فيها إذا غفل المسلمون عنهم ويرتدون عنها إذا تنبهوا لهم، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادي.

إمارة الحكم الربضي ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م :

تعتبر إمارة الحكم بن هشام، أو الحكم الأول المعروف بالربضي، نهاية عصر القلاقل التي قام بها العرب للقضاء على الإمارة الوحيدة التي بسطت سلطانها على البلاد، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد وبربرها لا يسلمون بقيام هذه الدولة، ولا تزال نفوسهم تطمع إلى العودة إلى الفوضى السابقة، ولهذا فقد كثرت الثورات في عصر الحكم واختلفت أنواعها، ولكنها كانت في الغالب ثورات

اجتماعية أو إقليمية لا فتناً عشائرية أو قبائلية يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر إذ ذاك بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام ، وقد ثبت الحكم ثباتاً يدعو إلى الإعجاب ، وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمتناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم تولى أمر الأندلس شاباً في السادسة والعشرين من عمره ، وكان إلى جانبه عمّاه سليمان وعبد الله وغيرهم ، ممن كانوا يرون أنفسهم أحق بالملك منه ، ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب ، فأقبلوا يدبرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتعة والراحات ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهّدا له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ونبض فيه عرق التعالي الأموى ، ونظر إلى من سواه من الناس في غير اكتراث ، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهال الكثيرين منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى في أيام أبيه هشام ، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته الحوادث يقظة هزت كيانه وبدلت في حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة فتعمرس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر في أمر نفسه ، ولم يعد له هم إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته . وقد اقترف في سبيل ذلك جرائم كثيرة ، فكان له بعد ذلك الندم ، ففضى أواخر سنواته في عزلة وحسرة واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرف بخبر وفاته إلا نفر قليل من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيام .

وكان أول ما عاناه الحكمُ حرب عمّيه سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ، وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً ، لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين من الثغر الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين . وذهب لمقابلته في « اكس لاشابل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابهِ سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م . وبعد ذلك بقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان في الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية ، وحفزَه أهل شمال شبه الجزيرة من النصاري على القيام بحملة أكثر جدية ، وبالفعل سارت قوات فرنجية في سنة ١٩٠ هـ /

٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القائد العربي « سعدون الرعيني » مدافعاً عن ذلك الثغر في رباطة جأش ، وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شيء ، لأن الحكم كان مشغولاً بعمّيه في جنوب الأندلس . وأخيراً سقطت برشلونة في يد الفرتجة ، وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الإسباني « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » ، أصبحت من ذلك الحين شوكة في جنب المسلمين . لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتية قطلونية التي ستتحّد مع مملكة أرغون ، وتستطيع غزو الجانب الشرقي لمملكة الإسلام في الأندلس فيما بعد .

ويذهب نَقَرُ من المؤرخين بهذه المناسبة ، إلى أن الدولة العباسية عالت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس . وهناك أخبارٌ غير موثوق في صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد في هذا المعنى ، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرخينا المشاركة لا يذكرون مرةً واحدة ، وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد . وليس لدينا شيءٌ يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس .

ولكن مؤرخي شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان ، منها خيلٌ ومنها الساعة الدقّاقة المشهورة . وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الدوري وخرج منها أن هذه السفارات لم تكن رسمية ، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة في الغالب ، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان ، وزعموا أنها من خليفة المسلمين لكي يحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية ، وهذا لا يسمح لنا بأن نقول إن الرشيد حالف ملكاً نصرانياً على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لدينا عليه أدنى دليل . ثم هو يتعارض معارضة تامة مع ما نعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامي لا شك فيه .

التطور الاجتماعي في الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها في الكثير من بلاد الإسلام في العصور الوسطى ، وهي أن طوائف الشعب في العاصمة وكبار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتنعة بنصيبها الذي قدره لها أهل الحكم . ففي العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس — ما بين مياسير وأوساط وفقراء — منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون في القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حداً يجاوز الاحتمال ، وفيما عدا ذلك فأهل الحكم في سلطانهم ، وأهل المتاجر في متاجرهم ، وأهل الزرع في حقولهم . وهؤلاء جميعاً — تُجاراً وزُراعاً وصناعاً — يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا في التجمع لاتخاذ إجراء عام ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما في الأندلس فنجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة في العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام في صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عياده . ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم . ولكن أهل المدن في الأندلس كانوا لا يكفون عن الثورة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم وفي كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحده ، وفي كل هيئة أو جماعة حرفية ، نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون ، ومن هنا كان التحدي للحكم مستمراً ، وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والنشهر بهم يتردد في كل مكان .

وعلى الرغم من ذكاء بني أمية وإدراكهم السياسي ، نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية في شعبيهم كان بطيئاً وجزئياً على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرق وهي القهر والعنف ، فطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفي النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامية عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسي في طريقه إلى التكوّن في ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق . وقد مرت الشعوب الأوربية كلها في مثل هذه الأدوار ، ولكن مؤرخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان الشعب مُكوّناً من أقلية عربية ، أو تعد نفسها عربية ، متمثلة في البيت الحاكم ، وغدٍ من الأسر في العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات منتسبة إليها وتتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى في ذلك شارة شرف وامتنياز .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا في الحقيقة مولدين ، فكل أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكونس أو صقلبيات ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربي من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أي أنها كانت في الحقيقة مولدة ، وهذا لا يقدح في عروبة هذه البيوت ، لأن أقرانها كانوا يحسون أنهم عرب ، ويتصرفون على أنهم عرب خلصاء ، ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفیصل في هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذي يحدد موقفه ويميل عليه تصرفاته ، فما دام الرجل يحس أنه عربي ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربي ، ويفخر بأجداد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربي ، وإن كانت أمه غير عربية.

جماعة موالي بنى أمية :

ويدخل في هذه الطائفة جماعات الموالي ، هؤلاء جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أرومات عربية يقتبسونها من أصول سادتهم ، فهذا من لحم وذاك من جذام أو من أسد أو مضر ، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ، ادعوا أصولاً عربية مع الزمن وهذا مهم جداً ، فما داموا يفخرون بأنهم عرب ، فهم عرب ، وإن كانت أمهاتهم إسبانيات .

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً في حياة أولئك الموالي ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم .

وكان هؤلاء المولدون ، وهم أبناء الإسبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعداداً من دخل الأندلس من عامة العرب كبيرة ، وخاصة من اليمينيين وأبناء القبائل المعدودة يمنية ، مثل « كلب وخولان ومذحج ومدلج وختعم » ، هؤلاء كانوا في العادة يندرجون في غمار الناس في المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويشجعون إسبانيات ويخرج أولادهم أندلسيين من أصول عربية ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم ، فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفي مصر مصريين وفي خراسان خراسانيين وهكذا .

ويدخل - في هؤلاء الموالي - الفضايعون الذين هاجسوا إلى الأندلس ، وكانت أعدادهم غفيرة ، وقضاة ليست في الشام أو اليمن ، وإنما هي شعبٌ عربيٌّ قائمٌ بذاته ، كما يقول ابن حزم .

بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هؤلاء مع الزمن العرب الذين دخلوا الأندلس في جماعاتٍ كبيرة واستعربوا واتخذوا أنساباً عربيةً ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولدين أندلسيين .

ومن هذه الجماعات كلها نشأت جماعات الشعب الأندلسي العربي الذي نعرفه ، وكان الإسباني النصراني إذا أسلم اتخذ اسماً عربياً وسمى « بالأسلمى » أو « المسلمى » ، ثم ينشأ أولادهم أندلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مع الزمن أندلسيين عرباً ويندرجون في غمار كتلة الشعب الأندلسي العربي الذي كان يكون الغالبية العظمى من السكان .

وكان هناك المستعربون وهم الإسبان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وكانوا غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت أعدادهم تتناقص مع الزمن .

هذه الأجناس كانت تتجاوز وتتعايش وتتكامل ، فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالي فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعي رفيع واختصوا أنفسهم بمراكز الرياسة والصدارة ، فأبغضتهم الطوائف الأخرى وأنكروا عليهم ما يدعونه من امتياز ، وفي نفس الوقت كان المولدون المستعربون يتقاربون بدافع اتحاد المصالح .

ولم يعطل اتحاد المولدين والمستعربين إلا رجال الدين في الناحيتين ، فقد كان القساوسة يؤلفون النصارى على المسلمين ، ويحضونهم على التمسك بنصرانيتهم ، في حين كان فقهاء المسلمين شديدي العصبية لدينهم ، يبذلون نشاطاً عظيماً في دعوة الناس إلى الإسلام وحثهم على التمسك بعقيدتهم .

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانوا يقيمون في قرطبة في حى شقندة جنوبى نهر الوادى الكبير حيث يسكن العمال وصغار التجار والطلاب ، وكانوا لهذا

منبئين بين الناس . وكان لهم عليهم سلطانٌ بحكم عملهم ، ومن ناحية أخرى كانوا قريبين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان ترددهم عليها كثيراً .

وكانت هناك أقلية من الفقهاء ممن خصلوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مراكز الصدارة في الدولة والمجتمع ، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربية صحيحة كانت أم زائفة ، وكانوا يدخلون في زمرة أهل الحكم والغنى والجاه . وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذي يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعته وقدراته ، فلم يبالوا به ولم يقدروه حق قدره ، وكان ذلك منهم خطأ جسيماً . وعندما شرع الحكم بن هشام يحكم ، أقبل على الحكم كأنه خليفة شاب من خلفاء بني أمية في أواخر أيامهم في المشرق ، فمضى يلهو ويتمتع بأطياب العيش ، ومن حوله حاشية متكبرة متعالية ، وجندٌ خاصٌ قاسٍ عنيفٌ على الناس . معظمه من الصقالبة وهم ممالك البيت الأندلسي الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهورٌ ، حتى بدأ أهل بيته وكبار دولته يدبرون عليه ، لأنهم رأوا شأياً خليعاً ماجناً مستخفاً ، وانضم إليهم نفرٌ من الفقهاء . وفي ذات مرة كان الحكم عائداً من صيدٍ له ، فتعرض له الجمهور وسبوه وأهانته ، فلما عاد إلى القصر بدأ ينظر فيما آل إليه أمره . ثم اكتشف مؤامرة دبّرها عليه أهل بيته ، فأوقع بأفرادها في قسوة سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م . وقد ضجّ الناس من قسوته وقسوة رجاله ، وبدأ الخوف يسود بيت الحاكم والرعية . فاستكثر الحكم من الجند المرتزقة الصقالبة . وكانت في أفرادهم قسوةٌ وشدةٌ ، وكانوا لا يحسنون الكلام بالعربية ، فسماهم الناس « بالخرس » ، وسخط مياسير قرطبة وكبار أهلها وفقهائها على الحكم سخطاً شديداً ، وتوتر الجو وبدأ يوضح أن « الحكم » يتعرّض لمحنة قاسية .

فتنة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خوف الناس من الحكم على قرطبة ، بل امتد إلى طليطلة حيث كانت غالبية السكان مولدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيام كان بلدهم عاصمة إسبانيا ، فكان لهم زعماء كثيرون يتمسكون بحقوقهم القديمة ، وبدلاً من أن ينظر الحكم في هذه القضايا في هدوء وتعقل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظروف التي تؤدى بهم إلى القلق ، نجده يلجأ إلى العنف

والحيلة ، وينزل باهل طليطلة مذبحه كبيرة ، قضت على الثورة مؤقتاً ، ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم ، وأوجدت هوةً سحيقة بين الحاكم والمحكومين ، وتسمى هذه المذبحة باسم « يوم الحفرة » لأن المقتولين فيها وضعوا في حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأهيل عليهم التراب ، والجدير بالذكر أن الذي دبّر هذه المذبحة البشعة كان أندلسياً من أصل إسباني يسمى « عمروس » وكان يتولى حكم طليطلة .

هيج الربض الأول سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م

والثاني سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م :

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته ، أصاب أهلها هلع شديد ، تحول إلى غضب شديد ، فبدأت نذر الثورة تظهر في العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجمهور الناس . ويبدو أن الحكم لم يفتن إلى خطورة ما حدث ، فمضى في طريقه مستخفاً بالناس ، غير عابئ بمشاعرهم ، فتحذوه تحدياً ظاهراً ، وشتموه على الطريق وصفقوا عليه بالأيدي ، فقبض على طائفة من زعمانهم وصلبهم سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م . وسكنت الحال إلى حين . فلما كان الثالث عشر في رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م ، انفجرت سراجل الغضب الشعبي في الناحية الجنوبية لقرطبة وهي شقنقة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحياء العمال والصناع والطلاب وصغار الفقهاء ، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس في هذه الثورة في صورة ظاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثي وطالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » ، وشوحي الحكم في ذلك اليوم بجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويعجب مؤرخونا بما أبدى الحكم من ثبات في ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جمود قلب وبلادة إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين في ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالة . وقد تصرف الحكم معهم تصرفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران ، وعرضوا أولادهم وحريمهم للموت . فارتد الناس لإتقاذ أبنائهم فحصدتهم الجند حصداً ، وانتهى اليوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جداً على مصير الأندلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الربرض الجنوبي من الأندلس وكانوا ألقوا من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم في كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم ، وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا في أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأندلسيين في فاس ، وتوزعت جماعات منهم في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . واتجهت كتلة منهم إلى الإسكندرية والبحر فاجتلتها وطردت عاملها ، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة فذهبوا إلى كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٢٥٠ هـ / ٩٦١ م .

انتهت ثورة الربرض بتصر الحكم ، ولكنها كانت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى يعينيه قوة هذا الشعب الأندلسي واستعداده لإيقاف الحكام عند حدهم ، ومن هنا فسئري أن الأمراء والخلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على هيح الربرض ، فقد مرض وتناولت به العلة وحل به الندم ، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو ، وتوفي في قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا في ٢٦ ذي الحجة ٢٠٦ هـ / ٢٢ ديسمبر ٨٢٢ م ، بعد أن تقرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط .

بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن (الثاني) الأوسط : ٢٧ ذي الحجة ٢٠٦ - ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م .

الأمير محمد (الأول) : ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ - ٢٨ صفر ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م .

المنذر : صفر ٢٧٣ - منتصف صفر ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م .

عبد الله بن محمد : ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م .

عبد الرحمن (الثالث) : الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م .

عبد الرحمن الأوسط : كان عبد الرحمن بن الحكم مؤهلاً بطبعه لإزالة الآثار المحزنة التي خلفتها إمارة أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان الوقاً حسن العشرة يحبه الناس ويجدون متعة في الجلوس معه والحديث والتبسط معه في منادمته ، وكان محباً للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاءً عن سلفيه ، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصنع عدم المعرفة ويُغضى عن أخطاء الآخرين ، فزاد ذلك في معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه . ولم يكن فيه غدر ولا قسوة ، ولكن كان فيه حزم وقدرته على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجري وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى في الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جارية جليقية اسمها « حلاوة » .

ولم تكن الفتن الداخلية لتهمه كثيراً ، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقل مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التي استمرت سبع سنوات في كورة تدمير ، وهي التي سميت فيما بعد مرسية في شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجندة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية - ومن هنا كانت الفتنة - وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » في جيش كبير أوقع بهم قرب « لسورقة » ، فأخذت فتنتهم في الضمود وانتهت سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل البيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف وإلى النصاري هناك ، فقد انتظر أن يهدأوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضي المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس التقى » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلونية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكونس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يرد غزوة فرنجية على ذلك الإقليم في سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م .

كذلك نشط الفونسو الثانى ملك جليقية وأشتريس فى الغارة على أراضى المسلمين ، واستولى حيناً على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فردده عنها القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » ، وألزم الفونسو بدفع الجزية ، بعد معركة حامية فى سهل يسمى « فج جرنيق » فى إقليم ألبة ، وقد قتل فى هذه المعركة عدد كبير من جند العدو ، ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب . وكانت هذه آخر غزوة قسام بها هذا القائد المظفر الذى يعد من أكبر القادة العسكريين الذين ظهرُوا فى الأندلس ، فقد استمر فى ميادين القتال مدافعاً عن الأندلس فوق الثلاثين سنة ، أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس ، ما وضع تقليداً جليلاً سيتبعه قواد أندلسيون كثيرون من بعده ، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموى ، وهو « أمية بن معاوية بن هشام » ، وقد استطاع أمية أن يواجه ثورات كثيرة فى نواح شتى من نواحي الأندلس ، من بينها حملة له على البعنية فى إقليم تدمير ، وكان رئيس من رؤسائهم قد عاد إلى التمرد ، ودعا لبني العباس ، وأخيراً تمكن أمية بن معاوية بن هشام من الإيقاع به فى وقعة حاسمة بالقرب من لورقة بعد ذلك بسنتين .

ولكن هبة عبد الرحمن تجلّت فى ذيابيه عن حدود بلاده وموالاة الغزوات فى ألبة والقلاع وأراضى البشكونس وإقليم قطلونية ، وكان هو يقود بنفسه الغزوات فى معظم الأحيان . وفى عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م أنزل هزيمة قاصمة بقوات إمارة نبرة ، وفى نفس السنة أيضاً توفى الفونسو الثانى الملقب « بالكاستو » أى النقى ، ملك جليقية وأشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة المسلمين ، وخلفه ابنه « راميرو الأول » أو « ردمير » .

غزوات النورمان :

وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ظهر خطر « الأرمنانيين » وهى صيغة الجمع من لفظ أردمانى أى نورمانى ، وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكنديناوة ودانيماركة ، وكانوا يمرون إذ ذاك فى عصر بطولتهم . وكانوا يغيرون على شواطئ أوروبا الغربية بأساطيل من سفن صغار ذات أشعة سوداء ، وكانت تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتغير على المدن وتنهب ما تعثر عليه ،

وتوقد النيران لتثيير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « الفايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفي أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا ، وكان يسمى باسم « فريزيا » ، وأقاموا فيه . وأنشأوا فيما بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورمانديا » أو « نورماندى » ، وأبناء هؤلاء النورمان ، هم الذين فتحوا إنجلترا بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الأشبونة في ذلك العام . فكتب بأمرهم واليها « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول: إن أربعا من سفنهم الكبيرة ذات الأشرعة السود ظهرت في البحر ، ومع كل سفينة منها مركب صغير ، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب ، فأغارت على قádiz وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما في طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم ، وساروا بحذاء الساحل حتى مصب الوادى الكبير فاستولوا على جزيرة « قبيل » في مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها ، بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله ، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النورمان في شجاعة وحزم وتولى حربيهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارا ، ولكنها كانت تروى على أعقابها بخسائر فادحة في كل مرة . وكانت أطول غاراتهم في الأندلس ، هي غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبلة ثم على الأشبونة وعادوا فيما بقى من مراكبهم .

نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ في إنشائه إنشاءً محكماً واتخذ له دور الصناعة والقواعد في الأشبونة وإشبيلية

وولية والمرية وبلنسية ومالقة ، ولم تنقض سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه الأشبونة ، والثاني في البحر المتوسط وقاعدته مالقة . ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الأندلسية كعماد لقوة إمارة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٢٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة ويابسة » من ولايات الإمارة الأندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية في الأندلس :

ظهرت في أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب نصرانية ، أثارها نفر من الرهبان ، إذ كانوا يؤكدون لاتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزل ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر ، ومجتمعه يزداد رخاء وثباتاً ، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما ينطقون جهداً كبيراً في دراسة العربية ومطالعة آدابها ، بل برع الكثيرون منهم في كتابة العربية ، وقد شكوا ذلك قس متعصب يسمى « البارو القرطبي » في رسالة مشهورة ، فلما وجد أولئك الأحرار المتعصبون أبناء دينهم لا يابهون لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم في خدمة الإمارة القرطبية ويسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية في المجتمع والإدارة ، انفجرت مراحل حقدهم ، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ، وكان رجال الشرطة يقتادونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استتابتهم دون جدوى ، فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم : أن يموتوا في صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٢٧ هـ / ٨٥١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين في سجل الكنيسة ، من أمثال « يولوج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة ، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة ، وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعاً دينياً في قرطبة لينظر في أمر هذه المحنة بالعقل والحكمة . وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة « ريكا فريديو » مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه « غومس بن أنطنيان » أحد كتّابه . وقد أصدر المجمع قراراً يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء ، وشيئاً فشيئاً هدأت هذه الفتنة وعاد الوثام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظره إلى الأمور . وقد أسلم غومس ابن أنطنيان بعد ذلك وحسن إسلامه ، وأقبل على الاعتكاف في المسجد الجامع في قرطبة حيث لُقّب بحمامة المسجد .

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمراً ومتزايداً على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلي طليطلة شمالاً . ومما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة ، استنجدوا بنصارى الشمال فاتجدوهم . وكان معظم استنجادهم بملوك ليون . ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّاده كُلَّ صيفٍ . وكانت الغارات تتجه أحياناً إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة ، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبية والقلع وأحياناً إلى بلاد مملكة ليون .

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

توفي عبد الرحمن الأوسط في ٣ ربيع الآخر ٢٢٨هـ / ٢٢ سبتمبر ٨٥٢ م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، تعتبر من أزهى فترات التاريخ الأندلسي بسبب ما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية ، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أذكى رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام .

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس في أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التي عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازية التي أشرنا إليها وهم الموالي ، وقد ظهر في أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » الذي أشرنا إليه والقائد « عيسى بن شهيد » ، « ويوسف بن يوسف بن بخت » ، و « حسان بن أبي عبدة »

« ومحمد بن عبد السلام بن بسيل » . « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء في وقت واحد ، وقرر لهم أن يجتمعوا في بيت من بيوت قصر السدة عرف ببيت الوزارة ليتناقشوا في المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذي يعرض على الأمير هو الحاجب أي كبير الوزراء ، وأشهر من نعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

الوزارة في الأندلس :

ونظام الوزارة في الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى في التنظيم السياسي الأندلسي . لأن البيت الأموي كان غنياً بالشخصيات ذات الكفاية التي قدمتها باستمرار البيوت الموازية التي ذكرناها .

وعند أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموي إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التي نعرفها عند العباسيين في المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أفراد من هذه البيوت في تسير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش تولّاها الأمراء وأنابوا عنهم في أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط . ولكن ظهور شخصيات ممتازة حقاً من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضروري أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة وألقاب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التي كانت للوزير في المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة في الأندلس هي الوزارة في المشرق ، ويصبح الحاجب ثانياً شخصية في الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب في الأندلس كان رئيس وزراء فعلاً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للمال ويسمى « الخازن » وذلك لسلامن ويسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك للمنشآت ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفية في أول الأمر ، ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معين ، فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى « بالوزير القائد » ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ، ومحمد بن السليم يتولى المواريث ويسمى « بالوزير صاحب المواريث » وهكذا . ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير في الأندلس له معنى الوزير في أيامنا واختصاصاته ومستولياته ، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير ، وهو الذي يلقي الأمير كل يوم ويناقشه في شتى المسائل ، ويجتمع كل يوم مع أصحابه الوزراء في دار خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفي هذا البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين في هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، وسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتابه (أي سكرتاريوه) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية الملائمة ثم يقدمها إلى الأمير ، الوزير صاحب العرض لتختتم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذي تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرج ولجم ومراع وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعنة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكل حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء بلا تخصص معين ، وهم أشبه بوزراء الدولة ومكاتبهم في القصر ، ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحق في لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية الأمير ومنهم أيضاً ندماؤه . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير أو تعطل عن العمل ، حل محله ابنه . وفي أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة فيعين له الأمير من معاونيه في العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمور دائماً في أيدي هذه البيوت المخلصة التي تشبه أسر النبلاء التي كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هذه البيوت أولاً مقصوراً على موالى بنى أمية وأولادهم وما تفرع عنهم ، ثم دخلت عليهم أسر قريشها الأمراء ، وكان منهم العرب والمؤندون والمستعربون أحياناً ، وكان الكثيرون منهم من البربر ، وجدير بالذكر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يَقْلُون كفايةً عن الأندلسيين من الأصول العربية أو أهل البلاد .

وكان الأمراء يُقِلُّون الوزراء ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت الوزارة ، وليس من الضروري أن يحل محله وزير آخر ، وقد ينقل الوزير من وزارة إلى أخرى ، وقد يعطى لقب الوزير لموظف كبير مثل حاجب المدينة أى محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة في بيت الوزارة والوسادة هي المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالقوتى .

وفي بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أى من أهل القصر ، أى من الحاشية .

الخطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى في الأندلس « بالخط » مثل خطة الوزارة أو خطة الخيل ، أو خطة الأعنة ، أو خطة الكتابة وهي تعادل ديوان دار الإنشاء في المشرق ، وخطة المظالم ويراد بها النظر في الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطة القيادة ، وخطة الأشغال وخطة البحر .

خطة القضاء :

ومن الخطط الكبرى في الأندلس كانت خطة القضاء ، ويراد به « قضاء الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر في شئون القضاة ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون نواباً له يرجعون إليه في أحكامهم ، وكان

« قاضي الجماعة » ثالث شخصية في الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق بالغ ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضي يؤدي إلى عزله ، وكان لقاضي الجماعة سلطة على الأمير نفسه في مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضي رجلاً مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تخرجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم .

الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من الشيوخ ذوي العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين ، أي الذين يستشيرهم الأمير في كبار شئونه ، وخاصة الدينية منها . وقد ابتدع فقهاء المالكية هذه الخطة لأنهم في محاولتهم اتباع آثار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولي القضاء أو الوظائف العامة مكثفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل . وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم في أعين الناس ، ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولي الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت الأموي لأنهم في الحقيقة كانوا يؤيدونه كما رأينا ، ولكنهم كانوا يسرون في هذا في آثار مالك الذي لم يتول وظيفة ما وعاش للعلم والتعليم ، وقد أراد الأمراء أن يقينوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار في نفوس الناس فقربوهم إليهم ، واختاروا من بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانوا يعتبرونهم أهل شورى لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

يحيى بن يحيى الليثي :

وأول من نسمع عنه في هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثي ، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة في المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة في الدولة ورفض أن يتولى القضاء . وفي أيام الحكم الربضي نجده يشترك في ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير

ويعود إلى مكانته . وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل يولى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة في كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى فقد يستدعيهم وقد يرسل القضايا إلى بيوتهم ليبدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الأمير لا يقرر شيئاً في شئون القضاة إلا براه ، وقد استبد بأمر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذاري : « في هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة من همّه » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء في تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار ، وقد قيل فيهم إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التي كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون في ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون فقه مالك فقط ولكن لا علم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا في الأغلب فروعيين عمليين أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى في هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه في الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الأمير « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما : « بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح » ، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا في المشرق في القرن الثالث الهجرى ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدي فقهاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه في الشرق والغرب على السواء في عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء المتقنين المعروفين بالحفّاظ .

الشخصيات الحضارية - زرياب :

يعدّ زرياب من الشخصيات التي نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية . ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأفاضل الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية يكون لها أثر في تطوير الحضارة ومستواها في عصورهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذو ذوق في كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التي سنتحدث عنها هنا ، هي شخصية علي بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب في أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقى هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشعر إسحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه فهدده بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائر أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقى ممتاز ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالا حقيقياً ورتب له راتباً كبيراً وهياً له الوسائل ليظهر فنه .

من أول الأمر أظهر علي بن نافع أنه موسيقى فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدرّيبات عسيرة لكي يخرج الصوت من القفص الصدري كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين ، والغرض من ذلك أن تستخدم إمكانات المغنى الصوتية استخداماً كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس .

وقد ابتكر زرياب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية في ذلك العصر ، فأضاف إليه وترّاً خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، واخترع الفرق الموسيقية التي تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحيناً كاملاً يجمع به الإنشاد الجماعى

والفردى والعزف ، وهو أول من أنشأ في الأندلس المسرح الصغير الذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غناءً عربياً بسيطاً هو الحداء ، فأدخل زرياب موسيقى عالية عرفت باسم « الزريابية » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغناء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية فى الأندلس .

وكان زرياب يعمل بنظام تام وهيئة جليلة ، فكان يخصص صدر النهار للدرس والتدريس ، وبعد الظهر للقراءة والاطلاع وفى الليل يتوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليه جواريتهم ليعلمهن ، وقد أخرج جيلاً من المغنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠,٠٠٠ دينار مكافأة له على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطاءه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضییع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنه كان رغم سواد لونه يتولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأندلس كيف يرتدون الصوف شتاء والقطن أو الكتان صيفاً ، وعمل فى هياكل الثياب فقصرها وضيق الأكمام وأعطاهها هيئة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعورهم . وهو الذى علم الأندلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للنساء تصفيقات عرفت باسمه مثل تصفيقة الجبهة وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب ، وتفنن فى العطور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كذلك أدخل زرياب تعديلاً على المطبخ الأندلسى ، فأدخل كثيراً من الخضار كالهندباء والكمأة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه ، وعلم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع ، وخرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرقها أهل المشرق .

وعلى الجملة كان زرياب شخصية حضارية ممتازة ، فقد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وساعد فى نقله من البداوة إلى الحضارة ومن

الفوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمعة ووقار ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحاشى الشراب ولا يتعاطاه .

وفي تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « الطائر الأسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائل الذين أخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمة المحترمة للفنان ، ولم يسمحوا لأنفسهم أبداً بأن يهبطوا إلى مستوى عامة المستلین والندماء ، فكان قليل التردد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنّه ، وقد جمع مالا عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه أعلاماً للفن لهم في المجتمع مكانة كبيرة . وقد توفي على بن نافع في ربيع الأول ٢٢٨ هـ / أغسطس ٨٥٢ م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قلائل .

ولم يكن على بن نافع (زرياب) الشخصية الطريفة الوحيدة التي ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت في أيامه جماعة من أجل الشخصيات في تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بني أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفي عبد الرحمن الأوسط .

عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو في الحقيقة من رجال عصر الحكم الربضي ويكنى أبا القاسم ، وكان فيلسوفاً ورياضياً وشاعراً ، وهو من أهل « تاكرنا » في جنوب الأندلس من أصل بربري ، وكان ذا براعة في الكيمياء وإليه تُعزى طريقة خاصة في صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تعرف « بالمليقاته » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذي جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قفز بذلك الرءاء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسباني Monte Agudo وطار بضعة أمّار ثم اختل توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يقطن لأهمية الذيل في طيران الطائر . وكان من آثار

سقوطه أن انكسرت إحدى فقرات ظهره السفلى فلأزم الفراش شهوراً متطاولة
وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد ألقع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر
صفحة جميلة في تاريخ الحضارة العربية ، فهي أول محاولة عملية لإنسان في
الطيران ، وقد حكى اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم
يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هي الثانية من نوعها في تاريخ البشر قبل
العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمناً
طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة ، بل إن
شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار في نواحي بلنسية وباسم
القل الذي حاول الطيران منه ، يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى مونت
أجودو Monte Agudo ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالكيمياء ، وهي فرع غير
علمي من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات
طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب مثونة
حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقياً صانع الحان مجيداً للضرب
بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريبة في قلوب الفقهاء والعمامة فاتهم
بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفي في سن عالية في أيام
الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

يحيى بن حكم الجياني (الغزال) :

ومن طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف
يحيى الغزال الجياني ، وهو عربي من بكر بن وائل ، ولد في جيان وقد سمي
بالغزال لجمال هيئته وأناقته ، وكان شخصية بوهيمية يخلط الجد بالهزل ويأخذ
الدنيا ساخراً لا يكاد يحفل بشيء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن
مهاجمة الفقهاء والتندر بنفاقهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع
غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه في إصرار لكي يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزندقة والقضاء عليه ، ولكنه كان أمهر منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً ، ولقى أبا نواس وأنشده شعره فأعجب به أبو نواس ، وفي هذه الرحلة قال كلاماً كثيراً كان من الممكن أن يؤذيه ولكن أحداً لم يتلبس عليه بشئ ثابت . فلما عاد إلى الأندلس لقي قبولاً من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من ندسائه وأصحابه . وقد أعجب عبد الرحمن بأدبه وظرفه وهياته فجعله سفيراً له لدى الملوك ، فأرسله في سفارة إلى الامبراطور « تيوفيلوس » امبراطور بيزنطة ، فذهب في رفقته صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقلة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطي ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشد في بعضهن أشعاراً قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقيت إعجاب أهل القصر . وقد قضى هذا السفير في سفارته ثلاث سنوات عاد بعدها سميلاً بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الامبراطور .

وقد كان نجاح الغزال في هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان في الدانمارك لكي يتباحث معه في أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مع صاحبه يحيى بالبحر أيضاً . وكانت رحلة شاقة اضطرتهم الأمواج خلالها إلى الرأس في إيرلندة ثم في إنجلترا ، وأخيراً دخل مضائق بحر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمان بعد أن كابد أهوالاً أحسن تصويرها في شعره . وفي بلاط الملك أبدع الغزال ايماً إبداع واستظرفه الملك ، وكان يحب أن يستقدمه ويستمتع إليه في حديثه وفكاهاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال في بلاط النورمان لأن الناس أحبه واستمسكوا به ولكنه كان لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقص على الناس قصصاً طريفاً وليحدثهم بما كان بينه وبين الملكة تود ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص ، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذى شديد على أيدي الفقهاء .

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى فمات وقد تجاوز الثمانين سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م

التحول الحضارى فى الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم انتقل الأندلس من بساطته الأولى إلى شرف الحضارة ، فأنشأ الناس القصور الجميلة وأنشأها بالآثاث الفاخر والرياش المستجلبية من الشرق ، وفقد الناس على الأندلس بطرائف الجواهر والآنية والرياش ، واستجلب الناس الجوارى الملمات من المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومن أبرز ما ابتدعه الناس إذ ذاك « المُنَى » يضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بالقبلاً . وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعندهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها سرةا الناس فى حى خاص يشبه الأحياء الأرستقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالْحَوْر » وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم سيارته ، تغنى فيها مغنيات قادرات ، ولكن ذلك لا ينبغي أن ينسينا أن هذه كانت حياة الأقلية ، أما الأكثرية فى الأندلس فكانوا يعيشون فى رخاء نسبي لأن البلد كان غنياً وكان الناس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كانت قليلة ، وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم ، وكان مخصصاً بالنظر فى شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم ، وكان يتولاه دائماً رجل من كبار أهل الدولة ، له السلطة الكافية لحاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحيى الغزال كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكانت تهمة أنه فرَّق فى الناس القمع المخزون فى أهرام الدولة فى الأشبونة ، وكان قد عُيِّن عاملاً عليها ، وكان المفروض أن هذا القمع مخصص للجنود ، ولكن « الحكم » وجد أن الناس أولى به ، إذ نزلت بهم مجاعة ، وقد عُزل يحيى الغزال من وظيفته لهذا السبب وانصرف إلى حياة الشعر واللهو فى قرطبة بعد ذلك .

زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمباني ، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات^(١) من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد .

وقد لاحظ المعمارى الذى قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر فى طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهده فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التى تعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعمارى فى جمال هذه الأقواس بأن بناها مدماك من الحجر رآخر من الحجارة فأصبح ازدواج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عندنا من مساجد الإسلام . وقد رفعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد فى بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذى يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زرعت فيها أشجار النارنج ، فسمى ذلك الجزء من الصحن « بهو النارنج » . وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتاً طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن تغرس الأشجار فى بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأى مالك بن أنس .

فى بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » قتي الأمير عبد الرحمن أى مولاه المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفوّاً ولكنه كبقية صقالية القصور كان جامد القلب ، آنانياً قليل الإحساس بالحب الحقيقى ، وكان يتأمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكنسية شديدة الطموح ، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمداً

(١) البلاطة فى مصطلح العمارة الإسلامية هى المسافة الواقعة بين أربعة أعمدة ، فإذا قلنا إن عبد الرحمن الأوسط زاد فى المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع المسجد ناحية الجنوب بقدر سبعة صفوف من الأعمدة .

كبير أبناء الأمير وولى عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالنسّم وقام نصر بإعداده ، ولكن بعضهم تنبّه الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسم في بطنه إلى سكته وأرسل بطلب لبن الماعز ، إذ قيل له إنه يضيع أثر السم ، فلم يوجد حتى هلك ، وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكفّ عن أذاهم ، وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن .

الشعر والموشح والزجل :

وما دما قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزال ، فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسي الذي بدأ يستقل عن الفكر المشرقي ، ويظهر في صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر في تطوره في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسي إلا في الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النثر الفني ليظهر . ولم تر الأندلس نائراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسي محاكياً للشعر المشرقي ، وعندما ثبتت أقدام الإسلام في الأندلس كان عصر الشعر العربي الإسلامي الخالص قد انقضى بذهاب بني أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبي نواس وبشار بن برد ، وأبي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جداً في تكوين مدرسة مماثلة في فن الشعر الأندلسي ، فنجد عند كبار الشعراء في عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزال ومحمد بن يحيى القلظاظ » صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمام بالذات كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة ، وبلى أبا تمام في ذلك ابن الرومي وابن المعتز ، فأما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التي يأتي بها ، وأما الثاني فأعجبهم فيه الصنعة والرفقة والحديث الكثير عن البساتين والرياح والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبي الأندلسي وهو شعر يصاغ في عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربي وخاصة السهل الجارى منها كالسرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذي يقال في كل بلاد العروبة ولد في الأندلس في الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع في تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبيرية الرومانية ، فإن الأندلسي كان يقول : كَيَّرُوكَاس دَلْمَا « (أريد كأس ماء) » ، « مِي الما حزين دا اليوم » (نفسي حزينة اليوم) ، « اشتريت من السوكو سبائية بلانكا » (اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ، « ازداد قولانو ولد سمرلو وبنت شقريلا » ، (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا .

وهذه اللغة هي التي كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها في الأندلس ، وهي كذلك كانت لغة الزجل الذي سيبلغ أوج ازدهاره في عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسي ، فكانوا يأخذون « مركز »^(١) إحدى الأغاني الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهي بذلك المركز الذي يسمى « خرجة » ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس الخرجة ، وهكذا :

السحر حق

وأنابه أشهد

أضل العشق

مهجتي ولا ينفد

وأين صدقو

من غريدة تنشد

(١) المركز هو بيت الشعر الذي يتكرر في الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى عندنا بالمذهب .

وإليك نموذجاً من الموشحات التي كانت تنشد في الأندلس منظومة على
أساس غير عربى ونكتبها بإسبانية اليوم لكى تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lide Fugor

Una alba que Tiene Tan hermoso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بالغ الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جهيل

عندما يأتى طالباً للوصال

وهذه الخرجة الإسبانية التى تسمى المركز أيضاً تتكرر بلفظها فى نهاية كل
مقطع عربى مكون من ستة اشعار صغيرة كهذه ، وكانت العادة أن ينشد الاشعار
الدينية منشد مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشد
أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر ،
يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم
ابن معافى القبرى » الضرير الذى نشأ فى أيام عبد الرحمن الأوسط .

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذى نتحدث
عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى
الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ - ٢ مارس ٩٤٠ م) صاحب كتاب « العقد
الفريد » وهو كتاب جامع شامل فى الأدب العربى الجاهلى والإسلامى ، وهو
يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شىء بطرف ، أى ما
نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمي للأمرء ، فهو يقول شعراً كثيراً ، ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتنهاني والفخر والمراثي وما إلى ذلك . ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز في المجتمع الأندلسي ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية .

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة في تاريخ أمراء الأندلس أدرجها في كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداخلاً كثير الوقوع في الناس ، دائم الدعاية ، قتال الناس من أذاه شئ . كثير ، وأذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بطولها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس في الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذي تحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسي في ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فألّى على نفسه أن يبلغ شأوه ووصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر في ذلك العصر ، وهم ليسوا أعظم شعراء الأندلس على أي حال ، لأن أعظم الشعراء هؤلاء سيظهرون في أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أي عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من نضج في عصر الطوائف ، وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوي ملكات وقدرات لكل منهم شاحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتقسم له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة في الدول ، لأن الدول تبني على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبني على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خاطئ يدل على ضعف ، وقد أخذ بمبدأ الرجال بنو أمية الشرقيون في صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء ، وأخذ بمبدأ المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف في سياسة الرجال التي اتبعتها الأمويون الأندلسيون أن هؤلاء كانوا بطبعهم قوماً ذوي خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم ، فأسرفوا في الاعتداد بأنفسهم ، فما من رجل تغضبه الدولة في شيء إلا ويثور في ناحيته ويسبب المتاعب كما سنرى في نهاية عصر الاستقرار هذا .

يضاف إلى ذلك أن الكثير من نواحي الأندلس كان لها شخصيتها المستقلة التي تعترف بها الدولة ، وتمنح أصحاب الأمر فيها درجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلي ، ومثال ذلك منطقة الثغر الأعلى ، وهي حوض نهر الإبرو وما يليه شمالاً إلى جبال ألبرت (البرانس) ، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية في الشمال والشمال الغربي والشرقي ، وكانت تتولى أمورها أسر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محلية مثل « بنى قسي » المنحدرين من « قُرتونيوس » حكام تلك المنطقة أيام الفتح العربي ، « وبنى هاشم » وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية في نواحيهم ، وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموي في تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها في عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلي ، فكانت لطليطلة مشيختها التي تدير أمورها بالاشتراك مع عمال الإمارة .

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ، ولكن الأمير محمداً ، انتهج - كما سنرى - سياسة جديدة في تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع الآخر ١٢٣٨ هـ / ٢٤ سبتمبر ١٨٥٢ م - ٢٩ صفر ١٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ١٨٨٦ م) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم للأمير برأى أبيه ورجال مملكته ، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله ، فلما توفي عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة .

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شاباً عاقلاً جداً بعيد النظر هادئ الأعصاب ، حتى لفلاحظ عنده جموداً عاطفياً يذكرنا بما كان عليه جده الأمير عبد الرحمن الداخل .

تولى محمد وحاجب الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان لعيسى فضل كبير عليه ، وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد في تنظيم الوزراء وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم في اختصاص كل وزير بقرع من فروع الإدارة . وبعد أن تسوفى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة « عيسى بن الحسن بن أبي عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاءة هيئته ، ثم خلفه « هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الأنانية ، وقد كان له أسوء الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن رعونته كانت سبباً في قيام كثير من الثورات والاضطرابات التي انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذي سنتحدث عنه .

ولقد واجهت الأمير محمداً لأول ولايته مشاكل محلية كثيرة في مختلف النواحي فثار أهل طليطلة ، واتجه بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بتأحيثهم ، وتحركت جماعات ثائرة في الغرب في إقليم « ماردة » - وإن من يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد ، ليتصور أن معظم النواحي خرجت على الإدارة المركزية . ولكننا ينبغي أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً في معظم ممالك أوروبا النصرانية ، لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها ، ثم إن الناس الذين نشأوا في هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام للحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس في تلك النواحي وهم أمراء الإقطاع ، ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة في هذه البلاد كما كانت دائمة في الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج في الحملات أو إرسال القواد بالجيش .

وقد لقي من أهل طليطلة عناية شديدة ، لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموي ، لذلك كانت الحرب سجالات بين أهل طليطلة وجيش قرطبة . واستطاعت قوات الإمارة أن تحرر نصرًا كبيرًا عند وادي « سليط » في الجزء الجنوبي من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها في يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد في طليطلة ينظر في أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادي « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أي تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط (مدريد اليوم) في شمال شرقي طليطلة ، ثم « ظلمنكة » وقلعة هنارس ووادي الحجاره ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة . وقد سمي هذا الخط كله بوادي الحجاره أي وادي الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ، وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغري الأوسط الذي عرف بالثغر الأوسط . أما الثغر الشرقي فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادي إبرو وعاصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أدنى في الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط ، وأهم مراكزه « قورية وشنترين » ثم « الأشبونة » وهي قاعدته في المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التي كانت تجبى بها في بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحي ينفقون أموالاً كثيرة في الدفاع عن أراضيهم ، ثم إنهم كانوا في الغالب قومًا مسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة في بلاد الإسلام ، وفي الأندلس خاصة ، بأن يقد إلى هذه الأقاليم المطوعة والغياض والزهاد والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام ، حسبة لله والتماساً للثواب .

وعاد خطر الأردمانيين (النورمان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيبونه فيما مضى ، فلم يجرؤوا على اقتحام الأشبونة أو إشبيلية . فانقضوا على بلدة صغيرة هي « باجة » في البرتغال الحالية ، وهناك وقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل ، وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، وينست ثمناً من القدرة على القيام بعمل كبير في الأندلس الإسلامي ، فاتجهت إلى إسبانيا النصرانية وتمكنت من الدخول بسفنها في نهر الإبرو ، ووصلت إلى « بنبلونة » عاصمة نهر (نافار) ونهبته نهباً ذريعاً وأسرت ملكها « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة .

وذلك كانت آخر محاولة قام بها الأردمانيون ضد الأندلس ، إذ تبينوا أن شواطئهم محروسة وأساطيلهم معدة ورجالهم متنبهون ، ولم يعد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قامت حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة « نافار وليون » وقد كانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحياناً « موسى بن موسى بن قسي » ، صاحب الثغر الأعلى أي سرقسطة . وكان آل قسي في الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ودخلت في طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلي في كل منطقة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلي كان أمراً تحتّمه الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف ، فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة اسمية وفي أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أي حال فلم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . وقد كان بنو قسي التجيبيون ثم بنو هاشم الطويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال في الثغر الأعلى ، فقد قام على رأس هذين البيتين رجال محاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصراني ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك إلى خلاقات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة ، ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهلهم ، وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر

عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التي تحولت إلى خلافة . ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل في تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية في ذلك الإقليم ، فإنه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قرطبة ورجالها ، وكان من أكثر نواحي الأندلس عروبة وإسلاماً .

وقد انتصر الأمير محمد على مملكتي « نبرة وأشتريس » في كل حروبه معهما بفضل قاداته من أمثال « عيسى بن الحسن بن أبي عبده » و « عباس القرشي » ثم أبناء الأمير محمد : عبد الرحمن والحكم والمنذر وكانوا قادة موهوبين . وقد تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع « أردونيو الأول » ملك أشتريس وليون حتى توفي سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م وخلفه أخوه « ألفونسو الثالث » الملقب بالكبير ، وهو من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية . وفي أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافساً خطراً للإمارة القرطبية .

ولم يمنع الأمير محمد من إيقاف مملكة ليون عند حدّها إلا كثرة الثورات عليه في بلاده . ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لواجبها بل سببها اتساع دولة بنى أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين . وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال ، وربما كان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذي كانت تسير عليه ممالك أوربا النصرانية في ذلك العصر ، وهو الاعتراف بأمراء الإقطاع في نواحيهم ، في مقابل خضوعهم الرسمي للدولة وأداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضع ، ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب في الشرق والجنوب والغرب ، كان عقبة في سبيل إقرار نظام كهذا ، فقد كان للعرب — في الكور المجنّدة خاصة — امتيازات كثيرة . فإذا قبلت الدولة نظام الإقطاع ، فقد كان أولئك العرب الذين سيكونون أصحاب الإقطاعات الأموال التي كانوا يجيئونها من الناس بحسب نظام الكور المجنّدة . ولم يكن هذا من صالحهم لأنهم كانوا ميالين للفوضى أولاً ، ثم إنهم كانوا بعيدين جداً عن إدراك فكرة الدولة ولخصائل الخضوع للنظام . ومن الغريب

أن أولئك العرب الذين استقروا في نواحي « تدمير » وهي « مرسية » العربية ، وكذلك نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال القروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، مما كان يخرب الأرياف ويؤذي الزراعات وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعنيه مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة .

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من « كور ماردة وبطليوس والاشبونة » وبقيّة ما يعرف اليوم بالبرتغال ، لخطر من نوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم الأصلية ويروايطهم بأصولهم الإسبانية ، وأرض الغرب هذه كانت مقازات (أى أرض قاحلة) وأراضى جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة ، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولد العنف . ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلم مؤلّد من أصل جليقى يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » ، وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال في ناحيتهم ، وبدلاً من الموافقة ، نجد الأمير محمداً يخرج جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم في قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزير « هاشم بن عبد العزيز » أساء التصرف مع « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » وأهانته ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس ، وعبثاً حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى ، فتحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون ، وأرسل محمداً لحربه سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٦ م ابنه « المنذر » ومعه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكان هاشم رجلاً طائشاً عاجزاً عن مواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحليفه « سعدون السرنباقي » ، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة في شوال ٢٦٢ هـ / يونيو ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز في أسر السرنباقي فأسلمه لعبد الرحمن الجليقى . وقد اقتداء الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون في رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التي نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحي ، ورفضها السماح بتصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحي ، نراه في ثورة « عمر بن حفصون » في ولاية « رية » الجنوبية وهي ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان العرب ، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسباني العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسي مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي ، ووجود جماعات كبيرة من العرب في كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى في تلك النواحي ، ومعظمهم مولدون ومستعربون ، وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأي طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً في أيام عمر بن حفصون ، ولكنه كان مفيداً فيما بعد ، لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيها .

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « رية » في جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقي فهو أن أهل هذه النواحي الجبلية لم يظفروا قط بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية ، فامتلات نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى وأصبحوا خطباءً يابساً ليران أية ثورة تقوم .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم في سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطغى نيرانها بالقوة فلم يفلح ، وهنا ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يتزعم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسباني مسيحي . إذ أن جده « الفونس القسي » ، وجدته الرابع هو الذي اعتنق الإسلام ، فتشأ هو في « ريه » رجلاً عنيفاً متمرداً ، فجمع طائفة من الأشرار ونزل في مكان منيع يجبل « ببشتر » شمال شرقي جبال « رنده » ، واعتصم في ذلك الجبل وأخذ يتاوىء قوات الإمارة . وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أدخل سبيله من الأسر ،

فاستطاع استئزال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ،
وفعلاً اشترك في حملات قامت بها في الشمال . ولكن ابن حفصون كان متمرداً
بطبيعته ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى
العصيان سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء
على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة في
٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتنفس مخلق عمر بن حفصون بعد
أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أباه
محمد ، وكان فارساً نجداً وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا
قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « رِيَّة » بأكملها ، وأخذ يتكلم
في ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب فئة من
المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم
العربي . والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجاله ، وكان
رجلاً تربى في ظلال الإسلام ، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامع إلى السلطان ولكنه
لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو في ثورته لم يحاول الاتصال
بنصارى الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يولييه حكم البلاد
التي دخلت في طاعته ، و« كاتب » بني رستم « أهل » تاهرت « ، وكذلك كتب إلى
« بني الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقي من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان
من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وحاصره في الجبل الذي
اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين في صفر
٢٧٥ هـ / يونيو ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً في
حبك المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبداً رغماً عن تواتر الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابن حفصون ، فامتد آذاه إلى كل نواحي جنوب الأندلس ، وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وترغمهم رجال من أمثال « سوار بن حمدون القيسى المحاربى وسعيد بن جودى ومحمد ابن أضحى الهمداني » في كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب ابن خلدون وإبراهيم بن حجاج » . وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين ، ولم يبق في طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

ولم تنتج الإمارة القرطبية من الزوال إلا بفضل قائد عظيم هو « أبو العباس أحمد بن أبي عبده » فإن هذا العسكري الموهوب ، استمر نحو ثلاثين سنة في ميادين الحروب مدافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس . وبفضل هذا القائد وابن أخ له هو « عبيد الله محمد بن أبي عبده » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون في ٢ صفر ٢٧٨هـ / ١٦ مايو ٨٩١ م . واستولى بعدها على حصن « بلى » من أحصن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه المعركة هي الخطوة الأولى نحو القضاء على عمر بن حفصون ، فقد طارده چند الإمارة وحاصروه في معقله الأكبر وهو « بيشتر » ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء عليه لتعدد الثورات . وعندما توفي الأمير عبد الله في أول ربيع الأول ٣٠٠هـ / أكتوبر ٩١٢ م كانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثائرين قد وهنت ، وتمهد الطريق لتسليمهم للإدارة القرطبية ، والفضل في ذلك راجع لهذا الأمير عبد الله الذي استطاع رغم وجود النقص الكثير في أخلاقه ، أن يجتاز بالإمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله في حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا في كل ناحية وازدادت جراتهم على الإمارة ، وتسمى هذه الفترة كلها « بفترة الفتنة الأولى » ، وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففي دورها الأول كانت ثورة من بعض أهل النواحي على ما سموه ظلم الإدارة القرطبية وإجحافها في جباية

الأموال ، وليس ذلك بصحيح ، وشرتبط هذه الدعوة بأسماء « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » في الغرب « وعمر بن حفصون » في الجنوب .

وعندما طالبت الحرب وأحس العرب في نواحي تدمر وغرناطة وإشبيلية بضعف الإمارة ، بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها ، وقال شعراؤهم شعراً يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم ، واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فنجم من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون ، ودارت الحرب بين ابن حفصون والعرب ، وكان النصر عليهم لآل حفصون حتى وقع في أسرهم قائداهم « سوار بن حمدون المحاربي » ، واشتدت الفتنة بين بني حجاج وبني خلدون في إشبيلية واشتعلت الأندلس كلها ناراً كما يقول ابن عذاري : وهذا هو الدور الثاني للفتنة ، وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة ومعه قواده ، وقد ذكرنا اثنين منهما ، ونضيف إليهما هنا « جعد بن عبد القافر » الذي استشهد في حربه مع بني حجاج ، ولكنه حطم قواهم واستقر الأمير على ذلك حتى استولى رجال الأمير عبد الله على حصن « بلي » ، فانتكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيئته وتخل الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين في بيشتر حتى توفي الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذي خلقه كان « عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله » ، وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة ، وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة ، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إلى عطف على حفيده ، ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه في القصر وأشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه ، ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه ، وكان هو من جانبه شاباً ذكياً بعيد النظر فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده العنيف البخل ، فأحبه الناس ووسطوه في حاجاتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقرباً إلى جده . فلما توفي الجد ، أجمع أهل القصر على مبايعته ، ولم يختلف عليه أحد ، لأن أحوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو الناصر أمير قرطبة دون صعوبة ، في ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وبدأ في تاريخ الأندلس العصر الذهبي وهو عصر الازدهار الأكبر .

عبد الرحمن الناصر

وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية

والعصر الذهبي لبنى أمية في الأندلس

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه في ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م ، وكان كما قلنا في الثانية والعشرين من عمره ، وقد اتفق الجميع على البيعة له بنفس راضية مع صغر سنه ومع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان من الممكن أن ينافسوه ويسببوا له المتاعب - ولكن عبد الرحمن عرف كما ذكرنا ، كيف يكسب محبة الناس جميعاً بفضل أخلاقه الجميلة ، وما كان يقوم به من الوساطة للناس عند جده عبد الله الذي اشتهر بالعنف والبخل حتى نفر منه الناس ولم يبق قريباً منه إلا حفيده عبد الرحمن هذا، فهو الذي يتوسط بينه وبين أهل الدولة والأمراء فيكسب بذلك محبتهم وولاءهم .

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الذي سيشتهر باسم عبد الرحمن الناصر أميراً للأندلس في أكتوبر ٩١٢م ، وكان الواجب الملقى على عاتقه عسيراً ثقيلاً ، فقد رأينا ما تعرضت له الإمارة القرطبية من ثورات في كل ناحية حتى أصبح منصب الأمير منصباً لا يُحسد عليه صاحبه ، ويقال إن الذي جعل أعمام عبد الرحمن ينصرفون عن مناوأته ومنافستته هو شعورهم بأن منصب الأمير كان منصباً مثقلاً بالمتاعب والأخطار والمستوليات - وأنه لا خير فيه ولهذا فقد تركوه دون صعوبة لهذا الشاب .

ولكن هذا الشاب أثبت أن الإنسان يستطيع بالذكاء وحسن الخلق والتدبير التسليم أن يعيد بناء دولة وهى أمرها ويصعد بها إلى الأوج معتمداً على شجاعته وخصاله ، وهنا ينبغي علينا أن لا ننسى فضل الأمير عبد الله فيما سيصل إليه حفيده ، فهو صاحب الفضل في تحطيم قوى الثائرين وخاصة عمر بن حفصون ، ولولا ثبات الأمير عبد الله وإصراره على التمسك بحقوق الإمارة ومطالبته كل

حكّام النواحي بما في ذلك الثّائرين بالطّاعة وكذلك تدبّيره أمور الدولة بالقليل من المال الذي كان يصل إليه ، لولا ذلك ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة إلى البلاد ويجمع قواها ويسير بها في طريق القوة والازدهار .

كذلك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال البيوت الموازية الذين وقفوا إلى جانب الإمارة يشدون أزرها بالرأى السديد والتعاون المثمر والإخلاص الثابت فمكنوا لها من الثبات وسط العواصف ولا ننسى هنا فضل القائد «أبي العباس أحمد بن أبي عبده» الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة في ميادين الكفاح مسافحاً عن الإمارة وإليه يرجع الفضل في كسب نصر يولية على «عمر بن حفصون» الذي كسر ظهره ومهد الطريق للقضاء عليه .

الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر :

رأينا كيف نشبت ثورة عمر بن حفصون وكيف تفاقم أمرها حتى أشاعت الفوضى في جنوب الأندلس كله ، فخرجت معظم نواحيه عن طاعة قرطبة ، وكيف تمكن الأمير عبد الله بفضل ثباته من الصمود لذلك الرجل وإلحاق الهزيمة الكبيرة به عند «بُل» ، ولكن ذلك النصر كان لا بد أن تتبعه سياسة صارمة مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوته وينشر أذاه كما كان الحال قبله .

وقد كان عمر بن حفصون قد انتهرز فرصة موت الأمير عبد الله وحاول أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ، ولكن عبد الرحمن تنبه لأمره وعرف أن أول ما ينبغي عليه هو مواصلة الكفاح مع هذا الثائر وأحلافه ومن جبروا في طريق الفتنة مثله .

وقد بدأ عبد الرحمن بإرسال جيش إلى قلعة كركي Caracuel في جبال المعدن Sierra Morena شمالي قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراد أن يحذو حذو ابن حفصون وهو «الفتح بن زنون» وهو جد أسرة «بنى زنون» التي سيشتهر أمرها في عصر الطوائف ، وكان قد ثار بنواحي «شنتميرية Santaver» وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العزيز القرشي وعند «كركي» لقي الفتح ابن زنون وأُنزل به هزيمة قاصمة واضطره إلى اللجوء إلى قلعة أقليمش وكذلك هزم

في تلك الحملة أحد رؤساء الثائرين وهو « محمد بن أردبولش » فكان لهذا النصر الذي لقيته جيوش عبد الرحمن في صدر حكمه أثر بعيد في إخافة الثائرين عليه .

وفي جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ / يناير ٩١٣ م - سَير عبد الرحمن جيشاً قوياً يقوده القائد بدر بن أحمد ، فاسترجع مدينة « أستجة » التي كان عمر بن حفصون قد ضمها إليه ، وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سواها بالأرض ، وهدم القنطرة التي كانت تؤدي إليها على نهر « شتيل » - فانقطع رجاء أهلها في الثورة .

وبعد ذلك بقليل دل عبد الرحمن على شخصيته وطريقته في العمل ، فأعد بعناية فائقة جيشاً ضخماً لكي يسير به نحو عمر بن حفصون ، وقد ظل يعد ذلك الجيش شهوراً طويلة ، فلم يدع شيئاً مما يلزم للجيش إلا اهتم به وتخبر قمرانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة في شعبان ٣٠٠ هـ / مارس ٩١٣ م وتوجه الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو « أبدة » حيث انضم إليه أحد القواد المخلصين للإمارة ، واتجه الجيش إلى « مرطش » ثم قصر « مالقة » وعسكر في قلب المنطقة التي ظن ابن حفصون أنها معقله ، وهنا رغب أنصاره من أمثال « سعيد بن هذيل المولسد » صاحب حصن « مونتلون » في الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووفى له بأمانه ، ثم لحق به تآثر آخر آمن كان يعتز به ابن حفصون وهو « عبد الله بن الشاليه » فحصل على الأمان وكذلك فعل ابن عطفاف « الأزدي » التآثر بحصن « فتیشه » على نهـير يُسمى وادي « بني عبد الله Guadalén » فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول في طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان ، ثم استولى عبد الرحمن على وادي « أش Guadix » ووقع في يده في ذلك البلد نفر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين في ولاية غرناطة ، ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل البحر عند « شلوبيتية » وعاد يعد ذلك إلى قرطبة ، وفي طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما شنت إشتين San Esteban وبته فراطة Pena - Forata وعاد إلى عاصمته في عيد الأضحى سنة ٣٠٠ هـ - يوليو ٩١٣ م بعد أن ألقى الرعب في نفوس الثائرين واستولى - فيما يقول المؤرخون - على سبعين حصناً من حصونهم .

وفي العام التالي ٣٠١ هـ / ٩١٤ م سار عبد الرحمن إلى جبال « رندة » وفيها

المعقل الرئيسي لأبن حفصون في « Bobastro » وفي طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى مدينة الجزيرة الخضراء وأعاد إلى الطاعة في الطريق « شذونة ومورور » ثم اتجه نحو « قرمونة » .

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة معقودة على كسر شوكة بنى الحجاج وبنى خلدون الذين كانوا قد استبدوا بأمر إشبيلية وإقليمها ، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه في الفساد ، وكان عبد الرحمن يرمى إلى حرمان ابن حفصون من حلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب شديدة ، وأرسل عبد الرحمن قائده « القاسم بن الوليد » نحو إشبيلية فخاف « أحمد بن مسلمة » زعيم بنى الحجاج من مغية التماذي في الضلال فأبدي رغبته في الاستسلام ، وأرسل عبد الرحمن قائده « بدر بن أحمد » فدخل البلاد في جمادى الأولى سنة ٢٠١ هـ / ديسمبر ٩١٤ م . وحاول « محمد بن إبراهيم بن الحجاج » زعيم بنى حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يوادع عبد الرحمن ، ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك ونزل زعيم بنى الحجاج على عهد عبد الرحمن فوفى له بما وعده به . وهكذا عاد غرب الأندلس إلى الطاعة بعد طول خروج .

وفي طريق عودة عبد الرحمن ورجاله حاصروا قلعة « قرمونة » وكان فيها شائر من أنصار عمر بن حفصون يسمى « حبيب بن عمر بن سوار » ، وترك رجاله يحاصرون البلد وعاد إلى قرطبة ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة ، على الأمان .

وكان عبد الرحمن يفعل ذلك وفي ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون فأرسل جيوشه فاحتلت « جيان » التي كان أصحابها يدفعون الإتاوة لأبن حفصون وكذلك أرسل قوة إلى « البيرة » فأعادتها إلى الطاعة ، وكان الخناق يضيق حول ابن حفصون شيئاً فشيئاً ، وظن في أخريات أيامه أنه إذا ارتد إلى النصرانية كسب ولاء المستعربين في الأندلس ، وكانوا كثيرين جداً ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التي تركتهم فريسة لعدوان ابن حفصون ومن شابهه من التأثيرين من العرب في إقليم « البيرة » وهي غرناطة ، ولكن هذا الارتداد أضرباين

حفصون ولم ينفعه في شيء ، فقد انصرف عنه الكثيرون من رجال المسلمين والنصارى ، بل إن ابناً واحداً من أبنائه وبنياً فَعَلَا فعل أبيهما في التنصر ، وظل الابنان الأخران على الإسلام . وفي هذه الظروف واليأس الذي يحيط بذلك الناصر العنيد - نزل به الموت في قلعة « ببشتر » ودفن في كنيسة لها في ربيع الأول سنة ٢٠٥ هـ / سبتمبر ٩١٧ م ، بعد أن قاد أخطر ثورة تعرضت لها إمارة قرطبة ودامت نحو ٣٠ سنة ، وفي أثناءها تقلب الرجل من ناحية لأخرى حتى يقال إنه خطب لبني الأغلب أصحاب القيروان ، وحاول الاتصال « ببني رستم » أصحاب تاهرت ، فلم يوفق معهم إلى شيء .

وكان لخبر موت ابن حفصون رجّة كبرى في الأندلس كله ، فقد أيقن بقية الثائرين أنه لا مفر لهم من العودة إلى طاعة قرطبة خاصة وأن عبد الرحمن كان يتلقى من يطلبون الأمان بالإكرام ويستنزلهم في حصونهم ويفي لهم بوعده ، فأخذ الكثيرون من الثائرين يعودون إلى الطاعة على هذه الشروط .

وبعد أن توفي عمر بن حفصون خلفه ابنه « جعفر » وكان قد تنصّر مثله هو وأخته « أرجنتيا » في حين أن أبناءه الثلاثة الباقين وهم « سليمان وعبد الرحمن وحفص » ظلوا على الإسلام ، وتولى جعفر مقاومة عبد الرحمن الثالث ، فلم يمهل هذا وسار نحوه في ذي الحجة ٣٠٦ هـ / مايو ٩١٩ م ، وقد احتفل في إعداد هذه الحملة واحتشد على طريقته التي سار عليها ، واحتل عبد الرحمن بلدة شذونة ومنها اتجه إلى جبال رندة ليحاصر جعفر بن حفصون ، واستولى في الطريق على حصن منيع قرب بلدة « البلدة » وكان جعفر قد وضع هناك حامية تنبئه للخطر . وفي أواخر ذي الحجة ٣٠٦ هـ / أوائل يونيو ٩١٩ م استولى عبد الرحمن على كل الحصون الصغيرة المحيطة ببشتر ، ثم ترك حامية تشدد الحصار على الجبل وعاد إلى قرطبة ، وطلب حفص بن عمر بن حفصون هدنة وأرسل رهائن ضماناً لوفائه ، وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قرطبة وحاول أخوه جعفر أن يواصل المقاومة ولكن جعفر قتل في جمادى الآخرة ٣٠٨ هـ / أكتوبر ٩٢٠ م ، وحاول أخوه سليمان قيادة الثورة ولكن أمرها كان قد وهن ، وتمكن رجال عبد الرحمن من الاستيلاء على معظم الحصون الثائرة في كورتى «رندة وألبيرة» وأخيراً وفي سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م سار عبد الرحمن بنفسه واستولى على ببشتر وحول كنيسة لها إلى مسجد ، وبذلك انتهى أمر هذا الناصر العنيد الذي ظل هو وأنصاره يقلقون بال الإمارة سنوات طويلة كما رأينا .

وقد فاتنا أن نذكر في سياق هذا الصراع المرير بين عبد الرحمن الثالث وخصوم الإمارة ، أن قائده الكبير « أبا العباس أحمد بن أبي عبده » كان قد لقي الشهادة في صراع مع الثائرين في قلعة تسمى « مونت روبيو » فيما بين الحرية وغرناطة ، وهكذا انتهت حياة ذلك القائد المجيد الذي يرجع إليه الفضل في إنقاذ الإمارة الأندلسية من الانهيار بفضل ثباته وبسالته وإخلاصه لقضية وحدة الأندلس .

وقد أنفق عبد الرحمن بعد ذلك سنوات في تهدئة جنوبى الأندلس والقضاء على الثائرين فيه ، حتى عادت البلاد كلها في حوض الوادى الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة ، وقد اجتهد عبد الرحمن في إصلاح ما أفسده الثائرون ، فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد ، وفي سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م أى بعد أربع عشرة سنة من الحرب المستمرة عاد السلام فأفل جنوبى بلاد الأندلس بفضل هذا الجهد المتواصل والدقة في العمل ومتانة الخلق التى دل عليها عبد الرحمن خلال ما انقضى في حكمه إلى الآن .

عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس

وبطليوس والثغر الأعلى الأندلسي :

وقد قضى عبد الرحمن بعد ذلك أربع سنوات أخرى في صراع مرير مع الثائرين على الإمارة في غرب الأندلس وفي إقليم طليطلة ، ذلك أن غرب الأندلس وخاصة في نواحي «ماردة وبطليوس» ، كان قد قام فيه عدد كبير من الشوار أكبرهم رجل من المستعربين يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » وكان في أول أمره من ضباط جيش الإمارة ثم خلع طاعته وتحصن في ماردة . واجتمع إليه عدد من الذعار والخارجين على القانون ، وقوي أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسي كله ، وكان لا بد للقضاء على ذلك الثائر ومن انضم إليه من جهد يعادل ما بذله عبد الرحمن في القضاء على ثورة عمر بن حفصون وبنى الحجاج وبنى خلدون في إشبيلية ، بل إن عبد الرحمن بن مروان الجليقي كان أمره أصعب ، لأنه كان على صلة بأهل طليطلة ولم تكن طاعتهم خالصة للإمارة ، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة .

ولنصف إلى ذلك أن الثغر الأعلى الأندلسي وهو حوض نهر الإبرو وقواعده

الكبرى مثل « سرقسطة وطليلة ووشقة » ظلت في طاعة الإمارة القرطبية ، ولكن زعماءها كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم فهم تارة مع الإمارة وتارة عليها .

وقد وجه عبد الرحمن قواه كلها أول الأمر نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وظل يتابع الحملات عليه ، وفي أثناء ذلك استولت قوات عبد الرحمن على معظم حصون الثائرين المواليين للجليقي حتى طاع كل الغرب الأندلسي حتى « شلب » واكشونية وشنترية الغرب « لعبد الرحمن ثم اتجه بعد ذلك نحو عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحاصره حصاراً طويلاً حتى ألقى بيد الطاعة . وما كاد عبد الرحمن يعود إلى قرطبة سنة ٣١٨ هـ / ٩٢٠ م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً لعبد الرحمن بن مروان الجليقي وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة ، على أمان وتوسعة وتكرمة . وهناك اندرجوا في جملة السكان وانتهى أمر ثورة الغرب ، وبقي أمر طليطة التي طال العهد بخروجها على الطاعة وتحالفها مع ملوك قشتالة واستنادها إلى تأييد « بني قسي » الثائرين في « لاردة » وبعض نواحي الثغر الأعلى ، وكان بنو قسي أسرة بشكنسية الأصل جدها يسمى « فرتون » فدخل في الإسلام وتركهم المسلمون على ضياعهم وإقطاعاتهم في الشمال ، وصارت رياستهم في آخر الأمر لبني قسي ، وهم أحفاد فرتون وقد تولي رياستهم في عهد عبد الرحمن زعيمان قويان ، هما « المطرف بن لب بن موسى القسوي » وابن عمه « محمد بن إسماعيل بن موسى » أما طليطة فقد تزعمها رجل من رجالها يسمى « لب بن طريشة » وكان حليفاً لملوك قشتالة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م شرع عبد الرحمن في معالجة أمر الشمال الثائر ، فقاد الحملة الكبيرة التي تسمى في النصوص باسم « غزوة مويش » وائجه أول الأمر إلى قرطبة ، فسارع « لب بن طريشة » وبذل الطاعة لعبد الرحمن ولكنها كانت طاعة على دخن ، وبعد وفاة لب بن طريشة تولي قيادة طليطة « ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث » .

وكان ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الحيلة ، قبلاً عبد الرحمن يحاول إقناعه بالدخول في الطاعة ، فردّ رداً خشناً ، ولم يجد عبد الرحمن إلا اللجوء إلى القوة

فأرسل في سنة ٢١٨ هـ / ٩٣٠ م جيشاً يقوده الوزير « سعيد بن منذر » حاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسه فعسكر قرب حصن « مورة » على بعد ٢٠ كم من طليطلة . ومن هناك أنذر ثائراً من أنصار ثعلبة يسمى « مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب » ثم استولى على قلعة حصينة كانت تحرس الطريق المؤدى إلى طليطلة ، وهناك ترك حامية وعاد إلى قرطبة بعد أن استسلم له أصحاب حصن « الأمين وقنالش » وبدأ حصار طليطلة ، فاستعان أهلها بملك ليون « راميرو الثاني » الذي تسميه مراجعنا « رذمير » وحاول ذلك الملك معاونة طليطلة فلم يستطع واشتد الحصار حولها حتى عاد عبد الرحمن مرة أخرى على رأس جيش كبير في رجب ٣٢٠ هـ / يوليو ٩٣٢ م ، وعندما ضرب فساطيطاً حولها أرسل إليه أهلها يطلبون المؤن إذ كانت مؤنتهم قد نفذت وعرضوا التسليم ، وفي شعبان ٣٢٠ هـ / أغسطس ٩٣٢ م دخل عبد الرحمن العاصمة القوطية ، وخضعت له كل بلاد طليطلة . وبهذه المناسبة أقيم إعداز عام احتفالاً بتلك المناسبة ، والإعداز هو أن يختن كل من في سن الختان من صبيان البلد على نفقة الأمير وتقام الاحتفالات بذلك شكراً لله .

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل الفذ ، عبد الرحمن بن محمد الناصر بعد اثنتين وثلاثين سنة من الجهد والكفاح ، إعادة الوحدة إلى بلاده ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق الأخلاق القويمة ، كذلك فإن الناس ما كانوا يستسلموا له إلا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يستسلمون لرجل وقي ، يعرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم ، ويعرفون أنه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول في طاعته والاستئمان له .

بقى بعد ذلك الثغر الأعلى الأندلسي . وقد أشرنا إلى حال بني قسي في « طليطلة » ونواحيها ، ونضيف إلى ذلك أن « سرقسطة » كان قد استبد بها بيت التجيبين ، وهم أسرة التجيبين طال بها العهد في الاستبداد بذلك الثغر ، أما « وشقة » فقد استبد بها « بنو محمد الطويل » وكانوا جميعاً عصابة واحدة يتحدون على الإمارة وإن كان الخلاف بينهم شديداً ، ثم إنهم كانوا جميعاً يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

فأما بنو قسي أصحاب طليطلة فكان آخر الثائرين منهم على عبد الرحمن ،

هو « محمد بن لب بن قسي » وقد قُتل ذلك الرجل في أول إمارة عبد الرحمن سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٦ م وتولى بعده أخوه « المطرف » وكانت لهما أخت تسمى « أراكة » تزوجت من ابن ألفونسو الثالث ملك « أشتريس » وهو يسمى « فرويلا الثاني » الذي سيتولى العرش في ليون بعد « اردنيو - الثاني » الذي سنتحدث عنه ، وإنما ذكرنا ذلك لنسُـدَّ على علاقات القرابة والمصاهرة بين أولئك الزعماء المسلمين ومن جاورهم من ملوك النصارى . وبعد موت محمد بن لب اضطرب أمر طليطلة زمناً طويلاً ، حتى استسلم أصحابها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م .

وكذلك دخلت « وشقة » وأصحابها من بنى محمد الطويل في ولاء الأمير ، وبقي أمر سرقسطة ، ولكن قبل أن يقصد إليها عبد الرحمن ، وجد الفرصة مناسبة للقضاء على « الفتح بن زنون » الثائر في حصن « أقليش » والذي كان يسيطر على كورة « شنتبرية » وقد توفي هذا الرجل في سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ - ٩١٦ م . وحاول ابنه يحيى أن يسير في طريق الثورة حتى إذا كانت سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ، أرسل عبد الرحمن جيشاً بقيادة الوزير « عبد الحميد بن بسيل » لكي يستنزل « يحيى ابن الفتح بن زنون » فعرض التنازل وانضم إلى جيش الإمارة وصار في قواد عبد الرحمن ، أما أخوه مطرف الذي كان قد استبد بناحية « أبدة » فلحق بأخيه ودخل في طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلك أن وقع أسيراً في يد « سانشو غرسية » صاحب بنبلونة . وعاد إلى صفوف الأمير حتى استشهد في موقعة « الخندق » التي سنتكلم عنها ، سنة ٣٢٣ هـ / ٩٤٥ م . وكان عبد الرحمن قد أقامه حاكماً على كورة وادي الحجارة .

و في سرقسطة حاول صاحبها « أبو يحيى محمد الملقب بالأنقر » عبد الرحمن التجيبي « الخروج على طاعة الناصر ثم عاد فدخل ، وخلفه ابنه « هاشم التجيبي » فأقامه عبد الرحمن عاملاً على سرقسطة نظراً لما لمس فيه من الإخلاص والكفاية ، وقد طال حكم بيته في سرقسطة حتى عرفوا باسم بني هاشم ، وفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م . توفي « أبو يحيى محمد الأنقر » وتولى أمر سرقسطة « محمد ابن هاشم » الذي التوى على الأمير وانضم إلى « راميرو الثاني » ملك ليون وسنرى ما يكون من أمره بعد ذلك .

عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة وبنبلونة :

لكي نفهم علاقات عبد الرحمن الناصر مع ملوك « أشتريس » وليون ونبرة وعاصمتها بنبلونة ، ينبغي أن نعود إلى الوراء قليلاً - إلى أيام الأمراء محمد والمُنذر وعبد الله - فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملكاً من ملوك أشتريس يسمى « ألفونسو الثالث » وكان ملكاً نشيطاً بعيد الطموح ، تمكن بفضل نشاطه المتصل واتجاهه إلى توسيع رقعة مملكته ، في أشتريس والأغوار منها إلى البسائط التي تقع جنوبي سلسلة الجبال الكتنبية ، والتي تقوم فيها بلاد كبيرة مثل « ليون وأشترقة وسمورة وسلمنقة » وغيرها من البلاد والحصون الواقعة بين حوضي « المنيو والدويرو » ، وكذلك ما يقع منها على نهيرات هذا الأخير ، وأهمها نهر « توروس » وعليه تقع سلمنقة ، وقد تمكن ذلك الملك منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التي شغلت أمراء قرطبة وخاصة في منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، تمكن من أن يستولي على الأراضي الواقعة جنوب المنيو ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن ألفونسو الثالث ملك أشتريس الذي أشرنا إليه والذي كان يلقب بألفونسو الكبير Alfonso El Magno نظراً لنشاطه الكبير في توسيع نطاق مملكة أشتريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكتنبية وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال ، فاستولى على « أوبورتو » التي ضمها إلى أملاكه الكونت « فيمارا نوربرت » وهو أحد أتباع ألفونسو الثالث ، وكذلك جعل ألفونسو الثالث يشجع الخارجين على الإمارات القرطبية ، من أمثال ابن مروان الجليقي ، وعندما طارده قوات الإمارة القرطبية بقيادة « هاشم بن عبد العزيز » لجأ إلى ملك أشتريس . وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت مهددة فعلاً بأخطار جسيمة قبل أن يتولى عبد الرحمن الثالث العرش ، ويكفي أن نذكر أنه في أيام الأمير محمد وابنه المنذر استولى الفونسو الثالث على بلدة أنيشتة Afienza لكي يقوى مركزه في مدينة ليون التي اتخذها عاصمة له ، وتحالف في ذلك مع أمراء الثغر الأعلى من المسلمين . وفي أوائل أيام عبد الرحمن الثالث وبينما كان هذا الأمير مشغولاً بجنوب الأندلس ، تمكن ألفونسو الثالث من الاستيلاء على « قلمرية » في البرتغال الحالية ، وحصن « ليون وأشترقة وأماية وسمورة » ، وأسكن هذه البلاد أعداداً

كبيرة من المستعربين ، وهم نصارى الأندلس الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في بلاد النصاري ، وعقب موت ألفونسو الثالث المعروف بالكبير استولى ملوك ليون على حصن « غرماج San Esteban de Gormaz » سيكون له ذكر طويل في الصراع بين الإسلام والنصرانية في الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر . ومعنى ذلك أنه عندما تولى عبدالرحمن الثالث وفي السنوات الأولى من حكمه . كانت مملكة أشتريس التي أصبحت تسمى مملكة ليون ، قد امتدت جنوباً حتى وصلت إلى منتصف المسافة ما بين نهري المنيو والدويرو ، وفي بعض الأحيان جرؤ قواد ألفونسو الثالث على الوصول إلى ضفاف نهر الدويرو .

وقد انتهز أمراء « بنبلونة وشرب وبليارش » وغيرهم من أصحاب الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوب جبال ألبرت ، انتهزوا الفرصة هم الآخرون ، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسي الذين ذكرناهم . من الانبساط نحو الجنوب وتهديد المعاقل الإسلامية في « تطيلة وجريدة » وما إليها . وقد تولى ألفونسو الثالث سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، أي قبل ولاية عبد الرحمن بسنتين ، وخلفه ابنه « أردنيو الأول » ولم يكن من طراز أبيه ولكنه تمكن من تثبيت حدود دولته بالامتداد فيما يعرف بأراضي « قشتالة الجديدة » في أحواز « شقوبية وأبله » وكانت في ذلك الحين بلداً إسلاميةً ، وإن كانت أعداد المسلمين فيها قليلة في ذلك الحين . فإذا التفتنا إلى كونتينة قطلونية التي كان ملوك الفرنجة قد تمكنوا من إنشائها في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وجدنا أن أجنادها تمكنوا هم الآخرون من الامتداد على حساب المسلمين في البلاد الواقعة قرب « جرّنده » Jerond وبذلك نرى أنه عندما تولى عبد الرحمن كان عليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسي .

راميرو الثاني ملك ليون (٩١٢ - ٩٣٢ م) :

وفي نفس السنة التي صعد فيها عبد الرحمن الداخل على العرش تولى عرش ليون ملك من أنشط ملوكها هو « راميرو الثاني » الذي يسميه العرب « رذمير » وكان هذا الرجل واسع النشاط ، كبير الطموح ، وقد بدأ في السنة الثانية من حكمه بالاستعداد للهجوم على أراضي المسلمين وبالفعل هاجم « يابره » في البرتغال

الحالية بجيش قوامه ثلاثون ألفاً ، وتصدى له عاملها « مروان بن عبد الملك » ، ولكنه انهزم وتمكنت قوات « راميرو الثاني » من دخول البلد وأنزل مذبحه بأهلها ، وأخذ معه عند عودته أربعة آلاف أسير من المسلمين ما بين نساء وأطفال ، وبلغ من خوف عمال البلاد في هذه الناحية أن عامل بطليوس وهو « عبد الله بن محمد » وهو ابن أخى « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » سارع إلى تحصين بلده وبناء سورها بالحجارة ، وبعد ذلك بقليل في سنة ٩١٤ - ٩١٥ م . هاجم راميرو الثانى مدينة « ماردة » ونهب الأراضى حولها وتمكن من دخول حصن « الحنش » وقتل فيه الوف المسلمين ، وبلغ من جرأته أنه أنشأ في ذلك الحصن كنيسة سميت بكنيسة القديسة مارية الليونية Santa Maria de Leon .

وكل ذلك نبه عبد الرحمن الناصر إلى ضرورة مواجهة الموقف في الشمال بالحزم الذى نعرفه فيه وابتداء من سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م . نجد عبد الرحمن يرسل قائده الكبير أبا العباس أحمد بن أبى عبده بجيش قوى لكى يهاجم المواقع النصرانية في وادى نهر « الدويرو » ، واستعد له راميرو الثانى بأحسن ما لديه من فرسان ، في حين أن القائد أبا العباس أحمد بن أبى عبده كان يقود جنوداً غير نظاميين ، لأن أحسن قوات عبد الرحمن الناصر كانت معه في الجنوب ، ولذلك عندما التقى هذا القائد الباسل بقوات الأعداء في ١٤ ربيع الأول ٣٠٥ / ٤ ديسمبر ٩١٧ م قرب بلدة « غرماج » ، التى تسمى أيضاً بقلعة المسلمين أى « قشرو موروش » انهزم ذلك القائد وقتل وتتبع النصارى قلول المسلمين حتى « أنيشة » ، وهكذا كانت نهاية ذلك القائد الباسل الذى يرجع إليه الفضل في الحفاظ على الإمارة القرطبية طوال حكم الأمير عبدالله ، ومن المؤسف أن راميرو الثانى علق رأس هذا القائد على أسوار غرماج وإلى جانبها رأس خنزير برى .

هنا أدرك عبد الرحمن الثالث أن الأمر أخطر مما تصور ، وزاد في خوفه على ثغوره الشمالية أن راميرو الثانى ازداد طلبه وطمعه في بلاد المسلمين فتحالف مع الملك « سانشو غرسية » ملك نبرة وسارت قواتهما للاستيلاء على مدينة « طليبرة » غربى « طليطة » على نهر تاجة ، وفي نفس الوقت نجد أن صاحب بنبلونة يتجه في سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م . لمهاجمة أراضى بنى قسى أصحاب طليطة وعاث في

أراضيها وأحرق الزروع حول ناجرة وظليطة وهاجم « فلتيرة » وأحرق جامعها ، وهنا تجد عبد الرحمن ينهض في المحرم سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٩ م ، ويرسل قائده الحاجب « بدر بن أحمد » لملاقاة أردنيو الثاني فأنزل به هزيمة قاصمة عند موضع يسمى « ميتونيا أو مودونيا » ولا نعرف موضعه بالضبط . وفي العام التالي يسير القائد « إسحق بن محمد القرشي » وكان من أعظم قواد عبد الرحمن الناصر على رأس جيش كبير فاستعاد قلعة غرماج .

وفي العام التالي ينهض عبد الرحمن الثالث ويعيد « الواديانا » ويتقدم إلى الشمال ليلاقى النصاري قرب بلدة « القليعة » عند وادي الحجار ، وينزل بهم هزيمة كبيرة ثم يتقدم نحو مدينة سالم ، وكان هدفه هذه المرة أراضي مملكة نبرة . وبعد أن عاث في أرضها اتجه إلى منطقة « ألبه » والقلاع فهادنه صاحب مدينة « أوسمه » التي يسميها المسلمون « وخشمة » واحتلها المسلمون . ثم اتجه عبد الرحمن نحو غرماج وأنزل بالنصاري هزيمة انتقم فيها لما أصاب قائده أبا العباس أحمد بن أبي عبدة الذي مات قريبها ووصلت غارات المسلمين إلى بلدة كلونيا التي تسمى الآن Corana del Conde وعاث المسلمون في نواحيها ، وبذلك يكون عبد الرحمن قد لقن ملكي ليون ونبرة درساً لن ينسياه بعد ذلك . وبعد ذلك اتجه عبد الرحمن نحو « بنبلونة » وفي نيته أن يلحق الدرس لملكها سانشو غرسيه ، وانضم إليه في هذه الحملة « محمد بن عبد الله بن لب » وهو من آخر الكبار من بني قسي . وبأمر عبد الرحمن استولى ابن لب على قلعة « كركي » غير بعيد من ملتقى نهر الأبرو بنهر « أيك » واحتل عبد الرحمن بلدة « قلهرة » على الضفة الشمالية لنهر الأبرو واضطر سانشو غرسيه إلى التحصن في قلعة أرنيط Arnedo وسار سانشو غرسيه لملاقاة المسلمين وانضمت إليه قوات أردنيو الثاني وحاول سكان الناحية أن يعترضوا جيش المسلمين ولكن عبد الرحمن الثالث تقدم نحو الشمال وتغلب على كل خصومه ووصل إلى وادي بلدة « خونكيرة » وقربها أنزل بجيش ليون ونبرة هزيمة كبرى قتل فيها الوف النصاري ووقع بيده أسرى عدد من كبارهم من بينهم « دولثيديو » أسقف سلمنقة « وأرمو جيو » صاحب تودة التي توجد في البرتغال الحالية . وعاد عبد الرحمن مُظفراً إلى قرطبة وكان نصر « خونكيرة » في ٦ ربيع الأول ٣٠٨ هـ /

٢٦ يوليو ٩٢٠ م . وهو تاريخ فاصل ، لأن ملوك النصاري رهبوا عبد الرحمن وجيوشه ، خاصة وأن القواد الذين تركهم عبد الرحمن على الحدود توغلوا في أراضي نبرة وهاجموا بنبلونة ، ولم ينصرفوا عنها إلا بعد أن طلب ملك نبرة الصلح وعرض أن يكون تابعاً لعبد الرحمن الثالث . وهذه الحملة الكبيرة التي قادها عبد الرحمن ورجاله في كل بلاد الشمال هي التي تسمى بحملة « مويش » وقد توفي أردنيو الثاني بعد ذلك بقليل ، وتوقفت بذلك أعمال العدوان على بلاد المسلمين ، لأن الذي خلفه كان الملك « فرويلا الثاني » ، وكان فيما تقول المدونات النصرانية ملكاً ضعيفاً .

ومع ذلك فقد وجد عبد الرحمن أنه لا بد من أن يواصل الحملات على الممالك النصرانية في الشمال ، وتلك كانت خطته ، وهي العمل الدائم حتى يصل إلى نتيجة حاسمة في كل ما يقوم به ، ولهذا نجده يخرج بجيش كبير في الحرم ٣١٢ هـ / أبريل ٩٢٤ م . فيمر بكورة تدمير وهي مرسية ثم بكورة بلنسية ، وهناك يستسلم له كل من كانت نفسه تحدته بالثورة ، ويستقرزهم عبد الرحمن ويستولي على قلاعهم ويتجه إلى طليطلة ، وهناك حاول سانشو غرسية التعرض له ، ولكن عبد الرحمن يدخل قلعة كركر ويحتل بلدتي « بيرلت وفالكس » ويتقدم فيستولي على « تفية . Tafalla » وقرقشونة ثم يدخل الجيش الإسلامي أراضي مملكة أرغون ويتوغل فيها ويلتقي بجيوش سانشو غرسية قرب بنبلونة وينتصر المسلمون . ثم يعقب عبد الرحمن ذلك باحتلال بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ويبيحها لرجاله . وواصل عبد الرحمن مسيره إلى الشمال في أراضي أركون واستعاد للمسلمين بلدة كانت تابعة لطليطلة تسمى « صخرة قيس » وهدم كنيسيتها وحولها إلى مسجد وعاد عبد الرحمن إلى « قلهرة » ثم مر بحصن « فالنيرا » ووصل إلى طليطلة في ربيع الآخر ٣١٢ هـ / أغسطس ٩٢٤ م . وطلب منه غرسية الصلح فمنحه إياه وفي عودته احتل بلدة شنتبرية حيث قدم له « يحيى بن موسى وابن عمه يحيى بن الفتح » ابني « زنون » فروض الولاء .

وقد واصل عبد الرحمن ضرباته وغزواته في بلاد الشمال حتى خافه ملك ليون « راميرو الثاني » واضطر جميع ملوك النصاري إلى طلب الصلح من عبد الرحمن وأصبحوا جميعاً من أتباعه ، وقد تأكد ذلك في أيام الفونسو الرابع

ملك ليون و« سانشو غرسيه » ملك نبرة ، وبعد موت «سانشو » ملك نبرة تولى العرش « خيمينيث غرسيه » وكان قاصراً فتولت الوصاية عليه الملكة « طوطة » التي سارعت بمهادنة عبد الرحمن الثالث ، بل نجد أنها تأخذ ابنها الذي أصيب بالسمنة المفرطة وتقد على قرطبة لكي يتولى أطباء قرطبة علاجه . وعندما تخلى الفونسو الرابع عن العرش وترهب في دير « اسهجون » خلفه ابنه « رذمير الثالث » فحالف الأوصياء عليه عبد الرحمن الثالث ودخلوا في طاعته ، ثم وقعت حرب بين الطامعين في العرش استراح فيها عبد الرحمن مؤقتاً من متاعب الأخطار التي كانت تهدد ثغوره الشمالية .

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن علاقات عبد الرحمن مع ممالك النصراني في الشمال نضيف فقرة قصيرة عن الصراع الذي دار بين عبد الرحمن الثالث وملك نشيط من ملوك ليون هو « راميرو الثاني » الذي عزّ عليه أن يشهد ما أصاب البلاد النصرانية على يد خليفة قرطبة ، فاستجاش ملوك الممالك النصرانية وجمع جيشاً كبيراً ليغاور بلاد المسلمين ، فاستعد له عبد الرحمن الثالث استعداداً كبيراً ، خاصة وأن راميرو استولى على حصن مجريط وهدّد طليطلة سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م . وقد جمع عبد الرحمن جيشاً ضخماً احتفل في إعداده حتى سماه بجيش القدرة وسار إلى الشمال وحاصر راميرو الثاني في بلدة « أسمه » وخاف راميرو الثاني اللقاء ، فانطلق عبد الرحمن في البلاد حولها ، ويقال إنهم نهبوا ديراً يسمى دير شنت بطره San Pedro de Cardena ، وقتلوا فيه عدداً من الرهبان . ويقع ذلك الدير شرقي مدينة « برغش » ثم تقدم عبد الرحمن واحتل سرقسطة ، ثم توغل في أراضي نبرة وأرسل قائده « مطرف بن منذر التجيبي » الذي دخل في طاعته ، فاسترجع قلعة أيوب ولكنه قتل في المعارك حولها ، واستولى عبد الرحمن على نحو ثلاثين حصناً وأرسل قائده « أحمد بن إسحق القرشي » فعاث في أراضي نبرة ، وبعد ذلك وفي سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . تقدم عبد الرحمن بجيوشه من مدينة « سلمنقة » والتقى بجيوش لسيون ونبرة عند أسوار بلدة « شنت مانفش Simancas » .

وحدث في هذه المعركة أن عبد الرحمن أقام على رئاسة الجيش قائداً في مواليه من الصقالبة يسمى « نجدة الحيري » فغضب القواد الأندلسيون ورجالهم

وتخلوا عن عبد الرحمن فلحقت به الهزيمة في ١١ شوال ٢٢٧ هـ / أول أغسطس ٩٢٩ م . وتراجع المسلمون فتساقط الكثير منهم في خندق كان النصاري قد حفره ، ولذلك تسمى هذه المعركة « بمعركة الخندق » وقد بالغ مؤرخو النصاري في تهويل أهمية ذلك النصر مع أنه لم يؤثر كثيراً في قوى عبد الرحمن ولكنه كسب منه درسا ، وهو ألا يولى على جيوشه قادة من الصقالبة ، وقد كف عبد الرحمن بعد ذلك عن قيادة الحملات وكانت السن قد علت به ، إذ أنه في ذلك التاريخ كان قد بلغ الخمسين من العمر ، وقد استعاد رومير الثاني معظم الحصون التي كان عبد الرحمن الثالث قد استولى عليها في وادي نهر « تورمس » وقد اجتهد عبد الرحمن في فك أسر من وقع بيد النصاري من قواده مثل أبي يحيى محمد بن هاشم ، صاحب سرقسطة الذي سيصبح بعد ذلك من أكبر رجال عبد الرحمن . وبعد ذلك بقليل عقد الصلح بين راميرو الثاني وعبد الرحمن الثالث وسارع « فرنان كوندالث » الذي يعتبر أول أكتاد كونتينة قشتالة الناشئة ، وحالف عبد الرحمن الذي حصن ثغوره واختار أحسن قواده لتولى الأمور في الشمال ، فسكنت الأمور ومال راميرو الثاني إلى عقد صلح دائم مع عبد الرحمن مع أنه كان في نفس الوقت حليفاً لآردينو الثالث ملك قشتالة ، وقد ولى عبد الرحمن على الثغر الأوسط قائده ، أحمد بن يعلى ، ووجهه للإغارة على بلاد ليون وفي سنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٤ م قاد القائد « أحمد بن محمد بن إلياس » حملة على جليقية ، وعقب ذلك نجد عبد الرحمن ينقل قاعدة الثغر الأعلى إلى مدينة سالم ، بعد أن كانت في مدينة طليطلة وولى عليها قائده « غالب الناصري » الذي سيكون له دور عظيم في تاريخ الأندلس في أيام عبد الرحمن وخليفته الحكم المستنصر .

وقد حصن عبد الرحمن مدينة سالم وجعلها قاعدة متينة للأعمال العسكرية في الشمال ، واستعاد غالب كل المواقع الإسلامية التي كان راميرو الثاني قد استولى عليها ، وفي سنة ٢٢٧ هـ / ٩٤٩ م . تمكن « غالب الناصري » من قيادة حملة عاثت في أراضي سلمنقة ووصلت إلى بلدة « لك » عاصمة جليقية وفي صيف ٢٢٩ هـ / ٩٥٠ م . قام أحمد بن يعلى بغارة جريئة وصل فيها إلى ساحل المحيط في جليقية ، وهنا أدرك راميرو الثاني أنه لا قبل له بعبد الرحمن فسار إلى مصالحته ثم توفي في يناير ٩٥٠ - ٩٥١ م . وبذلك انتهى عصر ذلك الملك الحافل بالغارات

على بلاد المسلمين ، واستراح عبد الرحمن من هذه الناحية وأصبحت مملكة ليون مثلها في ذلك مثل مملكة نبرة من توابع قرطبة . وكان عبد الرحمن الثالث في ذلك الحين قد وصل إلى أوج قوته داخل بلاده وخارجها ، ومد نفوذه على بلاد المغرب وجعل من قرطبة مركز خلافة إسلامية تزيد في القوة والبهاء عن خلافة العباسيين التي كانت قد دخلت في دور الضعف والانحيار .

وكان الذي قد خلف راميرو الثاني هو أردنيو الثالث ولم يكن من طراز أبيه ، فحاول أن يثبت مركزه بالمصاهرات مع ملوك إسبانيا النصرانية الآخرين مثل غرسية سانشو الأول « وفرناندو ثالث » كونت قشتالة ، التي اشتد عودها في ذلك الحين ، وقامت فيما يسمى بقشتالة الجديدة في الحوض الأوسط لنهر دويرو ، ومن سوء حظ ملك ليون ، أن اختلف عليه زملاؤه من ملوك إسبانيا النصرانية ودخل في حروب معهم ، وانتهز قواد عبد الرحمن الثالث الفرصة لكي يغتروا على بلاد مملكة ليون ، ففي سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م . نجد قواد الناصر من أمثال أحمد ابن يعلى وغالب الناصري يقومون بحملات يوغلون فيها في أراضي ليون حتى يصلوا إلى جليقية بل تمكنوا في ربيع الأول ٣٤٤ هـ / يوليو ٩٥٥ م ، من إنزال هزيمة قاصمة بقوات أردنيو الثالث ، هلك فيها من رجاله نحو عشرة آلاف . وقد حاول أردنيو أن يعرض تلك الخسارة بالإغارة على الأشيبونة واتجه صهره « فرناندو ثالث » إلى مهاجمة حصن غرماج ، إلا أنه اضطر آخر الأمر إلى طلب الهدنة من عبد الرحمن الثالث بعد هزيمة ربيع الأول ٣٤٤ هـ التي ذكرناها ، ولم يمنحه عبد الرحمن هذه الهدنة بل أرسل سفيرين من لدنه هما « محمد بن الحسين واليهودي أبو يوسف حسداي بن إسحق بن شبروت » وكان من كبار يهود الأندلس ، فقد ولد في جنيان سنة ٩١٥ م وتثقّف ثقافة عالية في اللغة العربية وآدابها ، وإلى جانب ذلك كان طبيباً ماهراً وتمكن السفيران من إقناع أردنيو الثالث بضرورة التفاهم مع عبد الرحمن الناصر الثالث فتنازل عن عدد من الحصون وتعهد بعدم العدوان على بلاد المسلمين . وعلى هذا الأساس فقط منحه الناصر الهدنة وأسرع الكونت « فرناندو ثالث » بدوره يطلب مهادنة خليفة قرطبة وحصل على تلك الهدنة واعترف للناصر بالسيادة عليه .

ثم اتجه عبد الرحمن إلى نبرة . وكان الملك أردنيو الثالث قد توفي

عند « سمورة » وخلفه على عرش ليون سانشو الأول ، فسارع إلى طلب الصلح والوفاق مع عبد الرحمن الناصر ، بعد أن هاجم أراضييه القائد أحمد بن يعلى ، ولكن رجال مملكة ليون لم يكونوا راضين عن ملكهم هذا بسبب إفراطه في السمنة وعدم قدرته على ركوب الخيل ، فاجتمع رأيهم على عزله وعزل بالفعل ، وخلفه أردييو الرابع الملقب « بالسيئ » أو المالو « وهو ابن ألفونسو الرابع الذى ذكرنا أنه ترهب . وحاول هذا الأخير أن يثبت لقرطبة ولكن الملكة طوطة أم أردييو الثالث أخذت ابتها السمين هذا وذهبت به إلى قرطبة تطلب علاجه على أيدي أطبائها ، وكذلك أرادت أن يعينها عبد الرحمن الناصر على عودة العرش لابنها ، ورافقها في هذه الرحلة سانشو الأول وهو حفيد طوطة ، واستقبلهم الناصر استقبالا حافيا وإن لم يعد بتقديم المعاونة السياسية لهم ، ولكن أطباءه في الحقيقة عاجزوا ابنها . وقد عقد عبد الرحمن الناصر الحلف مع مملكة نبرة واضطر بذلك ملك ليون إلى الدخول في مفاوضات مع عبد الرحمن ، واعترف هو الآخر بسيادته وتعهد بأن لا يهاجم ثغور المسلمين ، وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر وبفضل هذه الجهود المتصلة سنوات طويلة أن يصل إلى ما كان يصبو إليه من توحيد بلاده وإقرار سلطة الدولة في كل نواحيها وإعادة الهيبة لقرطبة وجعل من خليفته القوة الكبرى في شبه الجزيرة والحكم بين ملوكها النصارى فيما يشجر بينهم من خلافات .

عبد الرحمن الثالث والمغرب :

عندما تولى عبد الرحمن بن محمد عرش قرطبة كانت الدولة الفاطمية في أفريقية قد قامت منذ أربع سنوات (٢٩٦هـ / ٩٠٩م) وكانت للدولة الفاطمية مطامع واسعة في المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبد الله المهدي من إزالة الدولة الرستمية التى كانت تحكم في جزء كبير من المغرب الأوسط ، وكانت دولة الأدارسة في فاس قد دخلت في دور الضعف واحتاجت إلى سند ، وتطلع أمراؤها إلى قرطبة ، في حين بدأ الخليفة الفاطمي من القيروان بشن الحملات الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى ، مستعينا في ذلك بزعماء من البربر الصنهاجيين من أمثال « زيرى بن مناد الصنهاجى » وقريبه « حبوس بن مكسن » وابنه « مصالة بن حبوس » وقد استطاع مصالة هذا أن

يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ، وأقام عليها رجلاً من أوليائه يسمى «موسى بن أبى العافية» فقام هذا بإخراج بقية الأدارسة من فاس ونفاهم إلى حصن صغير جنوبى تطوان يسمى «حجر النسر» في قلب بلاد الريف . وهنا ينتهى الدور الأول في تاريخ دولة الأدارسة ويبدأ الدور الثانى . وكان لا بد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئاً لحماية حدوده الجنوبية من عدوان الفاطميين وكان عبد الرحمن الناصروبقية خلفاء بنى أمية الأندلسيين ، يرون أن العبيديين الذين أقاموا خلافة القيروان كانوا مدعين للتسبب الشريف ، غير جديرين بولاية الأمر وأن مذهبهم الشيعى الإسماعيلى خارج عن الإسلام الصحيح .

وقد اتبع عبد الرحمن الثالث سياسة ذكية في مواجهة الخطر الفاطمى ، فقد كان يعرف أنه إذا دخل في صراع طويل مع الفاطميين في المغرب الأقصى أضعف في ذلك جبهته الشمالية أمام النصارى . وكان لا بد له مع ذلك من أن يقوم بأمر يوقف الخطر الفاطمى ، فأتجه إلى أن يرسل المعاونات المالية الكبيرة والعتاد والسلاح إلى « يحيى بن إدريس بن عمر » الذى تزعم الأدارسة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبى العافية ومصالة بن حبوس ، وبعد صراع طويل نجد أن عبد الرحمن الثالث يكتفى باحتلال طنجة وسبتة سنة ٩٢١ م . ومن هذين الحصنين الكبيرين استطاع أن يمد أعوانه في المغرب بما هم في حاجة اليه من العتاد والأموال ليثبتوا أمام الضغط الشيعى ، ولم يفعل عبد الرحمن الناصر أكثر من ذلك في سياسته المغربية ، وربما لجأ إلى معاونة الخارجيين على الفاطميين من غير الأدارسة ، من أمثال بنى خزر اليفرنيين ، ولم يقع عبد الرحمن في الخطا الذى سيقع فيه ابنه الحكم المستنصر ، عندما ألقى بخيرة قواده وجنده في الصراع مع المغرب ، فأضعف بذلك جبهته الشمالية ولم يخرج في نهاية الأمر بنتيجة حاسمة .

الخلافة الأموية القرطبية :

استطردنا في الكلام عن أعمال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله في إعادة الوحدة إلى بلاده ومواجهة الخطر النصرانى في الشمال ، ورأينا كيف أنه وفق في ذلك تمام التوفيق وأصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة ، وأعاده إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك من إقرار هيبة الخلافة القرطبية في المغرب الأقصى .

ونعود بعد ذلك إلى دراسة أعمال عبد الرحمن الثالث الداخلية وما قام به من إصلاحات وتغييرات جعلت خلافة قرطبة بالفعل من أقوى دول العالم في ذلك الحين.

وفي أواخر سنة ٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م . وجد عبد الرحمن أنه أولى بأن يتخذ لقب الخليفة من عبد الله المهدي صاحب القيروان ، فأصدر بياناً أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين ، واتخذ لقب الناصر لدين الله ، والمقصود بذلك نصر مذهب السنة والجماعة على نصارى الشمال وعلى العبيديين الشيعة ، وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الإعلان الذي بعث به عبد الرحمن إلى كافة نواحي الأندلس ، وقرئ على المنابر في كل بلادها وأرسلت منه نسخ إلى أفريقية والمغرب ، وبذلك يكون عبد الرحمن قد أدخل تغييراً حاسماً على طبيعة الدولة الأموية الأندلسية ، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة بني العباس ومتولية شئون الإسلام في الجناح الغربي لدولة الإسلام من دون الفاطميين .

وقد استتبع ذلك إدخال تغيير كبير في شكل خلافة قرطبة ونظامها ، فوضع عبد الرحمن نظاماً إدارية جديدة تعطي دولته الهيبة والمكانة التي أصبحت لها على أيامه ، فازداد البلاط القرطبي ضخامة ووجاهة ، وكثر القواد في جيش الخليفة وتعددت مراتبهم وكثر الوزراء كذلك وازدادوا هيبة ، وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثير التنقل لسورائه ، ففي أول كل عام تقريباً كان يجرى تنقلات بين الوزراء والعمال والقواد ، وكان هدفه في ذلك ألا تطول ولاية رجل في وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة ، دون الخليفة . ولكن هذه السياسة أدت في نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد والوزراء وإضعاف المركز الممتاز الذي كان يتمتع به أبناء البيوت الموالية الذين قدموا للإمارة كما رأينا أجيالاً متوالية من كبار الرجال في شتى نواحي الحكم والإدارة والحرب .

وبهذه المناسبة نقول إن عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة ، ولا يرى أن يدع الرأي لكبار رجال الدولة ولا يسمح بشيء من الاستقلال المحلي لولاة الأقاليم ، وكان هدفه الأخير كما قال في بعض رسائله التي كانت تذاغ على المنابر : إن الأمة ينبغي أن تحول كلها إلى رعية مستأمنة أي مطيعة تاتمر بأمر الخليفة الذي لا يشاركه في أمره أحد .

وقد ناقش عبد الرحمن الناصر آراءه تلك مع سفير من سفراء امبراطور
التيوتون ، وقد إلى بلاطه ، يسمى « يوحنا الجوروزينسى » فقد قال له
عبد الرحمن ما معناه : إنه معجب بالامبراطور التيوتونى « أوتو » ولا يأخذ عليه
إلا أنه يترك جانباً من سلطانه لوزرائه وأمراء الإقطاع ، وذلك في رأيه لا يتفق مع
سلامة الدولة وهيبه السلطان . وبالفعل نرى أن عبد الرحمن كان حاكماً مطلقاً
بالمعنى الصحيح ، وخاصة بعد أن وفق إلى الانتصارات الباهرة التي حققها داخل
بلادهم وخارجها ، فقد تحول إلى سلطان عظيم ذي بلاط فخم وجاه واسع وأبهة
بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبد الرحمن الأوسط كان يتبسط مع وزرائه وشعرائه
وندمائه ، حتى تجرى بيته وبينهم الدعابات ، نجد عبد الرحمن الناصر سيداً
رفيعاً عالياً يجلس لوزرائه في مجلس فخم وبنظام تام ولا يأذن لأحد من الرعية
والأصاغر في الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب في ذلك أن عبد الرحمن كان بطبعه طاغية ورجلاً خشن الطبع ،
بل على العكس من ذلك كان إنساناً شديد الحساسية بالغ الحياء ، وقد رأينا أن
أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة ، ولكنه قبل أن يلي الأمر رأى من جرأة
الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة ، وما جعل جده وسلفه « عبد الله بن
محمد » أقرب إلى رئيس منه إلى أمير أو خليفة . وعندما تولى عبد الرحمن ظن أن من
واجبه أن يضع حداً لهذا التبسط وأن يرفع مكانة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك
من ضرورات السلطان القوى المستقر ، ثم إننا رأينا كيف أن رجال النواحي عندما
تمتعوا بسلطات محلية في أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن
عبد الرحمن ، أدى ذلك إلى طمعهم في السلطان فأخذوا يستبدون بنواحيهم ،
وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التي اجتاحت الإمارة القرطبية ثلاثين سنة
من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر .

لذلك نجد عبد الرحمن الناصر لا يسمح بأى وجه من وجوه الاستقلال لأهل
النواحي ، ويصر على أن يرسل لهم العمال من عنده ، ولا يزال ينقل أولئك العمال
من مكان إلى مكان . وقد أدى ذلك بالفعل إلى استتباب الأمور وارتفاع هيبه
الخلافة ، ولكنه أدى إلى غضب أفراد بيوت الحكم أو البيوت الموازية التي ذكرناها
وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصر في كبار الولايات إلى مواليه ، من أمثال

« بدر بن أحمد ونجدة الحيري وغالب الناصري » تأمر كبار القواد الأندلسيين عليه مما أدى إلى كارثة معركة الخندق أو « سيمنقس » التي ذكرناها .

وقد اتعظ عبد الرحمن بما حدث له في ذلك اليوم ، فعاد مرة أخرى يسترضى رجال بيوت الحكم وجعل لهم الرياسة على مواليه ، واهتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوت ما كان لهم من سلطان وهيبة . ولكن سياسته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها ، وكذلك كانت سياسة عبد الرحمن حيال رؤساء أجناد العرب في نواحي مرسية وإشبيلية وفي الكور الجنوبية ، قاضية على ما كان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عربي بأسل قادر على خوض غمار المعارك . وقد كان ذلك خسارة لا شك فيها ، لأن عرب الكور المجندة ، رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفافهم بالحكومة المركزية وعدوانهم على من كان يعيش معهم من أهل البلاد ، كانوا جنوداً بواسل فيهم تلك العصبية العربية التي نعرفها . فأتقعد هذا الجندي العربي مكانته بل أعفى أصحاب الكور المجندة من إرسال الحشود وأداء ضريبة بدلاً منها تسمى ضريبة الحشد ، نلاحظ أن الجيش الأموي الأندلسي فقد عنصراً هاماً من عناصر قوته .

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن رغم ميله هذا إلى الاستبداد لم يكن ظالماً ولا غاشماً . فلم يؤثر عنه أثناء خلافته الطويلة أنه قتل وزيراً أو استصفى مال إنسان ، أو عدا على حقوق الرعية أو بالغ في عقاب موظف مسيء ، بل كان في ذلك كله رجلاً كريماً سمحاً لا يتدنى إلى العدوان على الأموال أو الدماء ، ولا يرضى بأن ينزل عقاباً شديداً بأحد من خصومه . ويكاد عبد الرحمن الناصري يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الذين تصرفوا في الخلافة تصرفاً سليماً كريماً يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول الأخلاقية العربية .

إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع :

وعندما بلغ سلطان عبد الرحمن الناصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره في قرطبة لم تعد لا تفي بالمركز العظيم الذي وصل إليه ، وكان سكان قرطبة قد كثروا في أيامه وتقاطر إليها الناس حتى وصلت المباني إلى « تل الرصافة » الذي كان يقوم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلد ضاقت بمن فيها ، ولم يعد من الممكن لجيوش

عبد الرحمن ومواكب السفراء التي تقف على قرطبة باستمرار السير في شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الرحمن في أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جانب قرطبة ، يتخذ فيها القصور لنفسه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرسه ، فقصده مهندسوه إلى جبل « العروس » المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعاً بإنشاء مدينته الملوكية على سفح الجبل ، خاصة وأن مياه الأمطار تتجمع في هضبة بأعلى ذلك الجبل وتتسائل على السفح . فلو أنشئت قنوات مهندسة بنظام خاص لإمكان إجراء الماء في أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص يمكن من إقامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك السفح ، وتلك هي الفكرة التي قامت عليها مدينة الزهراء التي بدأ عبد الرحمن الثالث في إنشائها . ويقال إنها منسوبة إلى واحدة من نساء عبد الرحمن تسمى « الزهراء » ، ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة الناصر بأن ينفق هذا المال في افتكاك أسرى المسلمين فلم يجد عبد الرحمن أسرى يقدمهم بهذا المال ، فقرر إنشاء تلك المدينة وأطلق عليها لقب الزهراء ، وتلك في الغالب حكاية من طرف ما يسوقه الرواة في كتب التاريخ ، ولكنها حكاية لها مغزاها ومعناها .

وقد بدأ عبد الرحمن الناصر في بناء الزهراء في أول المحرم ٢٢٥ هـ / ١٩ نوفمبر ٩٣٦ م ، وعهد في الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم بن عبد الرحمن ، ووضعت خطتها على أن تكون مدينة ملكية قائمة بذاتها ، على بعد خمسة كيلو مترات شمال غربى قرطبة على سطح جبل العروس ، وقد بنيت على درجات ، بحيث يرقى داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفي كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة . ويدخل الإنسان إليها أسفل الجبل بمدخل كبير يسمى « باب الأقباء » جمع « قبو » ويراد به هنا القبة ، ومعنى ذلك أن هذا المدخل كانت تقوم فوقه وتحيط به قباب ، ويسير الإنسان مسافة طويلة على طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة ويراد به باب القصر ، ويصعد درجات وإلى جانب المصعد للدرج ، مصعد آخر للخيل بلا درج فيصل الإنسان إلى المستوى الثانى من مستويات مدينة الزهراء ، وهنا مساكن الجند والحرس وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة ، وهنا أيضاً وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء ، وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط وسوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليفة ، وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الحمامات والمساجد .

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى الأعلى لمدينة الزهراء ، ويواجهه لأول صعوده البهو الكبير ، الذى أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب ، وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة ، ويفضى الإنسان من المدخل إلى قاعة فسيحة مقسمة طولياً إلى ثلاثة أبهاء ، فأما البهو الأوسط فينتهى في الصدر بمجلس الناصر ، وهناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد الأسرة المالكة بحسب مراتبهم ، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف ، مرتبة ترتيباً محكماً ، بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذى لا يتغير ، حتى إذا نظر الناصر وتبين خلو المقاعد عرف من المتغيب ، أما البهوان الداخلىان فيستعملان لموظفى القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرائى من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء ، ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراد على هذه الصورة لكى يستطيع في مجلسه فيه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر . وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية وبدأ في إعادة إقامة بعض منشآتها وخاصة بهو الاستقبال ، الباحث الأثرى الإسباني « بلاسكث بوسكو Velasquez Bosco » وقد سميت الرحبة التى أقيم فيها البهو الرئيسى ، باسم « السطح الممرد » وقد جلبت مادة البناء من شتى نواحي الأندلس وأوروبا وأفريقيا . ويذكر المؤرخ ابن عذارى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة ، سوى التبليط في الأسوس (أى الأسس) ، وجلب إليها الرخام من قرطاجنة أفريقية ومن تونس ، وكان الأمناء الذين جلبوه « عبد الله بن يونس وحسن القرطبى وعلى بن جعفر الإسكندراني » ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية ، وكان فيها من السوارى ٤٣١٢ سارية منها ١٠١٢ سارية من أفريقية ، وأهدى إليه امبراطور بيزنطة ١٤٠ سارية والباقي من الأندلس .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له في الأرض وهو منقوش ومزين بالتماثيل ، وقد جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان عليه كما يقول ابن عذارى ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصنعة بقرطبة ، وإنما أطلنا الكلام بعض الشيء على إنشاء تلك المدينة لنعطى عن رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها فكرة واضحة . وكان الناصر فيما يقول المؤرخون قد قسم الجباية الى ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث للمدخر . وكانت جباية الأندلس يومئذ ٥ مليون و ٤٨٠ ألف دينار من الكور والقرى ، ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر بلغ ازدهار قرطبة أقصى درجاته ، فقليل إن عدد دورها بلغ ١١٣ ألف دار ، فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل ، كان المجموع مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً . وهذا الرقم مستبعد لأن الأحوال في العصور الوسطى لم تكن تسمح بقيام مدينة بهذا الحجم ، ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها ، ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال في أن عدد الحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نجاري المؤرخين فيما يذكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة في عصر الناصر وأبنة الحكم المستنصر ، مثل قولهم إن عدد مساجدها بلغ ٢٠٠٠ مسجد ، وهو رقم لا يمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة ، أى أن كل صاحب بيت كان ينشئ في بيته مسجداً له ولأهله ، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل الرحال .

وبهذه المناسبة لا بد أن نشير إلى الزيادة الثالثة التى أمر بها عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرطبة الجامع ، وهى زيادة ضاعفت حجم المسجد وكانت في اتجاه النهر أى نحو الجنوب ، فأزيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سوراً يحجز المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف ، وكان متنزه أهل قرطبة .

أما زيادة الناصر في المسجد الجامع فقد بلغ بها المسجد إلى أعلى ما وصل إليه من رقى وجمال ، وقد بنيت على نفس طراز بقية المسجد ، أى أن أقواسه بها مزدوجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر وأجمل ما في هذه

الزيادة هي البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب ، وقد قامت على عمود وقوائم مزدوجة ترتفع فوقها قبة تقوم على عصابات من الحجر ، وعند دراسة بناء هذه القبة يتقن المعماريون أن المعماريين الذين أنشأوها ، وعلى رأسهم العريف أو المهندس « أحمد بن بدر » قد وضعوا الأساس للطراز الذي شاع في أوروبا بعد ذلك وعرف بالطراز القوطي ، وأكبر خصائص الأعمدة والعقود المدببة التي تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيادة آية من آيات الفن الأندلسي ، لأنه ليس مجرد حنية في جدار المحراب ، وإنما هو غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة من الرخام في هيئة محارة وكان في وسط هذا المحراب الصغير كرسي يوضع عليه المصحف العثماني ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة .

وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع أي مئذنته ، وهي مئذنة في غاية الضخامة والجمال ، لأنها بناء ضخم يقع في النهاية الشمالية لصحن المسجد المكشوف ، وكانت ترتفع في الجو ثمانين متراً ، ولها موقفان للآذان ، ويزين أعلاها شبه سقف صغير مزين بتفافيح أي كرات ، اثنتان منها من الذهب وواحدة من الفضة .

كذلك أقام الناصر ما يعرف بالظلّة في صحن المسجد الجامع ، وهي سقف متحرك يقام من أعمدة الخشب والحصر ليستظل بها الناس أثناء الصلاة في الصيف ، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزيناً بأشجار النارنج ، وهي ظاهرة تنفرد بها صحنون مساجد الأندلس عن غيرها من صحنون المساجد في عالم الإسلام ، وكذلك أكثر الناصر من إنشاء المساجد وتعميرها في شتى نواحي الأندلس . ويعتبر الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت في مختلف نواحي بلاده ، فإليه يرجع الفضل في تجديد أو إنشاء عدد كبير من مساجد مدن الأندلس من شماله إلى جنوبه ، ولا نزاع في أن ذلك الرجل يعتبر من كبار البنّائين في تاريخ الإسلام . ولم تقتصر منشآته على القصور والمساجد ، بل إليه يرجع الفضل في إنشاء دار السكة في قرطبة وتجديد قنطرة الوادي في « أودية » وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة .

تقدير عبد الرحمن الناصر :

وبعد هذا العرض الموجز لحياة ذلك الخليفة العظيم الذي يعتبر من أعظم الخلفاء المسلمين في كل العصور نقول : إن ذلك الرجل تميّز بخصائص وصفات تؤهله إلى الأوج العظيم الذي بلغه ، فقد ذكرنا تعفقه عن الدماء وبعده عن المساس بأحد من رجاله أو مصادرة أمواله ، وقد كان يكتفى في ذلك المجال بأن يقدم إليه الحُجَاب هدايا ذات قيمة كبيرة تضم الأموال والخيل والسلاح في المناسبات ، وقد اشتهر أمر هدية عظيمة قدمها للناصر حاجبه « عيسى بن شهيد » في إحدى المناسبات ، وقد أورد تفصيل أمرها المؤرخون ، ومن وصفها نقبين أنها كانت تقدر بما يقارب المليون من الدينارين وكان المفروض أن هذه الهدايا تعتبر مساهمات من أولئك الرجال لمعاونة الناصر على القيام بنفقات دولته ، فقد رأينا أنه كان عظيم النفقة في الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال رعاياه . وقد حكى الحكاية « حيان بن خلف » مؤرخ الأندلس ونقلها ابن عذارى والمقرئ ، وخلاصتها أن رجلاً كان يتصرف في كبار الولايات ويتولى تموين الجيش اكتسب مالاً عظيماً من خدمة الناصر ، وكان الناصريتوقع أن يقدم ذلك الرجل إليه بعض ذلك المال ، يستعين به على أمره قلمح الناصر له بذلك مراراً وهو في مجلسه . وهذا الرجل يسمى « محمد بن سعيد » المعروف « بابن السليم » .

وفي ذات مرة أشار الناصر مرة أخرى إلى مال ذلك الرجل فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجه الشك في أنه المعنيّ به فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين، طالما عرضت لي فسكت ، بلى والله عندي مال كثير وهو دون ظنك فيه خُطَّتْ بالتقتير وأعددتُ للدهر العُثُور . ولست والله أعطيك منه درهماً فما فوقه ، ورأيك في جميل إلا أن تستحل ، وأعوذ بالله أن تمد يدك إليه بغير جناية مني عليك ، فإن الأنفس محضرة الشح . قال فضجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَيِّنْكُمْ أَصْعَانَكُمْ ﴾ (سورة محمد آية ٣٧) وبعد قليل بلغ الرعب بالرجل أن تهرع فقفز ، وابتدره الوصفاء بالطست

والمناذيل ، فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسكه ويقول له : « استفرغ ما في معدتك وتأن بنفسك » ، فأنكر ابن السليم كلامه بين الخدم ، وصرف إليه رأسه ، وإذا به الناصر ، فما تمالك أن خر إلى رجليه يقبلهما ويقول : « يا ابن الخلائف إلى هناك انتهيت في برى ! » وجعل يدعو له ويعظم شكره ، فقال له الناصر : « ليتنى أخرج كفافاً في شأنى معك الليلة » ، تأنيساً بإخافة ، وإطافاً بحفوة ، ثم أمر له بكسوة و انقلب إلى أهله (١) .

وهذا المثل يكفى للدلالة على ما كان يتمتع به عبد الرحمن الناصر من سعة قلب ورفق بالناس وتقدير لمسئوليه وعفته عن الأموال والدماء ، ولا غربة والحالة هذه أن يصل هذا الرجل إلى هذه المكانة التى وصل إليها في تاريخ الإسلام ، فهذا رجل تولى الأمر في الثانية والعشرين من عمره ، والبلاد مشتتة نارا ونواحيها خارجة على الحكومة المركزية ، وقد أقسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حفصون وأمثاله من « ابن الشالية والسرمباقي وعبد الرحمن بن مروان الجليقي » وغيرهم من كبار ثوار المولدين ، بالإضافة إلى ثورات العرب على حكومة قرطبة وخاصة في ناحية المرية وكورة إشبيلية ، فما زال ذلك الرجل يعمل بجد ودياب مستعيناً في عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم ، فقد ضرب للناس المثل في حسن الخلق واحترام الكلمة ، فما كان يستنزل ثائراً إلا وفي له بعده ، وصدقه ما وعده إياه ، فأحس الثوار بأنهم أمام حاكم من طراز فريد فاطمأنوا إليه ودخلوا في طاعته ، وبعد نحو عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والنظام والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة ، وخاصة في الجنوب والشرق والغرب ، ثم تمكن من استئلاف رجال الثغر الأعلى من أمثال بنى قسى وبنى هاشم الطويل ، فاستأمنوا إليه هم الآخرون ودخلوا في طاعته ، وهكذا تمكن هذا الرجل من الاستفادة من ملكات أهل الثغر الأعلى ، وكانوا فرساناً أشداء ويكفى أن نذكر أن هاشماً الطويل بلغ من إخلاصه للناصر ، بعد أن استأمن إليه ، أنه استشهد في سبيله في موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصر كان ملوك الممالك النصرانية قد طمعوا في ثغور الأندلس الشمالية ، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالى الحملات عليهم حتى انتهت أيام

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : ٢ / ٢٢٦ .

أردنيو الثاني ، ودخل خلقه في حلف الناصر وأطاعوه ، وقد رأينا كيف أن ملوك إسبانيا النصرانية جميعاً قد أصبحوا إما من أتباعه أو أحلافه ، وبذلك استطاع ذلك الرجل أن ينشر على شبه الجزيرة كله أمناً واستقراراً لم يعرفه من قبل .

وفي أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتآلق أضواء قرطبة ، أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوروبا ، ومن ملوك أوروبا - الذين أرسلوا السفارات إلى - الناصر الملك «أوتو» امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة ويسميه المؤرخون «هوتو» ملك الصقلية ، فقد أرسل إليه سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء ، وبعث إليه «هيو كابيه» ملك الفرنجة في فرنسا ويسميه مؤرخونا «هوقو» ملك الفرنجة وكذلك أرسل إليه «قلدو» ملك الفرنجة في أقصى شرق أوروبا والمراد به Hugo de Arles وهو مركيز «بروغنسا» في جنوب فرنسا ، وقد صار هذا الرجل ملكاً على إيطاليا في سنة ٩٢٦ م . ومن السفارات التي وفدت على الناصر سفارة قلدو . ويراد به «جيريدو بن أدلبرت» مركيز توسكانيا ، وكذلك أرسل إليه سفارة كونت برشلونة وطركونة ويسمى «المغيرة بن سونير» Mugira Luljo De Sunier بل أرسل إليه صاحب روما وهو البابا سفارة تخطب وده ، وقد أشرنا إلى السفارة أو إلى البعثة التي قام بها راهب مسيحي من ألمانيا يسمى «يوحنا الكرزي» Johannes Von Gotze ، وقد دونها لنا ونقل لنا نصها أسقف يسمى «يوحنا» كان في دير «سان أرتو» ، وفي تفاصيل هذه الزيارة الباقية إلى يومنا هذا ، ما يدل على ما وصل إليه الناصر من عظمة وجلال في أنظار ملوك الغرب ، وقد وصفت راهبة المانية ، لم تزر قرطبة ، ولكن صيتها بلغها ، وصفتها بأنها درة أوروبا .

ولا شك في أن طول عمر عبد الرحمن الناصر أعانه على تحقيق هذه العظام التي قام بها ، فإن طول العمر يبلغ الآمال ، فلقد عاش هذا الرجل حتى هلك أعداؤه ، وانفسح أمامه السبيل لكي ينهض بأعماله كلها في إعادة الأمن والنظام ، إلى تثبيت الحدود ، وتنظيم الإدارة ، وإنشاء المنشآت . وكل ذلك قام به عبد الرحمن الناصر في هدوء وثقة نفس ، وبلغ بذلك أقصى ما بلغه حاكم مسلم في العصور الوسطى . ولقد قدر المؤرخون المحدثون عبيد الرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقال فيه «دورى» المستشرق أنه أقرب إلى حكام العصر الحديث منه إلى ملوك العصور

الوسطى ، وقال ليفى بروفنسال : إن « عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في كل العصور » . وأشار إليه أرنولد توينبي المؤرخ واتخذته مثالا للحاكم المستنير ، الذى يتخطى عصره بملكائه ومواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليته جميعاً .

وتوفى عبد الرحمن الناصر فى الثانى من رمضان ٢٥٠ هـ / ١٥ أكتوبر ٩٦١ م بعد أن قام بالعمل العظيم الذى أشرنا إليه ، ووصل بالاندلس إلى أوج قوته وازدهاره ، ودفن فى رياض قصر قرطبة حيث كانت مدافن أمراء البيت الأموى الأندلسى وخلقائه ، وقام من بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذى تلقب بالمستنصر .



خِلافة الحكم المستنصر

٣ رمضان ٢٥٠ - ٢ صفر ٣٦٦ هـ

١٦ أكتوبر ٩٦١ - ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م

نهوض العلم في أيامه :

من حسن الطالع أن الذي خلف عبد الرحمن الناصر ، كان كبير أولاده وولي عهده الحكم الذي اتخذ لقب المستنصر بالله ، وكان خير خلف لخير سلف ، ونستطيع أن نقول إن حكمه كان مكملًا لحكم أبيه ، فإذا كان الناصر رجل حكم وسياسة وحروب ، فقد كان الحكم المستنصر رجل علم وحضارة ، ولم يكن الحكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره ، فقد كان متقناً للعلوم الإسلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجازوه مروياتهم ، وكانت أبوابه مفتحة لطلبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ في القصر مكتبة لا نبالغ إذا قلنا إنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية في العصور الوسطى ، فقد بنى لها بناءً خاصاً ، وأقيم فيها رجال المكتبات من مفرسين ومسجلين ومنظمين ، وكانت فهرستها تقع في ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين ، وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف المليون مجلد ، وأنشئ لها مصنع خاص بالتجليد ، وعمل فيها عشرات النساخين ، وكان للحكم مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهورها ، وكان يجيز على ذلك بالمال الكثير ، وهناك كتب شرقية كثيرة كان الحكم أول من قرأها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً مجيداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالا لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد أرسل إليه الحكم ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل .

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف في الانصراف إلى العلم ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي ، وهناك وجه من الحق في هذا

النقد ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال ابن أبي عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف في الأمر أن الحكم كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ويعلق حواشيها ويستدرك على مؤلفيها بخط يده ، وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم وملاحظاته ، وكان العلماء بعد الحكم يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تُعْتَقَد ، ولم يقتصر الحكم على علوم العرب بل عنى بكل العلوم ، وتحت إشرافه ترجم « قاسم ابن أصبغ البيسانى » و « حَقص بن البر » كتاب التاريخ « لهر وشيوش » من اللاتينية ، وترجموا له كتاب « ديوسقوريدس » في الطب من اليونانية ، وكان يرسل الناس إلى شَتَّى البلاد ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار ويحتفظ بهذه الدراسات في مكتبه ، ومن أمثلة ذلك رحلة « إبراهيم الطرطوشى » الإسرائيلي في بلاد أوربا ورحلات محمد بن يوسف الوراق في أفريقيا وقد كثرت المكتبات في الأندلس في أيام الحكم ، وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة ، وقد اشتغل فيها النساء في البيوت بصفة خاصة ، واشتهرت الكثرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالاسم ، وكانت نسخ القرآن التي تكتبها الأندلسيات مضرب المثل في الدقة والجمال ، وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مظهر الرقى والترقى ، فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعى .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى ، واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة ، وكان الورق الشاطبى مشهوراً في العالم الإسلامى كله ، وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه ، وقد عرف عرب الأندلس صنفى الورق اللذين عرفا في العصور الوسطى وهما الكاغد ، وهو ورق عادى ، والرقاق وهو ما يعرف بالبارشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش في متانته مع الاحتفاظ بصلابة الورق ، وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الأناجيل ووثائق الكنيسة عليها ، ثم قلد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تنفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام وشمع للأختام وسكاكين لقطع الأقلام وما إلى ذلك . وقد نبغ الأندلسيون في صناعة الأحبار وعرفوا المعدني والنباتي والمطبوخ وغير المطبوخ والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغراب ، ويسمونه الأنبوب وريش الطيور ، بل صنع بعضهم أقلام حبر ، أي أقلاماً تُحْمَلُ بالحبر وتصنع بهيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء . وتفننوا في صنع المحابر من الزجاج والبلور والرخام . وكانوا يزخرفون المحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحفر مع بعض الشعر أحياناً ، واشتهروا بمحابر محكمة الصنع تعمل على هيئة الخنجر في قرابه ، لتوضع في حزام الثوب مع أقلامها وأنواع غيار التجفيف .

ونشأت في قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق الوراقين ، فاما الوراق فهو تاجر الكتب أي المخطوطات في ذلك العصر ، وكان المفروض في الوراق أن يكون عالماً بالكتب وأقدارها وخطوطها بحيث يستطيع تلبية حاجات عملائه ، وفي العادة تجد الوراق من أهل الأدب لكثرة مزاولته النظر في الكتب .

واما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو ما يسمى بالإنجليزية

Stationary

وفي بعض البلاد العربية يسمى الدكان بالقرطاسية أي التي تباع القرطاس والأقلام والأحبار والكراسات .

سياسة الحكم المستنصر :

وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد في أمور ملكه ، وقد حاول ملوك النصارية أن ينتهزوا فرصة اشتغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف الدولة ، فنهض الحكم بالغزو ابتداء من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأوغل في أرض ليون ، فلم تجئ سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م . حتى كانت قوات قرطبة قد أوغلت في أراضي ليون ونبرة واستولت على قلاع كثيرة من قلاعها وأرغمت هاتين المملكتين وغيرهما من الإمارات النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة . وابتداء من سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م . بدأت سفارات هذه الممالك تتوافد على قرطبة ، وقد وصف لنا

ابن حيان مؤرخ الأندلس استقبال هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع في هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة في شبه الجزيرة كلها ، بل أرسل يوحنا الشميشق Tsimiskes امبراطور بيزنطة ، سفارة إلى قرطبة سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢ م . وكذلك أرسل أوتو الثاني امبراطور ألمانيا - الذي خلف أوتو الأول - سفارة لتجدد المودة والصداقة مع قرطبة .

حروب الحكم في المغرب :

وظهر في أيام الحكم أمر قائده الكبير غالب الناصري الذي يلقب بفارس الأندلس ، وهو أول نموذج من الجند الصقليين الذي وصل إلى مراتب القيادة العليا ، التي كانت قبل ذلك وقفاً على أبناء البيوت الموازية التي ذكرناها . وكان غالب في شبابه قائداً ماهراً مرهوب الجانب لا تجرؤ إمارة نصرانية على تحدي قواته . وكان مقامه الدائم في مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور ، أي الجيش المرابط على الحدود الشمالية ، وكان في العادة جيشاً ضخماً مُعَدّاً أحسن إعداد ومُدرَّباً أكمل تدريب ، وكانت كتلة الجيش الرئيسي تقيم في مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، وكانت هناك فرق إضافية في الحصون الكثيرة التي أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها مجريط (وهي مدريد الحالية) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام . Alcala de Henares ووادي الحجارة Guadalajara وسغونشة Siguenza وأنيشة Atienza والمنار Almenar وقلعة النسور Calatanazor وسوريا Soría وأوسما Osma وغرماج Gormaz وناجرة Najara وكلها في حوضي الدويرو والأبرو الأعلىين وقرب منابعهما ، وهي تقع على ثغور جبال الشارات أو جبال وادي الرمل Guadarrama التي كانت تعتبر الحد الطبيعي لبلاد الأندلس ، ومن هذه الحصون عمل قواد المسلمين على سيادة كل حوض الدويرو . وكانت هذه المناطق خلاء تقريباً ، ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية ونبرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم .

وإلى آخر أيام الحكم المستنصر ظلت سيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .

وكان الحكم حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون في أحسن حالات المنعة والاستعداد . وكان يشحنها دائماً بالمؤن والأسلحة . وبعض هذه الحصون مثل غرماج كان أشبه بمدينة كاملة فيها مخازن الطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرابط الخيل ، ولا زال الكثير من بقايا تلك الحصون قائماً حتى اليوم .

وكان للخلافة إلى جانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة ، وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه ، وهو ينيب عنه من يريد من قواده ، فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتي جيش الثغور وجيش الحضرة .

وإذا جاء وقت النفير أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالاستعداد فبدأ عملية واسعة النطاق تسمى « البروز » فتتوافد قوات الكور المجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى « فحص السراق » ، ثم يخرجون سرادق الأمير ويجعلونه وسط الفحص وتضرب فرق الجنود خيامها وتقبل قوات المتطوعة ، وكانت في العادة الوق من الناس الذين يخرجون للجهاد حسبةً لله تعالى . وتستمر مدة البروز شهراً ثم يخرج الخليفة بجنده الصقلبي وحرسه وفرق الكور المجندة والمتطوعة وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له جيش الثغور ، وهنا تبدأ « الصائفة » أي العملية العسكرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو في أرض العدو .

ولكن الموضوع الذي شغل الحكم أكثر من غيره كان أمر الفاطميين في المغرب ، وقد بالغ الحكم في الاهتمام بذلك ، إما لأنه رأى في محاربة الفاطميين جهاداً ، أو لأن نصحاء صورو له الخطر الفاطمي على صورة أكبر مما ينبغي ، والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الديني وتضلعه في الفقه السني وحماسة لمذهب مالك ، كل هذا جعله ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الإسماعيلية ، على أنهم زنادقة يحل حربهم ويتعين على إمام الجماعة أمر محاربتهم أينما كانوا ، فكان لهذا ميالا إلى مدافعتهم عن المغرب الأقصى خشية أن ينتقل مذهبهم إلى الأندلس . ورأى بعض وزرائه في ذلك فرصة للكسب دون حساب ، فزينوا له أمر محاربة الخطر الفاطمي في المغرب خاصة ، وقد نهض الأدارسة من جديد على يد الحسن بن كتون ودخلت دولتهم في دورها الثاني ، لأن بقية منهم كانت قد اعتصمت في قلعة « حجر

النسر» جنوبى تطوان ، وتولى أمرهم - أيام الحكم - القاسم بن محمد بن القاسم ابن إدريس المعروف بالحسن بن كنون ، وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات من الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة ، وكان الحسن بن كنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ليرضى الحكم المستنصر ، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شىء غير ذلك ، وقد طال الأمر بالحكم وهو يرسل القوات وينفق الأموال، حتى لقد استدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفارس الاندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب ، وأنفق الحكم في ذلك مالا جسيماً ولم يؤد الأمر بعد ذلك إلى نتيجة تذكر ، وقد أسف الحكم في أخريات أيامه على ما أنفق من مال وما ضحى به من رجال في هذا المقصد ، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية ، وكانت أولى بعنايته وأحق بالمراقبة الدائمة .

وهنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله في سياسته الأفريقية ، فقد كان الناصر لدين الله يعرف دائماً الحد الذى يقف عنده في كل ميدان ، فقيما يتصل بالمغرب ، اكتفى بالاستيلاء على سبتة وطنجة ومليلا واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية ، وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تناوئى الحكم القباطنى . وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ، ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالا فخماً ، ويفتح أبواب العمل في جيشه للمرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يفدون عليه في جماعات كبيرة ، وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالى وأنفق في ذلك جهداً ضخماً ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف ثغوره الشمالية .

وقد قضى الحكم سنواته الأخيرة في العناية بالعلوم والآداب ، فنظم التدريس في المسجد الجامع حتى أصبح هذا وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها ضروب العلوم ، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد ، وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف ، وخُصص أموالاً جزيلة للطلاب فأعطيت المكافآت والمعاشات للمحتاجين منهم ، وعمد الحكم في إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز ، وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شؤون جامعة قرطبة ، ورفع تقرأ من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم ، من أمثال

« أبى بكر بن معاوية القرشى » أستاذ الحديث « وأبى بكر بن القوطية » أستاذ الأنب والنحو ، « وأبى بكر الزبيدى » أستاذ اللغة « ومحمد بن أحمد بن مفرج » أستاذ علوم القرآن ، وقد أسبغ الحكم رعايته على غير المسلمين من العلماء مثل « ريثيموندو » الألبيرى أسقف النصارى المسمى « يربيع بن زيد » . وكان متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان يقوم بوظيفة المترجم الرسمى أو كبير المترجمين للحكم .

وفى أوائل سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م . شعر الحكم بالشيخوخة تدب فى أوصاله ، ومع أن سنه كانت فى الرابعة والستين إلا أن علاثم الضعف تزايدت عليه ، فدعا الناس إلى بيعه ابنه هشام وكان لا يزال طفلاً . وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم كان شديد التعلق بولده عظيم الرغبة فى أن يستمر الملك فى نسله ، وقد انتقده الناس بسبب ذلك وحمل عليه « ابن حيان » المؤرخ ، لأن البيعة تمت بسعى صبيح البشكنسية أم هشام وزوجة الحكم الأثرية على نفسه . وكانت جارية يشكنسية رائعة الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تخشى أن يصبح العرش بعد الحكم إلى أحد إخوته لأن ابنها كان طفلاً ، ولهذا فقد اتصلت سراً بنفر من كبار رجال الدولة مثل جعفر المصحفى الحاجب ومساعد محمد بن أبى عامر لكى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم ، وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً متطلعاً شديد الذكاء ، وقد وصل فى أواخر أيام الحكم أن أصبح صاحب السكة والمواريث ، أى المشرف على دار سك العملة وعلى الأوقاف . وتهايات له بذلك أموال كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير .

وتوفى الحكم المستنصر فى ٢ صفر ٣٦٦ هـ / ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م ، وبموته اختفى آخر العظماء من بنى أمية الأندلسيين ، وقد كان الحكم إلى جانب علمه وخبرته بشئون الدولة ، رجلاً كريماً طيب القلب لا يكاد يغضب على الرجل حتى يسارع بالعفو عنه ، وكان خيراً جداً كثير الصدقات دائم البر بالفقراء ، فكان لا يترك مناسبة إلا فرق الأموال الجلييلة ، وقد نعم الناس فى عصره بآمان وأطمئنان لم يعرفوهما فيما بعد .

ومن أعظم أعمال الحكم توسيعه المسجد الجامع ، وقد بدأ به فى أيام أبيه الناصر ولكنه تم فى أيامه ، وتعتبر تلك الزيادة الثانية تنويجاً لأعمال الناصر وابنه الحكم المستنصر فى الناحية الحضارية .

هشام المؤيد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تُنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه وكان عند موته غلاماً في الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل . وقد تنبه إلى ذلك صقالبة القصر وكان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم في القصر نفوذ عظيم ، ولكن هذا النفوذ كان مثوقاً على وجود خليفة قوى يستفيد من خدماتهم ويثبتهم في سلطانهم ، أما الوصاية ففتحت الباب للوزراء والطامعين .

مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاصر :

بادر الفتيان « فائق وجوزر » كبير الصقالبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وقرراً استدعاء « المغيرة بن عبد الرحمن » وعم ولي العهد هشام لكي يسندا إليه الخلافة ، ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا في الأمر « جعفر بن عثمان المصحفي » حاجب الحكم أي رئيس وزرائه ، وكان أبوه في أول أمره مؤدباً للحكم ، ونشأ هو صديقاً للخليفة ثم وصل إلى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم ، ولكنه كان سياسياً سيئاً آنانياً عهد في الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه . وكان كذلك غير أمين على الأموال ، فصور له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصي وأصبحت الدولة في يده .

ولهذا قبلاً من أن يكتم الأمر تظاهر بالاعتناع برأى الصقالبة ، ثم ذهب فاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبي عامر صاحب الشرطة والمواريث ، وأقضى إليهم بما يُدبر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام وانفقوا على قتل المغيرة ، وتولى قتله محمد بن أبي عامر ، فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفي وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثر ذلك بويع الصبي هشام يوم الاثنين ٢ صفر ٣٦٦ هـ / أول أكتوبر ٩٧٦ م وأقبل الناس يبايعون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعة أحدٌ

وإن كنا نؤمن أن المصحفي وصاحبه محمد بن أبي عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لكى يخلص السلطان لهما . وقد سعدت بهذا التوفيق « صبح » الملقبة بالبشكنسية . وكانت في الحقيقة شابة طموحة نافارية وهى « أم هشام » وكانت أقرب الناس إلى قلب الحكم . وكانت كما قلنا امرأة طموحها إلى السلطان . تتدخل في كل شئ . وكان جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما في السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعان محمد بن أبي عامر بصبح على غريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم ، فأسقطه من الوزارة وألزمه داره ، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيع هو وآله من أموال وأمر به فسجن سجنًا طويلاً ، ثم أمر بقتله . وهكذا دفع المصحفي ثمن جريمته في قتل أمير برىء دون أى جريمة تستحق ذلك .

محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبي عامر على الصقالبة ، فعزل رؤساءهم ثم أخرج معظمهم من القصر ، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند وصاحب الأمانة على القبض على ناصية السلطان ، وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان في الدولة ثم حجر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه ، وأقنع أمه بأنه يفعل ذلك محافظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين في القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العرش كان ابن أبي عامر نفسه ، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانياً ، وأسرته ترجع إلى أصل يمنى ويقال إنه من شلب في البرتغال الحالية ، وكان أبوه فقيها ذا مكانة ، ودرس هو في بلده ثم في قرطبة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كان طموحاً إلى المناصب مؤهلاً للعمل في السياسة ، وقد حكيت أساطير عن أصله وأوليائه وطريقة وصوله إلى السلطان ، ولكن الحقيقة أن خلالاً له كان من كبار رجال الإدارة والقصر ، فسعى له حتى أقامه على

خطة المواريث في إشبيلية ، وبفضل خاله أيضاً - وكان صهره - نُقل إلى نفس الوظيفة في قرطبة ، ثم رُشح للنظر في أملاك الأمير هشام قبل أن يلي الحكم ، وهذا كانت مهارة ابن أبي عامر الذي توصل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها ترى أنه يستطيع تأييد حق ابنها في وراثة العرش ، وعن هذا الطريق تمكن أمره وانفتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمد بن أبي عامر سار في طريق سيئ لا يتظر إلا لصالحه ويضحي في سبيل ذلك بكل شيء ، فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بحلفاء وأنصار حتى يتخلى عن حلفائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير . وقد لمس ميل « الحكم » الشديد إلى أن يخلفه ابنه فتقرب منه وكسب ثقته ، ثم ندبه في بعض المهام العسكرية في المغرب ، وهناك بدأ ابن أبي عامر يكسب ولاء القادة والفرسان ، وأغدق عليهم من أموال الدولة دون حساب ، لأن هذه الأموال كان المفروض أن تعطى لرؤساء البربر فاستخدمها ابن أبي عامر في مصالحه الشخصية

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى هذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن يمسك بيده زمام الجيش ، وكان يتولاه القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب الانتصارات العظيمة في المغرب وفي الثغر الشمالي . فخطب ابن أبي عامر ابنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك في أن زواج ابن أبي عامر من ابنة غالب قد أوجد قلقاً في نفس صبيح البشكنسية ، فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر في طريق يختلف عن الطريق الذي كانت تريده هي أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفي بين ابن أبي عامر وهذه السيدة التي كانت سبب وصوله إلى السلطان ، ولكن « صباحاً » لم تكن تستطيع شيئاً وحدها ، خاصة وقد ذهب أمر صقالبة القصر ، وكانت تستطيع أن تستعين بهم لو أنها لم تُعين محمد بن أبي عامر عليهم .

وفي هذه الأثناء كان ابن أبي عامر قد تمكن من قلب غالب ، خاصة وقد استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذي الوزارتين ، ولم ينس ابن أبي عامر نفسه في أثناء ذلك فجعل نفسه قائد جيش الحضرة ، في حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبي عامر يقوم بغزوات في الشمال فقام بغزوة موفقة في غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م. وتنحى له غالب حاسباً أنه خليفة فعلاً . وفي العام التالي قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبي فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث باسمه الناس . ولا بد أن نذكر هنا أن غالباً كان قد أسن ومال إلى القعود والراحة .

محمد بن أبي عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة :

واهتم ابن أبي عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله . فاستقدم الألوف من البربر وأدخلهم في خدمته . ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يخشى يأسه . وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربري الغريب عن البلاد نفوراً شديداً . وكرمهم أهل قرطبة بسبب دالتهم العظيمة على صاحب السلطان . ولكن ذلك كله كان لا يهم ابن أبي عامر . بل ظن أنه يستفيد منه . فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم ضده . ويجعل البربر يشعرون بأن مستقبلهم معتمد عليه . أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسكاً به وتأييداً لسلطانه .

وفي أثناء ذلك أخذ ابن أبي عامر يطارد كل الظاهرين من بنى أمية الذين يخشى منافستهم . فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله . وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصري وقد تنبّسه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبي عامر إياه . وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبي عامر . فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع . يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة . مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير . أنه كان يحرص دائماً على الوقیعة بين جيشه البربري الجديد والجيش الأندلسي القديم غير مبالٍ بما قد يؤدي إليه ذلك من نتائج . فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جلية ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبده ، وكان هذا الجيش مرتباً على نحوٍ منظمٍ يضمن لرجالہ التدريب والخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمُفرد عريف . وكان العريف يدرّب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه في وظيفته ، فكان للجيش الأندلسي بذلك نظام وترتيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبى عامر على أن يحطّ من أمر أولئك الجنود اليواصل وأن يظهر في كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتلات قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح العداء شديداً بين جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن أبى عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية وتفرق أمر الأندلس .

غزوات محمد بن أبى عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبى عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذى وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبيح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس ، وفي تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة في كل بلاد إسبانيا النصرانية ، وقد تناسى الشعب الأندلسي فعلاً أعمال ابن أبى عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكرى ، ولكنه لم يثر فيهم ذلك الحماس الذى كانت تثيره غزوات أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أولاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا

جند الأندلس كما كان الحال قبلاً ، بل جند محمد بن أبي عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحبونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات على كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبي عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبي عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام في الشمال الغربي إلى شمال خط الدويرو بصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التي أضعفت بلاد النصارى ولكنها لم تغر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبي عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شاباً جريئاً بأسلاً ولكنه كان طائشاً جاهلاً كثير المفاسد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك .

محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقب الملك :

ولقد كسب ابن أبي عامر في أواسط سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م . نصراً عظيماً على قوات مملكتي ليون ونبرة وكونتينة قشتالة ، وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ هيئة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المشول بين يديه ، أي أنه صار في الحقيقة ملكاً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه في قصور الزهراء وقد وضع عليه محمد بن أبي عامر الأرصاء والعيون ، بل أحاط الزهراء بسور وخندق حتى لا يدخل إليها أحد إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبي عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختر مكاناً شرقي قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزهراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبي عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة في سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن علي » الزعيم الزناتى مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالياً
الناصرى ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله
يغتالون جعفر بن علي ، على أسوأ صورة سنة ٢٧٢هـ / ٩٨٢م .

ومن أكبر غزوات المنصور وأدلها على طبيعة أعماله العسكرية قيامه في صيف
٢٧٤هـ / ٩٨٥م . بحملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونة التى كانت
قد سقطت في أيدي قوات الفرنجة سنة ١٨٥هـ / ٨٠١م . ثم تحولت بعد
ذلك إلى كوتينة قطلونية ، فافتتحها المنصور في صيف ذلك العام ودمرتها جنوداً ،
وبدلاً من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجنود نراه
يتصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ، فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال
الضربات العنيفة التى تحدث دويماً ، ولكنها لا تصل إلى تحقيق هدف واضح دائم
بعد ذلك .

ونظر المنصور بعد ذلك في أمر المغرب ، وكان الحسن بن كنون قد صالح
الفاطميين ودخل في طاعتهم ودعا لهم في قلعة حجر النسر شمال المغرب الأقصى
واعترز بتأييد « بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى » عدو الزناتيين وهم أنصار
المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٢٧٤هـ / ٩٨٥م . وأراده بجيش
آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن كنون على الأمان ، وطلب الرجل أن
يذهب إلى قرطبة مستأمناً .

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لأجيب إلى
الأمان ، ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ، ثم أمر بقتله وهو في الطريق إلى قرطبة في
جمادى الأولى ٢٧٥هـ . أواخر ٩٨٥م . وبذلك ارتكب المنصور غدرًا جديدًا شنيعاً
وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينجو من عقاب
الله جزاءً له على هذه الجريمة الشنيعة التى ارتكبها في حق حفيد النبى ﷺ . وقد
استمر نشاط رجال المنصور في المغرب ، ولكن مقتل الحسن بن كنون وتشرّد
الباقين من أفراد بنيهِ يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثانى لدولة الأدارسة . فلم تعد
تسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور في حكم المغرب الأقصى إلى « زيرى
ابن عطية الزناتى » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد . فلم يلبث هذا
الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى ، ولما كان صديقاً
للمنصور حليفاً للبيت الأموى فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمي على الأندلس قد زال نهائياً ، وكان ذلك سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثاني » إلى « سمورة » فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون في طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربي لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدي الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالي الغربي من جليقية .

وكان من أشد ما غير قلوب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي » صاحب سرقسطة وممثل بني هاشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق أهل البيوتات الأندلسية التي اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدرًا في نهاية صغر ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبي « وبغرسية قرناندت » كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك غرسية قرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في الطريق وخلفه ابنه « سانشو غرسية » فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور . ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بني أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب ، لأن الناس جميعاً في الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التي وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليوقروه ، لأنه في نظرهم لم يكن ليخرج عن طامع ذكي ، استطاع الوصول إلى ما يريد بمواتاة حظ لا يصدق ، وكان هو يشعر بذلك ويتحامي الأندلسيين والسنتهم الطويلة ، والحقيقة أن المنصور كان رجلاً في غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لا يتورع عن الجريمة في

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شيء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذين كانوا قبله ارتكبوا أبشع منها ، فكان هو في نظر الناس مخلصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأموناً وشريفاً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفعاله .

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا في العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق في أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بنى أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشي ، من ذلك القبيل العربي العريق الذي يمثل الصدارة في عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور محمد بن أبى عامر فكان رجلاً عادياً من سلائل اليمثيين ، ولم يكن المسلمون في أى قطر مستعدين للتسليم بسيادة يَمْنَى أياً كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوى ، وكان المنصور من معافى وهى من صغريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيراً عادياً معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصليب لا يخرج في رأيهم بيتاً ملكياً .

ولكن أكثر ما أضر بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر أجنبي عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزّين بتأييده يتعالمون على الناس ويثيرون سخطهم ، وقد وقفت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الذين دخلوا منهم في خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

الحزب العامري :

ولكى يسد هذا الضعف لجأ المنصور إلى اصطناع بيوت جديدة في العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكونون من زعانف أبناء الأسر الكريمة وضعاف رجالها ، ثم من الطامحين من صغار الفقهاء ، فرفعهم ابن أبي عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحي ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحي وتكونت حولهم حواش من أمثالهم ، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عباد » في إشبيلية « وبنو يعيش » في طليطلة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عبد الملك بن شهيد » سليل أسرة بنى شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقريّة فكريّة ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بنى شهيد العظماء ، وقد جعله المنصور نديماً وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبي » سيد الثغر الأعلى الذي قتله المنصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بنى هاشم التجيبيين من بيت جليل من بيوت الحكم إلى بيت طامعين في السلطان والجاه بأي طريق .

واستعان ابن أبي عامر كذلك بنّقر من زعماء البربر النازلين في بعض النواحي مثل بنى « الأفطس » الذين كانوا يقيمون في بطلبوس ، وبنى « ذى النون » وكان موطنهم في شنتيرة في جنوب غربي طليطلة .

وكذلك اصطنع ابن أبي عامر صقالبه جدداً اشتراهم لحسابه لكي يصيروا من جنده وحراسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامري ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبي عامر خُلُقاً ، أي أنهم أنانيّون ماديّون لا يفكرون في جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة ، بل همّ الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً في ناحية أو في حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تَرَبَّوا في مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان في نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأي ثمن ، أولئك هم الذين سيعرفهم التاريخ بالاسم المشنوم : ملوك الطوائف .

والأمر الثاني : هو انعدام المفهوم الأخلاقي عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولا يقبلون منه شيئاً ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه في نفوسهم ، لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيع برأس أى واحد منهم لأقل شك في تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد لكي يصبحوا عيوناً له عليهم في بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

والأمر الثالث : هو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبد من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة : واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذي جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شاباً سيئ الخلق طائش العقل قاسى القلب ، وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه ولياً عهده في الخلافة ، وكانت نيته أن يخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بنى عامر في يوم وليلة .

وقد أبدى المنصور في أواخر أيامه نشاطاً واسعاً في الغزو ، ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكي يخطو خطواته الكبرى في اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهد لذلك بانتصارات كبرى في ميادين الجهاد ، فقام في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م بأكبر غزواته وهي المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشتت ياقب أو القديس يعقوب الحواري وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غربى الأندلس وهناك مات ودفن وخفي قبره . ثم ظهر نجم ذل راهبين على مكانه ، فكشفوا عنه وتأكدوا من وجوده في المكان المسمى « كوميو ستيلا » وعلى الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أى القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات النصرانية لا في إسبانيا فحسب بل في أوروبا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأتقال الجيش بالبحر حتى مصب نهر « المنيو » وهناك أوست

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقيب بالقوة وضرب مبانيتها وهدم كنيساتها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين ، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور في أوربا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونينية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث في أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى في جسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قسواه قد هنت تماماً ، وتقول المراجع النصرانية إن النصاري هاجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النسور ، وعقب ذلك بقليل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفته معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذي يعلق بملابسه أثناء الغزو ، لدفنوه وذرروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعينان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يحمي الثغور سواه

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام : استولى على أرملة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالأندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغاً في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه ، أما هذه الظروف فتضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصي - رجلاً فاسداً أنانياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد اقتضح أمره بقتل أمير برىء ومن ناحية أخرى نرى أن أبناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولى العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم رقتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مهولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجد هذه الظروف ، واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤملاً للسياسة بطبعه ، حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويتبين خط العمل ويعمل فى سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبح البشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء .

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد تصورت « صبح » أنه يعمل فى خدمة ابنها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح ، ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟ .

إن أمامنا أمثلة كثيرة من المستبدين بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيتها وهدم كنيساتها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور في أوروبا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف في كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور في ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث في أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى في جسده ، وشعر الرجل به وهو في الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحمل في محفة ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تماماً ، ويقول المراجع النصرانية إن النصارى هاجموا جيشه وهزموه في معركة قرب حصن يسمى قلعة النسور ، وعقب ذلك بقليل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم ، وكان يحمل كفته معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذي يعلق بملابسه أثناء الغزو ، قدفوه وذروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب في تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تأله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يخفى الثغور سيواه

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبي عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام - استولى على أزمة السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له في السلطان ، وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالاندلس إلى ما يمكن أن نسميه قراغا في السلطان ، ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده إلى ابنه هشام ،

وكان هشام صغيراً جداً لا يزال بينه وبين سن الرشد ثمانية أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم في تعيين أوصياء ، بل ترك الأمر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصاحب الحجابة - والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصى - رجلاً فاسداً أنانياً قاسى القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفر المصحفى » ، وقد افتضح أمره بقتل أمير يرى . ومن ناحية أخرى ترى أن أبناء عبد الرحمن الناصر وهم أعمام ولى العهد ، كان ينقصهم الذكاء وبعد النظر ، وقد فوجئ واحد منهم بقتل ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى ، وربما كان عبد الرحمن الناصر مدغولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المتصور وجد هذه الظروف واستغلها لصالحه ، ولا شك أنه كان مؤهلاً للسياسة بطبعه ، حائزاً للكثير من الصفات التى يحتاج إليها رجل السلطان ، فهو شديد الذكاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويتبين خط العمل ويعمل فى سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يريد قبل أن يستجمع أحد ممن حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطورة الحاسمة فى وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على « صبح البشكنسية » وتولى الأمر باسم هشام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء .

وأهم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرهما ، وقد تصورت « صبح » أنه يعمل فى خدمة ابنها ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكرياً ، وهنا لم تبق أمامه عقبة ، فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح . ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المتصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن : ماذا فعل المتصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟

إن أمامنا أمثلة كثيرة من المستبدن بالعروش وما فعلوا ، هناك مثلاً

«ريشيليو» ذلك الكاردينال الفرنسي الذي جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر . لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم ، أعظم بكثير من سلطان المنصور ، ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا ، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا الى أوج القوة والسيادة في أوروبا ، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذي اجتهد في خدمة فرنسا وتاجها ووجد أمرها وحارب خصومها في الداخل والخارج حتى وصل بها الى زعامة أوروبا .

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك . لقد حَقَّرَ حُكَّام الخلافة وحَقَّرَ أمرها وحمل عليها وحرض رجاله وأبناءه عليها واتجه رأساً إلى القضاء عليها ، وكانت الخلافة القرطبية هي عماد قوة الإسلام والعروبة في الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار ، ولكن المنصور لم ينظر إلى شيء من ذلك ، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره في الأندلس ، كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر ، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ، فهو لا يسرف في الحروب مع الممالك النصرانية ، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها ، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية ، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب ، وهو في ضرباته لم يحاول أن يقطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائياً إلى أرض الخلافة . لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصاري جنوب «دويرو» وإسكان المسلمين في الأراضي التي يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً ، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصاري إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكانه في الواقع لم يفعل شيئاً . كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إذا واصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً ، فإن ذلك كان حرياً بأن يضعف القوى النصرانية إلى حدٍّ لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك ، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلقه من يواصل عمله . فكانت النتيجة أن النصاري استطاعوا خلال السنوات التي أعقبت موته تجديد قواهم واستقروا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور في الأندلس شيئاً جديداً : فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئاً من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية . وقد أضفى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠ متر مربع ، أى ما يزيد على ستة فدادين . وليس في الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم . باستثناء قصور قرساي . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموي تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يرجى خير من أفرادِهِ بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناء البيوت الموالية ، نعم لقد خدمه الكثير من رجالها . ولكنه جعلهم أتباعاً وندماء وحواشي ، والحواشي لا تنفع أحداً ولا تقيم مُعَوَّجاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياسات كثيها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربري الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعاديين . وفي حالة أى اضطراب في النظام لم يكن هناك مقر من الحرب الأهلية . وأنشأ الحزب العامري من رجال على غرارهِ ، كلهم طامعون أنانيون لا يعمر قلوبهم إيمانٌ ، وهؤلاء هم الذين سيرثون الأندلس من بعده ويتقاسمونهُ فيما بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجرية انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيراً على الأندلس . لقد أحدث دويماً كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمأثر المنصور دون أن تخفى جرائمه ، ومعظمها يصفه بالتقى ويقول إن الجهاد كان قرة عينهِ ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم . أما خارج السلطان وبعيداً عن مناقساته فلا مانع من أن يكونوا ذوي عاطفة دينية واهتمام بشئون العبادة والإحسان وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا . وعلى هذا الأساس من الممكن

أن نتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون في ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ - صفر ٣٩٩ هـ

أغسطس ١٠٠٢ - أكتوبر ١٠٠٨ م

وقد خلف المنصور في سلطانه ابنه عبد الملك المظفر الذي تلقب بسيف الدولة وكانت سنة ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً في الظاهر ، ولكنه كان في الحقيقة مهدداً بالأخطار ، لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه في الحكم ، كان يشعر أنه كان غاصبياً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً في قرطبة ونواحي الأندلس يتربصون به - وبآل عامر جميعاً - الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤملاً للوقوف في وجه العقبات التي كان لا بد له من تخطيها ، كان ينقصه العمق الإنساني والتكوين الفكري ، فعلى الرغم من اجتهاد أبيه في تكوينه إلا أنه لم يكن غير جتدي جاهل ، تربى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة ، فكان طوال حكمه القصير نهبا بين رجاله وأهمهم صقلبي من موالى أبيه يسمى « طرفة » ووزير قوى مداور مناور يسمى « عيسى بن سعيد بن القطاع » ، وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً في الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفوز منه بأي شيء ، وفي ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففكك بمولاه طرفة ثم قتل سعيد بن القطاع في مجلس شرابه على أسوأ صورة ، وقد خافه الناس ، وشيئاً فشيئاً تحول هذا الشاب ، الذي تولى الملك في الثامنة والعشرين شاباً تحيط به الآمال ويملا قلوب الناس من ناحية الاستبشار ، إلى طاغية ظلوم غادر ، وقد كان أبوه يعرف كيف يلين حيناً ويشتد حيناً ويقسو ويأسو ، أما هو فلم يكن لديه من ذلك شيء ، وإنه لمن المحزون أن نرى كيف أخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب ، إلا من عتاة الجنود والمرتزقين الذين كانوا لا يثيرون عليه بخير أبداً .

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه ، أى أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدى . غزا قطلونية وبرشلونة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بوريل الثالث » على طلب الصلح ، وفى صيف ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م غزا أراضى ليون ، وفى صيف ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م . غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة وفى ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتية قشتالة ، ثم غزاها مرة أخرى فى العام التالى ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مرض واشتدت به العلة ، وتوفى ربما من التهاب رئوى فى ١٦ صفر ٣٩٩هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب ، كانت سنوات رخاء ونصر ، ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين ، ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كان انهماكه فى ملذاته ، لأن ما أصابه كان نتيجة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه فى السهر حتى أعيا جسده .

عبد الرحمن بن المنصور :

وَحَلَفَ أخوه عبد الرحمن الذى تلقب بالمامون ويقال إنه هو الذى قتله ، وكان شاباً طائشاً قاسياً مجزئاً من الصفات الإيجابية المؤهلة للحكم السليم ، وكان الناس قد ضاقوا ذرعاً باستبداد العامريين وكانت أم عبد الرحمن حفيدة لسانشو غرسيه ملك نبرة ، وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكند الأرغوى أحد الأمراء المطالبين بالعرش والذى أسره المنصور ثم أطلق سراحه وتزوج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور أملاً فى أن يعينه على الوصول إلى عرش نبرة ، أما أم عبد الرحمن فقد أسلمت وتسمت باسم « عبده » وكان الأندلسيون يعرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليه ، أى : لا يستريحون لأن أمه نصرانية فلقبوه بشنجول أو سانشوبلو . Sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنت سانشو أباركة كما قدمنا ، وكان الناس يكرهونه ويحتقرونه ولم يحتملوا أن يروه قائماً بالامر مكان أبيه المنصور . وزاد سخطهم عندما سمعوا أن عبد الرحمن شنجول ، يسعى لى يستصدر مرسومًا بتعيينه ولياً لعهد الخلافة . وقد أنكر الناس ذلك إنكاراً شديداً وقامت قياמתهم لأن الرجل كان من الناحية الأخلاقية أبعد ما يكون عن أن يستحق الخلافة . ولكن عبد الرحمن فعل ذلك وأصبح ولى عهد الخليفة . وبقيت

أمامه خطوة القضاء على الخليفة نفسه لكي يصبح هو صاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجالاً مثل القاضي « أبي العباس بن ذكوان » والكاتب « أبي حفص أحمد ابن برد » أيّدوه في ذلك .

مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبدأ الصراع بين هذا الرجل المتسلّط والأرستقراطية القرطبية التي طال سكوتها دون أن ترفع صوتها ، وقد أخذ احتجاجها صورة انصراف أفرادها عن التوافد على قصر الزاهرة ، لأن قادة البربر كانوا يتقدمون عليهم هناك ، فأصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمام ، وكانت لباس زعماء البربر والتخلّى عن أغلبية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصالات بين كبار الأندلسيين وبقايا الأمويين ، وتحدث الناس بأن هناك مؤامرة تدار لإعادة بني أمية إلى السُلطان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة في يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ولم تكن العادة أن يخرج الناس للغزو في هذا الوقت ، ونصح الناس شنجول بالألا يخرج ، ولكنه أصّر ، وقد وصل إلى جليقية ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً نظراً لخلوّ الأراضى من المزروعات وشدة البرد وهرب النصاري إلى فنن الجبال فقفل راجعاً ، ولم يكد يدخل طليطلة حتى بلغه أن ثورة قامت في قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى

١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م :

وكان ذلك حقاً فإن نفراً من الباقين المشردين من بني أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش للقيام بالثورة مستعينين في ذلك « بالذلفاء » أم عبد الملك المظفر ، وكانت لا تشكّ في أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه - ابنها - بالسّم . فاتصلت بنفّر من شُبّان بني أمية الساعين في سقوط بني عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمى محمد بن هشام بن عبد الجبار وهو من أمّاء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبد الرحمن شنجول أرض النصاري لكي يقوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م بادئين بالهجوم على قصر قرطبة واقتحموه وقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر . ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه وبايعه أصحابه واتخذ لقب المهدي واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده وأرغم هشاماً (الثاني) المؤيد على التنازل فتنازل بعد أن مكث في منصب الخلافة ٢٣ سنة . كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام .

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلى معظم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له . ونصحه موله « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه . ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به . فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصة « محمد بن يعلى الزناتى » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأسراهم فيها . وتخلّى البربر جميعاً عنه وتركوه عاندين إلى قرطبة لحماية أسراهم ، أما عبد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليه رجال محمد بن عبد الجبار في دير على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه في ٣ رجب ٣٩٩هـ / ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهت إليها أمر بنى عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرى المستبد كله . فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذى لم يخدم إلا مصالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجول بطيشه وفساده وقلة تدبره . فلم يلبث في المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه ، كما ذكرنا .

الفتنة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرقناه في شباب بنى أمية الأندلسيين ، فقد كان طاششاً قليل التفكير سوقى النزعات ، لطول ما عاش في الأحياء الفقيرة متنكراً بين رعاع قرطبة ، ولذلك أحاط نفسه

بطائفة ممن كانوا على شاكلته ، لا يحسنون غير النهب والسرقة فأثروا الناس أذى شديداً ، وبدا بوضوح أن الأمل الذي علّقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدي .

وقد أجمع الناس عليه أول الأمر مؤمّنين أنه يستطيع القبض على ناصية الأمور وتسييرها في الطريق الذي سارت عليه إلى الآن . ولكن ابن عبد الجبار لم يقم إلا بشيء واحد هو الانتقام من العامريين والاستمتاع بما ظن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذي يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وفوضى ، ومست الحاجة إلى رجل حاسم حازم يمسك بزمام الأمور ويقرّها في نصايبها ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب .

وكان لا بد كذلك من النظر في العودة إلى قواعد النظام التي قضى عليها المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة ، كان سفاكاً قاسياً منحط النزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شيء غير الاستبداد بالبربر وإزاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بني عامر ، ثم الانتقام من العامريين .

وقد أساء ابن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العداء ، وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن أبي عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المقيمين الأوسط والأقصى ، وكانوا قد كسبوا مالا عريقاً واتخذوا الأندلس وطناً لهم ، فأراد هذا الرجل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمن البربر على مراكزهم ومكانهم ، فقد أتوا إلى هذه البلاد للاشتراك في الجهاد وأبلوا بلاءً حسناً ، وليس ذنبهم أن ابن أبي عامر استقوى بهم على بني أمية .

وكان ذلك خطأ جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفسهم رجال العامريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبد الرحمن شنجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد ، ولو أنه كان على شيء من

السياسة لقبيل ولأههم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر ، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استدلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوى بن زيرى الصنهاجى » فمنع من دخول القصر وأهين ، وكانت النتيجة أن تخوف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ، فقرر فى أواخر مارس ١٠٠٩م / رجب ٣٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنتصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة .

وكان هذا الانشقاق فى الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرّم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها .

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدي موت هشام المؤيد الخليفة الذى حكم تحت ظل العامريين ، وكان ذلك فى ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ / ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ودفن هذا الرجل فى مشهد فى نقر كبير من الناس من بينهم القاضى أبى العباس بن ذكوان ، ولكن الحقيقة أن هشاماً المؤيد لم يمت ولم يُقبر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس فى قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت .

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فتجمعوا خارج قرطبة فى «فحص السراشق» ، وقرروا اقتحام قرطبة بالقوة واختاروا لأنفسهم خليفة من أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقبوه « بالمستعين » وبذلك أصبح فى البلاد خليفتان : واحد فى قرطبة والآخر على رأس البربر .

معركة قنيتش ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدى :

وأحسن محمد بن عبد الجبار المهدي أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالنصارى وخرج ليلقى البربر وكان اللقاء يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ / ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م فى « قنيتش » إلى الشمال الشرقى قليلاً من بلدة « القليعة » عند ملتقى وادى « أرملاط » بالوادى الكبير ، وفى هذه المعركة

حصلت صفوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربر ، وفرّ نفرٌ من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقى الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامري » واستقروا في دانية . وكانت تلك هي نهاية القوات الأندلسية التقليدية الأصيلة التي كان محمد بن أبي عامر قد أضعفها وبطل حركتها ورفع البربر فوق رجالها فساء حالهم . تلك القوة العسكرية المجيدة التي طالما كسبت للإسلام في الأندلس نصراً بعد نصر . وبعد القضاء عليها لم يستطع أحد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكرية لها قيمة في الأندلس .

ودخل البربر قرطبة وعاشوا فيها فساداً وقتلوا الكثير من أهلها ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الفرضي » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدي إلى الثغور وأصبح زاوي بن زيري سيّد الموقف ، فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه وتبين بذلك - بوضوح - أنه لم يمت ولم يدفن ، وفي ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ / ٨ نوفمبر ١٠٠٩م دخل زاوي القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة .

وقد أثبت سليمان المستعين في المدة القصيرة التي تولّاها أنه ليس بكفء للمنصب الذي تولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوي بن زيري رؤية الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفوراً شديداً ، وفي نفس الوقت كان واضح العامري قد ذهب إلى « أورخل » ولقى رامون بوريل الثالث كند برشلونة وطلب منهم عوناً عسكرياً فأعطوه فرقة عاد بها ليحارب البربر وعند « عقبة البقر » وهي بليدة صغيرة إلى الشمال من قرطبة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدي وأحلافه من النصاري وفي هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعاد زاوي بن زيري إلى قرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وفعل البربر فعله وانسحبوا إلى الجنوب .

النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين :

عاد محمد بن عبد الجبار المهدي إلى قرطبة وأراد أن يقضى على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخر بقوة من النصاري ، وأعانته بها الكونت « أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين والبربر في منتصف شوال ٤٠٠هـ / أواخر مايو ١٠١٠ م فعول البربر على الانصراف إلى أفريقية وجمعوا أمتعتهم وأسلحهم وساروا نحو الجنوب وتتبعهم ابن عبد الجبار ومن معه من النصاري .

وكان اللقاء الثاني بينه وبينهم عند نهر وادي « إيرد » في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ / ٢١ يونيو ١٠١٠ م وهناك انهزم محمد بن عبد الجبار المهدي ومن معه من الأندلسيين والقطلانيين ، وقتل البربر منهم مقتلة عظيمة حتى هلك في المعركة ثلاثة آلاف من النصاري ، وعلى أثر ذلك انسحب النصاري إلى بلادهم ، وكان « واضح » قد انضم إليه وعندما وقعت الهزيمة تجتمع الصفالية العامريون وعلى رأسهم « واضح وخيران وعنبر » وانسحبوا إلى شاطية وشرقي الأندلس ، ودخل سليمان المستعين مع البربر قرطبة بعد مقتل محمد بن عبد الجبار المهدي في ٢٣ يوليو ١٠٠١ م / ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافة هشام المؤيد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خلافته هذه المرة لأن البربر دخلوا قرطبة وقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق في طاعة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بدأت الفتنة وتدهورت الأمور ، وقد اجتهد زعماء قرطبة في مصالحة البربر أملاً في عودة الأمور إلى نصابها ، ولكن البربر تمسكوا بدعوة سليمان المستعين فأجيبوا إلى ذلك في شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣ م على يد القاضي « أبي العباس بن ذكوان » ودخل سليمان المستعين قرطبة وحاول أن يحكم معتمداً على البربر ولكنه فشل هذه المرة أيضاً ، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد في ١٥ ذي القعدة ٤٠٣هـ / ١٦ مايو ١٠١٣ م وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذي لم يهنا بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعين قط خلال السنوات الثلاث التي قضاه في الخلافة ، ولكن الحقيقة أن جواً من الفوضى والرهبة ساد البلاد ، فلم يعد أحد يطمئن إلى أحد ، ولم يظهر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمور ، فتوالت الفتن وكانت المشكلة الرئيسية هي مشكلة ذلك الجند المرتزق الذي أتى به

المنصور وهم الصقالبة من ناحية، والبربر من ناحية أخرى، فأما الصقالبة فقد تركوا الميدان وفروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار في أمان في المرية ومرسية، يقودهم زعيم صقلبي يسمى «خيران» وحاول نقر آخر منهم الاستقرار في دانية والجزائر الشرقية، وخاصة «بنو برزال وبنو يفرن»، ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبي في ولاية سرقسطة والشعر الأعلى لكي يستعين به، إلا أن أمره لم يستتب.

ولو أن البربر أخلصوا لسليمان المستعين فربما كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونهم وخاصة «زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن» زعيم البربر الصنهاجيين، الذين كانوا قد وفدوا على المنصور وانضموا إلى جيوشه، ثم استقروا بعد الفتنة في غرناطة.

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بنو حمود، ينتسبون إلى الأندلس ولكنهم كانوا قد اندرجوا في جملة البربر بعد نهاية الأندلس، ثم دخلوا في خدمة المنصور وأولاده، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطلعوا إلى الخلافة، وكان سليمان المستعين قد ولي على بن حمود منهم سبلة، وأخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء، فطمع علي في الخلافة وتحالف مع «خيران الصقلبي» واقترح قرطبة وقتل سليمان المستعين، وزعم أن هشاماً المؤيد كان قد ولاه عهده، وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين، وبدأت في تاريخ الخلافة القرطبية فترة قصيرة من الفوضى هي فترة الحموديين.

ومن الطبيعي ألا يستطيع هذا الدعوى شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلمان في ٢ ذي القعدة ٤٠٨هـ/ ٢٣ مارس ١٠١٨ م وخلفه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين.



عصر الطوائف

كيف بدأ عصر الطوائف :

خلال هذه الحوادث كلها وقف بقية أهل الأندلس ينظرون إلى ما تسفر عنه الأمور ، وكان يتولى معظم ولايات الأندلس نفس من رجال بني عامر أو من أعضاء الحزب العامري إذا استقام هذا التعبير ، وفي هذه الظروف قد انعدمت السلطة المركزية تقريباً ، اضطر أولئك الولاة إلى الانفراد بولاياتهم ريثما تنجلي الأمور في قرطبة ، ولكن الأمور لم تنجل عن نتيجة واضحة ، وتعاقب على عرش بني أمية عدد من الأمويين الصغار لم يحكم معظمهم إلا فترات قصيرة ، وكان القرطبيون يحاولون أن يؤيدوا أولئك الخلفاء بزعماء رئيسهم أبي الحزم بن جهور ، وأخيراً ، وعندما ينس القرطبيون من العثور على شخصية أموية تستطيع النهوض بالمسؤولية اجتمع كبار قرطبة في ذي القعدة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م وتشاوروا في الأمر ثم استقر رأيهم على إلغاء الخلافة القرطبية وعزلوا آخر بني أمية وهو هشام الثالث الملقب بالمعتد ، وقرروا إخراجهم من بلدهم في ١٢ ذي القعدة ٤٢٢ هـ / ٣٠ نوفمبر ١٠٣١ م وبذلك انتهت خلافة بني أمية الأندلسية ، وذهب الخليفة المعتد معزولاً إلى نواحي سرقسطة حيث انتهت حياته في خمول .

هذا القرار الذي اتخذه زعماء قرطبة برئاسة أبي الحزم بن جهور لا يوصف إلا بأنه كارثة ، لأن إلغاء الخلافة كان معناه إلغاء رمز الوحدة ، لأن عمال النواحي والأطراف وجدوا أنفسهم فجأة بدون خليفة ومضطرين إلى أن يتولوا بأنفسهم شؤون ولايتهم ، وهكذا تحول كل منهم إلى أمير في ناحيته ، وتلك هي النقطة التي لا يلاحظها الكثيرون وهي أن عمال النواحي في الأندلس لم يخرجوا على الطاعة ، ولم يستبد كل منهم بناحيته ، ولكن الذي حدث هو أن القرطبيين ألغوا الخلافة ، فلم يكن للعمال مفر من أن يتحولوا إلى أمراء نواح ، وبهذا العمل الذي يخلو من كل شعور بالمسؤولية قضى أبو الحزم بن جهور وأنصاره على رمز الوحدة في البلاد وهو أمر لم يحدث قط في التاريخ ، لأن خلافة بني العباس مثلاً - رغماً عن ضعفها - ظلت قائمة رمزاً لوحدة المسلمين في المشرق ، وكان ذلك ذا

فائدة عظيمة ، لأن الأمر لم يخل من زعماء ذوي حمية وإخلاص يدخلون في طاعة الخلافة ويشدون أزرها وتنتعش الخلافة من جديد كما حدث في عهد السلاجقة .

هكذا ظهر أمراء النواحي الذين نسميهم بملوك الطوائف ، وهم لم يكونوا ملوكاً ولا ملوك طوائف ، وإنما هم كانوا عمالاً على النواحي استبدوا بالأمر كل في ناحيته ، على النحو الذي وصفناه ، وهم لم يتخذوا القاباً ملكية ولا سلطانية ، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد والمستعين ، ولم يكونوا يتزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض ، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنو عبّاد ، أو طائفة بربرية يتزعمها رجل مثل المأمون بن زنون في طليطلة ، ولا طائفة صقلبية في شرق الأندلس يتزعمها الصقالبة العامريون ، إنما هم كانوا رؤساء النواحي استبد كل منهم بناحيته وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطان ، ولم يوفق واحد منهم في ذلك وجرت الحروب بينهم وطمع فيهم النصاري فأخذوا يفرضون عليهم الإتاوات لأن أحداً منهم لم يكن لديه جيش يستطيع به دفع النصاري عن بلاده .

وينقسم عصر الطوائف تاريخياً إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : هي فترة الانتظار والترقب فيما بين سقوط العامريين سنة ١٠٠٩م وإلغاء الخلافة القرطبية سنة ١٠٢١م وخلال هذه الفترة جرت الحروب التي ذكرناها بين الأندلسيين وجند العامريين من البربر ، و تعاقب الخلفاء واحداً في إثر واحد وتخربت قرطبة ومدينة الزهراء وكذلك مدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر ، ووقف عمال النواحي يرقبون الأمور وينتظرون أن يستقر الأمر عند واحد تعترف به الأندلس كلها لتسير الأمور في مجراها من جديد ، وخلال هذه الفترة القصيرة تدهورت أمور الأندلس كله وتداعت القواعد المتينة التي وضعها أمراء بني أمية وخلفاؤهم وخاصة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتنفس مخنق ممالك النصاري في الشمال وطمعوا في بلاد المسلمين وقد تحدثنا عن هذه الفترة .

والفترة الثانية : وتمتد من سنة ١٠٢١ - ١٠٨٥م وهي سنة سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

وذلك أن أمراء الطوائف دخلوا في حروب طويلة بعضهم مع بعض ، وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعيناً في ذلك بقوات من النصاري يدفع لهم إتاوة حاسباً أنه يقيم بذلك ملكاً لنفسه على حساب إخوانه المسلمين ، وتلك هي فترة الطوائف حقاً التي انقسم الأندلس فيها إلى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجزة عن القيام بأمور نفسها ، وتدهورت الأمور في الأندلس كلها خلال هذه الفترة ، وأهم أمراء الطوائف الذين ظهروا في هذه الفترة هم :

بنو عباد أصحاب إشبيلية : ومؤسس دولتهم محمد بن إسماعيل بن عباد الذي ينتسب إلى لخم ، وكان من رجال الحزب العامري ، فابن أبي عامر هو الذي ولّاه القضاء على إشبيلية ، ومنحه سلطات واسعة ، وعند قيام الفتنة كان أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد قاضياً على إشبيلية ، فقدمه أهلها للرياسة ، وعندما توفى إسماعيل قام بالأمر بعده ابنه محمد بن إسماعيل بن عباد واصطنعه القاسم ابن حمود وأقامه والياً على إشبيلية ، فشرعت نفسه إلى السلطان ، وكان رجلاً واسع الحيلة بعيد الطموح وإن كان مستواه الأخلاقي بعيداً جداً عما ينبغي للقضاة . وما كادت دولة الحموديين تنتهي حتى استبد بالأمر وتلقب بالمعتضد وأعلن لفترة قصيرة الولاء لهشام المؤيد . وفي النهاية استبد بالأمر ، وخلفه ابنه إسماعيل بن محمد بن عباد الذي غدر بيحيى بن علي بن حمود مولى نعمته سنة ٤٢٧ هـ . وإسماعيل هذا هو الذي انتقل بالبيت العبّادي إلى مظاهر الأمراء ، فاتخذ القصور والجند ، وحاول أن يضم إلى إمارته كل ما استطاع من البلاد الصغيرة إلى جواره وخاصة إمارات البربر الصغيرة مثل قرمونة وأسكنه قرب إشبيلية ، ووقعت الحرب بين أبي القاسم إسماعيل بن عباد وجيرانه وخاصة بني الأفطس أصحاب بطليوس . وقد استعان كل من ابن الأفطس وابن عباد بالنصاري واستقر الأمر في النهاية إلى شبه هدنة بينهما ، وفي سنة ٤٢٢ هـ صار الأمر في إشبيلية إلى أبي عمر عباد بن إسماعيل بن عباد ، وهو الذي تلقب بالمعتضد ووسع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادي الكبير وما يليه جنوباً وهادته أهل قرطبة ، وقد اتخذ هذا الرجل الجند الكثير ، ولكنه لم يستطع أن يحقق وحدة الأندلس كما كان يقول ، خاصة وقد اشتدت الحروب بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، وقد استمرت الحروب بين بني الأفطس وبين بني

عباد ، وطمع ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون في بلاد المسلمين . وهذا المعتضد بن عباد هو الذى اشتهر أمره في بلاد الأندلس فجعل لنفسه بلاطاً وأحاط نفسه بالشعراء وكان هو نفسه شاعراً ، وهو والد المعتمد بن عباد الشاعر المشهور . وسنتحدث عنه . وقد حاول سنة ٤٥٠ هـ أن يستولى على قرطبة ولكنه لم يستطع إلا بعد نهاية بنى جهور حوالى سنة ٤٥٨ هـ .

ثم خلفه ابنه المعتمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد الذى تلقب بالمعتمد واشتهر أمره بالشعر والشعراء ، وفى أيامه بلغت دولة بنى عباد ذروتها فى القوة والشهرة ، فقد تمكن المعتمد من ضم قرطبة ومالقة ومرسية ، واستصفى كل إمارات البربر الصغيرة جنوبى الوادى الكبير ، وضم إلى إمارته جزءاً كبيراً من غرب الأندلس ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمل الوحدة لأنه كان إلى جانب اشتغاله بالشعر رجلاً فاسداً ينفق معظم وقته فى الشراب محيطاً نفسه بالشعراء وأكبرهم أبو بكر بن عمار ، وسنتحدث عن ذلك فى نهاية كلامنا عن عصر الطوائف ، وقد انتهت إمارة بنى عباد على يد المرابطين فقد عزله يوسف بن تاشفين عند عبوره الثالث إلى الأندلس ، ونفاه إلى أغمات حيث قضى بقية أيامه فى قول الشعر ، وشعره الذى قاله فى هذه الفترة هو أجمل شعر قاله فى حياته .

دولة بنى ذى النون فى طليطلة :

بنو ذى النون أسرة بربرية الأصل قديمة فى الأندلس ، وترجع أخبارها عندنا إلى أيام الإمارة ، فقد تجمعت أعداد من بربر الهواريين عند بلدة تسمى شنتمرية قرب طليطلة ، وهناك قامت لهم عزوة وقام لهم عدد ، وتحولوا إلى أندلسيين من أصل مغربى وتزوجوا إلى الناس وأصهروا إليهم ونشأت أجيالهم أندلسية .

وكان الأمراء وخاصة فى عهد الأمير عبد الله ، إذا وجدوا أسرة من هذا الطراز ذات قوة وعدد ، فى ناحية من النواحي تتطلع إلى السلطان استجابوا لطلب رؤسائها فى الإسجال لهم على بلدهم أى إعطائهم سجالاً يخول لهم حكم منطقتهم ، إلى جانب العامل المولى من قبل أمير قرطبة وجباية المال والاحتفاظ ببعضه فى مقابل تقديم خدمة عسكرية للإمارة فى الصوائف ، أو عندما تطلب الإمارة ذلك . وكان ذلك نوعاً من الإقطاع شبيهاً بالإقطاع الغربى الذى ساد أوربا فى العصور

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربي كان يُعطى المُقَطَّع السلطان على الأرض والناس ، أي أن المُقَطَّع ويسمى في المصطلح الغربي بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامي ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهز يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقص من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبي عامر الذي أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين عُرِّبوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بأمرة .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير في أحواز بلد يسمى « قبذة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩ م كان يتولى أمر شنتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقروا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٢١ م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذى اتخذه أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتدور عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الصغر والضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبي عامر ، فكانت تقوم إلى غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كونتينة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها اكناد ضعاف تابعون لملوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفى وخلفه أبنائه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيفاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرف فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تمك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاء وألوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م توفى المأمون ذو النون ، وخلفه حفيد له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذي تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من تابعيها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذي النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصراني ، وقد انتهر هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة امرأة بنى الحديدى من الوزراء ودخل البلد بقوته سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها في مملكة ليون وقشتالة ، وعوضاً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذي النون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى البرهانس فدخل يحيى بن ذي النون بلنسية في حماية النصراني .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن ننص عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراضٍ زراعية ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجليقية ، ليس فيها مدينة جديرة بالذكر إلا أبيض وليون وربما أشترقة ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشنتيرة ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ما كان منضمّاً إليها قبلاً من أراضى كونتينة قشتالة ، أي أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربى كان يُعطى المُقطَّع السلطان على الأرض والناس ، أى أن المُقطَّع ويسمى في المصطلح الغربى بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهز يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظلون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطَّع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمَّى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقصَّ من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاوات مالية منتظمة لمعاونتة فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين عرَّبوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بأمره .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير في أحواز بلد يسمى « قبذة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « قونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩ م كان يتولى أمر شتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكي يستقووا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١ م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذى اتخذه أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتزود عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم إلى غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كوثينة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها اكناد ضعاف تابعون لملوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفى وخلفه أبناؤه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيقاً على المأمون ذي النون سنوات طويلة عرق فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاء ورؤس ملوكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكذ يستقر على العرش حتى بدأ يمهّد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م توفى المأمون ذو النون ، وخلفه حفيد له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذي تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من توابعها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذي النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصراني ، وقد انتهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بني الحديدى من الوزراء ودخل البلد بقوة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيها في مملكة ليون وقشتالة ، وعوضاً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذي النون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى البرهانس فدخل يحيى بن ذي النون بلنسية في حماية النصراني .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن ننصّ عليها هذا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراضٍ زراعية ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجليقية ، ليس فيها مدينة جديرة بالذكر إلا أبيض وليون وربما أشترقة ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشتتيرة ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ما كان منضمّاً إليها قبلاً من أراضى كوثينة قشتالة ، أي أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

وأصبح بقواته وأراضيه وأمواله الكثيرة صاحب الكلمة العليا في شبه الجزيرة ، فهو يملك أولاً مملكة ليون (تضم أشتريس وليون وجليقية) وكونتينة قشتالة ثم كل بلاد إمارة طليطلة ، وأصبح بهذا الوضع يستطيع أن يملئ إرادته على كل بلاد الأندلس فهو يجاورها جميعاً وقرساته يغيرون على معظم إمارات الطوائف من أمثال إشبيلية وبطليوس وسهلة بنى رزيقن التي تسمى بشنتجيرية الغرب وبلنسية .

وتلك هي الحقيقة الرئيسية التي تهتم المعنى بدراسة تاريخ الأندلس الإسلامي فإن مصيبة عصر الطوائف ، لم تقتصر على تقسيم أراضي الأندلس إلى ولايات صغيرة مستضعفة ، بل إن هذه الأقسام المستضعفة كانت تجاور إمارات نصرانية عاشت دائماً تحت تهديد خلافة قرطبة ، وكانت حياتها في ذلك الحين شظفاً ، فما كانت ترى أراضي المسلمين إلى جوارها بدون حماية حتى انقضت عليها ووسعت أراضيها على حسابها وتحولت من إمارات تكافح للبقاء إلى ممالك تعمل على توسيع رقعتها وتطمع في الاستيلاء على بقية شبه الجزيرة . ولهذا فإن الفكرة الكبيرة التي يدير عليها الكثير من مؤرخي الإسبان تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى وهي فكرة الاسترداد . La Reconquista ترجع بالذات إلى ذلك العصر ، أما قبل ذلك فقد كان همّ الممالك النصرانية هو العيش في سلام من غزوات المسلمين .

أما القول بأن شر ما كان في عصر الطوائف هو انقسام البلاد إلى إمارات صغيرة فذلك في ذاته ليس بخطير كبير ، ففي بلاد الإسلام في الشرق كانت البلاد وخاصة في الشام والعراق مقسمة في كثير من الأحيان إلى دويلات صغيرة ، ولكن لم يكن يهددها خطر سياسي ديني كبير كهذا ، ولهذا لم يكن للانقسام في ذاته تلك الخطورة به .

والكى توضيح الأمر نقول إن خلفاء قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر والمستنصر والمنصور أي خلال العصر العاشر الميلادي الذهبي كانوا يفضل قوتهم ونشاطهم هم الذين يتصرفون في عروش الممالك النصرانية ، ففي أيام عبد الرحمن الناصر تدخل هذا الخليفة لكى يعين غرسيه سانشو الأول ملكاً على بنبلونة سنة ٩٢٤م وكذلك تدخل عبد الرحمن لكى يصبح سانجو الأول الملقب بالجلف (الكراسو) ملكاً على ليون سنة ٩٥٦م وفي أية مناسبة أبدى فيها ملوك

النصارى أية محاولة للخروج على طاعة قرطبة ، كان الخلفاء ورجالهم يبادرون بالقيام بحملات التأديب ، بل إن عبد الرحمن الناصر دخل بقواته بنبلونة ليؤدّب ملكها ، ودخل المنصور بقواته مدينة ليون عاصمة مملكة ليون ووصل بغاراته إلى جليقية ودخل « شنت ياقب » في وسط جليقية ، وقام ابنه عبد الملك المظفر بدخول برشلونة وكان ينوى إسكانها المسلمين وبالفعل نقل إليها الآلاف منهم وذلك قبل أن تقع كارثة طليطلة بأقل من نصف قرن ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى التحول الكبير الذي أصاب الأندلس في عصر الطوائف

إمارة بلنسية :

أشرنا فيما مضى إلى أن بلنسية كانت من توابع طليطلة ، وحقيقة الأمر في بلنسية التي تقع في شرق الأندلس وتعتبر إلى اليوم من أغنى أقاليمه ، صارت بعد سقوط الخلافة إلى نفر من صقالبة العامريين ، ثم بايع الصقالبة في حكمها حفيداً للمنصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م وتلقّب بالمنصور وتوفي هذا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م فخلفه ابنه عبد الملك الملقّب بالمظفر ، الذي تزوج ابنةً ليحيى المأمون بن ذي النون ، وانتهى الأمر بأن اتحدت الإماراتان وعُهد المأمون في حكمها إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز الملقّب بابن روبش ، حتى إذا استولى ألفونسو السادس على طليطلة أخرج ابن روبش هذا وصار الأمر إلى يحيى القادر بن ذي النون في حماية فرسانه من النصارى الذين كان يرأسهم البرهاتس الذي ذكرناه ، وهو ابن أخى فارس نصراني آخر سيكون له دور سيئ في تاريخ المسلمين في الأندلس في ذلك العصر وهو رودريجو ديبليار الملقّب بالسيد القمبيطور Rodrigo de Vivar El Cid Campeador ويسميه العرب بصاحب الفحص .

كان هذا الرجل وأصله قشتالي يخدم ملوك ليون ، وكان يؤيد الملك سانشو أخا ألفونسو الذي ذكرناه ، فلما صار الأمر إلى ألفونسو الذي تلقّب بالسادس ، وأصبح يسمى ملك قشتالة وليون ، اختلف معه السيد فنفي إلى بلاط سرقسطة وعاش في وسط المسلمين وتكلم العربية واستخدمه بنو هود في أعمالهم العسكرية ومن هنا كسب لقب السيد وهو لقب عربيّ ثم صالح الملك ألفونسو السادس بعد

استيلائه على طليطلة ثم انفصل عنه وكون جماعة من أهل الحراية ، ومن المصطلح الإسلامى المقاتلون الذين يقطعون الطريق ، وتجمعت إليه أعداد منهم . ووجد أن بلنسية مملكة ضعيفة في حماية ألفونسو السادس ملك ليون ، وأخذ يُغير على أرضها وهى عاجزة عن الدفاع .

وشيثاً فشيثاً اشتد كَلْبُهُ عليها وطمعه فيها وحاصرها ، وازدادت أعداد الذعار والسُّراق في جيشه ، وكان أمر بلنسية في يد ذلك الضعيف المسمى يحيى القادر . يعاونه قاضى البلد وهو أبو جعفر أحمد بن جحاف . وأخذ السيد يحاصرها كي يستولى عليها ويجعلها إمارة خاصة به ، وأخيراً تمكن بعد حصار طويل وحشى يصفه لنا مؤرخ عربى يسمى ابن علقمة في كتاب له يسمى « البيان الواضح عن الملم القادح » حتى بلغ الجهد بالناس أن أكلوا كل ما لديهم وصار السيد يحرم عليهم الخروج من البلد . وازداد الأمر سوءاً حتى اضطر البلد إلى أن يفتح أبوابه للسيد القمبيطور سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فحكمها سنتين ، حكم فيها بالموت حرقاً على قاضيهما أبي جعفر أحمد بن جحاف ونفر من كبار أهلها وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٨٨ هـ ، فارتكب بذلك جريمة من أشنع ما ارتكب في ذلك العصر ، وفي ذلك الحين كان المرابطون قد دخلوا الأندلس وتمكنوا في النهاية من استعادة بلنسية على يد القائد عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين ، فخرج إليها من جزيرة شكر ولم يستطع الدخول ، فتولى الأمر من بعده القائد أبو محمد بن مزدلى وهو ابن عم ليوسف بن تاشفين وعلى يده دخل المرابطون بلنسية سنة ٤٩٥ هـ / ١٠٠٢ م وأعادوها للإسلام بعد أن ذاق أهلها الويلات ، كما رأينا .

وإنما وقفنا عند كارثة بلنسية ومصيبة طليطلة لكي نوضح الحالة السيئة التى انتهى إليها أمر المسلمين في الأندلس بعد أن تفرقت وحدتهم . وأصبح الأندلس الإسلامى فريسة سائغة أمام ملوك النصارى ، وقد تعودنا أن نلوم ملوك النصارى على ما أخذوا من أرض المسلمين ، ونعتقد أن هذا العرض الذى تقدمه يدعونا إلى إعادة التفكير في ذلك الموضوع لأن الحياة على هذه الأرض صراع ، والدنيا كما يقول ابن جبير - لمن غلب .

إمارة سرقسطة :

قامت إمارة سرقسطة عند انتشار عقد الخلافة فيما كان يعرف بالثغر الأعلى

الأندلسي . وهو الحوض الأدنى لنهر الأبرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة في تلك الناحية الجبلية الوعرة ، وتجاور في الشمال مملكة أرغون وفي الشمال الغربي مملكة نبرة ، وفي الشرق كونتية برشلونة . وبعد سقوط طليطلة أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب ، ومعنى ذلك أن هذه الإمارة أصبحت محاطة بملوك النصارى ، ولا طريق لها إلى بلاد المسلمين إلا عن طريق إمارة السهلة أو شنتمرية في الشرق وطرطونة قرب مصب نهر الأبرو .

وكان يحكم هذه الإمارة الواسعة أول الأمر التجيبيون وأصلهم من القوط ، ثم أسلموا واستعربوا وظلوا يحكمون هذه الإمارة ، وكان لهم فيها تاريخ طويل ، ثم صارت إلى نقر من رجالهم وهم بنو هود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي (٤٣١ - ٤٣٨ هـ / ١٠٣١ - ١٠٤٦ م) وكان هذا الرجل كغيره من رجال الثغر الأعلى محارباً عفيفاً يحيط به نفرٌ كبيرٌ من المقاتلين والفرسان ، وكان يسيطر على عواصم الثغر الأعلى الأربعة ، وهي سرقسطة وطلطلة ووشقة ولاردة ، ولم يكن على هذه الإمارة خوف حتى سقطت طليطلة ، فازداد الخطر عليها .

ذلك أن المستعين بن هود عندما توفي كان قد قسّم أملاكه بين أبنائه الخمسة وقام الصراع بينهم ، وكان الظاهر بينهم هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وفي أيامه دبّر ألفونسو السادس ، الذي كان يتولى ملك أرغون ويلقب بالمحارب حملة أراد بها أن يستولى على سرقسطة ففشل ، فمضى يحاول أن يستعين بملوك النصارى على النيل من بلاد المسلمين ، فجمع أعداداً كبيرة من النصارى من شمال إسبانيا وأوربا ولجأ إلى البابوية ، وتمكن الصليبيون الغربيون من مفاجأة بلد إسلامي صغير يسمى « بريشتر » على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة ، وكان متطرفاً على حدود إمارة بریطانيا النصرانية ، وتمكن المهاجمون من التغلب عليها وكان يحكمها واحد من أولاد المستعين ، وهو حسام الدولة الملقب بالملطفر . وكان نزولهم عليها في شعبان ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حيث أنزلوا بأهلها مذبحه بشعة بقيادة فارس نورماندى يسمى « دى مونتروى » ، وقد بارك البابا إسكندر الثالث كل ما عمله النصارى في ذلك البلد من أفاعيل شنيعة استنكرها حتى مؤرخو أوربا . وقد بلغ عدد من أُسِر من بنات المسلمين فيها وبيع في الأسواق خمسة آلاف

وكانت هذه الكارثة مما أثار الرعب في قلوب أهل الأندلس ، فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشون في أمان أو حماية ، وإلى مثل هذه الكارثة وكرثة بلنسية التي تكرناها يرجع ياس جمهور الأندلس في بلادهم وبدء هجرتهم وفقدانهم الثبات واليسالة ، وفي مثل هذه العصور عندما تفقد الأمة ثقافتها في نفسها لا يثبت رجالها للقتال ويملكهم الرعب فتتوالى الهزائم .

ولم تسترجع بربرشثرو إلا في جمادى الأولى ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م على يد أحمد ابن هود الذي تلقب بالمقتدر .

وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة وشغرها أو ما بقي من شغرها حتى حاول ألفونسو السادس الاستيلاء عليها ولكنه ارتد عنها سنة ٤٧٩ هـ عندما علم بنزول المرابطين الأندلس . فتصدى لحرب أرغون أميرها أحمد المستعين واستطاع أن يرد ألفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلتيرة في رجب ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م . وفيها استشهد أبو جعفر أحمد المستعين وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة .

وبعد دخول المرابطين الأندلس دخل أمراء سرقسطة في طاعتهم ، ولكنهم لم يخلصوا لهم بل أثروا الدخول في طاعة ملوك أرغون ، وفي أواخر سنة ٥٠٣ هـ نجد أبا مروان عبد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة طليطلة لألفونسو المحارب سنة ٥٠٣ هـ ويقطعه هذا بدلاً منها أراضي في بلاد قشتالة ، وبعد وفاة عماد الدولة هذا في شعبان ٥٢٠ هـ خلفه ابنه وأخوه المستعين بالله الذي دخل في طاعة الملك النصراني ، وفي سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م دخل ألفونسو المحارب ملك أرغون سرقسطة ، وبذلك تضاعف حجم مملكته وانتقلت من طور إلى طور كما حدث بالنسبة لقشتالة وليون ، إذ أن مملكة أرغون صنعت نفسها على حساب إمارة سرقسطة التي كانت أول الأمر مملكة صغيرة في جبال اليرانس فأصبحت الآن تمتد حتى تشمل وادي الأبرو الأدنى والأوسط وأصبحت بذلك من كبار الممالك النصرانية .

وبهذه المناسبة نقول إن أول الممالك النصرانية انتعاشاً وظهوراً نتيجة لانتثار عقد خلافة الأندلس كانت مملكة تبرة ، التي كانت تسمى إلى ذلك الحين مملكة بنبلونة ، وكانت مملكة صغيرة يسميها المسلمون أرض اليشكونس ، وفي سنة

١٠٠٤م أى بعد موت المنصور بن أبى عامر بسنتين تولى أمر بنبلونة ملك هَمام يسمى سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وقد تمكن هذا الرجل الذى تعلم فى فرنسا من أن ينظم مملكته الصغيرة ويضاهي بها مملكة الفرنجة فى فرنسا . واتصل بالبابوية وأخذ من البابا تقويصاً بمغازاة المسلمين ، وصار يفكر فى الاستيلاء على أراضٍ منهم ، وبدأ بتوحيد بعض الإمارات النصرانية القائمة فى جبال البُرت ، مبتدئاً بإمارة « ريبا جورثا » (١٠١٨ - ١٠٢٥ م) ثم أدخل فى طاعته كونت - قشتالة . وفى سنة ١٠٣٠م دخل فى طاعته برمودو الثالث ملك ليون وكذلك كوند برشلونة بيرنجير رامون الأول الملقب بالمنحنى (الكوربو) .

ومعنى ذلك أن إمارة بنبلونة التى رأينا عبد الرحمن الناصر يدخلها ويقيم عليها قائده حاكماً أصبحت الآن وبعد زوال خلافة قرطبة مملكة يحسب لها حساب ، ولكن سيادة نبرة أو بنبلونة لم تستمر لأن ذلك الملك عندما توفى سنة ١٠٣٥ م كان قد قسّم أملاكه بين أولاده تحت وصاية ابنه الأكبر نمرسيه دنيآخرة ١٠٣٥ - ١٠٥٤ م ولكن فرناندو الأول ملك ليون تمكّن من التخلص من سلطان نبرة وثار عليها بقية ملوك النصراني من أمثال فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وراميرو الأول ملك أرغون فتقاسما أملاكها . وتوزعت أراضيها بين هاتين المملكتين . وقد رأينا كيف قامت على أكتاف المسلمين قوة مملكتى ليون وقشتالة فى ناحية . ومملكة أرغون من ناحية أخرى .

أى أننا الآن أمام مملكتين نصرانيتين قويتين تهدد أمن أراضى المسلمين الأولى ليون وقشتالة والثانية أرغون .

إمارة إشبيلية :

تعتبر دولة بنى عبّار أصحاب إشبيلية أشهر دول الطوائف وإن لم تكن أقواها ، لأن أقواها بالفعل دولة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وأصل بنى عبّار عربّ . وقد استقروا أول الأمر فى شلب فى غرب الأندلس ، وترجع شهرتهم إلى جدّهم إسماعيل بن عبّار الذى عينه المنصور بن أبى عامر قاضياً على إشبيلية فبدأ تاريخهم فى ذلك البلد ، لأنهم عند إلغاء الخلافة وجد إسماعيل بن عبّار الفرصة

سائحة للاستبداد بأمر إشبيلية ، لأن أهلها قدموه للرياسة حتى تنجلي الفتنة ، وبعد وفاته خلفه ابنه أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وفي أيامه خلا الجو لبنى عباد للرياسة بزوال الخلافة نهائياً ، ثم جاء بعده ابنه أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل وهو الذي تلقب بالمعتضد .

وترجع قوة بنى عباد إلى ما تميز به جدهم إسماعيل بن عباد من مهارة سياسية وقدرة على جمع المال ، وذكائه الذي جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً ، وقد بايع أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد للقاسم بن حمود عندما ادعى الخلافة ، ولكن عندما طرد هذا الرجل من قرطبة وأراد اللجوء إلى إشبيلية ، أقفل المعتضد أبوابها وتنكر له واجتمع مع اثنين من كبار البلد هما أبو عبد الله الزبيدي والوزير أبو محمد عبد الله بن باريم ، ومضى الثلاثة يدبرون أمر البلد ، ابتداء من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ثم انفرد المعتضد بالأمر .

وقد دخل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه لكي يمد رقعة كورة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس كله وجنوبه ، واقترب في هذا السبيل جنائيات أخلاقية كبيرة ، وضرب لمعاصريه أسوأ المثل ، وهو المسئول إلى حد كبير عن ذلك النوع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذي ساد ذلك العصر في الأندلس وأدى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة في الجزيرة .

ذلك أن أبا عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد ، لم يكن يقيم للأخلاقيات أي وزن ، وكان همه منصرفاً إلى جمع المال بأي طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه والعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكرين أصحاب ولبة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر في قرمونة وإستكة وتاكرنة وما إليه ، أما في مواجهة ملوك قشتالة فنجد أن ذلك الرجل يتهافت ويؤدي الجزية ويعرض الطاعة دون أن يفكر في أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفاً واحداً أمام العدو وقتئذ ، فقد دفع الجزية لفرناندو الأول ملك ليون ثم أذاها لآلفونسو السادس ملك قشتالة وليون ورهبة رهبة شديدة ، وخاصة بعد أن استولى هذا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حديقة الرؤوس ، وأصصها هي جماجم أعدائه ، بعد أن يقتلهم ، فيستعملها أصصاً للزهور وكان يتفاخر بذلك ، وقد تمكن من توسيع رقعة بلاده على حساب المسلمين وتوفي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م .

وبمناسبة الإتاوات أو الجزى التى كان ملوك الطوائف هؤلاء يدفعونها إلى ملوك النصارى ليسترضوهم ويأمنوا جانبهم نقول : إن ملوك النصارى أولئك كانوا فى الحقيقة أضعف من ملوك الطوائف ، وبلادهم فى الغالب كانت أصغر ، فمملكة أرغون التى استولت فيما بعد على الثغر الأعلى من أصحابه بنى هود ، كانت مساحتها لا تزيد على ثلث إمارة الثغر الأعلى الأندلسية وكانت ثروتها أقل بكثير . فلم يكن فيها من المدن ما يضاهى مدن الثغر الأعلى مثل سرقسطة وطليطلة ووشقة ولاردة . ومع ذلك فإننا نجد بن يهود يتخاضلون تخاضلاً محجلاً ويؤدون الجزية إلى جازهم الأرغونى . ولم تتحول أرغون إلى مملكة يحسب لها حساب إلا بعد أن استولت على الثغر الأعلى ، فزادت مساحتها ثلاث مرات وتضاعفت ثروتها عشرات المرات . وكذلك الأمر مع مملكة ليون التى أصبحت مملكة قشتالة وليون . لم تصبح مملكة لها قدر وقوة إلا بعد استيلائها على طليطلة .

ويستوقف النظر أن ملوك الطوائف هؤلاء ، كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تصدق ، فقد اتفق - مثلاً - المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مع سانشو ديبينان - Sancho de Penalen كان عليهم بمقتضاه أن يدفع كل شهر ١٠٦٩ قطعة من الذهب . وكان يدفع فى نفس الوقت إتاوة أخرى إلى كونت أورخل غير محددة القدر ، فإذا قدرنا وزن القطعة الذهبية الإسلامية فى ذلك العصر بنحو جرامين ، فإن مجموع ما كان يدفعه صاحب سرقسطة ملك نبرة يزن عشرين كيلو جراماً من الذهب فى العام ، ولا بد أن نضيف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الكونت أورخل . وكان أصحاب إشبيلية يدفعون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليون . ولا بد أن ملوك الطوائف الآخرين كانوا يدفعون ما يقارب هذه المقادير من الذهب ، ومعنى ذلك أن أمراء الطوائف كانوا ينهبون بلادهم نهباً ليدفعوا لملوك النصارى ، فكانهم لم يكتفوا بإعطائهم الأراضى ، بل قدموا لهم أيضاً الأموال اللازمة للتعمير ، فالملك سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وكونت برشلونة «رامون بيرنجير» الأول (١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) تقاضيا من أمراء المسلمين مقادير لا تُصدق من الذهب . والملك فرناندو الأول ملك قشتالة (١٠٣٧ - ١٠٦٥ م) كان يتقاضى من طليطلة قبل أن تسقط ضعف ما كان يدفع أصحاب سرقسطة لملوك نبرة ، ومعنى ذلك أن بلاد النصارى كانت تحصل دون عناء على

ذهب كثير ، مكن لهم من إنشاء المدن وتكوين الجيوش وتسليحها وتعمير الأراضي .

وكان ملوك إسبانيا النصرانية يتقاسمون هذه الأموال مع أشرف دولتهم ورجال الدين ، وكان هؤلاء يشترون الأراضي والعقارات بهذه الأموال ، وإلى هذا ترجع الثروات الضخمة التي تجمعت في أيدي القلة الممتازة من أهل البلاد النصرانية . وكان نتيجة ذلك أيضاً غنى البلاد النصرانية وفقر بلاد الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن عبد الرحمن الناصر كان يدخر كل عام ثلث الجباية ، وعندما توفي عن خمسين سنة من الحكم ، خلف بيوت مال مفعمة ، وكذلك خلفها المنصور ابن أبي عامر ، فأنفق ذلك كله هؤلاء السفهاء أمراء الطوائف بتصرفهم الذي يندر أن نجد له شبيهاً في حواريات الإسلام .

ويزيد الأمر غرابة غرور أولئك الأمراء ومحاولاتهم الظهور بمظهر الملك مع بعدهم عن كل شارة من شاراته ، فالملظف بن الأفطس صاحب بطليوس عندما حدثه في أمر توحيد بلاد المسلمين ، قال كلمة كبيرة استعظمتها أهل العصر ، وهي أنه لو جاءني أبو بكر وعمر ونازعاني هذا الملك لقرعتهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يؤدي الجزية صاغراً لملك قشتالة .

والمعتمد بن عباد الذي خلف أباه المعتضد سنة ٤٦١ هـ - ١٠٦٩ م يُعتبر نموذجاً لذلك التناقض الغريب في أخلاق أولئك الناس ، فهو يؤدي الجزية إلى الملك النصراني ، ويستولي الملك النصراني منه على الحصون فلا يجرق على الاعتراض ، ولكنه يأبى أن يناقسه صاحب بطليوس على حصن صغير ويتحدث كأنه ملك عظيم ، وينفق بسخاء كأنه يملك مال قارون ويحيط نفسه بهالة من الشعراء يقولون فيه من الشعر ما لم يقله أحد في هارون الرشيد ، ويزعم أنه عربي أصيل ، ومع ذلك فهو يقتل وزيره ابن عمار بيده ، فلا زال يضربه بالطربيزين (الفأس) حتى مات ، وابن عمار هذا اسمه أبو بكر ، وهو من كبار شعراء عصر الطوائف ، رجل لا خلاق له ، بل لا يلمس الإنسان في تصرفه أثاراً من أخلاق أو كرامة ، فهو غادر كاذب ، ماجن مسرف في الخمر ، وهو لم يتردد في خيانة سيده وصاحبه المعتمد بن عباد ، لكي يصبح هو الآخر أميراً على بلده وهو مرسية ، ولم يزل يجري في غلوائه حتى قبض عليه عبادة وباعاه بيع الرقيق للمعتمد بن عباد ، فقتله

كما ذكرنا ، ومن غريب الأمر أن ذلك الرجل أبا بكر محمد بن عمار كان يقول
الشعر في سهولة يصعب تصوُّرها ، وإنه لو كان على شئ من الخلق لكان له
شان غير هذا الشان .

وقد تمكَّن بنو عباد من ضم قرطبة إلى إمارة إشبيلية ، وقضوا بذلك على دولة
بنى جهور فزال أمرهم جزاءً وفاقاً على ما اقترفوا في حق الأندلس من إلغاء الخلافة
طمعاً في الرياسة .

ويطول الأمر لو مضينا نتحدث عن بقية ملوك الطوائف قههم كثيرون ، وكلهم
على هذه الشاكلة خُلُقاً وتصرفاً ، ففي غرناطة مثلاً انفرد بالسلطان بنو زيري
ابن زاوي ، وأنشأ ماكسن بن زيري إمارة بربرية وخلفه عليها حفيده الأمير
أبو عبدالله الزيري وكان أميراً مستضعفاً لا شخصية له حتى عزله يوسف بن
تاشفين ونفاه إلى المغرب ، وفي منفاه كتب مذكراته وهي من الوثائق التاريخية
النادرة ، فهي مذكرات صريحة بسيطة تكشف لنا عن حقائق الحياة في داخل هذه
الإمارة البربرية ، ومنها نتبين سوء الحال وإسراف الجد وهو ماكسن بن زيري
في الشراب ، حتى كان لا يفيق كما يقول حفيده ، ومن خلال هذه المذكرات أيضاً
نرى سلطات نساء القصر واستبدادهن بالأمور .

ونذكر إلى جانب هذه الإمارة إمارة بنى صمادح أصحاب المرية وكانوا من
نفس طراز بنى عباد أناثية وتخاذلاً ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس وآخرهم
المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، وكان هذا الرجل من أكثر الناس تهافتاً على
ملوك النصارى ، فاشتد طمعهم فيه وأخذ ألفونسو السادس يدبر للاستيلاء على
بطليوس ، كما استولى على طليطلة ، وهما فقط فكر بنو الأفطس في أن يستعينوا
بالمرابطين على رغمهم .

تدخل المرابطين :

ولو أن الأمور تُركت على هذا النحو لضاع الأندلس كله قبل نهاية القرن
الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد شرعت نقوس ملوك النصارى إلى
بلاد المسلمين ، ومضى كل منهم يقتطع من أراضيهم ما يستطيع حتى كيار
فرسان النصارى من أمثال البرهانس والسيد القمبيطور تسلطوا على نواح من

بلاد الإسلام وسادوها وأذاقوا أهلها الويلات ، ومهما يقال في اهتمام ملوك الطوائف بالعلوم أو بالشعر ، فإن ذلك لا يغفر لهم ، وما الذي يستفيد الإسلام من عناية رجل مثل المعتمد بن عباد بالشعر ورعايته لشعراء أمجاد من أمثال ابن عمار وابن عبدون وابن خفاجة إذا كانت النتيجة أن بلاد الإسلام والعروبة نفسها ستضيع ، ولا يبقى فيها من يقرأ هذا الشعر؟!

كان عصراً أليماً حزيناً تصرف فيه أولو الأمر في الأندلس تصرفاً لا يتفق بحال على ما عُرف من عزة الأندلس أيام بنى أمية . ولقد كان تسلط أولئك الأمراء على رعاياهم والحاحهم عليهم بالمظالم والمغارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع ، لأن أهل القرى لم يعودوا يجدون من يحميهم فتركوا قراهم وتحصنوا داخل أسوار المدن ، ومعنى ذلك أنه عندما انتهى عصر ملوك الطوائف وأقبل المرابطون كان أمراء الطوائف قد أفقروا البلاد وأضعفوها وذهبوا برخائنها وضعفوا معظم أراضيها . ولم يكن تدخل المرابطين مصادفة ، فقد ذكرنا أن المتوكل بن الأفطس وجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالمرابطين وكان أمرهم قد استقر في المغرب الأقصى كله ، واتجه يوسف بن تاشفين إلى ضم المغرب الأوسط وهنا وصل وفد من فقهاء الأندلس مرسلاً من الأمراء يستغيث به ، وكانت نفس يوسف بن تاشفين مشرئبة إلى الجهاد ، فعبّر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الأول في ربيع الأول ٤٧٩هـ / يوليو ١٠٨٦م وانضمت إليه قوات من إشبيلية ومن غرناطة ، أما بنو الأفطس أصحاب بطليوس - وهم الذين كانوا مهددين رأساً - فلم يرسلوا معاونة كأنهم خافوا أن ينتزع المرابطون منهم البلاد ، وربما كان أحسنهم نفساً الأمير عبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، فقال في مذكراته المسماة بالتبيان : « ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس في جريشة ولقينا من كرمه وتحفّيه بما زادنا به رغبة ، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً عن أموالنا لفعلنا » .

وكانت وجهة يوسف بن تاشفين بطليوس ، وفي مروره بإشبيلية انضم إليه المعتمد بن عباد بقواته ، ثم اضطر المتوكل بن الأفطس إلى اللحاق بهم وتكاملت أعداد المسلمين وصدقت نيتهم على الجهاد بفضل قيادة يوسف بن تاشفين . وعندما سمع الفونسو السادس بأنباء نزول المرابطين رفع الحصار عن

سرقسطة ، وكاتيب ملك أرغون ، وهو سانشو بن راميروث وطلب نجدة من فرنسا وإيطاليا وسار في أعداد ضخمة وعلى مقدمته الفارس « البرهانس » .

وكان اللقاء في فحص الزلاقة قرب مدينة بطليوس ، في صباح الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م وكانت طلائع المسلمين بقيادة المعتمد بن عباد ، وقد أبلى هذا الرجل بلاءً جميلاً في تلك المعركة كفر به عن بعض ذنوبه ، ثم انقضت جموع المرابطين على قوات النصارى فأبادت معظمها ، وانتهى ذلك اليوم بنصر حاسم للمسلمين ، كانت نتيجته توقف تقدم النصارى وثبات حدود الإسلام على ما وجدها عليه يوسف بن تاشفين .

وقد عبر يوسف بن تاشفين مرة ثانية بعد ذلك ، وكانت وجهته حصناً يسمى لايبط Aledo وهنا تبين تخاذل أمراء الطوائف فاستقر رأيهم على عزلهم وذلك هو الذي حدث عندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في رجب ٤٨٢ هـ / سبتمبر ١٠٩٠ م فقد عزلهم يوسف بن تاشفين جميعاً ووحد بلاد الأندلس فيما عدا إمارة سرقسطة التي وجد يوسف بن تاشفين ألا يزعم أصحابها لأنهم محاصرون بالنصارى من كل ناحية ، وقد خاف أنه إذا فعل شيئاً أن يسلموا بلادهم للنصارى فتركهم على حالهم . وبذلك انتهى عهد الطوائف وبدأ عصر المرابطين في الأندلس .

جهاد المرابطين في الأندلس :

منذ أن كسب المرابطون موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م إلى زوال دولتهم الذي يُؤرّخ له عادة بسنة ٥٢٩ هـ / ١١٤٤ م وهي السنة التي توفي فيها تاشفين بن علي ثالث أمراء المرابطين عند وهران ، ظل المرابطون قائمين بالدفاع عن الإسلام في الجزيرة الأندلسية ، وعلى الرغم من مسئولياتهم الجسيمة في المغربين الأقصى والأوسط ، فإن الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم الرئيسي ، ففيه أنفقوا معظم أموالهم وفيه جاهدوا واستشهد خيرة رجالهم من أمثال أبي عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين يوسف بن

تاشفين الذى يعرف « بابن عائشة » أو ابن « تعيشت » ومعناه ابن عائشة ، لأن المرابطين كما ذكرنا ، كانوا ينسبون الرجال في أحيان كثيرة إلى أمهاتهم نظراً لأنهم كانوا يعدّون الزوجات وكل زوجة تريد أن تسمى ابنها محمداً أو عبد الله ، فكانوا يميّزون الابن عن أخيه بنسبته إلى أمه ، وأبو عبد الله هذا هو الذى تولى الجهاد في شرق الأندلس واشترك في معركة أقليمش سنة ٥٠٦ هـ ، وقد أصيب هذا الرجل في عينيه عقب وقعة عنيفة مع جيوش أرغون في موضع يسمى « البرد » Congost de Martorell سنة ٥٠٨ هـ ، وأبو محمد عبد الله بن قاطمة ، وهو الذى استنقذ بلنسية من يد النصارى بعد وفاة السيد القمبيطور بمعاونة قائد المرابطين مزدى ابن سلنكان في سنة ٤٩٥ هـ ، ثم غزا طليطلة وطلبيّة ، وتولى بلنسية وشرق الأندلس ، واشترك كذلك في معركة أقليمش ، وختم حياته عاملاً على إشبيلية حيث توفى سنة ٥١١ هـ وخلفه في الجهاد ابنه محمد بن مزدى بن سلنكان الذى تولى الجهاد في الأندلس زمناً طويلاً وفيه استشهد ، وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دفاعاً في سبيل الإسلام الأندلسي .

ومن سبب المصادفات أن القرن الهجري الخامس / الحادى عشر الميلادى حفل بالكبار من ملوك إسبانيا النصرانية ، الذين كرسوا أنفسهم لحرب المسلمين مستغلين فرصة ضعف ملوك الطوائف ، وما كسبوه من المسلمين نتيجة لسوء تصرف أولئك الأمراء من أمثال ألفونسو السادس ملك أرغون وهو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ثم انتصر عليه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة . وقد توفى هذا الملك بعد وقعة أقليمش التى سنذكرها فيما بعد بقليل ، وألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب (١١٠٤ - ١١٣٤ م) وهو الذى تغلب على سرقسطة وانتزعها من أيدي بنى هود سنة ١١١٨ م ، وقد سبق أن ذكرنا أن المرابطين تركوا سرقسطة لبنى هود ظناً منهم أنهم يحسّون الدفاع عنها ، وكذلك رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية وهو الذى استولى فيما بين سنتي ١١٤٨ - ١١٤٩ م على طرطوشة ولاردة ، وضفهما إلى بلاده ، ومع أن أولئك الملوك النصارى قد تضاعفت ثرواتهم وقواهم العسكرية واستعانوا بالبايوية وبلاد غرب أوروبا المسيحية ، إلا أن المرابطين عرفوا كيف يثبتون لهم ، ويوقفون التقدم

النصارى ، ولولاهم لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما ذكرنا .

وقد كسب المرابطون انتصارات كبرى فى الأندلس إلى جانب معركة الزلاقة ، نذكر من بينها معركة أقليش فى شوال ٥٠١ هـ / مايو ١١٠٨ م وقد استولوا فيها على شنتبرية القريبة من طليطلة ، ثم حاصروا حصن أقليش شرقى طليطلة وأرسل إليهم ألفونسو السادس جيشاً جعل فيه خيرة قواده حتى سميت المعركة بمعركة الأكناد السبعة ، وجعل فى الجيش ابنه الوحيد شانجو ولى العهد ، وقد انتصر الموحدون فى تلك المعركة وقتل فيها ولى العهد ، ولم يلبث ألفونسو السادس أن توفى متأثراً بفقد ولده فى أواخر سنة ٥٠٢ هـ / يونيه ١١٠٩ م .

وفى سنة ٥٠٣ هـ نجد جيشاً مرابطاً كبيراً يفز أراضى طليطلة للمرة الثانية ويستولى مرة أخرى على طليطلة .

وفى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م يتمكن المرابطون من استعادة الجزائر الشرقية وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وهى المعروفة بالبليار ، من رجال الجمهوريات الإيطالية وهى بيشة وجنوة الذين انضم إليهم رجال من كونتية برشلونة ، وكان الذى تولى استرجاع هذه الجزر هو صاحب البحر أى أمير البحر المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون الذى يعتبر من أبطال الجهاد الإسلاميين فى البحر فى عصرى المرابطين والموحدين . وكان استرجاع هذه الجزر ذا أثر بعيد فى مستقبل الأندلس كلها ، لأنها لو بقيت فى أيدي النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

ولا يمنع ذلك من القول بأنه دارت على المسلمين خلال ذلك العصر بعض الهزائم الأسيفة من أمثال وقعة « كتنده » (ربيع الأول ٥١٤ هـ / يونيه ١١٢٠ م) وقد كان يقود المسلمين فيها أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو على ابن يوسف ، وكتنده تقع فى حيز مدينة « داروقة » من أعمال سرقسطة ، وقد استشهد فيها من المسلمين ألفوف ، لأن الأندلسيين الذين خرجوا للجهاد مع المرابطين لم ينتظموا فى الصفوف وتسارعوا فى الهجوم على العدو فاختل مصاف الجيش فكانت الهزيمة ، وقد مات فيها نفر من كبار علماء الأندلس ، نذكر منهم أبا على الصدق المعروف بابن سكره (٤٥٢ / ٥١٤ هـ) وكان من أكبر علماء

الأندلس وقد ألف عنه ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاعي) كتاباً من أحسن الكتب وهو المعجم في أصحاب أبي علي الصدقي .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في الأندلس خلال العصر المرابطي ما وقع من خيانة نفر من المعاهدين من نصاري الأندلس للمسلمين واستدعائهم للملك الفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أرغون ، ومعاونته على اختراق بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب والعيش في نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وكانت نتيجة ذلك أن طلب الفقيه أبو الوليد بن رشد الفيلسوف إلى علي بن يوسف بضرورة اتخاذ قرار بشأن أولئك المعاهدين الذين كانوا سبباً في تلك الكارثة ، فنفى علي بن يوسف الكثيرين منهم إلى بلاد المغرب ، وقد بالغ بعض مؤرخي إسبانيا في الحملة على المرابطين لهذا السبب ولكن الحقيقة أن الذين نفوا كانوا عدداً قليلاً .

ونختتم هذا الكلام عن جهاد المرابطين في الأندلس بالكلام عن وقعة أقراغة جنوب غربي لاردة في الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ، وقد قاد المسلمين فيها أبو زكريا يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية ، والذي يعتبر من أكبر قادة المرابطين وهو جد بني غانية الذين قادوا فتنة كبيرة على الموحدين في الجزائر الشرقية وبلاد أفريقية ، وقد انتصر يحيى بن غانية في تلك المعركة على الفونسو المحارب نصراً كبيراً خلد ذكره وقفز به إلى الصفوف الأولى من صفوف قادة المرابطين .

نهاية المرابطين في الأندلس :

وبينما كان المرابطون ماضين في جهادهم ضد النصاري في الأندلس وعاملين على بناء المغرب الإسلامي ، قامت عليهم ثورة المصامدة يقودهم فيها محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين . وقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على المرابطين فيما أوردنا في تاريخ المغرب ، أن محمد بن تومرت قاد ضد المرابطين ثورة ظالمة ، وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم ، لأن هذه الفئة المجاهدة من المسلمين لم تكن تستحق هذا الانقلاب العنيف الذي قام به ابن تومرت عليهم ، فقصف عُمَرُ دولتهم وهي في عنفوان عملها وجهادها ، وأسوأ نتائج قيام محمد بن تومرت بهذه

الحملة على المرابطين هو أن الجهاد توقف في الأندلس ، وبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر ثلثو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين مثل بلنسية ، بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت سرقسطة في أيدي ألفونسو المحارب ملك أرغون سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، ثم سقطت المرية في يد رجال جنوة وبيشة سنة ٥٤٢هـ (وقد استعادها الموحدون بعد ذلك) ، وفي شوال سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٨م سقطت طرطوشة في يد رامون بيرتجير الرابع كونت قطالونية ، وفي العام التالي سقطت لاردة بخيانة أندلسي من الذين قاموا على المرابطين ، وهو محمد بن سعد بن مردنيش وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م وكان يعاونه في ذلك صهره إبراهيم بن هاشك وهذان الرجلان: ابن مردانيش وابن هاشك مسئولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام في شرق الأندلس في أواخر العصر المرابطي وخلال العصر الموحدى . وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين في ٢٧ رمضان ٥٣٧هـ / ١١٤٥م توالى سقوط العواصم الأندلسية في يد النصارى بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم في الأندلس .

وزاد مركز المرابطين تحرجاً في الأندلس قيام نفر من رؤساء النواحي في الأندلس بالثورة عليهم منتهزين فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين . ومن أكبر التأثيرين عليهم الذين كان لهم أسوأ الأثر في مصير الأندلس هو القاضي ابن « حمدين » الذي قاد ثورة على المرابطين وطاردهم في قرطبة ، وابن قسى الذي فعل مثل ذلك بالفعل في بطليوس . والخلاصة أن المرابطين لقوا من أهل الأندلس شر الجزاء على ما فعلوا في سبيل إنقاذ الإسلام الأندلسي . وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئك الأندلسيين الذين لم يحسنوا الانتفاع بالفرصة التي أتيت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأندلس ، بل أخذوا يتندرون بهم ويتعالون عليهم حاسبين أنفسهم أعلى حضارة وأرقى جنساً من أولئك الأفارقة ، فكانت النتيجة أن أضاعوا أنفسهم وبلادهم ، لأن الموحدين عندما يخلقون المرابطين ويحلون محلهم في الجهاد في الأندلس لم يسدوا مسدّهم قط ، وفي أيامهم انتهزت خطوط الدفاع الأندلسي فلم يبق للمسلمين في الأندلس في نهاية عصر الموحدين إلا مملكة غرناطة .

الموحدون في الأندلس :

بعد أن تم للموحديين القضاء على المرابطين في شوال ٥٤١ هـ بمقتل أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، اتجهت همة عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحديين إلى ضم ما بقي للمسلمين في الأندلس إلى دولته ، وقد بدأ بذلك في وقت مبكر ، لأن الكثيرين من زعماء نواحي الأندلس عندما بلغهم خبر قيام الموحديين على المرابطين قاموا على المرابطين في نواحيهم كما ذكرنا . فكان ذلك دافعا لعبد المؤمن للعبور إلى الأندلس بعد أن تم له بسط سلطانه على نواحي المغرب الأقصى ، وبعد أن استطاع توحيد المغرب كله إلى قصبة وطرابلس سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م التي تسمى في المغرب بسنة الأخماس ، ففي نهاية تلك السنة عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس واستقر في إشبيلية وضم إلى ملكه ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادي الكبير وتبدأ في الغرب عند الأشبونة ، وتنتهي في الشرق عند مرسية .

وقد وضع عبد المؤمن بن علي نظاماً لا بأس به للدفاع عن الأندلس فجعل عاصمته قرطبة بعد أن كانت إشبيلية في أيام المرابطين ، وقد عاد الموحدون إلى إشبيلية بعد ذلك ، ولكن قرطبة اعتبرت المركز العسكري ، وأقام عبد المؤمن على قواعد الأندلس ولاية من رجال بيته الملقبين بالسادة والفرد سيد وهذا هو اللقب الذي كان يطلق على أفراد البيت الموحدى .

وقد تمكن عبد المؤمن بن علي قبل موته من توحيد معظم ما بقي من الأندلس تحت رايته ، ولم يخرج عن طاعته إلا بنو غانية الذين تولوا أمر « دانية » أولاً ، ولم يستطع الموحدون الاتفاق معهم فعبروا إلى الجزائر الشرقية وهناك قامت ثورتهم التي سيطول أمرها .

كذلك رفض الطاعة للموحديين محمد بن سعد بن مردانيش رئيس مرسية وصهر إبراهيم بن همشك وكانا يستعينان بالنصارى على المسلمين ولكن الموحديين تمكنوا من الانتصار على محمد بن سعد بن مردانيش في موقعة فحوص الجلاب مما أدى إلى انضمام بني مردانيش إلى الموحديين أيام أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحديين .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن بن علي انتـهـز ألفونسو أنريكي Alfonso Enrique ملك البرتغال الذي تسميه مراجعنا بابن الرنق الفرصة لكي يوسع ملكه على حساب المسلمين في غرب الأندلس ، وكانت إمارة البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة ، وكان أمراؤها يحاولون أن يوسعوا ملكهم ، وكان غرب الأندلس مجال توسعهم ، ولهذا فبينما كان شرق الأندلس هو ميدان النشاط الكبير للمجاهدين المرابطين ، كان غرب الأندلس مجال نشاط الموحدين في الأندلس ، ففي سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م حاول ألفونسو أنريكي الاستيلاء على الأشبونة فلم يستطع ، ولكنه استعان بنقر من الصليبيين الانجليز والالمان والهولنديين الذين كانوا ذاهبين للحرب في المشرق وأغراهم بمعاونته في الاستيلاء على قصر أبي دانس وشلب ، وقد تمكن الموحدون من استعادة شلب ، أما قصر أبي دانس وكانت من أكبر حصون الإسلام في الأندلس فلم تعد إلى الإسلام بعد ذلك ، وبعد ذلك بقليل استولى البرتغاليون على شنترين .

هنا تنبّه الموحدون إلى ضرورة القيام بعمل حاسم في الأندلس ، فاستقر رأي أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين على أن يقوم بعمل حاسم غرب الأندلس ، وبالفعل حاول سنة ٥٨٠ هـ أن يستعيد شنترين شمال شرقي لشبونة ، وكاد يستولى عليها لولا أنه أصيب بمرض مفاجئ فرفع الحصار ولم يلبث أن توفي في ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / يوليو ١١٨٤ م وخلفه أكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب الذي تلقب بالمنصور ، والذي يعتبر أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي .

وقد قرر هذا الخليفة الموحدي أن يقوم بحملة كبرى على الأندلس ، فعبر سنة ٥٨٦ هـ واستعاد شلب ، وحاول استعادة قصر أبي دانس ثم عاد إلى إشبيلية ، وفي سنة ١١٥٧ م توفي ألفونسو السابع ملك قشتالة وبعد حرب أهلية على العرش تولى أمر مملكة قشتالة وليون ألفونسو الثامن الذي بدأ فعقد صلحا مع الموحدين سنة ٥٨٦ هـ وعندما انتهت مدة هذا الصلح ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م بدأ بمهاجمة أراضي المسلمين فعبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس في جيش ضخم سنة ٥٩١ م وكانت وجهته الحقيقية طليطلة ، ولكن ألفونسو الثامن عجل بالمسير نحوه ، وكان أبو يوسف يعقوب قد احتشد احتشاداً عظيماً لتلك الحملة ، فأخذ معه خير مقاتلي

الموحدين وضم إليهم أحسن مقاتلي الأندلس ، وبعث في نفوس رجاله حماساً دينياً عظيماً ، وخافه ألفونسو الثامن ، فاستعان بالبابوية وبملوك إسبانيا النصرانية وسار في جيش ضخم من قلعة رباح ، وعسكر عند حصن يسمى الأرك في نهاية الطريق المؤدى من طليطلة إلى قرطبة ، وبدأت المعركة الحاسمة في التاسع من شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥ م وقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين ، حُصرت فيه صفوف الإسبان ، وتمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية ، وتعتبر هذه المعركة اختتاماً للمعركة الزلافة ، وكان لها أبعد الأثر في تثبيت جبهة الإسلام الأندلسي لمدة قرن كامل من الزمان على الأقل .

وبعد معركة الأرك عاد المنصور إلى إشبيلية وأخذ ينظم أمور الأندلس وشرع في إكمال مسجدها الجامع الذي اشتهر بمئذنته الباقية إلى اليوم وهي المعروفة بالدوارة أو الخيرالدة .

وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين الموحدين والنصارى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ولكن ألفونسو الثامن ما كان ليستكت على تلك الهزيمة ، فأخذ يعد العدة للقاء ثانٍ مع الموحدين ، وبدأ في ذلك سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أي قبل انتهاء أجل الهدنة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد تولى في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله ولم تكن له كفاءة أبيه ، وعرف ذلك ألفونسو الثامن فقرر أن يستفيد من تلك الفرصة ، وجمع جيشاً ضخماً وسار قاصداً بلاد المسلمين . وعبر أبو عبد الله محمد الناصر خليفة الموحدين في ذي الحجة سنة ٥٠٧ هـ / ١٢١١ م واتجه نحو بلدة « شلبطرة » فاستولى عليها سنة ٦٠٨ هـ وكانت تقع جنوب قلعة رباح إلى الشمال الشرقي من قرطبة .

وقد خاف ألفونسو الثامن من أن يُمنى بهزيمة ثانية ، فاستجاش بالبابوية وبملوك غرب أوروبا واستنصر أهل إسبانيا النصرانية فجمع جيشاً ضخماً سار للقاء المسلمين به ، وعجل محمد الناصر فجمع جيشاً حافلاً وسار به إلى الأندلس فنزل إشبيلية ، ومن هناك اتجه إلى جيا في ثم صعد شمال الوادي الكبير وعسكر في سهل كثير التلال الصغيرة التي تسمى بالعقاب (جمع عقبة) وأقبل النصارى فعسكروا على هضبة عالية تعرف بهضبة الملك مشرفة على معسكر المسلمين .

وقبيل اللقاء استولى النصارى على قلعة رباح من يد قائدها الأندلسى « أبو محمد بن قادس » وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر محمد الناصر سارع الناصر بقتله دون تحقيق ، فثارت نفوس الأندلسيين وأزمعوا الانخزال عن الجيش الإسلامى أثناء المعركة .

وحدث ذلك بالفعل ، ففي الخامس عشر من صفر ٦٠٩ هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢ م وقع اللقاء الحاسم ، وبعد قليل من الصراع انخزل الأندلسيون والعرب تاركين الجناح الشرقى من الجيش الإسلامى مكشوفاً ، فانتفض عليهم النصارى وأنزلوا بالمسلمين هزيمة قاصمة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس ، وكذلك حصدت في المعركة زهرة مقاتلي المغرب وبلغ من ثقل الخسارة أن ابن عذارى المراكشى المؤرخ يحدثنا أن الإنسان كان يجول في المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال .

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضعضعت جبهة الوادى الكبير وسقطت مدن كبرى مثل بياصة وأبدة وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادى الكبير ، وفي ظلال هذه الهزيمة ثوى محمد الناصر في شعبان سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م وبعد وفاته بدأ الخلاف المؤسف يدب في صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس ، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين في خلال بقية العصر الموحدى ولم تبق إلا مملكة غرناطة .

وفي كلامنا عن الموحدين في القسم الخاص بالمغرب من هذا الكتاب تكلمنا عن بقية تاريخ هذه الدولة في المغرب والأندلس ، ولهذا فإننا نتنقل الآن للكلام عن دولة بنى نصر المعروفين ببني الأحمر في غرناطة .



دولة بنى نصر أو بنى الأحمر في غرناطة

٦٢٦-٨٩٧ هـ / ١٢٣٢-١٤٩٢ م

بعد انصراف أبى الحلاء إدريس المأمون من الأندلس مصطحباً معه من بقى من كبار جند الموحدين في شبه الجزيرة ، بقيت الأندلس بدون حماية يحسب لها حساب ، ويرز في صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يتزعم ما بقى من المقاتلين في الأندلس لكي يقيم لنفسه دولة في هذا الجزء الباقي للمسلمين في الأندلس ، وكان قد اقتصر على نهر الوادي الكبير وما يقع جنوبه.

وأهم أولئك الزعماء بنو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود الجذامي الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيخ .

فأما بنو مردنيش فكان يمثلهم عدد من أحفاد محمد بن سعد بن مردنيش أكبرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردنيش ، الذي بدأ أمره كاتباً وقائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمر إلى أبى جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمام « خديمة الأول » ملك أرغون الذي استولى على بلنسية في صفر ٦٣٦ هـ / سبتمبر ١٢٣٨ م وأما مرسية التي كانت قد تحولت إلى وحدة سياسية قائمة بذاتها وسماها النصاري بمملكة مرسية ، فقد تولى أمرها رجل يسمى أبا بكر هزيم بن أبى مروان ابن خطاب الذي تلقب بضيء الدولة ، ولم تكن لدى هذا الرجل من القوة ما يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمر بسقوطها في يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

وبقى في الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامي بن هود الملقب بالمتوكل ، فحاول أن يجتمع حوله كل من وجد في جنوبى شبه الجزيرة من قرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصعد للضغط النصراني ، وأيده الناس في الأندلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ودخلت في طاعته مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وعدد آخر من صغار المدن والحصون ، ولو كان هذا الرجل على

شيء من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستطاع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصراني ، لأن الاتفاق الذي كان قد تم بين مملكتي قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى في موضع يسمى بالمرسى كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون في بلاد المسلمين ينبغي أن لا يتعدى مملكة بلنسية في شرق الأندلس ، وبقية شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كان ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد الغرب مما يلي قلمرية والأشبونة جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه .

وهذا الاتفاق — اتفاق بالمرسى — يدل على أن ملوك النصارى في شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام في الأندلس قد تلاشت ، وأن ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة أصبح لقمة سائغة للوك النصارى يتقاسمون فيهما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين في هذا التصور ، لأن المسلمين في الأندلس في نهاية العصر المرابطى أثبتوا بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التي كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلاداً عروبة وإسلام ، فاما وقد تراخوا وتدابروا على الوجه الذي رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذي يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعامة بلاد الأندلس ، وكان في يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجبان ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أرعن طائشاً ضعيف الخلق سريعاً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس في رجب ٦٢٥ هـ في موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكذ خبر بيعته ينتشر في الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمي ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذي كان يهدد بلاده ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوى أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه — كما قلنا — كان قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبيره في آن معاً ، فقد هاجم الأعداء واخترق صفوفهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم ولأوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أنجاد المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تملك إشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجاة سالماً » الملقب بعماد الدولة . وفي سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل في طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاية على هذه البلاد ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عليه ولاته ، وفي تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين : الشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكان في حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة شهراً حتى نفذت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية ، وفي تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامي بن هود يستنجدون به ، فأقبل في جيش عدته ثلاثون ألفاً ووقف عند أستجة وهابه فرناندو الثالث ، فلم يجرق على اقتحام البلد واستبشر أهلها خيراً ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود إنجاد عاصمة الأندلس الخالدة لفعل ، ولكن الذي حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية زاعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استنجد به ، وبذلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرجى في الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣ هـ / يونيو ١٢٣٦ م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذي ضن بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لجأ إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميبي ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكي يلم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميبي لنفسه ، وعندما دخل ابن هود قصره قتله الرميبي خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذي يستحقه جزاءً وغاقاً على ما تولى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة .

قيام دولة غرناطة :

وخلا الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعد بن عبادة رئيس الانصار ، نادى بنفسه رئيساً في قريته أرجونة على بعد ثلاثين كيلومتراً من جيان ، وتوافد عليه جنود الأندلس من كل ناحية ، فانتقل إلى بلدة جيان وأعلن نفسه أميراً على الأندلس واتسع ملكه ، فدخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها ، وكان بطبعه رجلاً جاداً مخلصاً حكيماً حسن التدبير ، فاجتمع حوله نفرٌ من خيرة الرجال أهمهم بيت من كبار الفرسان ، وهم بيت أبي الحسن علي بن أشقيلولة أصحاب جيان ومالقة ، وقد عاونوه معاونة كبيرة . وأحسن محمد بن يوسف بن نصر بآفته في حاجة إلى معقل يعتصم به لأن جيان مدينة مكشوفة ، فوقع اختياره على غرناطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا ، وفي أعلى الجبل كان يقوم حصن متين عُمّره وسكنه ياديس بن حيوس في أول عصر الطوائف ، فأتجه ابن نصر إلى ذلك الحصن ونزل في أخريات رمضان سنة ٦٢٥ هـ أسفل الجبل ، ثم دخل الحصن واستقر به وأخذ يرمم أسواره ويوسع سلطانه ، وتقاطر عليه الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم ما بقي للمسلمين من الأندلس ، وشيئاً فشيئاً يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانه ، فدخلت في طاعته بسطة وادي آش ومالقة والمرية ثم اضطر إلى التخلي عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل أنه لا مفر من أن يدخل في ولاء ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فأصبح من أتباعه خلال الفترة الأولى من قيام دولته وأصبح ملزماً بأن يقدم للملك قشتالة مساعدة عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك في المدن التي يرى عقدها فيها ، وبالفعل نجد أن محمد بن يوسف بن نصر يضطر بناء على المعاهدة التي وقعها مع ملك قشتالة في سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونة عسكرية اشتركت في استيلاء القشتاليين على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م وقد عوّض ابن الأحمر ذلك بالاستيلاء على طريقي الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ولم تحل سنة ١٢٥٥ م حتى كان ملكه في مملكة غرناطة قد استقر وثبت وازداد قوة بمن توافد على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التي سقطت في أيدي النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة في أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهاراً عظيماً نظراً إلى ما امتاز به من عقل وحكمة وحسن تدبير ، وما لقي من تأييد زعماء المسلمين وخاصة بني أشقيلولة الذين انفردوا بالسلطان في وادي آش وبعض الفواحي الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أما بقية بلاد المملكة من أمثال شريش وأركش وشذونة ونبريشة ولبلة والجزيرة الخضراء وجبل طارق ، فقد كانت كلها في طاعة ذلك الرجل الذي استطاع بحكمته وبعد نظره أن تعمر تلك المملكة الصغيرة التي قامت سنة ١٢٣٢ م بعد ذلك فوق القرنين ونصف ، فلم تسقط إلا في يناير سنة ١٤٩٢ م . وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية من آيات الله في السناجحة والسلام والجمهورية (أي حب الناس له) ، جندياً ثغرياً شهماً أبداً ، عظيم التجلّد ، رافضاً للدعة والراحة مؤثراً للنقش والاكثفاء باليسر متبلاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، مباشراً للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة » ، وتلك صفات جنديرة بأن تصل بصاحبها إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح في إقامة دولته .

حكم أبو عبد الله محمد بن نصر الذي تلقب بـ (الغالب بالله) في ٦٢٩ - ٦٧١ هـ / ١٢٢٢ - ١٢٧٣ م وتلك فترة طويلة مكنت له من أن يؤسس ملكه ويضع له الأسس التي مكنت له من القيام والثبات وسط العواصف التي أشرنا إليها ، وجدير بالذكر أن الذين طال عمرهم من ملوك غرناطة لم يزد عددهم على ثلاثة أولهم محمد بن نصر هذا ، وابنه محمد بن محمد الملقب بالفقيه ، وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الذي ستحدث عنه فيما بعد .

وقد قضى محمد بن نصر أيامه في تثبيت ملكه فأضاف إليه مالقة والمرية ولورقة ، وبعد وفاة فرناندو الأول سنة ١٢٥٢ م جدد العهد مع خليفته ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون الملقب بألفونسو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خلفه ابنه محمد بن محمد بن نصر المعروف بمحمد الثاني الفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) وقد كان هذا الرجل قريباً من أبيه في الصفات ولكن ظروفه كانت أسوأ ، لأن ألفونسو العاشر الذي تولى سنة ١٢٥٢ م كان رجلاً شديد الحماس الديني ، يريد أن يقضى على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة ، وقد تمكن محمد بن نصر الغالب بالله من تأكيد عهد الولاء معه ، فترك له السلطان على جبال رنّة وجبال البيرة أي على مملكة غرناطة بحدودها ، ولكن الخلاف وقع في عهد محمد الثاني بينه وبين بني أشقيلة أصحاب مالقة ووادي آش ، وقد انتصر عليهم بمعاونة فارس قشتالي يسمى فيليب دينونيو دي لارا ، كان بينه وبين ألفونسو العاشر خلاف ، وأحس محمد الثاني أنه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدها ، فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب إليه أن يعاونه بقوة عسكرية ، فعبر أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لكي يشترك في الجهاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات في مملكة غرناطة ، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ الغزاة وبعض ملوك غرناطة ، لأن بنى مرين أصبحت لهم مصالح في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أي أنهم دخلوا في منطقة النزاع على مصير الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع الفونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب ، وبالفعل قام الأسطول القشتالي بمهاجمة أصيلا على الساحل المغربي ثم احتل سبّطة بمعاونة قوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملوك بنى مرين وأحسوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرناطة فأصبح من شروطهم للاشتراك في القتال في الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر .

وفي أيام محمد الفقيه هذا بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم ، لأن كلاً من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وجنوة تنبّهت إلى أهمية ذلك الزقاق الذي يعد مفتاح البحر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظيمة ، فينفذ إلى المحيط الأطلسي والساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية . وكانت الأنظار قد بدأت تتطلع إلى ما وراء مياه بحر الظلمات ، وبالفعل نسمع أنه في ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاحين البندقيين يسمون آل فيفلدي التوغل في ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكرة استقرت في الأذهان على أي حال ، واشتد النزاع بين القوات التي ذكرناها على مصير بحر الزقاق .

وعلى الرغم من كفاية محمد الفقيه واجتهاده في المحافظة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التي هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاع المستميت فارس قشتالي يسمى الونسو بيريث دي قزمان الملقب بقزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعه مع بنى أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتالة على حليفهم وصهرهم وابن دينهم محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثر سيئ على مصر مملكة غرناطة ، وسنرى أن داء الخلاف هذا سيكون من أكد الأسباب في ضياع مملكة غرناطة ، فبعد بنى أشقيلولة سيقوم بنو سراج بنفس الدور المحزن وسيكون لذلك أثره في ضياع المملكة .

وقبل وفاة محمد الغالب بالله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م عاد ألفونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضي المسلمين طمعاً في الاستيلاء على مزيد منها ، فاستنجد محمد بن نصر الغالب بالله بأبي يوسف عبد الحق المريني المعروف بالمنصور سلطان بنى مرين ، فأرسل المنصور قوة من الزناتيين إلى جزيرة طريف في ذى الحجة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م أي بعد وفاة محمد الغالب بالله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطان بنفسه في السنة التالية ، والتقت قوات المسلمين التي تكونت من قوات غرناطة والمدد الذي جاءها من المرينيين ، ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة وليون في ١٥ ربيع الأول ٦٧٤ هـ / سبتمبر ١٢٧٥ م عند أسنجة جنوبي قرطبة ، وكان يقود النصراني القائد « دينوتيو دي لارا » الذي تسميه النصوص العربية باسم « دننه أو ذونونه » وقد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقاد مقدمة الجيش الإسلامي ولي عهد بنى مرين الأمير يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المريني ، وتحمس المسلمون حماساً عظيماً وخطبهم السلطان المريني ليزيد حماسهم ، فانقضوا على القوات النصرانية في حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم في موقعي الزلاقة والأرك على اختلاف في حجم القوات الإسلامية في كل من هذه المعارك ، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة شرّ ممزق وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها ، وأسرع الملك ألفونسو العاشر يطلب الصلح فأجيب إليه . وهذا يدل على أن قوة الإسلام في الأندلس كانت لا تزال قادرة على الدفاع عن نفسها ، وأنه لو أتاحت للمسلمين فرص اتحاد الصقوف والوعى إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يثبتوا لأعدائهم وأن يحافظوا على ما بقي لهم من أرض فيها .

وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة نُقدّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذي أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسس هذه المملكة فيما بقى للإسلام من أرض قليلة في شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التي مكنت لها من الصمود للضغط النصراني المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان في يلاء أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذي كسب موقعة استجة بالتعاون مع القوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه ، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التي حكمها (٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها ، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التخوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم ، مما أدى في النهاية إلى وقوع النفور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان في النهاية وبالأعلى مصير الإسلام في الأندلس ، ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهي أن أكثر ما أدى الإسلام في الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأة عليهم من أي خطر آخر .

وعندما توفى محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م ترك لابنه وخليفته أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع مملكة قوية زاهرة ، وإن أصاط بها الأعداء من كل جانب ، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين ، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذي حكم فيها بين سنتي ٧١٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ - ١٣٢٥ م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مدركاً لحقائق الوضع في مملكته الصغيرة ، وقد تمكن سياسيته من الحفاظ على أراضي بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً على معاونة

قوات بنى مرين التي كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مستمرة في بلاد
غرناطة للاشتراك في الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التي
سنحدث عنها بعد قليل .

وفي أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات
الإسلام في شبه الجزيرة ، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع في بلاد المسلمين من
جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له ، ولكنه لم يستطع لأن ابنه
شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، واستنجد ألفونسو العاشر
بالسلطان المرينى على ابنه ، وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى إلى
الأندلس ، والتقى مع ألفونسو العاشر بأحواز الصخرة في كورة تاكوروبيا قرب
رندة ، ورهن تاجه لديه ، بل قبل يده رجاء معاونته ، وقد أدى عمله هذا إلى نفور
زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا ألفونسو
العاشر سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م فانصرف بقية أيامه إلى الدراسة والبحث
والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية ، مما استحق به أن يسمى بالملك
ألفونسو العالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذي لجأ إلى السلطان المرينى كان
الابن وهو شانجو الرابع الذي تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعه
والانفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر في غزو أراضي المسلمين ،
ووقع ذلك في أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذي نتحدث عنه ، فتقدمت قوات
نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بتر و دون خوان
الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو ألفونسو الحادى عشر الذى خلّف أباه
شانجو الرابع واتضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة
وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفي مرجها في ٢٠ ربيع الثانى
٧١٨ هـ / مايو ١٣١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء ،
وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة نصراً يعدل انتصارهم الأول عند صخرة
«عباد» ، وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت
صفوفهم وصدقوا النية في الجهاد ، وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد في تثبيت

أركان مملكة غرناطة التي استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون
التي كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعد هذا النصر بقليل أُغْتِيل سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل سنة
٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة ، وإليه
يرجع الفضل في إقامة الكثير من منشآت الحمراء .

أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبي الوليد إسماعيل

٧٢٥ - ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده في المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذي مكن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصراني متزايد . وقد جاءت العلة الكبرى في اختلاف أقراد البيت النصري بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيوخ الغزاة .

مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر وسلطان المرينيين على أن تقام في أراضي غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للاشتراك في الجهاد ، وفي سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سمو بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكي تكون معابر ومراكز لهم في الأندلس لكي يستطيعوا مواصلة عملهم الديني الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو العلاء المريني ، وعندما توفي ذلك الرجل خلفه أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وفي أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها في مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة في الأمور الداخلية للمملكة وأيد بعض منافسي السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصري يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة في الأندلس ودخلوا في التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ، ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف في المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التي تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها .

وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة في لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية في أيام أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل الذي نتحدث عنه . فقد كان هذا الرجل - كما قلنا - واسع المطامع جَمّ النشاط ، وكان قد تولّى أمر بني مرين السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبي يعقوب المريني المشهور باسم أبي الحسن ، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع في المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال .

ففي جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ / أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين ، وانضمت إليهم قوات أخرى من الأراغونيين والبرتغاليين ، وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب . وقد اتّخذ في هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة ، ولكن النصر لم يحالف المسلمين في ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة في تاريخ الأندلس ، هي هزيمة طريف في ٧ جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائي بين الأندلس والمغرب .

وعلى أي حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل في أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة بقليل اتجه ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكان يستولى عليه لولا أن ألفونسو الحادي عشر تولى إنشاء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة في تلك المناسبة ، فقد كانوا يحاصرون القوات القشتالية المحاصرة ، فلما بلغهم موت الملك أخرجوا للقوات النصرانية لئنسحب حاملةً تابوت الملك الميت وحيثه تحية عسكرية .

وفي سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها . وكان ذلك في أيام أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله ، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم إلى ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، وفي أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب آخر العظماء من كتاب الأندلس ومفكره ، وقد دارت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب محن طويلة ، وكثير الشائرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستنجاء بالسلطان المريني ، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه ، ولكن الأمور لم تصف له قط . فقد دخل في صراع مرير وخطر مع بني سراج ، وكانوا من أكبر الأسرى في مملكة غرناطة ، وقد توفي ذلك الرجل قتيلاً على يد رجل قيل إنه مخبول في يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ / ١٩ أكتوبر ١٣٥٩ م . وإلى هذا الرجل محمد الغني بالله يُعزى الجانب الأكبر من منشآت قصور الحمراء ، فهو الذي أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف .

ومن أكبر الرجال الذين ظهروا في غرناطة في ذلك العصر : الحاجب أبو النعيم رضوان وأصله من أسرى القشتاليين من أسرة نبيلة شريفة ، ولكن ذلك الغلام شب مسلماً مجاهداً في سبيل الإسلام ، وكان من أعظم رجال الدولة ، وقد عاصره ابن الخطيب ، وهو يثنى عليه ثناء طويلاً ، وأمثال أبي النعيم رضوان كثيرون في تاريخ مملكة غرناطة ، وقد قتل هذا الرجل في فراشه إذ اغتاله بعض أعداء السلطان .

تدهور مملكة غرناطة :

وبعد محمد الغني بالله لم تعد غرناطة إلى سابق قوتها أبداً إذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب ، وكان كل منهم يستعين بمشرك قشتالة على إخوانه ، وفي كل معركة كان المسلمون يفقدون حصوناً وبلاداً ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكة في النهاية إلى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة وادي آش وما حولهما .

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها في أيام أبي الحجاج يوسف الثاني المتوفى سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م . فقد اشتد العداء بينه وبين بني سراج وانتهاز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة الزهراء المجاورة لغرناطة سنة ٨٠٩ هـ / ١٤١٧ م .

وبعد سقوط جبل طارق سنة ١٤٦٢ م على يد القائد رودريجو بونسي

ديليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أمل في أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً. وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م وهي السنة التي تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أرغون والمملكة إيزابيلا الثانية ملكة قشتالة ، وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت ككتلين تعملان على القضاء على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة : الأولى مملكة قشتالة وأرغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر في القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التي أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو في أراضى المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت في أيدي الإسبان إلى اليوم .

نهاية مملكة غرناطة :

في أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبي الحسن علي ، الذي يعرف باسم أبي عبد الله أو « بو أبدل » في النصوص النصرانية ، وكان والده أبو الحسن علي قد تزوج على زوجته الحرة عائشة ، زوجة نصرانية سميت « ثريا » وأبو عبد الله هذا هو ابنها ، وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء في عصره على حيازة العرش لأبنائهن ، وطال النزاع بين أبي عبد الله الذي ذكرناه ، وعمه أبي عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أي الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلا القضاء نهائياً على مملكة غرناطة ، فسارا لحصارها بقوات ضخمة ، وفي النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع ملكي قشتالة وليون في ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧هـ / نوفمبر ١٤٩١م أما دخول الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا مدينة غرناطة فكان في ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم في تاريخ الإسلام والغرب الأوربي ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن تقرر كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربية تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهي بوفاة ابن الخطيب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » يقص علينا أطرافاً من أخبار مأساة غرناطة في أيامها الأخيرة ، وكذلك عثرنا على نص كتاب « جنة الرضا في التسليم بما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم ، وكانت لدينا قبل ذلك أجزاء منه ، احتفظ بها المقرئ في « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين في غرناطة بكل حقوقهم ، وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سياسة الاضطهاد لمسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المدجنين أي المسلمين الذين دُجنوا في مواطنهم تحت حكم النصارى وقبِلوا حكمهم ، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرّة بعد أخرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩ م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلة إلى اليوم .

ولا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة ، فذلك تاريخ طويل تبدلت فيه الأحوال بالنسبة لمن بقى في شبه الجزيرة على إسلامه وخضع للنصارى ، وهؤلاء هم المدجنون ومن تنصّر منهم تنصّراً ظاهرياً أو حقيقياً ، وهؤلاء هم المورسكيون ، وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستوى الرقيق والأقنان وأصابهم الاضطهاد والإذلال ، وثاروا مرة بعد أخرى حتى صدر قرار إخراج بقاياهم من شبه الجزيرة سنة ١٦٠٩ م كما قلنا ، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه المسمى « نهاية الأندلس » ، « وتاريخ العرب المتنصرين » وهو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقد اعتمد فيه أساساً على مراجع كثيرة بعضها إسباني وبعضها برتغالي ، ولكن مقولة الأكبر على التاريخ الذي كتبه المؤرخ الإنجليزي « لى » عن تاريخ محاكم التفتيش في الأندلس .

موارد مختارة

(١) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس :

(عند البحث عن اسم يبدأ بلفظي ابن أو أبي أو أداة التعريف « ال » اترك هذه الثلاثة وابحث عن الاسم في أول الحروف بعد ذلك ، فابن أبي الخصال يوجد تحت حرف الخاء وهكذا) .

* ابن الأبار ، أبو عبد الله القضاعي :

— « المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدوق » ، القاهرة (١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م) .

— « الحلة السيرة » : تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة (١٩٦٣ م) .

* ابن الأثير الجزري (مجد الدين) :

— « جامع الأصول في أحاديث الرسول » ، تحقيق (عبد القادر الأرناؤوط) ، طبعة دمشق (١٣٨٩ - ١٣٩٢ هـ - ١٩٦٩ - ١٩٧٢) .

* الإدريسي : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، (روما ١٥٩٢ م) .

* أديب مغول (قيصر) : « الإسلام في الشرق الأقصى » ، ترجمة (د . نبيل صبحي) ، بيروت (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .

* الأزدي الحميدي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله) : « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .

* الأندلسي (علي بن سعيد) : « المغرب في حل المغرب » تحقيق (د . شوقي ضيف) ، القاهرة (١٩٦٤ م) .

* الأوسى المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري) « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » :

— السفر الأول (القسم الأول والثاني) تحقيق د . محمد بن شريفة ، بيروت .

- بقية السفر الرابع : تحقيق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٤ م) .
- السفر الخامس (القسم الأول والثاني) بيروت ، ١٩٦٥ م .
- السفر السادس ، : بيروت ، (١٩٧٢ م) .
- * الباجي (سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الوليد) : « نص أندلسي » ، ترجمة ودراسة بالإنجليزية (د . دتلوب) .
- * الباجي (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم) : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أثمة وجعلهم الوارثين » تحقيق « د . عبد الهادي التازي » ، بيروت (١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م) .
- * بالنتيا (أنخل جنثالث) : « تاريخ الفكر الأندلسي » ، ترجمه عن الإسبانية (د . حسين مؤنس) ، القاهرة (١٩٥٥) .
- * بروقنسال (ليفي) : « الإسلام في المغرب والأندلس » ، ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - القاهرة (١٩٥٦ م) .
- * البكري ، أبو عبيد : « وصف أفريقية والمغرب » .
- * البلنسي ، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن حية الكلبى الأندلسي : « المطرب من أشعار أهل المغرب » ، تحقيق (إبراهيم الإبياري و د . حامد عبد المجيد و د . أحمد أحمد بدوي) القاهرة في (١٩٥٤ م) .
- * توينبى ، أرنولد : « الإسلام والغرب والمستقبل » ، ترجمة (د . نبيل صبحي) ، بيروت (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .
- * الجربى ، محمد أبو راس : « مؤنس الأحبة في أخبار جربة » ، تحقيق (محمد المرزوقى) ، تونس (١٩٦٠ م) .
- * ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد : « التلخيص لوجوه التلخيص » ، تحقيق (د . إحسان عباس) ، القاهرة (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) .
- « نقط العروس لابن حزم » ، تحقيق (د . شوقي ضيف) ، جامعة القاهرة (١٩٥١ م) .

— « طسوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم » ، تحقيق (حسن كامل الصيرفي) القاهرة (١٩٥٩ م) .

* د. حسين مؤنس : « رحلة الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٢ م) .

« السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » القاهرة (١٩٥٠ م) .

« المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، القاهرة (١٩٥١ م) .

* ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد : « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » .

— الجزء الثاني ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، بيروت ، (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) .

— قطعة من الجزء الثاني نشرها (ليفي بروفنسال) ، سنة (١٩٥٠ م) .

— الجزء (السفر) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم ٨٧ .

— جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر ، تحقيق (عبد الرحمن علي الحجى) ، بيروت : (١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) .

* ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني : « الإحاطة في أخبار غرناطة » ، تحقيق (محمد عبد الله عنان) القاهرة (١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م) .

— « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي) القاهرة .

— « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، تحقيق (د. محمد كمال شبانة) ، القاهرة .

— « روضة التعريف بالحب الشريف » ، تحقيق (محمد الكتاني) ، بيروت .

— « أعمال الأعلام » ، ثلاثة أجزاء :

الأول : لا يزال مخطوطا .

الثاني : نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » .

الثالث : نشر بعنوان « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني) المغرب (١٩٦٤ م) .

« ابن خاقان القتح ، « قلائد العقيان من محاسن الاعيان » تونس (١٢٨٦ هـ / ١٩٦٦ م) .

« ابن خلدون : « العير » بيروت (١٩٥٨ - ١٩٦٠ م) .

« ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » ، تحقيق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٨ م)

« الديباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى الأسيدى : « معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » ، تحقيق إبراهيم شيوخ ، القاهرة (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .

« ابن الدلاشى ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري : « نصوص عن الأندلس » تحقيق (د. عبد العزيز الأهواني) ، مدريد (١٩٦٥ م) .

« ابن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني : « المؤنس في أخبار إفريقية وتونس » ، تحقيق (محمد شمام) ، تونس (١٩٦٧ م) .

« ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم : « صلة الصلة » ، تحقيق (ليفي بروفنسال) ، الرباط (١٩٢٧ م) .

« ابن زيري ، عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس : « التبيان » ، تحقيق (ليفي بروفنسال) ، القاهرة (١٩٥٥ م) .

« سالم ، السيد عبد العزيز : « قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس » بيروت (١٩٧١ م) .

« السلمي ، أبو مروان عبد الملك بن حبيب : نص ، نشر ودراسة بالاسبانية . د. محمود علي مكي ، مدريد (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م) .

« شبانة ، محمد كمال : « يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة » القاهرة (١٩٦٩ م) .

« ابن صاعد ، أبو القاسم الأندلسي الطليطل بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد : « طبقات الأمم » ، القاهرة .

« طرخان ، إبراهيم علي : « المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .

« ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف : « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة (١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م) .

« ابن عميرة الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد : « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٧ م) .

« عنان ، محمد عبد الله : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، القاهرة (١٢٨٦ هـ / ١٩٦٦ م) .

- « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » ، القاهرة (١٩٨١ هـ / ١٩٦١ م) .

- « لسان الدين بن الخطيب » ، القاهرة (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .

« ابن عياض ، القاضي عياض بن موسى : « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ، تحقيق (د. أحمد بكير محمود) ، بيروت (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م) .

« الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله : « عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » ، تحقيق (عادل تويهض) بيروت (١٩٦٩ م) .

« الغرناطي ، محمد أيوب بن غالب : « فرحة الأنفس في أخبار الأندلس » ، تحقيق (د. لطفى عبد البديع) ، القاهرة (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م) .

« الغساني ، محمد بن عبد الوهاب : « رحلة الوزير في افتكك الأسير » ، المغرب (١٩٤١ م) .

« الفاسي ، علي بن أبي زرع : « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » ، الرباط (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) .

« ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد : « الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب » ، القاهرة (١٣٢٩ هـ) .

- ✽ **ابن القرضي** ، الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي : « تاريخ علماء الأندلس » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .
- ✽ **ابن القاضي** ، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي : « درة الحجال في أسماء الرجال » تحقيق (محمد الأحمدى أبو النور) ، القاهرة - تونس (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .
- ✽ **ابن القطان** ، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى « نظم الجمان » ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، الرباط .
- ✽ **القزويني** ، زكريا : « آثار البلاد وأخبار العباد » ، بيروت (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) .
- ✽ **ابن القوطية** ، أبو بكر محمد : « تاريخ افتتاح الأندلس » ، تحقيق (د. عبد الله أنيس الطباع) ، بيروت (١٩٥٧ م) .
- ✽ **القيرواني** ، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم « طبقات علماء أفريقيا وتونس » تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباقي ، تونس ١٩٦٨ .
- ✽ **القيرواني الخشني** ، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد : « قضاة قرطبة » ، القاهرة (١٩٦٦ م) .
- ✽ **ابن الكردبوس التوزري** ، أبو مروان عبد الملك : « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » ، نشر تحت عنوان : « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط » ، تحقيق (د. أحمد مختار العبادي) ، مدريد (١٩٧١ م) .
- ✽ **الكناني** ، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر : « كتاب أحكام السوق » ، تحقيق (د. محمود علي مكي) ، مدريد (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م) .
- ✽ **كنون** ، عبد الله : « أبو البقاء الرندي » ، طبعة مدريد (١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م) .
- ✽ **المالكي** : أبو بكر عبد الله : « رياض النفوس » ، تحقيق (د. حسين مؤنس) ، القاهرة (١٩٥٤ م) ، الجزء الأول .
- ✽ **المدني** ، أحمد توفيق : « المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا » ، تونس (١٣٦٥ هـ) .
- ✽ **المراكشي بن عذاري** ، أبو عبد الله محمد : « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » .

الأجزاء :

- الأول والثاني : تحقيق (كولان ليفي بروفنسال) ، باريس (١٩٤٨ م) .
- الثالث : تحقيق (ليفى بروفنسال) ، باريس (١٩٢٩ م) .
- الرابع : جمع وتعليق (د. إحسان عباس) ، بيروت (١٩٦٧ م) .
- القسم الثالث : نشر (امبرسى هويثى ميراندا ومساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتانى) : تطوان (١٩٦٠ م) .
- « المراكشى ، محيى الدين عبد الواحد بن على : « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، تحقيق (محمد سعيد العريان) ، القاهرة (١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- « المقرئ التلمسانى ، شهاب الدين أحمد بن محمد : « أزهار الرياض فى أخبار عياض » تحقيق (مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى) ، القاهرة (١٣٣٩ - ١٣٤١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م) .
- « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » تحقيق (د. احسان عباس) ، بيروت (١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) .
- « مكى ، محمود على : « وثائق تاريخية جديدة » ، مدريد (١٩٥٩ - ١٩٦٠ م) .
- « مدريد العربية » ، القاهرة .
- « المنذرى ، الحافظ : « مختصر صحيح مسلم » ، تحقيق (محمد ناصر الدين الألبانى) ، طبعة الكويت (١٢٨٨ هـ / ١٩٦٩ م) .
- « مؤلف مجهول : « أخبار مجموعة » ، مدريد (١٨٦٧) .
- « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » ، تحقيق (الفريد البستاتى) ، المغرب (١٩٤٠ م) .
- نشره (ليفى بروفنسال وغرسيه غومس) مدريد (١٩٥٠ م) .
- « الناصرى السلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » ، تحقيق ولدى المؤلف (جعفر ومحمد) ، الدار البيضاء (١٩٥٤ م) .
- « النباهى ، أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن : « المرتبة العليا فى من يستحق القضاء والفتيا » نشر (ليفى بروفنسال) ، القاهرة (١٩٤٨ م) .
- وثائق عربية غرناطية ، تحقيق (لويس سيكويدى لوثينا) ، مدريد (١٢٨٠ هـ / ١٩٦١ م) .

(ب) مراجع غير عربية

Amador de los Ríos y Villalto ,

Inscripciones Arabes de Cordoba, La Mezquita Aljama, Madrid
1879 - 1880 .

Asin Palacios, Miguel.

La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia, 2a ed. 1962.

A. Bell.

La Religion Musulmana en Berbérie, Vol. 1, 1938.

C. H. Bouquet, Alger , 2ème édition , 1946

M. Caudel, L'Afrique du Nord, Les Byzantins et les Berbers avant les in-
vasions, 1900.

E. Fagnan ,

Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger, 1924.

Brett, Michael,

Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the
light of some recent publications. Journal of African History, XIII,3
(1972) .

Conde, Antonio José,

Historia de España Musulmana, Madrid 1848.

b. Coni Gastambide,

La Historia de la Bula de Cruzada, Vitoria 1958.

Dozy, Reinhardt Peter -Ann,

Histoire des Musulmans d'Espagne. Nouvelle Edition par Levi Pro-
vencal Leyde , 1931 .

Recherches sur l' Histoire de la Litterature des Arabes d'Espagne
pendant le Moyen - Age, 3ème ed. 1881.

H. Fournel.

Les Berbers, 2 vol . Paris 1875 -1880.

E.C. Gautier,

Les Siècles Obscurs de l'Histoire du Maghreb, 2ème ed. Paris 1938.

Hady Roger Idris,

Initiation à la Tunisie; Paris 1950.

Huici Miranda, Ambrosio,

-Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid 1956.

- Historia Política del Imperio Almohade. 3 vols. Valencia 1956.
- José Antonio Maravall,
El Concepto de España en la Edad- Media, Madrid 1954.
- Julien, Charles- André,
Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquete Arabe a 1830,
2ème Edition par Roger Le Tourneau, Paris 1966.
- Justo Perez de Urbel,
Historia del Condado de Castilla, Madrid 1945.
- Lacarra, José Maria,
Historia de la Edad Media, Barcelona 1960.
- Levi Provencal,
- L'Espagne Musulmane au xé Siècle, Paris 1932.
- Histoire de l'Espagne Musulmane ;3 volumes, 2a ed, Paris 1948.
- Les Historiens de Chorfa, Paris -Larose 1922.
- F. Lot, Ch. Pfister et F.L. Ganshof,
Les Destinées de l'Empire d'Occident, de 395 á 888. (Histoire du
Moyen-Age de Glotz) tome I, Paris 1940, p. 233-253.
- Luis Gonzales de Azevedo
Histoire de Portugal, Lisboa, 1942-1944 .
- Marcais, George,
L' Architecture Musulmane d' Occident, Paris 1954.
- أبو زكريا ، كتاب للسير وأخبار الأئمة « الإباضية في المغرب » نشر قطعة منه مع
ترجمة فرنسية (ماسكراي) بعنوان
- Masqueray, Chronique d' Abou Zakaria (Livre de Beni Mzab)
Alger, 1878.
- Mercier, Ernest,
Histoire de l' Afrique Septentrionale, Paris 1981 .
- J. E. Martinez Fernando,
Jaime II de Aragon - Su Vida Familiar, Barcelona 1949.
- Menendez Pidal, Ramon,
La España del Cid, 2 vols. Madrid 1940.

Moreno, Manuel Gomez,

- Arte Arabe Espanol hasta los Almohades.

- Arte Mozarabe. Volumen III y IV de Historia Universal del Arte Hispanico, Madrid 1951 -1954.

Pellegrin A, Histoire de la Tunisie, Tunis 1948.

W. Piskorski,

Las Cortes de Castilla en el Periodo de tránsito de la Edad Media á la Moderna (1188 - 1520) Barcelona 1933.

E. Saavedra,

Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1892.

C. Sanchez Albornoz,

Espana un enigma historica, Buenos Aires, 1926.

Torres Balbas, Leopoldo,

Arte Califal (Historia de Espana dirigida por R. Menendez Pidal) tomo V , 2a ed. 1956.

Fr. Simonet,

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1904.

M. Torres, El Estado Visigotico.

Algunos datos sobre su formacion y principios fundamentales de su organizacion en Anuario Hist. Der. Espanol III, 1926 y p. 307-457.

Wansbrough, John,

On recomposing the islamic History of North Africa.

Journal of the Royal Asiatic Society.

أما التواريخ العامة لإسبانيا فكثيرة . أشرنا إليها في المدخل الجغرافي لتاريخ
الاندلس (ص ٢٤١ وما بعدها من ذلك الكتاب) ومعظم هذه الكتب تحمل عنوان :

Historia de Espana

Historia General de Espana

وأهمها ما ألفه

Ambrosio de Morales, Esteban de Garibay, F Juan de Mariana.

Alejandro Herculano, Antonio Alcalá Galiano, Modesto Lafuente,

Rafael Altamira, Ramon Menendez Pidal.

Antonio Ubieto, Juan Regla, José María Jover,

Introducción a La Historia de Espana, Barcelona 1963.

الفهارس العامة

- * فهرس الأعلام .
- * فهرس الأماكن والبلدان والجبال .
- * فهرس القبائل والطوائف والآل .
- * فهرس الكتب والمجلات .
- * الخرائط .
- * فهرس موضوعات الكتاب .

فهرس الأعلام



- أحمد بن محمد بن إلياس : ٣٦٨
أحمد بن محمد التلمساني المقرئ (ت : ٦٠٤ هـ) : ٢٤٧
أحمد بن محمد الرازي (ت : ٣٤٤ هـ) : ١٥
أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت : ٣٢٨ هـ) : ٣٣٩
أحمد بن محمد بن أبي عبده : ٢٩٤ ، ٢٥١
أحمد مختار العبادي : ٢٥٣
أحمد المستعين أبو جعفر : ٤٢٥
أحمد بن مسلمة : ٣٥٦
أحمد بن هود القنطري : ٤٢٥
أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي (ت : ٩٩ هـ) : ٢٥١ ، ٢٥٠
أحمد بن يعلى : ٣٦٨ - ٣٧٠
أحمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن نصر
الأخطل - غياث بن غوث
إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن الثاني (ت : ٢١٣ هـ) : ١٢٨
إدريس = محمد بن محمد
إدريس بن عبد الله بن الحسن (ت : ١٢٧ هـ) : ١٨٣ ، ١٢٨ ، ١٢٥
إدريس بن يعقوب أبي يوسف أبو العلاء المأمون (ت : ٢٢٩ هـ) : ٤٤١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٠
أدواكر : ٢٦٧
أراكة بنت لب بن قسي : ٣٦١
أراكة بنت القوتسو السادس : ٢١٧
أرجنبا (بنت عمر بن حفصون) : ٣٥٧
أودشير بن بايك : ١٣٥
أوديو الأول : ٣٦٣ ، ٢٥٦
أوديو الثاني : ٣٦٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١
أوديو الثالث : ٣٦٨ ، ٣٦٩
أوديو الرابع : ٣٧٠
أوطاس بن غيطشة : ٢٨٣
- أبن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر) : ٦٥٨ هـ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٤٣٥
إبراهيم الإيباري : ٢٤٩
إبراهيم بن أحمد الأغلبي (ت : ٢٨٩ هـ) : ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١
إبراهيم بن الأغلب (ت : ١٩٦ هـ) : ٨١ ، ٩٢
إبراهيم بن تاشفين بن علي أبو إسحاق (ت : ٥٤١ هـ) : ٤٣٧
إبراهيم بن تغوت : ١٨٤ ، ١٨٢
إبراهيم بن حجاج : ٣٥١
إبراهيم الطوطوش : ٢٨٤
إبراهيم (بن القاسم) الرقيق (ت : ٤٢٥ هـ) : ١٦
إبراهيم (بن أحمد) بن هشيك (ت : ٥٧٢ هـ) : ٢١٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
إبراهيم بن يوسف بن تاشفين : ٤٣٤ ، ٤٣٦
إبيج = إسماعيل الهزرجي أبو إبراهيم
أبن الأثير = علي بن محمد
إحسان عباس : ١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢
أحمد بن أبي عبدة أبو العباس : ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥
أحمد بن أبي محرز : ١٠٨
أحمد بن إبراهيم بن الزبير أبو جعفر (ت : ٧٠٨ هـ) : ٢٥١
أحمد بن إسحاق القرشي : ٣٦٧
أحمد بن بدر : ٣٧٨
أحمد بن برد أبو حفص (ت : ٤١٨ هـ) : ٤٠٧
أحمد بن جحاف أبو جعفر : ٤٢٣
أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١ هـ) : ٣٣١
أحمد بن خلكان : ٢٥٠
أحمد بن طولون (ت : ٢٧٠ هـ) : ٦٥ ، ٤٠٤

أرمنجول (كونت) : ٤١١	الفونسو التاسع : ٢٢٨
أرموجيو : ٣٦٥	الفونسو الثالث (الكبير) : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
أرنولد تويني : ٣٨٢	٢٥٧ ، ٢٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٣
إسحاق (بن إبراهيم) الموصلی (ت : ٢٣٥ هـ) : ٣٣٢	الفونسو الثامن : ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
إسحاق بن علي بن تاشفين (ت : ٥٤٢ هـ) : ٢١٤	الفونسو الثاني : ٣٢٣
إسحاق بن علي بن غانية : ٢٢٩	الفونسو الحادي عشر : ٤٤٩ ، ٤٥٢
إسحاق بن محمد بن غانية (ت : ٥٧٩ هـ) : ٢٢٥	الفونسو الخامس : ٢٥٦
إسحاق بن محمد القرشي : ٣٦٥	الفونسو الرابع : ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠
أسد بن الفسرات (ت : ٢١٣ هـ) : ١٠١ ، ٨٦	الفونسو السابع بن ريموند : ٢١٧ ، ٢٣٨
١٠٣ ، ١١٢ ، ٣٠٩	الفونسو السادس : ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢١٦
إسماعيل بن جعفر الصادق (ت : ١٤٣ هـ) : ١٣٦	٢١٨ ، ٢٤٣ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥
١٣٧	الفونسو العاشر : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩
إسماعيل بن عبيد الله : ٢٧٩	الفونسو القس : ٣٤٩
إسماعيل (بن محمد) أبو الطاهر المنصور (ت : ٣٤١ هـ) : ١٥٠ ، ١٤٩	الفونسو اثريكي : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤٣
إسماعيل بن محمد بن عباد (أبو القاسم) : ٤١٧	٤٣٨
٤٢٦	الفونسو بيريت دي قرمان : ٤٤٧
إسماعيل النصري أبو الوليد (ت : ٧٢٥ هـ) : ٤٥٠ ، ٤٤٩	إلياس بن حبيب : ٧٩
إسماعيل الهزرجي أبو إبراهيم أيج : ٢٢٠	امبروزيو اوتشي : ١٩
أشهب بن عبد العزيز (ت : ٢٠٤ هـ) : ٣٠٩	اميليو غرميه غومث : ٢٥٨
أم الأصبع : ٢٨٨	الأمين العباسي : ١٣٥
أصبغ بن وكيل (فرغوش) : ١٠٣	امية بن معاوية بن هشام : ٣٢٣
الأعرابي = سليمان بن يقطان الكلبي	امية بن واثلي : ١٨٤
الأغلب بن سالم بن عقال النعمي (ت : ١٥٠ هـ) : ٩٥ ، ٩٢ ، ٨١	أوتو (امبراطور) : ٣٧٣ ، ٣٨١
أفلق بن عبد الوهاب : ١١٩	أوتو الثاني : ٣٨٦
أكس لاشابل : ٣١٤	أودو (الدوق) : ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧
الأركون (مششرق) : ٢٥١	أوردونيو الأول : ٣٤٧
البرهانس : ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٣٠	الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو
٤٣٢	الأوسط = عبد الرحمن بن الحكم
الفارهانث = البرهانس	ابن أبيك الصفدي = خليل
الفريد البستاني : ١٨	ايت ايلان : ١٨٧
الفونسو : ٣١٢ ، ٣١٣	إيزابيلا : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٤٥٤
الفونسو الأول (المحارب) : ٢١٦ ، ٢٤٣ ، ٤٣٣	إيزيدور الباجي : ٢٥٥
٤٣٥ ، ٤٣٩	إيكاروس : ٣٣٥
	أيوب بن حبيب اللخمي : ٢٧٨ ، ٢٧٩
	اينيجوارستا : ٣١٣

ب

- باديس بن حبوس (ت : ١٦٥ هـ) : ٤٤٤
 باديس بن ماسكن بن زيري نصير الدولة (ت : ٤٠٦ هـ) : ١٦٥ ، ١٦٠ ، ١٥٤
 باديس بن المنصور بن الناصر : ١٧٣
 البارو القرطبي (قس) : ٣٢٥
 بتروس (زعيم) : ٣١٢
 بدر (مولى عبد الرحمن بن معاوية) : ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٣٠٤
 بدر بن أحمد : ٣٧٤ ، ٣٦٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥
 بدو شافيتا ساندرون : ٢٤٥
 بر بن قيس : ٢٨
 برمودة الثالث : ٤٢٦
 برمودة الثاني : ٣٩٧ ، ٢٥٦
 ابن بسم = أبو الحسن علي الششتري
 بسكوال دي جايانغوس : ١٥ ، ١٧ ، ٢٤٧
 بشار بن برد (ت : ١٦٧ هـ) : ٣٣٩
 بشر بن مروان : ٥٨
 ابن بشكوال = خلف بن عبد الملك أبو القاسم
 بطليوس : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٩٩ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٩
 ٤٣١ ، ٤٣٦
 بقى بن مخلد : ٣٣١
 بكر بن وائل : ٣٣٥
 أبو بكر بن أبيجيت (أبو يحيى) : ٢٢٠
 أبو بكر بن الجحد : ٢١٥
 أبو بكر الزبيدي : ٣٨٩
 أبو بكر بن الصحراوية : ٢٢٤
 أبو بكر الصديق (ت : ١٣ هـ) : ١١٧ ، ٤٢٩
 أبو بكر الصنهاجي (البيدق) : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
 أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء : ٢٤٥
 أبو بكر بن عمار : ٤١٨
 أبو بكر بن عمر الجدالي : ١٨٦ - ١٨٨
 أبو بكر بن عمار بن وائل بن لمونة : ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٠
 أبو بكر بن القبطورية : ٢١٥
 أبو بكر بن القوطية : ٣٨٩
 أبو بكر بن معارية القرشي : ٣٨٩
 أبو بكر بن هذيل : ٣٤٢
 البكري : ١٨١
 بلاجيوس : ٣١١
 بلاسك بوسكو : ٣٧٦
 بلاطة = بيلاتوس
 بلاي : ٣١٢
 بلج بن بشر الفشتيري : ٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
 بلكون بن زيري بن مناد أبو الفتوح (ت : ٣٧٤ هـ) : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ٣٩٦
 بلكون بن محمد بن حماد : ١٧٢
 أبو البهار بن زيري بن مناد : ١٥٩
 بهرام : ١١٦
 البهلول بن راشد : ٨٥ ، ٨٦
 البياسي = أبو محمد عبد الله
 البيدق = أبو بكر الصنهاجي
 بيرنجر رامون الأول : ٤٢٦
 بيلاتوس : ١٠١ ، ١٠٢
 بيلايو : ٣١١

ت

- تاشفين بن علي : ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٤٣٢
 تاشفين بن وائل بن لمونة : ١٨٤ ، ١٨٨
 تالميت بن صنهاجة : ١٨٤
 ترغوث بن ورتاش بن منصور : ١٨٤
 ابن تعيث = محمد بن يوسف بن تاشفين
 التلمساني = المقرئ
 تمام بن علقمة : ٢٩٩ ، ٣٠٠
 أبو تمام : ٣٣٩
 تميم بن المعز بن باديس : ١٥٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦
 تميم بن يوسف (المرايطي) : ١٩٩
 تميم بن يوسف بن تاشفين : ٤٣٣
 تود (ملكة) : ٣٣٦
 تيودور مومسن : ٢٥٦ ، ٢٥٧
 تيوفيلوس : ٣٣٦



ثعلبة بن سلامة العاملي : ٢٨٢
ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث : ٣٥٩
ثورينا (الأب) : ٢٥٧
ثيودوريال : ٢٢٧



الحافظ = عمرو بن بحر
ابن جبير : ٤٢٢
جرجير : ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٣
جرجوريوس = جرجير
جريدو بن أدلبرت : ٣٨١
جعدي بن عبد الغافر : ٣٥٢
جعفر (بن عثمان) المصطفى : ٣٨٩ - ٣٩١ ، ٤٠٢
جعفر بن علي بن حمدون الزناتي : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٣٩٦
جعفر بن عمر بن حفصون : ٣٥٧
جعفر بن فلاح : ١٥١
جعفر (بن يحيى) البرماني (ت : ١٨٧ هـ) : ١٢٧
أبو جعفر المنصور : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨
أبو جميل = زياد بن مدافع
جناديوس : ٣٧
جودو الصقلي : ١٤٧ ، ٣٩٠
جورج كولان : ١٩
جورج مارسيد : ١٥٦
جوهر الصقلي : ١٥١
جويلا : ٢٩
جياغوس : ١٨



أبو حاتم : ٨١ ، ٨٢
الحاكم بأمر الله = منصور بن نزار
أبو حامد الفراء = محمد بن محمد الطوسي
حباة بن زاوي بن زيري : ١٦٠
حبوس بن زاوي بن زيري : ١٦٠
حبوس بن ماكسن : ٣٧٠ ، ٤١٣

حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع : ٧٤ ، ٢٧٧
حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب : ٧٩
حبيب بن عمر بن سوادة : ٣٥٦
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١
أبو الحجاج = يوسف بن قادم
الحمر بن عبد الرحمن الثقفي : ٢٧٩ ، ٢٩٢
أبو حزم = علي بن أحمد بن حزم
أبو الحزم بن جهور : ٤١٥
الحسام بن ضرار الكلبي أبو الخطار : ٢٨٣ ، ٢٨٤
حسام الدولة المظفر : ٤٢٥
حسان بن أبي حبة : ٣٢٦ ، ٣٠٠
حسان بن التيمان الفسائي : ٤٧ - ٥٣ ، ٥٥ - ٥٩
٢٩٦ ، ٢٩٣ ، ١٠٨
حسدای بن إسحاق بن شيروت : ٣٦٩
الحسن بن حرب الكندي : ٩٣ ، ٩٦
الحسن بن علي بن نعيم بن المعز : ١٧٢
الحسن بن علي الزيري : ١٥٤
الحسن بن علي بن أبي طالب : ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥
الحسن بن علي بن الحسين : ١٣٦
الحسن بن علي الياسوزي أبو محمد (الوزير القاطم) : ١٦٧
الحسن القرطبي : ٣٧٦
الحسن بن كتون (ت : ٢٣٧ هـ) : ١٢٩ ، ١٣٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦
الحسين بن يحيى الأنصاري : ٣٠١ ، ٣٠٢
حفص بن البر : ٣٨٤
حفص بن عمر بن حفصون : ٣٥٧
أبو حفص عمر ابنتي (الهتاني) (ت : ٥٧١ هـ) : ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦
الحكم بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥
٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦
الحكم بن عبد الرحمن الناصر المستنصر (ت : ٣٦٦ هـ) : ١١٦ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨

خلف بن عبد الملك بن بشكوان (ت : ٥٧٨ هـ)

٢٦٠ ، ٢٥١

ابن خلكان = أحمد بن خلكان

خليل بن أبيك الصقدي (ت : ٧٦٤ هـ) : ٢٥٠

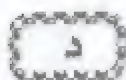
خوليان ربيرا : ٢٤٦ ، ١٨

خيحون : ٣١١ ، ٢٧٤

خيران : ٤١٣ ، ٤١٢

خير بن خزر : ١٨٢

خيمينيث غرسية : ٣٦٧



أبو دانس : ٤٣٨

داينماركه : ٣٣٦ ، ٣٢٣

داهيا بنت واهيا : ٤٨

داود بن محمد بن إدريس : ١٣٠

دندان : ١٣٩

دوذي = ربهناوت بيتر آن

دولاند : ٣٠٢

دولتديو (أسقف) : ٣٦٥

دون بتر : ٤٤٩

دون خوان : ٤٤٩

دي مونتروي : ٤٢٤

دينار أبو المهاجر (ت : ٩٣ هـ) : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥

٧٨ ، ٧٧

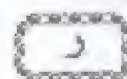
دينونيو دي لامرا : ٤٤٧

ديو سقوريدس : ٣٨٤



الذلفاء (أم عبد الملك المظفر) : ٤٠٧

ذو الرمة = غيلان بن عقبة



راشد (مولى إدريس بن عبد الله) : ١٢٦ ، ١٢٨

رامون برنخير الأول : ٤٢٨

رامون برنخير الرابع : ٤٣٣ ، ٤٣٦

رامون بوريل الثالث : ٤٠٦ ، ٤١١

رامون متددت بيدال : ٢٥٧ ، ٢٥٩

٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١٦

٤١٩ ، ٤٢١

حلاوة (جارية جليقية) : ٣٢٢

الحلواني : ١٣٩

حماد بن يوسف بن بلكين بن زيري : ١٦٠ ، ١٦١

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤

حمامة المسجد = غوص بن أنطيان

حمدان قرمط : ١٤٤

ابن حمدين (القاضي) : ٤٣٦

حمزة بن محمد بن إدريس : ١٣٠

الحميدى = محمد بن قنوح بن عبد الله

حنش بن عبد الله الصنعاني : ٢٧٢ ، ٢٧٣

حنظلة بن صفوان الكلبي : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ٨٧

٨٩ ، ١٠٨ ، ٢٨٣

أبو حنيفة = النعمان بن ثابت

أبو حنيفة = النعمان بن محمد الشيعي

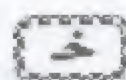
ابن الخواس : ١٧٢

ابن حوقل النصيبى : ١١٤ ، ١٦٣ ، ٣٧٧

حيان بن خلف بن صعب بن حيان أبو مروان (ت :

٤٦٩ هـ) : ١٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٦

٣٨٩



خالد بن حبيب : ٧٤

خالد بن الوليد : ٥٨ ، ٢٧٥

خالد بن يزيد : ٤٩ - ٥١

خالد بن يزيد الزناني : ٧٤

خاتمة الأول الكبير : ٢٤٣ ، ٤٤١

خزرون بن فلغل بن خزر الزناني : ١٥٧

ابن الخطيب المقرئ (ت : ٧٧٦ هـ) : ١٤ ، ١٦

١٥٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤٤٥

٤٥٣ ، ٤٥٤

ابن خفاجة : ٤٣١

ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون (ت : ٨٠٨ هـ) :

١٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٥٠ ، ١٣٠ ، ١٣١

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠

١٧٧

راميرو الأول بن الفونسو الثاني : ٣٢٣ ، ٤٢٦

راميرو الثالث : ٣٦٧ ، ٣٦٨

راميرو الثاني (رذمير) : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣

٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩

راينهارت بيترا دوزي (ت : ١٣٠٠ هـ) : ١٧ ، ١٩

٢٤٧ ، ٣٠٤ ، ٣٨١

ربيع الأسقف : ٣٨٩

الربيع بن سليمان : ١٣١

ربيعه بن عامر بن صمصمة : ١٦٧

رودريجو ديات دي بيار : ١٩٤ ، ١٩٩

ابن رشد (محمد بن أحمد ، ت : ٥٩٥ هـ) : ٨

٢٣٥ ، ٤٣٥

ابن الرنق : ٢٢١ ، ٤٣٨

ابن روبن = محمد بن عبد العزيز

روجر الأول النورماندي : ١٧٢ ، ١٧٦

روح بن حاتم (بن قبيصة ، ت : ١٧٤ هـ) : ٨٧

رودريجو بونسي ديليون : ٤٥٣

ابن الرومي (علي بن العباس ، ت : ٢٨٢ هـ) :

٣٣٩

رياجورنا : ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٤٢٦

ريشيليو الألبيري : ٤٠٣

ريكاردو : ٢٦٧

ريكار فريدو (مطران) : ٣٢٦



زاولي بن زيري الصنهاجي : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢

٤١٣

الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين : ٢١٣

ابن الزبير = أحمد بن إبراهيم أبو جعفر

ابن أبي ذرع (علي بن عبد الله ، ت : ٧٤١ هـ) :

٢١

زوياب (علي بن نافع ، ت : ٢٣٠ هـ) : ٣٣٢

٣٣٤

أبو زكريا = يحيى بن غانية

الزناني خليفة : ١٦٩

زهير بن فيس (البلوي ، ت : ٧٦ هـ) : ٤٦ ، ٤٧

١٢٦ ، ٢٩٣

زياد بن أبيه (ت : ٥٣ هـ) : ٢٧

زياد بن عبد الرحمن (شبطون) : ٣١٠

زيادة الله الأول (بن إبراهيم بن الأغلب ، ت : ٢٢٣

هـ : ٩٨ - ١٠٦ - ١٠٣ - ١٠٦ - ١٠٨ - ١٠٩

١١٣

زيادة الله الثالث (بن أبي العباس أبو مضر) (ت :

٣٠٤ هـ) : ١١١ ، ١٤٣

زيان بن صدق بن يوسف أبو جميل (ت : ٦٣٧

هـ) : ٤٤١ ، ٤٤٣

زيري بن عطية الخزري المغراوي الزناني (ت : ٣٩١

هـ) : ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٣٩٦

زينب بنت إسحاق النفساوية (ت : ٤٦٤ هـ) :

١٨٨



سارة القوطية : ٢٤٩

سالدرا : ٢٧٣

سالم (مولى عبد الرحمن بن معاوية) : ٢٨٨

سالم بن هود أبو النجاة عماد الدولة : ٤٤٣

سام بيرو : ٢٥٦

سانجو الأول : ٤٢١

سانشو : ٤٢٠ ، ٤٢٢

سانشو اباركة : ٤٠٦

سانشو الأول : ٣٧٠

سانشو بولو : ٤٠٦

سانشو الثاني : ١٩٤

سانشو بن راميروت : ٤٣٢

سانشو غرسية : ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٦

سانشو بن الفونسو السادس : ٢١٨

سانشو الكبير : ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨

سانشيت اليوروتوث : ٢٤٦

سبستان (قس) : ٢٥٦

سحنون = عبد السلام بن سعيد

سعد بن عباد (ت : ١٤ هـ) : ٤٤٤

سعد بن أبي وقاص (ت : ٥٥ هـ) : ٢٧٥

سعدون الرعيني : ٣١٥

سعدون السرياني : ٣٤٨ ، ٣٨٠

السيد القمبيطور : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٤٢٢ .

٤٣٠ ، ٤٣٣

سيف الدولة بن هود : ٤٤٢



شارل مارنل : ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨

ابن شاعر الكندي محمد بن شاعر (ت : ٧٦٤ هـ) :

٢٥٠

الشاعر لله المدراوي (محمد بن القنبح) : ١٥٨

ابن الشالية : ٢٨٠

شاذي الرابع : ٤٤٩

شيطون = زياد بن عبد الرحمن

شارلمان : ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣

شعيا بن عبد الواحد : ٣٠١

شبلد براند : ٢٩٨

الشماخ = سليمان بن جرير

الشماخي (أحمد بن سعيد ، ت : ٦٢٨ هـ) : ١١٧

الشتريني = أبو الحسن علي بن بسام

شهر بن حوشب (ت : ١٠٠ هـ) : ١٣٩ ، ١٤٠

شهيد بن عيسى بن شهيد بن الواضح الأشجعي :

٢٩٩ ، ٣٠٠

صاحب الحمام = مخلد بن يزيد

صاحب القلعة = حماد (ابن عم المعز بن باديس)

صالح (بن طريف) البرغواطى (ت : ١٧٥ هـ) :

١٨٣

صالح بن علي : ١٩١

صالح بن منصور الحميري (ت : ١٣٠ هـ) : ٩٠

صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم أبو علي : ٢٠

٢١

صبيح (الشكنية) : ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

٤٠٢

الصفدي = خليل بن أبيك

أبو صفوان (حاكم النفر الأعلى) : ٣١٤

صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب ت : ٥٨٩

هـ) : ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

الصميل بن حاتم (ت : ١٤٢ هـ) : ٢٨٤ ، ٢٨٥

٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٩٨

أبو سعيد الجنابي : ١٤٤ ، ١٤٥

سعيد اليحصي (المطري) : ٣٠١

سعيد بن جودي : ٣٥١

سعيد بن الحداد أبو عثمان : ١١٢ ، ١٤٣

سعيد بن منذر : ٣٦٠

سعيد بن هذيل المولد : ٣٥٥

سعيد بن أبي هند : ٣١٠

أبو سعيد فرج : ٤٤٩

سفيان (داع اختاره شهر بن حوشب) : ١٣٩

سقوط البرغواطى : ١٩١

ابن سكرو = أبو علي الصفدي

سكن بن إبراهيم الكاتب : ٢٤٥

سلمة بن سعيد : ١١٥

أبو سلمة الخلال (وزير آل محمد) : ١٣٦

ابن السليم = محمد بن سعيد

سليم بن منصور : ١٣٥ ، ١٦٦

سليمان (عليه السلام) : ٢٧١

سليمان (عم الحكم بن هشام) : ٣١٤

سليمان (ابن عم محمد بن إدريس الثاني) : ٢٣٠

سليمان بن جرير : ١٢٧

سليمان بن عبد الرحمن الداخل : ٣٠٩ ، ٣١١

سليمان بن عبد الله : ١٢٥

سليمان بن عبد الملك الأموي (ت : ٩٩ هـ) : ٦٣

٦٤ ، ٧٠ ، ٢٤٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨

٢٩٩

سليمان بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

سليمان بن محمد بن هود الجذامي أبو أيوب (ت :

٤٣٨ هـ) : ٤٢٤

سليمان بن هشام المستعين : ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣

سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي : ٣٠١ ، ٣٠٢

سماحة بن عبد الرحمن بن مطرف : ٣٩٩

السمح بن مالك الخولاني (ت : ١٠٢ هـ) : ٢٨٠

٢٩٢

سنلريد (أسقف) : ٢٧١

سوار بن حمدون القيسي الحاربي (ت : ٢٧٧ هـ) :

٣٥٢ ، ٣٥١

ض

الضبي = أحمد بن يحيى بن أحمد

ضياء الدولة بن مشوط : ١٩١

ط

طارق بن زياد الوردنجومي (ت : ٦-٦ هـ) : ٥٤

٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥

٢٩٦

طالوت بن عبد الجبار : ٣٢٠

طاووس بن كيسان (ت : ١٠٦ هـ) : ٣٠٩

طرفة الصقلي : ٤٠٥

طروب (جارية عبد الرحمن) : ٣٣٨

طريف بن زوغة بن أبي مذك : ٦٣ ، ٣٦٩

ابن طفيل (محمد بن عبد الملك ، ت : ٥٨٩ هـ) : ٢٣٥

طوطة (أم أردنيو الثالث) : ٣٦٧ ، ٣٧٠

ع

العادل = أبو عبد الله محمد

عاصم بن جميل : ٧٩

عاصم بن زيد أبو الخثي : ٣١١

ابن عاصم : ٤٥٥

ابن عائشة = محمد بن يوسف بن تاشفين

عباد بن محمد بن إسماعيل أبو عمر الغنطي (ت : ٤٦١ هـ) : ٤٦٧ ، ٤٦٧

عباس بن عبد العزيز القرشي : ٣٤٧ ، ٣٥٤

عباس بن فرناس (ت : ٢٧٤ هـ) : ٣٣٤ ، ٣٣٥

أبو العباس بن إبراهيم بن الأغلب : ٩٩ ، ١٠٠

١٤٣

أبو العباس بن ذكوان : ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١٢

أبو العباس السفاح : ٤٠٤

أبو العباس عبد الله : ١٠٧

أبو العباس محمد بن الأغلب : ١٠٩

أبو العباس محمد بن أبي عقاب الأغلبي : ١٠٥

أبو العباس المخطوم : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦

عبد الأعلى بن السمع المعالي أبو الخطاب (ت : ٤٧٦ هـ)

١٤٤ هـ : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٦

١٨٣ ، ١٤٢

عبد الحفيظ شلي : ٢٤٩

عبد الحق المروني المتصور أبو يوسف : ٤٤٧ ، ٤٤٩

ابن عبد الحليم : ٢١

عبد الحميد بن غالم : ٢٩٩

عبد الحميد الكاتب (ت : ١٣٢ هـ) : ٣٣٩

عبد الرحمن الأمير : ٣٢٤

عبد الرحمن الثاني بن الحكم (ت : ٣٣٨ هـ) : ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

عبد الرحمن الثقفي : ٣١٢

عبد الرحمن بن حبيب القهري (ت : ١٦٢ هـ) : ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ٢٧٧

٢٨٨

عبد الرحمن بن رستم (ت : ١٧١ هـ) : ٧٢ ، ٧٩

٨٠ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

عبد الرحمن شنجول : ٤٠٦ ، ٤٠٨

عبد الرحمن (بن عبد الله) بن عبد الحكم (ت : ٢٥٧ هـ) : ١٦ ، ١٧ ، ٥٠

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ت : ١١٤ هـ) : ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧

عبد الرحمن علي الخبي : ٢٤٥

عبد الرحمن بن عمر بن حفصون : ٣٥٧

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت : ١٥٧ هـ) : ٨٥ ، ٣٠٩

عبد الرحمن بن القاسم (ت : ١٩١ هـ) : ٣٠٩

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لقبين الله (ت : ٣٥٠ هـ) : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ٢٤٣

٢٤٥ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٢

٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٦

٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩

عبد الرحمن بن سروان الحليقي : ٣٤٨ ، ٣٥٦

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٠

عبد الرحمن بن مطرف النجيب : ٣٩٧

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الداخل (ت : ٤٧٦ هـ)

عبد الله بن عمرو بن العاص (ت: ٦٥ هـ): ٣٥
 عبد الله بن غانم: ٨٦
 عبد الله بن فاطمة أبو محمد: ١٣٣
 عبد الله بن فروخ الفارسي (ت: ١٧٦ هـ): ٨٦
 عبد الله بن كليب: ٣٢٤
 عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص (ت: ٦٢٦ هـ): ٣٣٠
 عبد الله بن محمد الجلبلي: ٣٦٤
 عبد الله بن محمد بن أمريس: ١٣٠
 عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت: ٣٠٠ هـ): ٣٥١، ٣٥٠، ٣٢١
 عبد الله بن محمد بن غانية: ٢٢٥
 عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر (ت: ٤٠٣ هـ): ٤١١، ٢٥١، ٢٥٠، ٢٤٧، ٢٤٥
 عبد الله بن القطع (ت: ١٤٢ هـ): ٣٣٩
 عبد الله بن واسوس المكناسي: ٢٩٩
 عبد الله بن المهدي: ٣٧٢، ٣٧٠
 عبد الله بن ياسين الجزولي (ت: ٤٥٠ هـ): ١٤٢
 عبد الله بن يونس: ١٨٣، ١٨٦، ١٩٠، ٢٠٣، ٢١٠، ٢١٥
 أبو عبد الله محمد الثالث: ٣٧٦
 عبد الملك بن حبيب (ت: ٢٢٨ هـ): ٣٣١
 عبد الملك بن شهيد أبو مروان: ٣٩٩
 عبد الملك بن صاحب الصلاة أبو مروان: ٢٣٧
 عبد الملك بن قطن النهري (ت: ١٢٣ هـ): ٧٤
 عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت: ٨٦ هـ): ٢٥
 عبد الملك الراشدي = محمد بن محمد بن عبد الملك
 عبد الملك الظفر بن منصور: ٤٠٦، ٤١٥
 عبد المؤمن بن علي الكومي (ت: ٥٥٨ هـ): ١٧٤
 عبد الواحد بن عمر أبي حفص الهنتالي (ت: ٦١٨ هـ): ٢٣٠، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٦، ٢٣٨
 عبد الواحد بن (علي) الفراكشي (ت: ٦٤٧ هـ): ٢٥٤، ٢٠٦، ٢٠٥
 عبد الرحمن بن منصور المأمون: ٤٠٦
 أم عبد الرحمن بن معاوية: ٢٨٨
 عبد السلام بن سعيد (مجنون، ت: ٢٤٠ هـ): ٣٠٩، ١١٣، ١١٢
 عبد السلام بن عبد الله: ٢٩٩
 عبد العزيز الدوري: ٣١٥
 عبد العزيز بن عبد الرحمن منصور العامري (ت: ٤٥٢ هـ): ٤٢٢
 عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصري: ٢٨٨
 عبد العزيز بن مروان (ت: ٨٥ هـ): ٤٨، ٥٧، ٦٠
 سعيد العزيز بن موسى بن نصير (ت: ٥٧ هـ): ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٩١
 عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث: ٣٢٣، ٣٢٦
 ابن عبد الله النحائي: ٢٣١
 عبد الله الزبيري (الأسير): ٢٤٥، ٣١١، ٣٥٤، ٤١٨، ٤٣١
 عبد الله (عم الحكيم بن هشام): ٣١٤
 عبد الله (ابن عبد الرحمن الأوسط): ٣٣٨
 عبد الله بن إباح التميمي (٨٦ هـ): ١١٥، ٧٢
 عبد الله بن بازيم أبو محمد: ٤٢٧
 عبد الله بن أبي الجواد: ١١٣
 عبد الله بن خالد: ٢٨٨
 عبد الله بن خراسان: ٢١٩
 عبد الله بن الزبير (ت: ٧٢ هـ): ٤٧، ٤٦، ٣٥
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت: ٣٧ هـ): ٣٥
 عبد الله بن الفضالي: ٣٥٥
 عبد الله بن طاع الله الكومي: ٢٢٩
 عبد الله بن أبي حاتم: ٤٠٨
 عبد الله بن عبد المؤمن: ٢١٩
 عبد الله بن عبدويه بن الجارود: ٨٨، ٩٠
 عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت: ٧٢ هـ): ٣٥

١٥٠، ٢١٠، ٣٧٠، ٤٨٠، ٧٧٠، ٧٨٠

١٠٥، ١٠٨، ١٢٦، ٢٣٥، ٢٩٣، ٢٩٤

عكاشة بن أيوب القزاري : ٧٥

العلاء بن مغيث اليحصبي (ت : ١٤٦ هـ) : ٣٠١

ابن علقمة (محمد بن الحلف ، ت : ٥٠٩ هـ) : ٤٢٣

علي بن أحمد بن حزم (ت : ٤٥٦ هـ) : ٢٥١

٣١٨

علي بن أشقيلة أبو الحسن : ٤٤٤

علي بن إسحاق الشيريني (ت : ٥٤٢ هـ) : ٢٤٦

علي بن قيس بن المعز : ١٧٢

علي بن جعفر الاسكندراني : ٣٧٦

علي بن الحسين (زين العابدين ، ت : ٩٤ هـ) : ١٣٦

علي بن حميدون الزناني (ت : ٣٣٤ هـ) : ١٤٨

١٥٥

علي بن حمود (ت : ٤٠٨ هـ) : ٤١٣

علي بن رباح : ٢٧٢، ٢٧٣

علي بن عثمان المريني أبو الحسن (ت : ٧٥٢ هـ) :

٤٥٢

علي بن عمر بن إدريس (ت : ٧٠٠ هـ) : ١٣٠

١٣١

علي بن غانية : ٢٢٥، ٢٢٦

علي بن قانع = زوياب

علي بن محمد بن الأثير (ت : ٦٣٠ هـ) : ١٥٠

١٦، ٣٠٢

علي بن يحيى بن قيس (الصنهاجي ، ت : ٥١٥ هـ)

١٥٤

علي بن يوسف بن ناشق (ت : ٥٣٧ هـ) : ١٩٩

٢٠٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٥

أبو علي الصديقي (ابن سكرة) : ٤٣٤، ٤٣٥

عمر بن إبراهيم بن نرفوت : ١٨٢

عمر بن إدريس (ت : ٢٢٠ هـ) : ١٣١

عمر بن حفص (بن عثمان) بن قبيصة (ت : ١٥٤ هـ)

٨٧

عمر بن حفصون (ت : ٣٠٥ هـ) : ٣٤٩، ٣٥٣

٣٥٥، ٣٥٨، ٣٨٠

عمر بن الخطاب (ت : ٢٣ هـ) : ١١٧، ٤٢٩

عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١ هـ) : ٦٩، ٨١

٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٢

عبد الواحد بن مغيث الرومي : ٢٩٩، ٣٠٠

عبد الواحد بن يزيد الهواري (ت : ١٢٤ هـ) : ٧٥

عبد الوارث بن حبيب : ٧٩

عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت : ١٩٠ هـ)

١١٨، ١١٩

عبد (أم عبد الرحمن المنصور) : ٤٠٦

أبو عبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، ت :

٤٨٧ هـ) : ١٦

عبد الله بن الحبيب (ت : ١٢٣ هـ) : ٧٣، ٧٤

١٠٩

عبد الله بن زياد (ت : ٦٧ هـ) : ٦٧

عبد الله بن عثمان أبو عثمان : ٢٨٨

عبد الله (بن محمد) المهدي الفاطمي (ت : ٣٢٢ هـ)

١٤٣، ١٤٨

عبد الله بن محمد بن أبي عبيد : ٣٥١

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (ت : ١١٤ هـ) :

٢٩٧

أبو عبيدة بن الجراح (عامر بن عبد الله ، ت : ١٨ هـ)

٢٧٥

عثمان بن عبد المؤمن أبو سعيد : ٢١٧، ٢١٨

عثمان بن أبي نسعة : ٣١٢

عثمان بن عفان (ت : ٣٥ هـ) : ٣٥، ٣٧، ١١٦

عثمان بن أبي العلاء أبو سعيد المريني (ت : ٧٣٠ هـ)

٤٤٩، ٤٥١

أبو عثمان سعيد بن الحداد : ١١٢

ابن عذاري (محمد المراكشي ، ت : ١٧٢ هـ) : ١٤

١٦، ١٩، ٢٠، ١٤٧، ١٥٥، ١٨٤، ١٨٥

٢٤٩، ٣٠٥، ٣٣٠، ٣٥٢، ٣٧٦، ٣٧٧

٣٧٩، ٤٤٠

عذرة بن عبد الله الفهري : ٢٩٤

العزير بالله الفاطمي (نزار بن معد ، ت : ٣٨٦ هـ) :

١٤٤، ١٦٥، ١٦٧

عزيز بن أبي مروان خطاب : ٤٤١

العزير بن المنصور (ت : ٥٤٠ هـ) : ١٧٣

ابن عطاء الأزدي : ٣٥٥

عقبة بن الحجاج السلولي (ت : ١٢٣ هـ) : ٢٩٨

عقبة بن نافع (بن عبد قيس) الفهري (ت : ٦٣ هـ) :

عمر بن عبد الله (عمر أرتاج، ت: ١٥٤ هـ): ٢٢٠
عمر بن قبيصة أبو حفص المهلب: ١٠٧، ٨٢، ٨١
عمر بن محمد الأفطس المتوكل (ت: ٤٨٩ هـ):
٤٣٠

عمر بن وائل بن ثنونة: ١٨٤

عمرو بن مجالد الربيع: ٩٦

عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ): ٣٣٩

عمرو بن العاص (ت: ٤٣ هـ): ٣٥، ٣٤، ١٥

٢٧٥، ٦٦، ٥١، ٣٨

عمروس: ٣٢٠

عنبر: ٤١٢

عنبسة بن سحيم الكلبي (ت: ١٠٧ هـ): ٢٧٩

٢٩٣، ٢٩٢

عباض بن موسى اليمصبي (ت: ٥٤٤ هـ): ١٦

٢٤٩

عيسى بن أحمد بن محمد الرازي (ت: ٣٧٩ هـ)

٢٤٥، ١٥

عيسى بن الحسن بن أبي عبده: ٣٤٧، ٣٤٤

عيسى بن دينار (ت: ٢١٢ هـ): ٣٢٠، ١٠

٣٣١

عيسى بن سعيد بن القطاع (ت: ٣٩٧ هـ): ٤٠٥

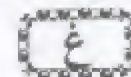
عيسى بن شهيد: ٣٣٩، ٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦

٣٧٩، ٣٤٤

عيسى بن محمد بن إدريس: ١٣٠

عيسى بن مكيون: ١١٢

عشون بن سليمان بن يقظان الأعرابي: ٢٠٢



غالب بن عبد الرحمن الناصري: ٣٦٩، ٣٦٨

٣٩٣، ٣٩٢، ٣٨٨، ٣٨٦، ٣٧٤

أبو غالب الأغلبي (إبراهيم بن عبد الله، ت: ٣٦ هـ)

١٠٤، ١٠٣

غرسية (ملك ناغار): ٣٤٦

غرسية سانشو الأول: ٤٢١، ٣٦٩

غرسية غومس: ٢٤٤

غرسية بن زنادت: ٣٩٧

غزوية بن يوسف: ١٤٧، ١٤٦، ١٤٣

غومس بن أنطيان: ٣٢٦

غيث بن غوث الأخطل (ت: ٩٠ هـ): ٣٣٩

غيطشة: ٣١٢، ٢٤٦

غيلان بن عقبة (ذو الرمة، ت: ١١٧ هـ): ٣٣٩



فاثق الصقلبي: ٣٩٠

فاطمة بنت محمد: ٣٠١، ١٤٥

فاطمة بنت محمد القهري (أم البنين، ت: ٢٦٥ هـ)

١٣٦

الفتح بن زنون (ذو النون، ت: ٣٠٣ هـ): ٣٥٤

٣٦١

الفتح بن دوناس (ت: ٤٥٧ هـ): ١٨٢

فرتون (أمير): ٣٥٩، ٢٧٤

أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين، ت: ٣٥٦ هـ)

٣٨٣

ابن الفرضي = عبد الله بن محمد بن يوسف

فرنان كونثال: ٣٦٨

فرناندو: ٤٥٤

فرناندو ثالث: ٣٦٩

فرناندو الأول: ٤٤٥، ٤٢٨، ٤٢٦

فرناندو الثالث القديس: ٤٤٤ - ٤٤١، ٢٣٤

فرناندو الثاني: ٢٢١

فرناندو الرابع: ٤٥٤

فرنسيسكو كوديرا: ٢٥٠

فرويل: ٣١٣

فرويل الثاني بن الفونسو الثالث: ٣٦٦، ٣٦١

الفضل بن روح بن حاتم (ت: ١٧٨ هـ): ٨٨

٩٠

فلفل بن سعيد المغراوي الزناتي: ١٦٥

فلورا (راعب): ٣٢٥

فلوريت (الأب): ٢٥٧، ٢٥٥

أبو فخر الأغلبي: ١٠٣

أبو الفهم الخراساني: ١٥٩

فليب الثاني: ٢٤٣

فليب الرابع: ٤٥٥

فليب دينويو دي لارا: ٤٤٥

ليما رانوربرت : ٣٦٢

ليمي (يوفيموس) : ١٠١ ، ١٠٢



القادر = يحيى حفيد المأمون بن ذي النون

قارون : ٤٢٩

قاسم بن أصبغ البياضي (ت : ٣٤٠ هـ) : ٣٨٤

القاسم بن حمود (ت : ٤٣١ هـ) : ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٧

القاسم بن محمد بن إدريس = الحسن بن كنون

القاسم بن الوليد : ٣٥٦

القائد بن حماد (بن بلكين الصنهاجي ، ت : ٤٤٦ هـ) : ١٧٢

ابن القبطونة = أبو بكر

قتيبة بن مسلم الباهلي (ت : ٩٦ هـ) : ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٤

ابن قتيبة الدينوري (أحمد بن عبد الله ، ت : ٣٢٢ هـ) : ١٧

القداح : ١٤٥

القرطاس = زيري بن عطية المقرابي

أبو قرة البقرني المقبلي الزناتي : ٧٧ ، ٨٩ ، ١٣٣

ابن قزمان (محمد بن عيسى ، ت : ٥٥٥ هـ) : ٣٤٠

قزمان الطيب : ٤٤٧

ابن القطان : ٢٠٥ ، ٢٠٦

قلندو : ٣٨١

ابن القوطية = محمد بن عمر أبو بكر

قوحس الأندلس = أرطياس بن خبطشة

قيس عيلان بن مضر : ١٦٦ ، ١٧٦



كافور الإخشيدى (بن عبد الله ، ت : ٣٥٧ هـ) : ١٤٩ ، ١٥١

الكالادى هنارس : ٢٧١

كريب بن خلدون : ٣٥١

كسيطة بن لزم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١٢٦

كلثوم بن عياض القشيري (ت : ١٢٣ هـ) : ٧٤

كنزة (جارية) : ١٢٨

كوفادونجا : ٢٤١ ، ٣١٢

كومبو ستيك : ٤٠٠

كينجاس دي أونيس : ٢٧٥



لاجاليا جونيكيا : ٢٩١

لافونسي الكاتارا : ١٧ ، ٢٤٦

لاماركا هيسانيكا : ٢٩٨ ، ٣٢٥

لب بن طريشة : ٣٥٩

ابن لبابة أبو عمر = محمد بن يحيى

اللبعياني = ابن عبد الله

لمريق : ٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١٢

لسان الدين = المقرئ

لوقا النودي : ٢٥٥

لويس النقي : ٣٢٢

لويس الثالث عشر : ٤٠٣

لويس ليندلي لنترا : ١٥

الليث بن سعد (ت : ١٧٥ هـ) : ٩٢ ، ٣٠٩

لغبي برونسال : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٣٨٢

لى (مؤرخ إنجليزي) : ٤٥٥



ماركوس ملر : ٢٥٢

مارية الليونية : ٣٦٤

ماسيسا : ٢٩

ماكسن بن زيري بن عطية : ٢٩ ، ١٦٠ ، ٤٣٠

مالك بن أنس (ت : ١٧٩ هـ) : ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠١

١١٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٨٧

المأمون العباسي : ١٣٥ ، ١٩٤

المأمون بن ذي النون (زنون) : ١٩٤ ، ٤١٦

المتوكل بن الأنطس : ١٩٦ ، ٤٣١

أبو المعاسن = يوسف بن تفرى بردى

ابن محرز : ١٠٦

محسن بن القائد بن حماد (ت : ٤٤٧ هـ) : ١٧٢

محسن بن ماكسن بن زيري : ١٦٠

محمد بن إبراهيم بن حجاج : ٣٥٦

محمد بن إبراهيم الكتاني : ٢٥٣	محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل : ٤٥٤
محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني (الأوسط) : ٣٢١	محمد بن سعيد بن السليم : ٣٧٩ ، ٣٨٠
محمد الأنقر عبد الرحمن أبو يحيى (ت : ٣١٨ هـ) : ٣٦١	محمد بن السليم : ٣٢٨
محمد بن أبي الحسن علي (أبو عبد الله) : ٤٥٤	محمد بن سليمان : ٦٥
محمد بن أبي حفص : ٢٢٩	محمد بن شريفة : ٢٥٢
محمد بن أبي شير : ٢٥١	محمد الطالبي : ١٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) : ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٩ : ٢٤٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢	محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٢٤٥ ، ٢٣٥
محمد بن أبي عقال الأغلي : ١٠٥	٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
محمد بن أحمد بن مفرج : ٣٨٩	٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
محمد بن إدريس الثاني : ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١	محمد بن عبد السلام بن بسيل : ٣٢٧
محمد بن أردبولش : ٣٥٥	محمد بن عبد العزيز أبي بكر بن روبش : ٤٢٢
محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية : ٢٢٥	محمد بن عبد الله : ٣٥٢
محمد بن إسماعيل بن عباد (أبو القاسم) : ٤١٧ ، ٤٢٧ ، ٤١٨	محمد عبد الله عنان : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤٥٥
محمد بن إسماعيل بن موسى : ٣٥٩	محمد بن عبد الله بن لب : ٣٦٥
محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الغني بالله : ٤٥٢ ، ٤٥٣	محمد بن عبد الوهاب الغساني : ١٧ ، ١٨
محمد بن أضحى الهمداني : ٣٥١ ، ٤٨٠	محمد بن عبد الله المهدي أبو القاسم : ١٤٤ ، ١٤٥
محمد بن الأشعث : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١١٥	١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٥
محمد بن الأغلب أبو العباس : ١٠٨	محمد بن عمار أبو بكر : ٤٢٩ ، ٤٣١
محمد بن أفلح أبو اليقظان (ت : ٢٣٨ هـ) : ١١٩	محمد بن عمر بن القوطية أبو بكر : ١٨ ، ٢٤٦
محمد الباقر : ١٣٧	٢٤٧
محمد بن تاوريت التطواني : ١٩	محمد الغالب بالله : ٤١٧
محمد بن تاوريت الطنجي : ٢٥١	محمد بن غانية : ٢٢٥
محمد بن تومرت (ت : ٥٢٤ هـ) : ١٩٩ ، ١٤٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	محمد الغني بالله : ٢٥٣
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠	محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت : ٤٨٨ هـ) : ٢٥٠
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨	محمد بن فخر : ٢٢٤
محمد بن الحسين : ٣٦٩	محمد بن القاسم الثقفي : ٤٨ ، ٦٤ ، ١٠١
محمد بن سعد بن مردئيش : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١	محمد القاضي (أبو عبد الله بن الأبار) : ٤٣٤
٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٤٤١	محمد بن لب بن قسي (ت : ٣٠٣ هـ) : ٣٦١
	محمد بن محمد الإدريسي (الجغرافي) : ١٠٥
	محمد بن محمد الطوسي الغزالي (ت : ٥٠٥ هـ) : ٢٠٣ ، ٢٠٤
	محمد بن محمد بن نصر (الثاني) = محمد الفقيه : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨
	محمد بن مردئيش بن سلتكان : ١٩٩ ، ٤٣٣
	محمد المسوفي : ٢٢٤
	محمد المعز بالله : ١٥٨

محمد بن مقاتل العكفي العباسي : ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥	ابن مزديلي أبو محمد : ٤٢٣
محمد بن ميمون أبو عبد الله : ٤٣٤	مزديلي بن سلتكان : ٤٣٣
محمد بن الناصر بن أبي يوسف : ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٤٤٠	المستعين بن هود : ٤٢٤
محمد بن نصر الأحمر : ٢٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦	المستنصر الفاطمي : ١٦٧
محمد بن نصر (الطالب بالله) : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨	المستنصر بالله الأموي : ١٥٨
محمد بن هشام = أبو يحيى : ٣٦١ ، ٣٦٨	المستنصر بن حزون : ١٧١
محمد بن هشام بن عبد الجبار : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٦	المستنصر = الحكم بن عبد الرحمن
محمد بن وضاح : ٣٣١	المستنصر = يوسف بن محمد الناصر
محمد بن يحيى القلظاظ : ٣٣٩	مسعود بن وانودين : ١٨٥
محمد بن يعلى الزناتى : ٤٠٨	أبو مسلم الخراساني : ٨٢
محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر (الشيخ) : ٤٤١	صلمة بن مخلد الأنصاري : ٤١ ، ٤٢
محمد بن يوسف بن تاشفين أبو عبد الله : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥	المسيح : ٢٦٧
محمد بن يوسف بن نصر الأحمر : ٤٤٣ ، ٤٤٤	عصالة بن حبوس الكتامي : ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٨٠
محمد بن يوسف بن هود الجذامي المتوكل : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣	٣٧٠ ، ٣٧١
محمد بن يوسف الوراق (ت : ٣٦٣ هـ) : ١٦ ، ٣٨٤	مصطفى السقا : ٢٤٩
أبو محمد البشير : ٢٠٩	أبو عضر زيادة الله الثالث : ١٤٣
أبو محمد الحفصي : ٢٢٩	مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب : ٢٣١ ، ٣٦٠
أبو محمد بن قادس : ٤٣٢ ، ٤٤٠	المطرف بن لب بن موسى القسوي : ١٦١ ، ٣٥٩
محمود صبح : ٢٤٥	مطرف بن منذر التجيبي : ٣٦٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٩
محمود علي مكي : ١٧ ، ١٨ ، ٢٤٥	مطروح بن سليمان بن يقظان الأعرابي : ٣٠٢
محيى الدين عبد الحميد : ٢٤٧	المظفر بن الأقطس : ٤١٧ ، ٤٢٩
محيى الدين بن عيسى : ٢٣٥	معارك النصري : ١٧
أبو المخلى = عاصم بن زيد	معاوية بن حديج السكوني : ٣٧ ، ٣٨
مخلد بن كبداد أبو يزيد : ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠	معاوية بن أبي سفيان : ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٨
مركاثور (الجغرافي) : ١٠٥	معاوية بن هشام الشبانسي : ٢٤٥
مروان بن الحكم : ٤٦ ، ٣٠٤	معاوية بن هشام بن عبد الملك : ٢٨٧
مروان بن عبد الملك : ٣٦٤	معاوية بن يزيد (الثاني) : ٤٦
مروان بن محمد الجمعدى (الأموي) : ٧٦ ، ٢٩٩	ابن المعتز : ٣٣٩
مروان بن موسى بن نصير : ٦١ ، ٦٣	المعتصم : ١١٣
أبو مروان بن أبي الفضال : ٢١٥	المعتضد : ٤١٧ ، ٤٢٩

٢٧١، ٢٦٨، ٢٤١، ٢٣٥، ١٣٣، ٧٨، ٧٧

٣١١، ٢٩٣، ٢٨٨، ٢٧٨، ٢٧٥

مؤقومة : ٢٩٥، ٢٩٤

ميسرة الفخير : ١٨٣، ٧٤، ٧٣

ميسور : ١٤٩



الناصر بن علتاس بن حماد : ١٧٦، ١٧٣

الناصر لدين الله = عبد الرحمن الناصر

نافع بن الأزرق : ٧١

نافع بن عبد القيس الفهري : ٣٨

نجدة الحيري : ٣٧٤، ٣٦٧

نصر (فتى عبد الرحمن الأوسط) : ٣٣٩، ٣٣٨

نصير الدولة = باديس بن أبي الفتح

النعمان بن ثابت أبو حنيفة (ت : ١٥٠ هـ) : ٨٣،

١٠١، ٨٦

النعمان بن محمد أبو حنيفة : ١٤٠، ١٤٤، ١٤٦

نقفور (لخوكاس) : ٣٧

نمرسيه ديناخره : ٤٢٦

أبو نواس (الحسن بن هاني، ت : ١٩٨ هـ) : ٣٣٦،

٣٣٩

النويختي : ١٣٧

نور الدين زنكي : ٢٢٦

النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت : ٧٣٣ هـ) :

١٦، ١٥



الهادي العباسي (ت : ١٧٠ هـ) : ١٢٥

هارون الرشيد (ت : ١٩٣ هـ) : ٨٥، ٨٨، ٩٠

٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٢٧، ٣١٥، ٣٣٢، ٤٢٩

هاشم بن عبد العزيز : ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٢

هاشم بن محمد النجيب : ٣٦١

هرثمة بن أعين : ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ١٠٨

هرقل : ٣٦

هشام الأول الرضي بن عبد الرحمن الداخل : ٢٩٩

٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣٣٠، ٣٨٩

٤٠١، ٤٠٢

هشام الثالث المعتد : ٤١٥

المعز بن بلكون الصنهاجي : ١٦٨

المعز لدين الله = معد أبو تميم

معنصر بن المعز بن زيري بن عطية : ١٩٠

معنصر بن محاد : ١٨٢

معتب الرومي : ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٨

المغيرة بن سونير : ٣٨١

المغيرة بن عبد الرحمن : ٣٩٠

المقتدر بن هود : ٤٢٨

مقدم بن معافي القبري : ٣٤١

المقري = أبو العباس أحمد : ١٤، ١٥

ملشور أنتونيا (الأب) : ٢٤٥

المنتصر بالله بن المتوكل علي الله : ١٣٥

المنذر بن عبد الرحمن الناصر : ٣٨٨

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٣٢١،

٣٤٧، ٣٥٠

المنذر بن يحيى النجيب : ٤١٣

المنجي الكمي : ١٦

منصور العزيزي : ١٤٧

المنصور المعان : ١٩١

المنصور بن زيري أبو الفتح : ١٦٥

المنصور الموحدى : ٢٣٢

المنصور بن الناصر بن علتاس : ١٧٣، ١٧٤

منصور بن نزار (ت : ٤١١ هـ) : ١٦٥

المنصور بن يوسف أبو الفتوح : ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩

١٦٥

منتدث بيدال = رامون منتدث بيدال

أبو المهاجر دينار = دينار

مهدي الموحدين = محمد بن تومرت

المهلب بن أبي صفرة : ٧١، ٨١

مؤمن بن سعيد : ٣٣٩، ٣٤٢

مؤنس بن يحيى الرياحي : ١٧٠

مورجات = مورقات (ملك) : ٣١٣

موريق = موريوس

موسى بن أبي العافية : ١٣١، ١٤٨، ١٨٠، ٣٧١

موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ١٣٦، ١٣٧

موسى بن موسى بن قسي : ٣٤٦

موسى بن نصير : ١٧، ٢٠، ٤٤، ٥٨، ٦٤، ٦٦

يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن ترشوت الجدالي
١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠،

٢١٥

يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر : ١٧٤

يحيى بن تميم بن المعز : ١٥٤

يحيى حفيد المأمون ذي النون : ١٩٤، ١٩٥

يحيى بن حريث : ٢٨٥

يحيى بن حكم الجياتي (الغزال) : ٣٣٥، ٣٣٦

٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٢

يحيى بن خلف : ٣٢٢

يحيى بن خليفة الملياني : ١٥٧

يحيى بن ذي النون (المأمون) : ٤١٩

يحيى بن سلام : ١١٢

يحيى سماحة = سماحة بن عبد الرحمن

يحيى بن عبد الله : ١٢٥

يحيى بن علي بن حمود : ٤١٧

يحيى بن غانية أبو زكريا (ت : ٥٤٣ هـ) : ٢٢٤،

٢٣١، ٢٣٥

يحيى بن القشح بن زنون : ٣٦١، ٣٦٦

يحيى بن محمد بن إدريس : ١٣٠

يحيى بن معين : ٣٣١

يحيى بن موسى بن زنون : ٣٦٦

يحيى بن الناصر أبو زكريا : ٢٣٤

يحيى بن يحيى بن عمر بن إدريس الثاني : ١٤٨

يحيى بن يحيى النيشي : ٣٢٠، ٣٣٠، ٣٣١

يزيد بن إلياس العيسى أبو خالد : ١٢٨

يزيد بن حاتم المهلب : ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩١، ١٠٨

يزيد بن أبي مسلم : ٧٠، ٧٢، ٢٧٩

يزيد بن معاوية : ٤٣، ٤٦

أبو يزيد = انظر مخلد بن كيداه

اليسع بن مدرار : ١٢٠، ١٤٤

يطوفت بن يوسف بن زيري : ١٥٩، ١٦٠

يعقوب المنصور أبو يوسف : ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٣٩

القديس يعقوب الخوارى : ٤٠٠، ٤٠١

أبو يعقوب يوسف (الموحدي) : ٢٣٦

يعقوب بن عبد الحق أبو يوسف : ٢٣٤، ٤٤٦

هشام الثاني المويدي : ١٥٩، ٣٩٠ - ٣٩٢، ٤٠٠

٤٠٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٧

هشام بن عبد الملك بن مروان (ت : ١٢٥ هـ) : ٥٩

٧١ - ٧٥، ٢٨٨، ٢٩٩، ٣٠٤، ٣٩٨

هلال بن عامر بن صعصعة : ١٦٦، ١٦٨

الهتاتي = أبو حفص عمر ابنتي

هنري فورنل : ١٥٦

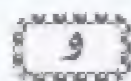
هوتو (ملك الصقالية) : ٣٨١

هوتو (ملك الفرنجة) : ٣٨١

الهيثم بن عبيد الكلاي : ٢٨، ٣١٢

هبروشوش : ٣٨٤

هبر كايه : ٣٨١



واضح العامري : ٤١، ٤١١، ٤١٢

واضح (مولى عبد الرحمن الناصر) : ٤٠٨

والحال بن لثونة : ١٨٤

وجاج بن زلو المظلي : ١٨٣، ١٨٤

أبو الوليد إسماعيل (النصرى) : ٤٤٨

الوليد بن عبد الملك : ٤٨، ٥٧، ٦٣، ٢٧٣، ٢٧٤

٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٠٤

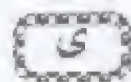
أبو الوليد بن الفرضي = عبد الله بن محمد بن

يوسف

أم الوليد : ٢٨٨

وليم الفاتح : ٣٢٤

وهب الله بن حزم : ٣٢٤



الباזורي = الحسن بن علي أبو محمد

يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي : ٢٢٩ - ٢٣١

يحيى الأول بن محمد : ١٣٠

يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني : ١٣١

يحيى الثاني : ١٣١

يحيى الرابع بن إدريس بن علي بن عمر بن إدريس :

١٣١، ٣٧١

يحيى الرياحي : ١٦٨

يحيى القادر بن ذي النون : ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣

أبو يعقوب = يوسف بن محمد الناصر	يوسف بن زيري = بلكين
اليقوي (الجغرافى) : ١٠٥، ٨٩، ١١٤	يوسف بن عبد الرحمن الشهرى : ٢٨٤، ٢٨٥،
يعيش (الحاج) : ٢١٨	٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٧، ٣١٣، ٣٩٨
يليان : ٤٤، ٦٠	يوسف بن عبد الرحمن النمرى أبو عمر : ١٥، ٢١،
يوحنا الجوزينسى : ٣٧٣	٢٤٥
يوحنا الشحشق : ٣٨٦	يوسف بن عبد المؤمن = حسداى بن إسحاق
يوحنا الكرزى : ٣٨١	يوسف بن قادس أبو الحجاج : ٢٣٣
يوحنا (أسقف) : ٣٨١	يوسف بن محمد الناصر أبو يعقوب : ٢٣٣
يوسف بن إسماعيل أبو الحجاج : ٤٤٢، ٤٥١،	يوسف بن نصر أبو الحجاج : ٤٥٢
٤٥٢	يوسف أبو يعقوب : ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،
يوسف بن بخت (ت : ٥٠٠ هـ) : ٢٨٨، ٢٨٩،	٤٣٧، ٤٣٨
٢٩٩	يوسف بن يوسف بن بخت : ٣٢٦، ٣٢٨
يوسف بن تاشفين : ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،	يوسف بن أبي يوسف عبد الحق المريش : ٤٤٧
١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩،	يونيبيوس : ١٠١
٢٠٠، ٢٠٣، ٢١٥، ٢٤٩، ٤٢٢، ٤٣٠،	يولوج (راغب) : ٣٢٥
٤٣١	يوليان : ٢٦٨، ٢٦٩

★★★

فهرس الأماكن والبلدان والجبال

٢٦٢ - ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ،

٣١٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ،

٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

٤٣٥ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٤ ،

أسنجة : ٣٥٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،

أسنكة : ٤٢٧ ،

الإسكندرية : ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٣٢٦ ،

اسكتيناوه : ٣٢٣ ،

أسكنة : ٤١٧ ،

أسمة : ٣٦٧ ،

اسهجون (دير) : ٣٦٧ ،

أشونة : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ،

٣٦٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ،

أشيلية : ٦٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ،

٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،

٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٣٠١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،

٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ،

٢٩٩ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،

٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ،

أشركة : ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ،

٤٢٠ ،

أشريس : ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،

أقليس : ٣٥٤ ،

البرت (جبال) : ٧٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

المرية : ٣٢٥ ، ٤١٣ ، ٤٣٦ ،

أماية (حصن) : ٢٤٢ ، ٢٧٤ ، ٣٦٢ ،

أمر (وادي) : ٢٩٨ ،

الأمون (حصن) : ٣٦٠ ،

إنجلترا : ٣٢٤ ، ٣٣٦ ،

أنطابلس (مدينة) : ٣١٠ ،

أنيسة : ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٩ ،

أوبورتو : ٣٦٢ ،

أوتان : ٢٩٢ ،



أبله : ٣٦٣ ،

أرل : ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٥٥ ،

أزمور : ٢٨ ، ١٣٠ ،

أش (وادي) : ٢٢٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ،

أبله : ٢٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦ ، ٤٤٠ ،

أبرو (نهر) وادي : ٢٤٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٩٤ ،

٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٨٦ ،

٤٢٤ ، ٤٢٥ ،

أبله : ٢٨١ ،

أنيون : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،

أبيط : ٢٧٥ ، ٣٦١ ، ٣١٢ ، ٤٢٠ ،

أبوض (وادي) : ٤٥ ،

أتنا (بركان) : ١٠٤ ،

اجداية : ١٥٧ ، ١٦٩ ،

أجرجت : ١٠٢ ،

الأريس : ١١٦ ، ١٤٣ ،

أربة : ٨٩ ،

أرجون (أرغون) : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ،

٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٦٦ ،

٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ،

٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ،

أرجونة : ٤٤٤ ،

الأرك (سوقمة) : ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٤٣٩ ، ٤٤٧ ،

أركش : ٤٤٥ ،

أوملاط (نهر ، وادي) : ٤٠٨ ، ٤١٠ ،

أرنيط : ٣٦٥ ،

أرغان (إقليم) : ١٢٤ ،

أزهر : ١٣١ ،

إسبانيا : ٧ ، ١٥ ، ١٧ ، ٧٣ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٢٥ ،

٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ،

أوفغست : ١٨١، ٦١	بيشتر (جبل) : ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٩
أودية : ٣٧٨	بشينة (مدينة) : ١٠٤
أوراس (جبال) : ٤٩، ٤٣، ٥١، ٥٥، ١٣٩	بجاية : ٩٠، ١٠٧، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٤، ٢١٨
١٤٢	البحر المتوسط : ٦٣
أوريسا : ٣٢، ٩٧، ١٨٩، ١٩٨، ٢٢٦، ٢٣٢	بحر الزقاق : ٢٦١، ٤٤٢
٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٠٧	البحرين : ١٦٧
٣١٠، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٤٧	البرانس (جبال) : ٧٣، ٢٦٤
٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٤٠٠	البرباط (وادي) : ٢٦٩، ٢٧٠
٤٠١، ٤٠٣، ٤١٨، ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٥٤	بريشتر (بلد) : ٤٢٤، ٤٢٥
أورخل (إمارة) : ٤١٢، ٤٢٨	برتقال : ٣١٣
أوريكة : ١٨٧	البرتغال : ٧، ١٩٦، ١٩٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦
أوسمه (مدينة) : ٣٨٦، ٣٦٥	٢٤٣، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٤٦
أوفيندو = أبيط	٣٤٨، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٩١، ٤١٩
أوكرانيا : ٢٦٥	٤٣٨، ٤٤٢، ٤٥٤
ألبيريا (جزيرة) : ٧، ٤٤، ٦٣، ٦٤، ٢٦١، ٢٦٣	بردال : ٢٩١، ٢٩٥
٢٦٤	بردو = بردال
إيران : ٤٨، ٥٥، ٦٤	برشلونة : ١٩٥، ٢٦٤، ٢٧٤، ٢٩١، ٢٩٢
أيرلنده : ٣٣٦	٣٠١، ٣١٥، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٠٦، ٤١١
أيره (وادي) : ٤١٢	٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٤
إيطاليا : ٢٣، ١٠٠، ١٠٦، ٢٦٧، ٣٨١، ٤٣٢	برغش (مدينة) : ٤٠١، ٤٢٠
أبغيران بطوف (قرية) : ٤٥	برغندية (إمارة) : ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٨
أيكنا (نهر) : ٣٦٥	برغواطة : ٧٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤
أيكجان : ١٤٥، ١٤١	١٨٠، ١٨٣، ١٩٠، ٢١٥
أيوب (قلعة) : ٣٤٥، ٣٦٧، ٤١٩، ٤٢٠	برقة : ١٤، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٨
	٤١، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٦٠
	٦٢، ١٣٣، ١٤٤، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٨
	١٦٩
باب السدة : ٣٠٦، ٣١٩، ٣٧٥	بروفنسا (مدينة) : ٣٨١
باب الشزوى : ٣٠٢	بريطانيا : ٣٠٢، ٤٢٤
باب عبد الجبار : ٣٠٦	بسكاي (خليج) : ٢٤٢، ٢٦٢، ٢٧٥، ٣١٢
باب القصر : ٣٧٥	بسكرة (واحة) : ٤٥
البايور (إقليم) : ٢٧	بسيط الهبط : ١٩١
باجة : ٢٧٣، ٣٠١، ٣٤٦	البصرة : ٥٨، ٧٩، ٨٧، ١١٦، ١٢٩، ١٤٤
بادريورن : ٣٠١	بصرة المغرب : ١٤٨
باريس : ٢٤٥، ٢٦١، ٢٩٣، ٢٩٥	بظلبوس : ٣٤٨
باغاية (حصن) : ٤٣	بغداد : ٨٦، ٩٢، ٩٣، ١٣٣، ٢٠٣، ٢٠٤
باكستان : ٦٤	٢٥١، ٢٨٨
بالمرسى : ٤٤٢	



بيزنطة : ٣٣٦
 بيشة : ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦
 تاجرة (قرية) : ٢٢٩ ، ٢١٢
 تاجه : ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٩ ، ٢٨٢
 ٣٦٤
 تادلة : ١٣٠
 تارودانت (مدينة) : ٢٨
 تازا (عمر) : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٠ ، ٢٩١
 ٢١٣
 تافيلالت (مجموعة واحات) : ٦١ ، ١٢٠ ، ١٢١
 ١٥١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥
 تاكرنا : ٢٣٤ ، ٤٢٧
 تاكوروينا : ٤٤٩
 تامسا : ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٨٤
 تاسيفيت (نهر - وادي) : ٢٨ ، ٤٥ ، ١٢٤ ، ١٨٠
 ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠٧
 تاهرت : ٢٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧
 ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٣٥٠
 ٣٥٧
 تاورغا : ٢٦ ، ٦٦ ، ١١٥
 تاويرت : ٥٥
 تبة : ٢٣٠
 تلمير : ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢
 ٣٦٦
 تسول : ١٣٠ ، ١٣١
 تشاد : ٢٣ ، ٥٤ ، ١٢١
 تطوان : ٦٠ ، ١٢٩ ، ٣٧١ ، ٣٨٨
 تطيلة : ٢٤٣ ، ٣٦٣ ، ٤٢٨
 تمر : ١٣٩
 تقي (مدينة) : ٣٦٦
 تكبروان : ٤١
 تل الرصافة : ٣٧٤
 تلمسان : ١٦ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٧
 ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣
 ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧

البلاط (طريق) : ٢٩٦ ، ٢٩٧
 بلاط الحر (طريق) : ٢٧٩
 بلاط الشهداء (موقعة) : ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠
 بلاط مغيث : ٢٧٩
 بلبونة : ٢٤٢
 بلنيرة : ٤٢٥
 البلدة : ٢٥٦ ، ٣٥٧
 بلرم : ١٠٢ - ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٧٢
 البلطيق (بحر) : ٣٣٦
 بلنسية : ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤
 ٢٤٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٤
 ٣٣٥ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥
 ٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
 بلي (حصن) : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤
 البليار (جزر) : ٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٣٢٥
 ٤٣٤
 بليارش : ٦٣
 ببلونة : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦ ، ٣٦١
 ٣٦٦ - ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦
 بتا بوليس (مدينة) : ٣١
 بتلاريا (جزر) : ١٠٠
 بتغازي : ٢٤ ، ٥٣
 بنه فراطه : ٣٥٥
 بوآيه : ٢٩٥ ، ٢٩٦
 بوجرج (نهر) : ٢٧
 بوجونيا (إقليم) : ٢٩٢
 بورده (مدينة) : ٢٩٥
 بولاق : ٢٤٧
 بوماريا (حصن قديم) : ٢٧
 البوت : ١٩٣
 بونة (رباط) : ٩٢
 بياسة : ٤٤٠
 بيت المقدس : ٣١٥
 بيرلت (بلدة) : ٣٦٦
 بيروت : ١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
 بيزاسيا (ولاية) : ٣٢
 البيان (إقليم) : ٢٧

حمص : ٢٨٣

الحنشل (حصن) : ٤٤٢ ، ٣٦٤

حيدران : ١٧١

حيدرة : ١٣٠



الحنلق (بحيرة) : ٣٨٠ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩

الحنلق (معركة) : ٣٧٤

خونكيرة (بلدة) : ٣٦٥

خيحون : ٣١١ ، ٢٧٥

خيرونا : ٢٩١



داروكة : ٤٣٤

الدار البيضاء : ٢٥٣

دانية : ٤٣٧ ، ٤١٢ ، ٤١١ ، ١٩٣

درعة : ٢٢٠ ، ٢١٦ ، ٢١٤ ، ١٩١ ، ١٨١ ، ٢٨

دون (جبال) : ٢١٣ ، ٤٤ ، ٢٥

دروكة : ٤٢٠

دسنيابروس : ٢٣٢

دكالة : ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٢٤

الدلتا (مصر) : ٢٤٦ ، ١٥٣

دمشق : ١٣٣ ، ٧٣ ، ٦٣ ، ٤٧ ، ٤١ ، ٣٧ ، ٢١

٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٧٤ ، ٢٦١

الدوردوني (نهر) : ٢٩٥

دوغنيه (إقليم) : ٢٩٨ ، ٢٩٧

الدويسو (نهر ، وادي) : ٢٦٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢١٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩

٣٨٦ ، ٣٩٥ ، ٤٠٣

ديجون : ٢٩٢

دير الجماجم : ٢٨٧



راديس (خليج) : ٥٧

رياح (قلعة) : ٤٤٠ ، ٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٢٣٣

رباط تازا : ١٨٠

رباط سوسة : ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٥

رباط الفتح : ٢٧٧ ، ٢٧

رباط المنستير : ١١٠

الرباط : ٢٥١ ، ٤٥ ، ٢٠

أم الربيع (قنطرة) : ١٠٨ ، ١٠٦

أم الربيع (وادي) : ١٨٠ ، ١٢٧ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٢٨

رجوسة (ميناء) : ١٠٤ ، ١٠٢

الرصافة (تل ، قصر) : ٣٨٧ ، ٣٧٤ ، ٣٠٦

رقادة (مدينة) : ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٦

الرقراق (وادي) : ١٢٤ ، ٤٥ ، ٢٧

رندة (جبال) : ٤٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٤٩

٤٤٩

رنشالة : ٣٠٢

روسيا : ٢٦٥ ، ٢٦٣

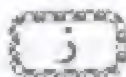
روما : ٢٨١ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧ ، ١٠٦

الرون (نهر) : ٢٤٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧

رياح (قبيلة) : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٤١٩ ، ٢٣٠

ريوخا (إقليم) : ٢٥٦

رية (كورة) : ٢٨٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠



الزاب (نهر ، بلاد) : ٢٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥

٧٦ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١١٩

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧

٢٣٠

الزاهرة (قصر) : ٣٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٦

لرهون (جبل) : ١٢٦

لقوان (جبل) : ٥٩

اللقاق (بحر) : ٢٦٣ ، ٤٤٦

الولاية : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤

٤٤٧ ، ٤٣٨

الزهراء (مدينة) : ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٦

٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤١٦ ، ٤٥٣

زواقة (بلاد) : ١٣٠

زويجنانيا (ولاية) : ٣٢

زويلة (مركز صحراوي) : ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ١٤٧

الزيتونة (مسجد) : ١٠٦ ، ١٠٨

طرابلس: ٢٨، ٣٤، ٣٢، ٣١، ٢٦، ٢٤، ١٤
٧٥، ٦٢، ٦١، ٥٥، ٥٤، ٥٢، ٤٩، ٤٧
١١٤، ١٠٨، ١٠٧، ٨٩، ٨٧، ٨٠، ٧٩
١٥٢، ١٤٤، ١٢٢، ١٢٠، ١١٩، ١١٥
١٧٢، ١٧١، ١٦٨، ١٦٥، ١٥٧، ١٥٦
٤٣٧، ٢٣٤، ٢٢١، ٢١٨، ١٧٤

طرسوة: ٢٩٢، ٢٧٩

طرش: ٢٨٩

طرطوشة: ٤٣٦، ٤٣٣، ٣٨٤

طرطونة: ٤٢٤

طركونة: ٣٨١، ٢٩١، ١٩٥

طريف (جزيرة، ملية): ٤٤٧، ٤٤٦، ٢٦٩
٤٥٢

طليعة: ٤٢٤، ٤٣٣، ٣٦٤، ٢٧٣

طلنكة: ٣٤٥

طليلة: ٢٢٨، ٢٢٧، ٢١٦، ١٩٩، ١٩٦، ١٩٣

٢٦٧، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٥٦، ٢٥٥، ٢٤٣

٢٧٠ - ٢٧٤، ٢٧١، ٢٩٠، ٣٠١، ٣١٩

٣٢١، ٣٢٦، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥٨، ٣٦٦

٢٦٤ - ٣٦٨، ٣٩٩، ٤٠٧، ٤١٨، ٤١٩

٤١٨ - ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٣، ٤٣٤

٤٣٨، ٤٣٩

طنجة: ١٦٤، ٧٤، ٧٣، ٦٣، ٦٠، ٥٠، ٤٤

١٢٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٩١، ٢١٦

٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٨٨، ٣٧١

٣٨٨

طوس: ٢٠٤

طولوشة: ٢٩٥، ١٩٥

طولونة: ٢٩٢

الطين (وادي): ٢٧٠

ع

عدن لامة: ١٣٩

عدوة القرويين: ١٢٩

عدوة الأندلسيين: ٣٢٩، ١٢٩

العراق: ٨٦، ٧٠، ٦٨، ٦٤، ٥٨، ٥٢، ٤٦

١٠١، ١٣٨، ١٦٦، ٢٤١، ٢٨٧، ٣١٦

٤٢١

شقوبية: ٣٦٣، ٢٨١

شقرة: ٢٧٠

شكر (جزيرة): ٤٢٣

شلب: ٤٣٨، ٣٩١، ٣٥٩، ٢٢٧، ٢٢٦

شلبطرة: ٤٣٩، ٢٣٣

شلف (نهر): ٦٢، ٦٠، ٥٥، ٤٣، ٢٧، ٢٦

١٥٩، ١٣٩، ١١٦، ١١٥، ٩٥، ٨٩، ٧٤

٢٣١، ١٩١، ١٧٤

شلوبينية (بلد): ٢٥٥

شنت إشتين: ٣٦٦، ٣٦١، ٣٥٩، ٣٥٥

ششميرة: ٤١٩، ٤١٨، ٣٩٩، ٣٥٤، ٣٠١

٤٣٤، ٤٢٤

شنت بطرة (دير): ٣٦٧

شترين: ٤٣٨، ٣٤٥، ٢٢٢، ١٩٦، ١٩٥

شنت مانقش: ٣٦٧

شنت ياقب (خزوة): ٤٢٢، ٤٠١، ٤٠٠

شتيش: ٤٢٧

شيل (نهر): ٣٥٥، ٢٦٤

شيبه (جبل): ٢٤١

ص

صانص: ٢٩٣

صيرة: ٥٤، ٢٦

صخرة بلاي: ٣١٢

صخرة قيس (بلدة): ٣٦٦

صرت: ١٥٧، ١١٥، ٦١، ٥٤، ٢٦

صعدة: ١٣٩

صفاقس = سفاقس

صقلية: ٩٩، ٦٣، ٦٢، ٥١، ٢٣، ١٤، ١٠

١٠٠ - ١٠٤، ١٠٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٧٢

١٧٦

صنماء: ١٣٩

الصن: ١٧٥، ٦٤، ٤٨، ٤١

ط

طبرمين: ١٠٥، ١٠٤

طينة: ١٥٩، ١٠٦، ٩٠، ٨١، ٧٦

العرايش : ١٨ ، ٢٧ ، ١٣٠

المردس (جبل) : ٣٧٥

المروق (نطاق) : ٢٦

العقاب (موقعة) : ٢٣٣ ، ٢٣١

عقة البقر (بلدة) : ٤١١

عمان : ٧١ ، ٨١ ، ١١٨ ، ١٦٧

عنابة : ٩٢

عين التمر : ٥٨



غالة (فرنسا) : ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩

٢٨٠ ، ٢٩٤

غانة : ٢٢٤

غدامس : ٣٩ ، ١١٩

غرماج : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧

غرناطة : ١٩٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥

٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٤١٣ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٦

٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٥

غزة : ٦٣



فارس : ٥٢ ، ١٣٨

فازاز : ١٣٠

فاس : ٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٥١

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢٠٦

٢١٤ ، ٣٢١ ، ٣٧١

فالانس (مدينة) : ٢٩٧

فالتيرا (حصن) : ٣٦٦

فالكس (مدينة) : ٣٦٦

الفتح (جبل) : ٢١٨

فنيشة (حصن) : ٣٥٥

فج جرنيق : ٣٢٣

فحص الجلاب : ٤٣٧

فحص الزلاقة : ٤٣٢

فحص السراوق : ٣٠٧ ، ٣٨٧ ، ٤١٠

فخ : ١٢٥ ، ١٢٧

الغرات (نهر) : ٢٨٧

فرساي : ٤٠٤

فرصة المنكب : ٢٨٩

فرنسا : ٧٣ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧

٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٢

٣٢٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٤٠٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢

فريزيا (ساحل فرنسي) : ٣٢٤

فزان : ٢٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ١٢٠ ، ١٦٩

القطاط : ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٨٧

١٤١

فلتيرة : ٣٦٥

فلسطين : ٣٤ ، ٢٨٣

فولنا : ٢٣ ، ١٢١

فونكة : ٤١٩



قايس : ٣٢ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٦١ ، ١٧١ ، ٢١٩ ، ٢٢٩

قادش (مدينة) : ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٣٢٤

القاهرة : ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢

٢٥٤

القبائل (منطقة) : ١٣٩

قبة : ٤١٩

قبيليل : ٣٢٤

القدس : ١٩٧ ، ٢٢٧

قرسقة : ٢٣

قرطاج : ٥٦

قرطاجنة : ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٦

١٠٨ ، ٣٧٦

قرطاجية : ٢٦٩

قرطبة : ١٦ ، ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٩١ ، ٢٢٤

٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١

٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥

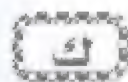
٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥

٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩

٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

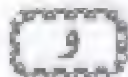
قلعة عبد السلام: ٢٨٦، ٢٧١	٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٢
قلعة النصور: ٣٨٦، ٤٠١	٣٨٥، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦
قلعة وادي إبرة: ٢٧٢	٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٠
قلعيرة: ٣٦٢، ٤٤٢	٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٢٦
قلهرة (بلدة): ٣٦٦، ٣٦٥	٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٧
القلبيعة (بلدة): ٣٦٥، ٤١٠	قرقشونة: ٢٩٢، ٣٦٦
قمودة: ٤٦	قرونة (حصن): ٢٧٢، ٣٥٦، ٤١٧، ٤٢٧
قنالش (حصن): ٣٦٠	القرن (موقعة): ٨٩
قنتيش (معركة): ٤١٠	قزوين (بحر): ١٢٥
قنسرين: ٢٨٩، ٢٨٣	قسططنية: ٤٩، ٥٥، ٧٥، ٨٩، ١٧٧، ٢٧٤
قنوجرة: ١٩٩	قشالة: ١٩٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٧
قنطرة سرقسطة: ٣٧٨	٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٥٩
قنطرة ماردة: ٣٧٨	٢٦٠، ٢٧٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣
قنطرة الوادي: ٣٧٨، ٣٠٦، ٢٧٩	٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٦
قوريناء: ٣١	٤٠٧، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٤
قورية: ١٩٥، ١٩٦، ٣٤٥	٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٥١
قوصرة: ٢٣، ١٠٠	٤٥٢، ٤٥٤
قوثة: ١٩٩	قصر (أبو دالس): ٤٣٨
القيروان: ٣٢، ٣٣، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٨	قصر بغداد: ١١١
٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٧٥	قصر الحجر = مراکش
٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٧	قصر الرباط: ١٠٩
١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٨، ١٣٢	قصر الرصافة: ٣٠٦، ٣١٠
١٤٣، ١٤٥، ١٥٢، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٠	قصر السدة: ٣٢٧
١٧١، ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٤، ٢١٨، ٢٧٢	قصر شلب: ٤٣٨
٣٣٢، ٣٥٧، ٣٧٠، ٣٧٢	قصر العروس: ١١١
قبرين = قوريناء	القصر الجديد: ١١٠، ١١٢
	القصر القديم: ٩٧، ١١٠، ١١٢، ١٤٦، ١٧٣
	قصر المختارة: ١١١
	قصريانة (مدينة): ١٠٢، ١٠٤، ١٧٢
كاشغر: ٤١	قصطيلية: ٣٢
كالي (صخرة جبل طارق): ٢٦٩	قطالونيسة: ٣٦٤، ٣٩١، ٣٩٨، ٣٩٩، ٣٢٢
كالحاس (بلد): ٣١٢	٣٩٦، ٤٣٣، ٤٠٦، ٤٣٦
كتندة (موقعة): ٤٣٤	قطانية (مدينة): ١٠٤
الكتيبة (مسجد): ٢٣٧	قفصة: ٣٣، ٢١٨، ٢١٩، ٤٣٧
كردفان: ١٢١	القلاع (مدينة): ٢٧٤، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٦٥
كركي (قلعة): ٣٥٤، ٣٦٥، ٣٦٦	قلعة بني حماد: ١٧٣
كربت: ٣٢١	قلعة صلاح الدين: ١٧٢
كشنة: ١٠٦	



مجردة (نهر) : ٢٩	كلابريا (شبه جزيرة) : ١٠٦
محرط = مدريد	كلونيا (بلدة) : ٣٦٥
الحجة العظمى (شارع) : ٣٠٦	الكتيرية (جبال) : ٣١٢، ٣١١، ٢٧٤، ٢٤١
مدريد : ١٨، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٥، ٣٤٥	٣٦٢
٣٨٦، ٣٦٧	كوار (إقليم) : ٥٤
المدونة الباجية : ٢٥٥	الكوفة : ٨٧
مدونة البلدة : ٢٥٦	
مدونة الفونسو الثالث : ٢٥٧	
مدينة المائدة : ٢٧١	
المدينة المنورة : ٨٥، ٢٧٧	
مراكش : ٢٨، ٤٥، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠	
١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤	
٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٣٤	
مريبطر : ١٩٩	
مرسية : ١٩٧، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٦٤	
٢٧٠، ٣٢١، ٣٤٨، ٣٦٦، ٣٧٤، ٤١٣	
٤١٨، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤٣	
مرطش : ٣٥٥	
مروكش = مراكش	
مزاب (إقليم) : ١٢٢	
المسيلة (بلد) : ١٠٦، ٧٦	
مسينا (بلدة) : ١٠٤	
مشالة : ١٣٠	
المصارة (بلد) : ٢٩٠	
مصر : ٧، ١٤، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣١، ٣٣	
٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤١، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٤	
٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٣	
٨٠، ٨٢، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩	
١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٤	
١٥٩، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٦، ٢٠٤، ٢٢٦	
٢٤١، ٢٨٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢	
مطرط الكلب : ٢٣٢	
المعدن (جبال) : ٣٥٤	
مكتناس : ٢٧، ١٢٦، ١٨٢، ١٩٠	
مكتناسة : ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٧٩، ١٨٠	
مكة : ٣٥	
ملجون : ١٩٩	
	لااردة (نهر) : ٢٤٢، ٢٧٤، ٣٥٩، ٤٢٨، ٤٢٤
	٤٣٣، ٤٣٥
	لبلة : ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٠١، ٣٢٤، ٤٤٥
	لشبوثة : ٤٣٨
	لك (مدينة عاصمة جليقية) : ٣١٨
	لكة (وادي، مدينة) : ٢٦٩، ٢٧٠، ٣١٣
	اللوار (إقليم) : ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦
	لورقة : ٢٧٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٤٤٥
	لوكس (وادي) : ٢٧
	ليون : ١٩٤، ١٩٧، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٤٢
	٢٤٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٨١
	٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٢٦، ٣٤٦، ٣٤٨
	٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٨٦
	٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٦، ٤١٦
	٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٥
	٤٤٧
	لاييط (حصن) : ١٩٧، ٤٢٢
	ماردة : ٢٧٢، ٢٤٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٤، ٣٧٨
	٤٤٢
	ماؤز (ميناء) : ١٠٢، ١٠٤
	ماكون : ٢٩٢
	مالطة : ٢٣، ١٠٠، ١٠٥
	مالقة : ١٩١، ١٩٦، ٢٦٣، ٢٨٣، ٣٢٤، ٣٢٥
	٣٤٩، ٣٥٥، ٤١٨، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٦
	٤٥١
	مالي : ١٢١
	المتيجة (سهل) : ٢٧

مليانة : ٢٣٦	تريبونة : ٣٠٢
مليلة : ٣٨٨، ١٤٩، ٩٠، ٥٥	نقطة (بلدة) : ٣٧
المملكة المغربية : ١٢٤، ٢٧، ٢٥	نفسوسة : ١١٦، ١١٥، ١٠٨، ٨٠، ٧٩، ٧٥
المنار : ٣٨٦	٢٣٠، ١٢٢، ١٢٠، ١١٩
المنارة : ١٩٩	نقيس : ٢٠٧، ١٣٠، ٤٥، ٢١، ٢٠
مناو (بلدة، حصن) : ١٠٣، ١٠٢	نقوطرة : ١٧٢
منت أجودو : ٣٣٤	نكور (إمارة) : ١٤٩، ٩٠
مندريق (حوض) : ٢٤٢	نهاوند : ٦٤
المنستير (قصر) : ١١٠، ١٠٦، ٩٢، ٩١، ٣٢	النوبة (بلاد) : ١٦٣
١٥٢	نورماندى : ٣٢٤
المنصورة (قلعة) : ١٧٣	النيجر : ٢٢١، ٢٣
منورقة : ٤٣٤، ٣٢٥، ٢٢٩	نيريشة (بلد) : ٤٤٥
المنيو (نهر) : ٣٦٢، ٣١٣، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٤٢	النيل (نهر) : ١٦٧
٤٠٠، ٣٦٣	نيجة (بلد) : ٢٩٢
منية الناعورة : ٣٠٦	ننى (نهر) : ٥١
المهدية (قلعة) : ١٧٤، ١٧١، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٦	
٢٢٩، ٢١٩، ٢١٨، ١٨٢	
موايه لاباناي (قرية) : ٢٩٦	هبط غمارة : ١٩١
مودونيا : ٣٦٥	الهبط (إقليم) : ١٣٠، ١٢٦، ١٢٤
مورة (حصن) : ٣٦٠	الهجار (الهفار) : ٢٧
مورو (مدينة) : ٣٥٦	هتارس (قلعة) : ٣٨٦، ٣٤٥
موقوسة : ٢٩٥، ٢٩٤	الهند : ٦٤
مولوية (نهر) : ١٢٠، ٦٢، ٦٠، ٥٥، ٤٢، ٢٧	مولندا : ٢٤٧
٢١٤، ١٨٩، ١٨١، ١٧٤، ١٥٩، ١٢٤	
مونت رويسو (قلعة) : ٣٥٨	واداي : ١٢١
موتلون (حصن) : ٣٥٥	وادى ايرة (ايرة) : ٢٧٣، ٢٧٢
ميتونيا = مودونيا	الوادى الأبيض : ٢٦٤
ميشش (مدينة) : ١٠٤	وادى الحجارة : ٣٨٦، ٣٦٥، ٣٦١، ٣٤٥، ٢٧١
ميورقة : ٤٣٤، ٣٢٥، ٢٥١، ٢٢٩	وادى الرمل : ٣٨٦
	وادى سلبط : ٢٨٢
	وادى النيل : ٢٩
	الوادى الكبير (حوض) : ٢٣٤، ٢٣٢، ١٩٤
	٣١٨، ٣٠٥، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٥، ٢٦٤
	٤٣٩، ٤٣٧، ٤١٩، ٤١٧، ٣٥٨، ٣٢٤
	٤٤١
	الواديانة : ٣٦٥، ٢٦٤، ٢١٩، ١٩٨، ١٩٥

وميا : ٢٦٨ ، ٢٥٦
 ونندال : ٢٦٣
 الوئشريس (إقليم) : ٢٧
 وهران : ٢٦ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٤٣٢
 يايرة : ٣٦٣
 بابسة : ٢٢٩ ، ٣٢٥ ، ٤٢٤
 البيمن : ٧١ ، ٧٩ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ٢٨٣ ، ٣١٧
 ٣٢٢



واشمة (وادي) : ٢٩٨
 واركلا (جزيرة) : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢
 وجلة : ٥٥ ، ٢٠٦
 وخشمة (مدينة) = أوسمة
 ودان : ٣٨
 ورجلا = واركلا
 وستقالبا (ولاية) : ٣٠١
 وشقة : ٢٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨
 ولبة : ٢٦٣ ، ٣٢٥ ، ٤٢٧
 وليلى (مدينة) : ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠

★★★

فهرس القبائل والطوائف والآل

الإسماعيلية: ١٣٧، ١٤٦، ١٥٨، ١٦٢، ١٧٩.

٣٨٧

الإغريق: ٢٤، ٢٩، ٣١، ٢٢٦.

أفارقة: ٣٢، ٤٠.

الأكراد: ١٧٣.

الأكناد: ١٩٩.

الآلان: ٢٦٧.

الآلمان: ٤٣٨.

الأمويون: ١٢٧، ١٣٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨.

١٧٥، ٢٦٨، ٢٨٧، ٣١٠، ٤٠٧، ٤١٥.

الأمويون الأندلسيون: ١٣٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠.

١٦٤، ١٦٦، ٣٤٣.

الأمويون القرطبيون: ١٥٨.

الإنجليز: ٤٣٨، ٤٤٩.

الأندلسيون: ١١٤، ١١٨، ١٤٩، ١٧٨، ١٩٠.

١٩٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٦٠.

٢٦٢، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦.

٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣.

٣٣٩، ٣٤٢، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٨٥، ٤١٠.

٤١٢

أهل الشام: ٣٥.

أوربة (قبيلة): ٤٢، ٤٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩.

١٣١، ١٣٢، ١٧٩.

الأوربيون: ٣٠٣.

الأيبريون: ٢٦٧.

إيطاليون: ٣٨٤.

إيلانة (قبيلة): ٢٠.

أبوية (دولة): ٢١٩، ٢٢١.

ب

بارباروي (البربر): ٢٨.

البربر (البربر الجبل): ٢٨، ٢٩، ٣١، ٤٢، ٤٩.

٧٦

البرانس (البربر الحضر): ٢٨، ٣٠، ٣١، ٤٢.



آل إدريس: ١٣٩.

آل بلكين بن زيري: ١٥٠.

آل زيري: ١٥٣.

آل ساسان: ١٣٥.

آل سليم بن منصور: ١٣٥، ١٦٦.

آل عامر: ٤٠٥.

آل علي: ١٣٧.

آل خسان: ٤٨.

آل فيفليدي: ٤٤٦.

آل قسي: ٣٤٦.

آل مدرار: ١٣٣.

آل المهلب: ٨٢.

آل هلال: ١٣٥.

الإباضية: ٥٤، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٦.

٨٧، ١٠٨، ١١٤، ١١٧، ١٢٠، ١٢٢.

١٢٣، ١٣٣، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ٢١٥.

الأنج (قبيلة): ١٦٧.

الأنثى عشرية (فرقة): ١٣٧.

الإخشيديون: ١٤٩، ١٥١، ١٦٣.

الأدارسة: ٦٥، ٧٦، ١٢٣، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢.

١٤٨، ١٥١، ١٦٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٥.

٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٧، ٣٩٦، ٤١٣.

إدرسية (دولة): ١٢٦، ١٣٩.

أردمانيون: ١٠٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ٢١٨.

٢١٩، ٢٢٣، ٣٣٦، ٣٤٦.

الأرغونيون: ٤٥٢.

أريوسي (مذهب): ٢٦٧.

أزارقة: ٧١.

الأزد (قبيلة بمينة): ٧١، ٨١، ٨٢.

الإسبان: ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٧٣.

٣١٧، ٣١٨، ٤٢١.

أسد (قبيلة): ٣١٧.

بنو جهور: ٤٣٠، ٤١٨	٢٤٢، ١٩٩، ١٨٠، ١٣٩، ٧٦، ٧٥، ٤٩
بنو حبيب: ٧٩	٤٢٥، ٣٤٣، ٢٩١، ٢٦١
بنو حجاج: ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٢	٤٢، ٣٩، ٣٥، ٣٣، ٣٢، ٣٠، ٢٨، ٢٠
بنو الحسن الكلبيون: ١٥٣	٦٠، ٥٩، ٥٥، ٥٢، ٥٠، ٤٨، ٤٥، ٤٣
بنو حفص: ٢٣١	٧٨، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٢، ٦٩، ٦٣، ٦٢
بنو حماد الصنهاجيون: ١٦٥، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠	١١٤، ١٠٣، ٩٧، ٩٠، ٨٨، ٨١، ٧٩
١٧٦-١٧٢	١٣٩، ١٣٤، ١٣١، ١٢٨، ١٢٠، ١١٦
بنو حمود: ٤١٧، ٤١٣، ١٩١	١٧٧، ١٧٤، ١٦٣، ١٥٧، ١٥٥، ١٥٣
بنو الحليدي: ٤٢٠	٢٧٠، ٢٦٨، ٢٦٣، ٢٤١، ٢٣٥، ٢٣٣
بنو خزر الزناتيون: ١٤٩	٢٨٩، ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٧٧
بنو خزر المغراويون: ١٤٨	٣١٤، ٣١٣، ٣١٠، ٣٠١، ٢٩٦، ٢٩٣
بنو خزر اليفرانيون: ٣٧١	٣٩٨، ٣٩٤، ٣٩٢، ٣٧٠، ٣٢٩، ٣١٨
بنو خزرون الزناتيون: ١٤٩	٤٣٧، ٤١٨، ٤١٦، ٤١٣، ٤٠٧، ٣٩٩
بنو خلدون: ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٢	٤٥٢، ٤٣٨، ٢٤٤، ٢٤٢، ١٨١
بنو ذي النون: ١٩٤، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٩٩، ٤١٨	٤٥٤
٤٢٠، ٤١٩	البرغواطيون: ١٢٩
بنو ربيعة بن عامر: ١٦٧	البشكونس: ٣١٧، ٣١٣، ٣١٢، ٣٠٣، ٣٠٢
بنو رزيق: ٤٢١	٤٢٥، ٣٢٣، ٣٢٢
بنو رستم: ١١٤، ٨٧، ٧٢، ٦٥، ٥٤، ١٢٠	البصريون: ١١٨
١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٥	البكريون: ٤٢٧
١٦٢، ١٦٤، ٣٥٧	البندقيون: ٤٤٦
بنو زنون = بنو ذي النون	بنو الأحمر: ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٦
بنو زيان: ٢٣٧	بنو أشقيلولة: ٤٤٤، ٤٤٧
بنو زيري: ١٣٥، ١٣٤، ٧٦، ١٥٣، ١٥٤	بنو الأقبلي: ٩٨، ٩٥، ٩٣، ٩٠، ٨٩، ٦٥
١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٨، ١٧١	١٠٠، ١٠٦، ١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٢٩
١٧٣، ١٧٦، ٢١٨، ٢٤٩	١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٦، ١٧٣، ٣٥٠
بنو زيري بن زاوي: ٤٣٠	٣٥٧
بنو زيري بن مناد: ١٦، ٣٠	بنو الأنطس: ٤٣١، ٤٣٠، ٣٩٩
بنو ساعدة: ٦٩	بنو أمية: ٦٩، ٥٨، ٧١، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٢٧٤
بنو سراج: ٤٥٣، ٤٤٧	٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
بنو سليم (بن منصور): ١٦٦، ١٦٨، ١٧٦	٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٩، ٣٢٩
بنو شهيد: ٣٩٩، ٣٠٠	٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٧١، ٣٩٣
بنو صمدح: ٤٣٠	٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٥
بنو طولون: ٦٥	٤٣١
بنو عامر: ٤٠٠	بنو أمية الأندلسيون: ٩٠، ٢٤٧، ٣٤٣، ٣٨١
بنو عباد: ٤١٦، ٣٩٩، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٣٠	٤٠٨
بنو العباس: ٤١٥	بنو يرزال: ٤١٢

بنو عبد الرؤوف : ٢٩٩ ، ٣٠٠

بنو أبي عبلة : ٣٠٠

بنو عبيد الله : ١٣٤

بنو غسانية : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧

بنو غانية المسوفون : ٢٢٤

بنو تحطان : ٣٩٨

بنو قسي : ٢٧٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠

بنو قنون : ١٣٢

بنو كامل : ٢١٩

بنو محمد الطويل : ٣٦٠ ، ٣٦١

بنو مدرار : ١٢١

بنو مردائش : ٤٣٧ ، ٤٤١

بنو مرين : ٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢

بنو مزغنا : ١٩١

بنو المهلب بن أبي صفرة : ٨١

بنو نصر : ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٥

بنو هاشم : ٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦١

بنو هاشم التميميون : ٣٩٧

بنو هلال : ١٧٠

بنو هبوس : ١٩٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣

بنو وادوين : ١٨٢

بنو وارش : ١٨١ ، ١٩٢

بنو الورد : ٢١٩

بنو وطاس : ٢٣٧

بنو يمش : ٣٩٩

بنو اليسع بن مدرار : ١٢٠

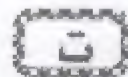
بنو يفرن : ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٤١٢

البورتو (دولة) : ١٢١

البوتيجيون : ١٦٦

بزنطيون : ٢٤ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ٣٢١

البيزنطية (دولة) : ١٠١ ، ٢٦٨



قاراجا (قبيلة) : ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٣١

التميميون : ١٩٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦٠ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤

الترك : ٤١ ، ١٣٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦

التيونون : ٣٧٣



جدالة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٣١ ، ٢٠٠

الجداليون : ١٨٣ ، ١٨٥

جلام (قبيلة) : ٣١٧

جراوة (قبيلة) : ٤٩ ، ٥٥

جرمان (شعوب) : ٢٦٧

جشم (قبيلة) : ١٦٧

الجلالة : ٣١٢ ، ٣١٣



الحفصيون : ٩

الحموديون : ٤١٢

حميد (ملكة) : ٢٨



خثعم (قبيلة) : ٣١٧

خراسانيون : ٩٦ ، ١١٤ ، ٣١٧

الخساراج : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٥

٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٤

١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣١

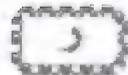
١٣٣

خولان (قبيلة) : ٣١٧



دياب (قبيلة) : ٢٣٠

ديلم (شعب) : ١٢٥



ربيعة (قبيلة) : ١٦٧

رستمية (دولة) : ٢٧٠

الرومان : ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٤١

٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٣١٦ ، ٣٣٧

الروم : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٨

٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤

الصنهاجيون: ١٦، ٧٦، ٨٦، ١٣٤، ١٥٢، ١٤٨،
١٥٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠،
١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٩، ١٨١، ١٨٧،
١٩٠، ١٩٢، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣٦،

٢٤٩، ٢٧٠، ٢٨٨، ٤١٣

صنهاجة الصحراء: ٣٠

صنهاجة المغرب: ٣٠

الصوية: ١٢١

ط

طارقة (قبيلة): ٢٣١

الطوارق: ٢٢٩، ٢٣١

الطولونيون: ١٦٣

الطولونية (دولة): ٦٥

ع

العاصريون: ١٩٣، ٤٠٦، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣،
٤١٦، ٤٢٢

العباسيون: ٧١، ٧٨، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٥،
١١٠، ١١٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٥،

١٣٧، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٦٣،

٢١٩، ٢٢٣، ٢٨٧، ٣٠٦، ٣١٠، ٣٢٣،

٣٢٧، ٣٤٣، ٣٦٩، ٣٧٣

العباسيون: ٣٧١، ٣٧٢

العثمانيون: ٢٢٤

عدي (قبيلة): ١٦٧، ١٧١

العرب: ٢٨، ٢٩، ٣٤، ٣٨، ٤٦، ٤٧، ٤٩،

٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ٧٣،

٧٤، ٨٠، ٨١، ٩٠، ٩٨، ١٠٥، ١٠٦،

١١٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٥٦، ١٦٣،

١٧٠، ١٧١، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٢،

٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٩١،

٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧،

٣٢٩، ٣٥٢، ٣٨٠

عرب أفارقة: ١٣٣

العرب البلديون (عرب الأمصار): ٧٠، ٧١، ٧٤،

٧٧، ٨١، ٨٨، ٩٦، ١٠٨، ١١٥، ١٣٣،

ز

الزيريون: ٤٦

زغبة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠

زناتة (قبيلة): ٢٩، ٣١، ٧٦، ١٥٣، ١٥٧،

١٦١، ١٦٨، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦،

١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١،

٢٠٦، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٣٧، ٤٠٨

زناتة: ٧٥، ١٤٨

الزناتيون: ٩، ٣١، ٧٦، ٨٦، ٩٠، ١٥٥، ٣٩٦،

٤١٣، ٤٤٦، ٤٤٧

زواودة (قبيلة): ١٦٧، ٢٣٠

زواوة (قبيلة): ١٢٧

س

السمديون: ٢١٥

سكنانة (قبيلة): ١٤١، ١٤٢

السكتانيون: ١٤٢

السلاجقة: ١٦٦، ٤١٦

السلال: ٣٠٧

السويف: ٢٦٧

ش

الشاميون: ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣٠٠،

٣١٠، ٣١٧

شعبة: ١٢٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٤،

٢١١

ص

الصفرية: ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٧، ١١٥،

١٢٠، ١٣١، ١٣٣

الصقالبة: ٩٧، ١٤٧، ١٥١، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩،

٣٢٨، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٩،

٤١١، ٤١٣، ٤١٦، ٤٢٢

الصقلليون: ١٠٣، ١٠٤

الصليبيون: ١٧٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٤٢٤، ٤٣٨،

٤٤٩

القشاليون : ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٤٤	١٥٦ ، ١٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
قضايعيون : ٣١٨	٢٨٣
القطلايون : ٤١٢	العرب الشاميون (عرب الأقاليم) : ٧٤ ، ٧١ ، ٧٠
القسوط : ٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠	٢٨٢ ، ٢٧٧ ، ٧٧ ، ٧٦
٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٣١١	العرب الهلالية : ٢٣٠ ، ١٢٢ ، ٥٠
٣١٢	العرب اليمانيون : ١٦٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٨٥
القيروانيون : ١١٨	٣٢٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠
قبيلة : ٧٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠	العلويون : ٦٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨
قبسيون : ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢	عوف (قبيلة) : ٢٣٠
ك	ع
الكارولنجيون : ٢٩٣	العز (الأفزاز) : ١٦٦ ، ٢٢٦
كانم (دولة) : ١٢١	عمارة (قبيلة) : ٤٤ ، ٧٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩
كنانة (قبيلة) : ١٠٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٢	١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٦٨
الكناسيون : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨	٣٨٨
١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٧٠	غياثة : ١٣٠
الكنشيريون : ٣١٢	ف
الكوفيون : ١١٨	الفاطميون : ١٦ ، ١٩ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٧
كومية (قبيلة) : ٢٠٦ ، ٢١٢	١١١ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤
ل	١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩
اللاتين : ٢٨	١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٦
لخم (قبيلة) : ٥٨ ، ٣١٧ ، ٤١٧	١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦
لثونة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٢	الفاطمية (دولة) : ٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥
٢٠٠	١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ٣٧٠
اللمتونيون : ١٨٤ ، ١٨٥	الفايكنجز : ٣٢٤
لطة (قبيلة) : ١٣٠ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٢	الفرس : ٣٥ ، ١٣٧ ، ١٦٦
لهيصة (قبيلة) : ١٤٢	الفرنجية : ٢٦٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٢
لوانة (قبيلة) : ٣١ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ١٣٢	٣٦٣ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٩
اللواتيون : ٣٤	الفرنسيون : ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٦ ، ١٦٣
اللويمارديون : ٢٩٨	فزارة : ٧٥
م	الفلمنك (الهولنديون) : ٢٢٦
مالكية ، مالكيون : ٨٦ ، ٨٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٨٢	ق
٣٣٠	القرامطة : ١٤٤ ، ١٦٧
النجوس : ٣٢٤ ، ٣٤٦	القرشيون : ٢٨٨
مدلج (قبيلة) : ٣١٧	القرطبيون : ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٣

النصارى : ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ -
 ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
 ٤١٩ - ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ،
 ٤٣٢ - ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ،
 ٤٤٧ ، ٤٥٥

نفزة : ١٢٧ ، ١٧٩ ، ٢٨٨

نقوسة (قبيلة) : ٣٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٠ ، ٤٢٠

نقوسيون : ٥٤

النكارية (فرقة) : ١١٩

التورمان = أردمانيون



الهاشميون : ٣٩٩

هرقة (قبيلة) : ٢٠٣ ، ٢١٢

هرجة (قبيلة) : ٢١٢

هزميرة (قبيلة) : ٢١٢

هكورة (قبيلة) : ٢١٢

الهلاليون : ٥٣ ، ١٥٣ ، ١٦٦ - ١٦٨ ، ١٧٠ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٣

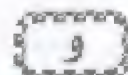
حنانة (قبيلة) : ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٦

هواره (قبيلة) : ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢

الهواريون : ٣٤ ، ٤١٨

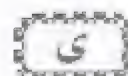
الهولنديون : ٢٢٦ ، ٤٣٨

هيلاتة (قبيلة) : ٢٠ ، ١٨٧ ، ٢١٢



ورفجومة (قبيلة) : ٧٩ ، ١١٥

الومية (فرقة) : ١١٩



اليغريون : ٣٧١

اليمينيون : ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ،

٣٩٨ ، ٣٢٢

اليمنية : ٧٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٢٣

اليهود : ٢٦٨ ، ٣٥٧

اليونان (شعب) : ٢٨ ، ٣٣٥

مذبح (قبيلة) : ٣١٧

المرايطون : ١٩ ، ٣٠ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٠٦ ،

١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،

١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٨٩ ،

١٩٢ ، ١٩٦ - ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ،

٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٠ ،

٤٣٧ -

المروانيون الأندلسيون : ١٧٩

المرينيون : ١٣٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥١

مسالة (قبيلة) : ١٤٢

المستركون : ٢٠٨ ، ٢١٢

مسوفة (قبيلة) : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣١

المصامدة : ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ،

١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ -

٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٥

المصريون : ١١٨ ، ٣١٧

مصمودة : ٣٠

مضر (قبيلة) : ٢٩٠ ، ٣١٧

المضريون : ٣٢٢

معافر (قبيلة يمنية) : ٧٩ ، ٣٩٨

المعتزلة : ١١٣

مغراوة (قبيلة) : ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢

المغراويون : ١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٩٠

المماليك : ٢٢٤ ، ٢٢٦

النهالبة : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ - ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٤ ،

١٥٦

الموحدون : ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٧٦ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ،

١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٩ - ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٧ - ٢١٤ ، ٢١٦ - ٢٢٦ ، ٢٢٩ -

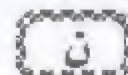
٢٣١ ، ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٣٤ -

٤٤١ ، ٤٣٩

الموحدية (دولة) : ٩ ، ١١

المورسكيون : ٤٥٥

المير وفنجيون : ٢٩٣ ، ٢٩٥



نافار (قبيلة) : ٢٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦

فهرس الكتب والمجلات

- تاريخ الرازي : ٢٤٦ ، ١٥
تاريخ شعراء الأندلس : ٢٤٥
تاريخ العرب للتصريق : ٤٥٥
تاريخ علماء الأندلس : ٢٥٠
تاريخ مسلمي إسبانيا : ١٩
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : ٢٥٣
البيان (مذكرات الأمير عبد الله الزيري) : ٤٣١
التكملة لكتاب الصلة : ٢٥١
- ج**
- جذوة المقيس في ذكر ولاء الأندلس : ٢٥٠
جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى : ٤٥٥
- ح**
- الحلة السراء : ٢٥٢
- ذ**
- الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٢٤٦
الذيل الأبيض : ٢٥٦
الذيل والتكملة لكتاني الموصول والصلة : ٢٥٢
- ز**
- رحلة الوزير في فتك الأسير : ١٨ ، ١٧
روض القرطاس في تاريخ المغرب وملوك فاس : ٢١
- ر**
- أبو زيد الهلالي (ملحمة) : ١٦٨
- ش**
- الشعر الأندلسي : ٢٤٤
الشفا بالتصريف بحقوق المصطفى : ٢٤٩
شمال مالك : ٨٦
- ا**
- الإحاطة في أخبار غرناطة : ٢٥٣
الأخبار المجموعة : ٢٤٦
أزهار الرياض في أخبار عياض : ٤٥٥ ، ٢٤٨ ، ١٦
إسبانيا المقدسة : ٢٥٧
الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ٢١ ، ١٥
أسد الغابة : ١٥
الأسدية : ١٠١
أعز ما يطلب : ٢٠٥
إعلام الإعلام بأعمال الإعلام من يبيع قبل الاحتلام : ٢٥٣ ، ١٦
الأغاني : ٣٨٣
الإمامة والسياسة : ١٨ ، ١٧
الأندلس (مجلة) : ١٥
أنشودة رولان (ملحمة) : ١٦٩
- ب**
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ٨
البربر (كتاب) : ١٥٦
بغية للمتمس في تاريخ رجال الأندلس : ٢٥٠
بلاد المغرب الشرقية : ١٥٦
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ٢٤٩
البيان المغرب في تاريخ ملوك أفريقية والمغرب : ١٦ ، ١٩ ، ١٨
البيان الواضح عن الملم الفادح : ٤٢٣
- ت**
- تاريخ ابن خلدون : ١٦
تاريخ إسبانيا الإسلامية : ٢٥٣
تاريخ إسبانيا العام : ٢٥٧
تاريخ الفتاح الأندلسي : ٢٤٦ ، ١٨
تاريخ بني أمية في الأندلس : ٢٤٥

ص

مصحف معهد الدراسات الإسلامية : ١٨

الصلة : ٢٥١

صلة الصلة : ٢٥١

ع

العبر (ابن خلدون) : ١٦٧ ، ١٧٠

العقد الفريد : ٣٤٢

ف

فتوح مصر والمغرب والأندلس : ١٦

فوات الوفيات : ٢٥٠

ق

قصيدة السيد (ملحمة) : ١٦٩

ك

الكامل في التاريخ : ١٥

م

المئين : ٢٤٦ ، ٢٤٥

المدونة : ١١٣

مصر وتاريخ التأريخ في المغرب والأندلس (مقال)

١٨ :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ٢٠٦

المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي : ٤٣٥

مفاخر البربر : ٢٠

المقتبس في تاريخ الأندلس : ١٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

التهل الصافي والمستوفي بعد الوالي : ٢٥٠

الموطأ : ١٠١

مونت أجودو (مجلة أندلسية) : ٣٣٥

ن

نبذة المعصر في أخبار ملوك بني نصر : ٤٥٥

نزهة المشتاق في اختراق الألفاظ : ١٠٥

نظم الجمان : ٢٠٦

نصح الطبيب في غصن الأندلس الرطيب : ١٥ ، ١٦

١٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٤٥٥

نهاية الإرب : ١٥

نهاية الأندلس : ٤٥٥

و

الوافي بالوفيات : ٢٥٠

وفيات الأعيان : ٢٥٠

★★★

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* تقديم للطبعة الجديدة
٧	* مقدمة
١١	* القسم الأول : المغرب من قبيل الفتح الإسلامي
١٣	- مدخل بيلوغرافى : أهم موارد تاريخ المغرب الإسلامي
٢٣	- الغرب الإسلامي والمغرب الإسلامي
٢٤	- بلاد المغرب
٢٨	- سكان المغرب
٣١	- المغرب قبيل الفتح الإسلامي
٣٣	- جرجوريوس أو جرجير
٣٤	- الفتح العربى
٣٤	- فتح برقة وطرابلس
٣٤	- موقعة سببلة وفتح أفريقية
٣٧	- حملة معاوية بن حديج السكونى
٣٨	- ولاية عقبة بن نافع الأولى على أفريقية
٣٩	- حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس القيروان
٤١	- ولاية أبى المهاجر دينار
٤٢	- ولاية عقبة بن نافع الثانية على أفريقية
٤٦	- زهير بن قيس والقضاء على كسيلة
٤٧	- حملة حسان بن النعمان الغساني
٤٨	- الكامنة
٥١	- تنظيم الإدارة الإسلامية فى المغرب
٥٦	- إنشاء ميناء تونس
٥٨	- ولاية موسى بن نصير
٥٩	- أعمال موسى بن نصير فى أفريقية والمغرب
٦٥	- عصر الولاة
٦٩	- الفتنة المغربية الكبرى
٧٦	- المحاولة الأولى للعرب البليدين للسيادة على أفريقية

الصفحة	الموضوع
٨١	- محاولات الدولة العباسية للاحتفاظ بأفريقية (المهالبة)
٨٣	- جهود يزيد بن حاتم في أفريقية
٨٣	- دخول المذهب المالكي إلى المغرب
٨٩	- نهاية عصر الولاة وبداية عصر الدول المحلية
٩٠	- أفريقية من المهالبة إلى بني الأغلب
٩٥	- دولة الأغالبة في أفريقية
٩٦	- حكم إبراهيم بن الأغلب
٩٧	- إنشاء القصر القديم
٩٨	- زيادة الله بن الأغلب
٩٨	- فتح صقلية
١٠٣	- تدخل الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل
١٠٦	- إبراهيم بن أحمد الأغلب
١٠٧	- حضارة أفريقية والمغرب أيام الأغالبة
١١١	- الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر الأغالبة
١١٤	- دولة الرستميين في تاهرت
١٢٣	- الإدارة
١٣٣	- الدولة الفاطمية في المغرب
١٤٠	- أبو عبد الله الشيعي
١٤٢	- الهجرة إلى تازروت ونحول الدعوة إلى حركة سياسية عسكرية
١٤٣	- قدوم عبيد الله المهدي
١٤٥	- خلافة عبيد الله المهدي
١٤٦	- بناء المهديّة
١٤٩	- ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد
١٥٠	- غزو مصر ثم الانتقال إليها
١٥٢	- تقدير الفترة الفاطمية في تاريخ المغرب
١٥٤	- دولتا بني زيري الصنهاجيين في المغرب الأوسط
١٥٤	- أبو الفتح يوسف بلكين بن زيري
١٥٨	- أبو الفتح المنصور بن يوسف الصنهاجي
١٦٠	- نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور
١٦١	- المعز بن باديس بن أبي الفتح المنصور

الموضوع	الصفحة
- انفصال دولتي بني زيري عن الفاطميين	١٦٢
- دخول العرب الهلالية بلاد المغرب	١٦٦
- تغريبة بني هلال ونشوء ملحمة أبي زيد الهلالي	١٦٨
- نهاية دولة بني حماد أصحاب القلعة	١٧٢
- دولتا بني زيري في الميزان	١٧٤
- الرأي في الغزوة الهلالية	١٧٦
- دولة المرابطين	١٧٩
- صنهاجة الصحراء وتطلعها إلى التخلص من سيادة الزناتيين	١٨١
- عبد الله بن ياسين	١٨٣
- استمرار مسيرة الحركة المرابطية	١٨٧
- انقسام القوة المرابطية إلى قسمين	١٨٨
- قيام دولة المرابطين في المغرب والأندلس	١٨٩
- المرابطون يعيدون إلى الأندلس لنصرة الإسلام	١٩٢
- نهاية دولة المرابطين في المغرب والأندلس	٢٠٠
- دولة الموحدين	٢٠٣
- محمد بن تومرت	٢٠٣
- ابن تومرت ينشئ جماعة الموحدين في تينمال	٢٠٧
- قيام الدولة الموحدية	٢١١
- تقدير المرابطين	٢١٤
- حكم عبد المؤمن بن علي	٢١٦
- خلفاء عبد المؤمن بن علي	٢٢٠
- أبو يعقوب يوسف	٢٢٠
- أبو يوسف يعقوب المنصور	٢٢٣
- ثورة بني غانية المسوفيين	٢٢٤
- جهاد المنصور في الأندلس ، انتصار الأرك العظيم	٢٢٦
- خلافة أبي محمد عبد الله الناصر	٢٢٩
- ميلاد الدولة الحفصية (نهاية بني غانية - الطوارق)	٢٢٩
- موقعة العقاب وانهايار الجبهة الإسلامية في الأندلس	٢٣١
- الدولة المرحدية بعد هزيمة العقاب	٢٣٣

الموضوع	الصفحة
- القسم الثاني : الأندلس	٢٣٩
- مدخل بيلوغرافى لتاريخ الأندلس	٢٤١
- الرواية العربية	٢٤٤
- الأصول غير العربية	٢٥٤
- الأندلس	٢٦١
- اسم الأندلس	٢٦٢
- فتح الأندلس	٢٦٧
- تمهيد : أحوال شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح الإسلامى	٢٦٧
- فتح الأندلس	٢٦٨
- دخول موسى بن نصير الأندلس واشتراكه فى الفتح	٢٧٢
- عصر الولاة	٢٧٧
- خلافات العرب فيما بينهم وفزاعهم مع البربر	٢٧٨
- أبو الخطار وإنشاء الكور المجددة	٢٨٣
- قيام الدولة الأموية الأندلسية	٢٨٧
- فنوح المسلمين شمالى جبال ألبرت فى غالة (فرنسا)	٢٩١
- عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية	٢٩٩
- نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله	٣٠٣
- هشام الأول بن عبد الرحمن المعروف بالرضى	٣٠٩
- دخول مذهب مالك الأندلس	٣٠٩
- التقليد الشامى	٣١٠
- ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة	٣١١
- إمارة الحكم الرضى	٣١٣
- التطور الاجتماعى فى الأندلس	٣١٥
- جماعة موالى بنى أمية	٣١٧
- بقية تكوين شعب الأندلس	٣١٨
- فتنة طليطلة ويوم الخندق	٣١٩
- هيج الرضى الأول والثانى	٣٢٠
- بداية الاستقرار	٣٢١
- غزوات النورمان	٣٢٢
- نشأة الأسطول	٣٢٤

٣٢٥	- رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية
٣٢٦	- وفاة عبد الرحمن الأوسط
٣٢٧	- الوزارة في الأندلس
٣٢٩	- الخطط : خطة القضاء
٣٣٠	- الفقهاء المشاورون
٣٣٠	- يحيى بن يحيى الليثي
٣٣٢	- الشخصيات الحضارية : زرياب
٣٣٤	- عباس بن فرناس
٣٣٥	- يحيى بن حكم الجبائي الغزال
٣٣٧	- التحول الحضاري في الأندلس في عصر عبد الرحمن الأوسط
٣٣٨	- زيادة مسجد قرطبة الجامع
٣٣٨	- في بلاط عبد الرحمن الأوسط
٣٣٩	- الشعر والموشح والزجل
٣٤٤	- الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط
٣٤٩	- ثورة عمر بن حفصون
٣٥٠	- الأمير عبد الله
٣٥٣	- عبد الرحمن الناصر وميلاد الخلافة الأموية الأندلسية
٣٥٤	- الوضع العام داخل الدولة عند ولاية عبد الرحمن الناصر
٣٥٨	- عبد الرحمن والثائرون في غرب الأندلس
٣٦٢	- عبد الرحمن الثالث وعلاقته مع ملوك قشتالة ونبيلونة
٣٦٣	- راميرو الثاني ملك ليون
٣٧٠	- عبد الرحمن الثالث والمغرب
٣٧١	- الخلافة الأموية القرطبية
٣٧٤	- إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع
٣٧٩	- تقدير عبد الرحمن الناصر
٣٨٣	- خلافة الحكم المستنصر
٣٨٣	- نهوض العلم في أيامه
٣٨٥	- سياسة الحكم المستنصر
٣٨٦	- حروب الحكم في المغرب

الصفحة	الموضوع
٣٩٠	. هشام المؤيد
٣٩٠	- مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاهر
٣٩١	- محمد بن أبي عامر يصبح السلطان الأعلى في الدولة
٣٩٣	- محمد بن أبي عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة
٣٩٤	- غزوات محمد بن أبي عامر
٣٩٥	- محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور
٣٩٩	- الحزب العامري
٤٠١	- تقدير المنصور
٤٠٥	- عبد الملك المظفر بن المنصور
٤٠٦	- عبد الرحمن المنصور
٤٠٧	- مقتل عبد الرحمن بن شنجل وسقوط العامريين
٤٠٧	- ثورة قرطبة وبداية الفتنة الكبرى
٤٠٨	- الفتنة الكبرى
٤١٠	- معركة قنتيش ، نهاية الجيش الأندلسي التقليدي
٤١١	- النزاع بين محمد بن عبد الجبار المهدي وسليمان المستعين
٤١٥	. عصر الطوائف
٤١٥	- كيف بدأ عصر الطوائف ؟
٤١٨	- دولة بني ذى النون في طليطلة
٤٢٢	- إمارة بلنسية
٤٢٣	- إمارة سرقسطة
٤٢٦	- إمارة إشبيلية
٤٣٠	- تدخل المرابطين
٤٣٢	- جهاد المرابطين في الأندلس
٤٣٥	- نهاية المرابطين في الأندلس
٤٣٧	- الموحدون في الأندلس
٤٤١	- دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة
٤٤٣	- قيام دولة غرناطة
٤٥١	- أبو الحجاج يوسف الأول
٤٥١	- مشيخة الغزاة
٤٥٢	- وقعة طريف

الصفحة	الموضوع
٤٥٣	- تدهور مملكة غرناطة
٤٥٤	- نهاية مملكة غرناطة
٤٥٧	- موارد مختارة
٤٥٧	(أ) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس
٤٦٤	(ب) مراجع غير عربية
٤٦٧	- الفهارس العامة
٤٦٩	- فهرس الأعلام
٤٨٦	- فهرس الأماكن والبلدان
٤٩٨	- فهرس القبائل والطوائف والآل
٥٠٤	- فهرس الكتب والمجلات
٥٠٧	- خريطة المغرب
٥٠٩	- خريطة الأندلس
٥١١	- خريطة صقلية
٥١٣	- فهرس موضوعات الكتاب

رقم الإيداع: ١١٦٥٦ / ٢٠٠٤

LS.B.N. 977 - 01 - 9115 - 9

طبعة خاصة
تصدرها دار الرشاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة